الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي

من تاريخ الاستشراق ودراسات الاستعراب العلمي في روسيا

الطبعة الأولى

1443 هـ – 2022 م

ISBN 978-9933-567-81-1

الناشر



مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث

الدوحة – دولة قطر

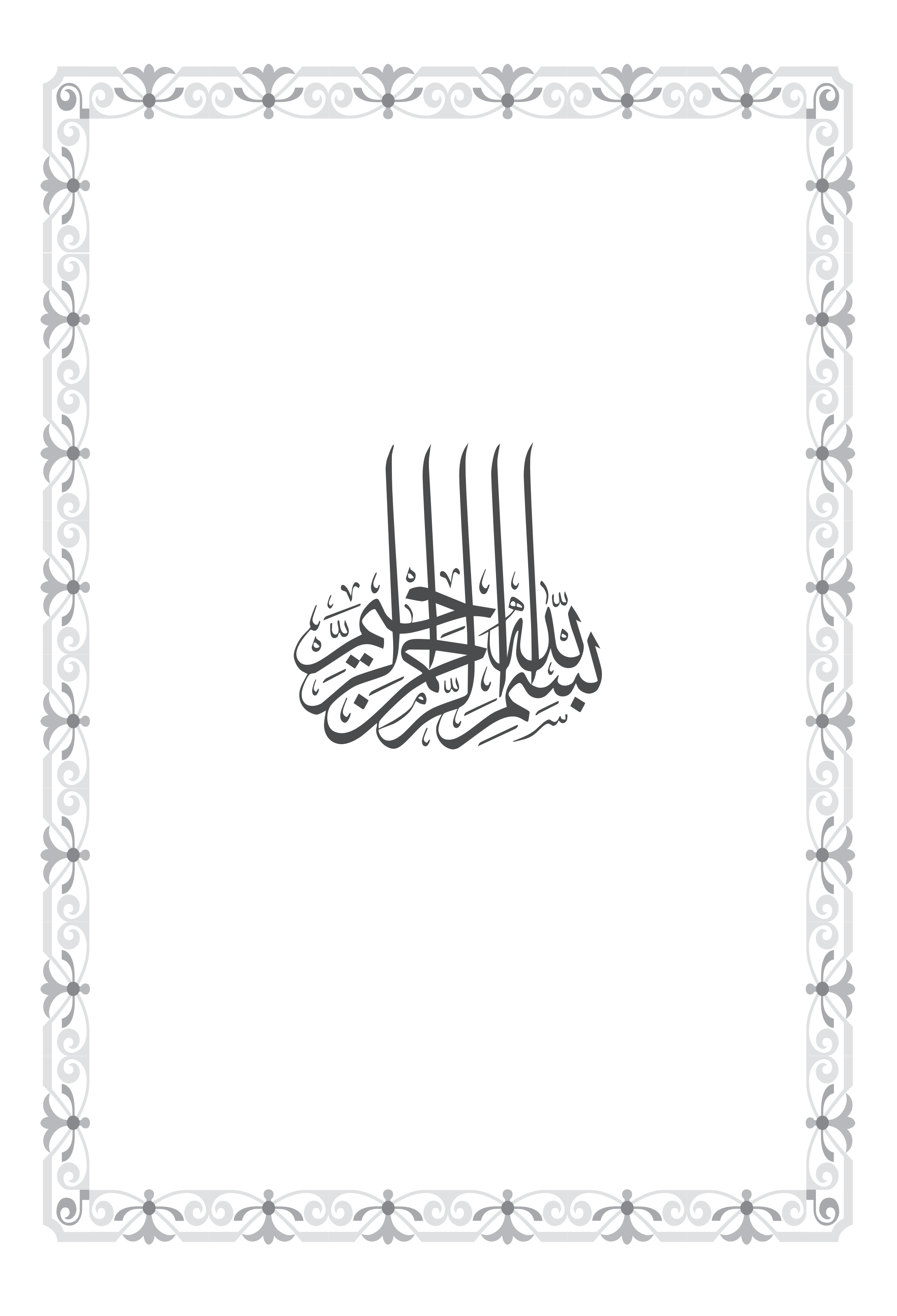
www.wa3efoundation.net

الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي

من تاريخ الاستشراق ودراسات الاستعراب العلمي في روسيا

تأليف
أ.د. محمود حمو الحمزة

مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث


بسم الله الرحمن الرحيم

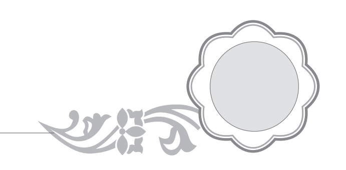
الإهداء



- إلى أحرار وحرائر سوريا الذين فجروا أعظم ثورة في التاريخ المعاصر.
- إلى أرواح شهداء الحرية والكرامة.
- إلى كل من ينشد الحق والعدالة واحترام حقوق الإنسان في العالم.

محمود الحمزة

موسكو ـ ٢٠٢٢



نبذة عن المؤلف

الأستاذ الدكتور محمود حمو الحمزة، من مواليد الحسكة في سوريا (١٩٥٤)، حصل على الماجستير من جامعة الصداقة الروسية في موسكو عام (١٩٨٠)، كلية الرياضيات والفيزياء، وكانت أطروحته حول «نظريات النقطة الثابتة». ثم حصل على درجة الدكتوراه من الجامعة ذاتها، وكان عنوان الأطروحة «مبدأ بنترياغن في القيمة العظمى وشروط الترانسفرسال (الاستعراض) في الفضاءات لانهائية الأبعاد».

عمل الأستاذ الحمزة بعد ذلك كبير الباحثين في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية ٢٠٠٢ ـ ٢٠١٦.

للأستاذ الحمزة المؤلفات الآتية:

١ ـ التحليل الرياضي ـ من منشورات أكاديمية الهندسة العسكرية ـ حلب ـ (بالاشتراك مع د. عباس عباس) ـ ١٩٨٦.

٢ ـ حساب التفاضل للدوال في متغير حقيقي واحد ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ودار الكتب العلمية ـ تعز ـ ٢٠٠٠.

٣ ـ مدخل إلى التفاضل والتكامل المتقدم ـ دار الكتب العلمية ـ تعز ـ اليمن ـ ٢٠٠١.

٤ ـ التحليل المركب ـ تأليف ج. باليوراس من معهد روتشيستر للتكنولوجيا ـ منشورات اليرموك للنشر والتوزيع ـ تعز ـ اليمن ـ ٢٠٠١ (ترجمه محمود الحمزة من الإنجليزية إلى العربية).

٥ ـ مقدمة في التحليل الحقيقي ـ منشورات اليرموك للنشر والتوزيع ـ تعز ـ اليمن ـ ٢٠٠٢.

٦ ـ معجم مصطلحات الرياضيات ـ (إنجليزي ـ عربي) ـ ٩ آلاف مصطلح رياضي. ٢٠٠٢.

٧ ـ قاموس المصطلحات الأساسية في الرياضيات ـ (روسي ـ عربي) ـ حلب ـ ٢٠٠٠.

٨ ـ موجز في تاريخ الرياضيات (التطور الفكري والفلسفي). تعز ـ اليمن ـ ٢٠٠٢.

كما للأستاذ الحمزة الأبحاث العلمية الآتية:

9. Theorem on differentiability of ordinary differential equation solutions relatively to initial condition - in "Differential Equations and Functional Analysis" (collection of scientific articles) P.98 140 (1984) published by People's Friendship University Press, Moscow, Russia.

10. Necessary conditions of optimality of control in infinite - dimensional spaces. Moscow, 1985 preprint published by Institute of technical and scientific information's. No: 648 - 85, (18p.)

11. "The Problem of Optimal Control in Infinite Dimensional Spaces" - published in the journal of Sciences, (Altahaddi University, Libya) No. 1 (1992).

12. "Photovoltaic transform of solar energy - new developments in the techniques" based on the talk given at "The 27th Week of Science" in Damascus, 1987 (was given an estimation certificate) (With Dr. Soulayman S.) - published by the Supreme Council of Science of the Government of Syria.

13. "Theoretical and experimental study of two channel solar air heater with perforated first absorber plate" - published in the Proceedings of the International Conference on Applied Optics and Solar Energy ", 2 - 6 oct. 1989, Prague, Chech Republic (-with Dr. S. Soulayman).

14. "Study of the Cauchy problem for linear and nonlinear differential equations in infinite - dimensional functional spaces" (with Dr. Tawfik Zarour), (published in Taiz University Research Journal for Applied Science).

١٥ ـ حول مخطوطة الكرجي «المحيط في الحساب». المؤتمر السنوي ١٢ لتاريخ العلوم عند العرب. معهد التراث العلمي العربي ـ جامعة حلب. ابريل ١٩٨٨.

١٦ ـ ترجمة المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية. مؤتمر قضايا تعليم العلوم الأساسية. كلية العلوم. مصراتة. ليبيا. ١٩٩١.

١٧ ـ أفكار تربوية لتعليم الرياضيات. مؤتمر قضايا تعليم العلوم الأساسية. كلية العلوم. مصراتة. ليبيا. ١٩٩١.

١٨ ـ تعريب مصطلحات الرياضيات. مؤتمر التعريب في العالم العربي. جامعة عدن. اليمن. أكتوبر ٢٠٠٢.

١٩ ـ من تاريخ دراسة العلوم العربية في روسيا. موضوعات للمؤتمر السنوي لمعهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية. نشر في أعمال المؤتمر ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩. (٢٢ ـ ٢٤ ابريل ٢٠٠٣). موسكو.

٢٠ ـ تدريس الرياضيات في الجامعات العربية. المؤتمر الدولي الثاني حول الفضاءات الدالية والمؤثر التفاضلي وقضايا تعليم الرياضيات. موسكو. روسيا. (مارس ٢٠٠٣).

٢١ ـ حول تاريخ دراسة مخطوطة ابن البناء المراكشي. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. (موسكو. ٢٠٠٣). العدد ٨ (٤٣) ص٣٠٣ ـ ٣١٧.



٢٢ ـ حول إيجاد مجاميع المتسلسلات العددية في مخطوطة يعيش الأموي الأندلسي «مراسم الإنتساب في معالم الحساب». بحث قدم في المؤتمر العلمي السنوي لمعهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا (معهد فافيلوف) التابع لأكاديمية العلوم الروسية في موسكو. (٢٢ ـ ٢٤ أبريل ـ نيسان ٢٠٠٤).

٢٣ ـ حول مخطوطة ابن البناء المراكشي «تلخيص أعمال الحساب». الندوة الدولية الثامنة في تاريخ العلوم «ساحات مجهولة في تاريخ العلوم العربية». (٢٨ ـ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٤). الإسكندرية. مصر.

٢٤ ـ ابن غازي الفاسي المكناسي ـ «بغية الطلاب في شرح منية الحساب». بحث قدم في المؤتمر العلمي السنوي لمعهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا (معهد فافيلوف) التابع لأكاديمية العلوم الروسية في موسكو. (٢٢ ـ ٢٤ أبريل ـ نيسان ٢٠٠٥).

٢٥ ـ من تاريخ دراسة العلوم العربية في روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقاً. بحث ألقي في مؤتمر تاريخ العلوم السادس والعشرين لمعهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب. (١٠ ـ ١٤ أبريل ٢٠٠٥).

٢٦ ـ ابن البناء المراكشي ومخطوطته: تلخيص أعمال الحساب. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. (٢٠٠٥). العدد ٩ (٤٤) ص٣٣٠ ـ ٣٤٧.

٢٧ ـ مخطوطة تلخيص أعمال الحساب لابن البناء المراكشي. ترجمة إلى الروسية ودراسة تاريخية ورياضية. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. (٢٠٠٥). العدد ٩ (٤٤). ص ٣٤٧ ـ ٣٧٥.

٢٨ ـ حول مخطوطة ابن غازي الفاسي المكناسي «بغية الطلاب في شرح منية الحساب». المؤتمر السنوي في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. (ابريل ٢٠٠٥). موسكو.

٢٩ ـ حول الرياضيات في المغرب العربي والأندلس في القرون الوسطى. في المؤتمر الدولي «التعليم المعاصر للرياضيات وقضايا تاريخ وطرق تدريس الرياضيات. تامبوف. روسيا. (سبتمبر ٢٠٠٦).



٣٠ ــ ابن الهائم ومخطوطته «اللامع في علم الحساب». المؤتمر السنوي في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. (ابريل ٢٠٠٦). موسكو.

٣١ ــ رسالة ابن البغدادي «المقادير المشتركة والمتباينة». بحث ألقي في مؤتمر المخطوطات الشارحة. مكتبة الاسكندرية. (٧ ــ ٩ مارس ٢٠٠٦).

٣٢ ــ حول مخطوطة الحصّار في الحساب. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. العدد ١١ (٤٦). ص١٩٦ ــ ٢١٦. (٢٠٠٦).

٣٣ ــ دور الترجمة والاستعراب في التواصل الحضاري بين العرب والروس. المؤتمر السنوي الرابع لمركز المخطوطات. المخطوطات المترجمة. مكتبة الإسكندرية (٢٩ ــ ٣١ مايو ٢٠٠٧). مصر.

٣٤ ــ حول مخطوطة القلصادي «كشف الأسرار عن علم حروف الغبار». مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا في موسكو. العدد ١٢(٤٧). (٢٠٠٧). ص٢١٥ ــ ٢٣٧.

٣٥ ــ الرياضيات في المغرب العربي في موسوعة قدري حافظ طوقان «تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك». المؤتمر السنوي في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. (ابريل ٢٠٠٧). موسكو.

٣٦ ــ دور الترجمة والدراسات العربية في التفاعل الثقافي بين العرب والروس. المؤتمر الرابع لتاريخ العلوم عند العرب «المخطوطات المترجمة». (٢٩ مايو ــ ١ يونيو ٢٠٠٧). الإسكندرية. مصر.

٣٧ ــ يوشكيفيتش أ. أول مؤرخ روسي للرياضيات العربية في روسيا. المؤتمر الــ ٢٨ لتاريخ العلوم عند العرب. (٢٥ ــ ٢٧ يونيو. ٢٠٠٧). جامعة حلب. معهد التراث العلمي العربي. حلب. سوريا.

٣٨ ــ بعض خصائص الرياضيات في المغرب العربي (القرون: ١٠ ــ ١٥م). المؤتمر الدولي الثالث حول الفضاءات الدالية والمؤثر التفاضلي وقضايا تعليم الرياضيات. موسكو. روسيا. (مارس ٢٠٠٨).

٣٩ ــ حول بعض مخطوطات الرياضيات في المغرب العربي في مكتبات



سان بطرسبورغ. المؤتمر السنوي الثلاثين للمستعربين في سان بطرسبورغ. (٢٨ ــ ٣٠ ابريل ٢٠٠٨). سان بطرسبورغ. روسيا.

٤٠ ــ طريقة حساب الخطأين في رياضيات المغرب والاندلس. الندوة الدولية لتاريخ العلوم عند العرب. (٢٣ ــ ٢٤ ابريل ٢٠٠٨). حلب. سوريا.

٤١ ــ ترجمة ودراسة لمخطوطة القلصادي «كشف الأسرار عن علم حروف الغبار». مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. ١٣ (٤٨) (٢٠٠٨). موسكو.

٤٢ ــ الرياضيات العربية في القرون الوسطى والشعر. المؤتمر العلمي والتعليمي «العلوم في الجامعات: قضايا الرياضيات والفيزياء وعلوم الحاسب. قضايا التعليم العالي والثانوي. موسكو. جامعة الصداقة بين الشعوب. (٢٣ ــ ٢٧ مارس ٢٠٠٩).

٤٣ ــ إسهام المستعرب بوريس روزينفيلد في تاريخ الرياضيات العربية. المؤتمر الــ ٢٩ لتاريخ العلوم عند العرب في جامعة حلب. معهد التراث العلمي العربي. (٣ ــ ٥ نوفمبر ٢٠٠٩). حلب سوريا.

٤٤ ــ أرجوزة ابن الياسمين حول الجبر والمقابلة. قراءات بذكرى كولموغوروف (٧). (١٩ ــ ٢٢ مايو ٢٠٠٩). جامعة ياروسلافل. ياروسلافل. روسيا.

٤٥ ــ حول دراسة المخطوطات الرياضية العربية والإسلامية في روسيا. المؤتمر الدولي: تاريخ العلم في الإسلام. (٢٤ ــ ٢٦ فبراير ٢٠١٠). الرابطة المحمدية للعلماء. الرباط. المغرب.

٤٦ ــ الجوانب الفلسفية في المخطوطة الرياضية لابن البناء المراكشي «رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب» قراءات كولموغورف الدولية (٨). (١٧ ــ ٢٠ مايو ٢٠١٠). جامعة ياروسلافل. ياروسلافل. روسيا.

٤٧ ــ الموسوعات الروسية في تاريخ العلوم العربية. المؤتمر العلمي الدولي السابع: تاريخ العلوم في الحضارة العربية والإسلامية. (٢٤ ــ ٢٧ نوفمبر ٢٠١٠). جامعة فيلادلفيا. عمان. الأردن.

٤٨ ـ قاعدة الخطاين وتطورها التاريخي من الصين إلى الأندلس. المؤتمر العلمي السنوي الثلاثين في تاريخ العلوم عند العرب. (٥ ـ ٧ ديسمبر ٢٠١٠). جامعة حلب. معهد التراث العلمي العربي. سوريا.

٤٩ ـ من تاريخ دراسة العلوم العربية والإسلامية في روسيا. طاجكستان. نوفمبر ٢٠١٠.

٥٠ ـ ترجمة الأعمال الرياضية والفلكية لعلماء القرون ٨ ـ ١٤ للميلاد. ودورهم في تاريخ العلوم. المؤتمر السنوي الـ ١٦ في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. (٩ ـ ١١ نوفمبر ٢٠١٠). موسكو.

٥١ ـ من تاريخ العلوم العربية في روسيا. الندوة الثانية للعلاقات الروسية العربية: الواقع والآفاق. نظمها مركز الجزيرة للدراسات بالتعاون مع معهد الدراسات الشرقية في موسكو. (٨ يونيو ٢٠١٠).

٥٢ ـ كنوز التراث العربي والإسلامي في مكتبات جمهوريات الاتحاد السوفيتي سابقاً. مجلة آفاق الثقافة والتراث. أبو ظبي. الإمارات. المجلد ١٩ العدد ٧٣. (مارس ٢٠١١).

٥٣ ـ تعليق على موضوع «العلم في الإسلام» من كتاب الباحث السوسيولوجي الأمريكي توبي هوف «فجر العلم الحديث: الإسلام والصين والغرب». المؤتمر العلمي السنوي لمعهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. (٢٠١١). موسكو.

٥٤ ـ أسباب تدهور العلم العربي. قراءات كولموغوروف الدولية (٩). (١٧ ـ ٢٠ مايو ٢٠١١). جامعة ياروسلافل. ياروسلافل. روسيا.

٥٥ ـ حول قاعدة الفرضين الخطأين وتاريخها. معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. (٢٠١٢). موسكو.

٥٦ ـ أفكار حول مستقبل العلم والتكنولوجيا في سورية الجديدة. المؤتمر العلمي السوري: بناة المستقبل. (١٢ ـ ١٤ أكتوبر ٢٠١٢). القاهرة. مصر.

٥٧ ـ اليوم التالي في سوريا. ورشة عمل من خبراء سوريين ودوليين. (مارس ـ يوليو ٢٠١٢). برلين. ألمانيا.



٥٨ ـ تأثير الحضارة العربية في التعليم الجامعي في أوروبا. (٢٠١٢).

٥٩ ـ الرياضيات في المغرب العربي والأندلس والتقاليد الخوارزمية. المؤتمر العلمي الدولي في سمرقند. (١٥ ـ ١٦ مايو ٢٠١٤).

٦٠ ـ التفكير الرياضي نموذج للمعرفة العلمية. الندوة السنوية العلمية الدولية التي تقيمها الرابطة المحمدية للعلماء حول موضوع: «نظرية المعرفة والسياق الكوني المعاصر: التكييفات المرجعية والمستلزمات العملية». (٩ يونيو ٢٠١٥). الرباط.

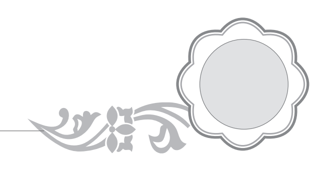
٦١ ـ لماذا يتم تجاهل الدور الموضوعي للمستعربين السوفييت والروس. المؤتمر العلمي الـ ٢١. (٣٠ مارس ـ ٣ ابريل ٢٠١٥).

٦٢ ـ الرياضيات في الحضارة العربية الإسلامية. المؤتمر الأول للأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم: «العلم في الحضارات والثقافات المختلفة». (١٢ ـ ١٥ سبتمبر. ٢٠١٩). أثينا. اليونان.

٦٣ ـ الندوة العلمية الروسية ـ الكازاخية الدولية الثالثة: «الجامعة الرقمية: العولمة الدولية للتعليم». «تاريخ الرياضيات والتعليم المعاصر. مثال الرياضيات العربية في القرون الوسطى». (١٧ يناير ٢٠٢٠). موسكو.

٦٤ ـ الفارابي ـ الفيلسوف وعالم الرياضيات الموسوعي، الابن البار للشعب الكازاخي. المؤتمر العلمي الدولي التاسع حول «النمذجة الرياضية والتكنولوجيا الرقمية في التعليم والعلم». الجامعة التربوية الوطنية في كازاخستان باسم عبايا، (١ ـ ٣ أكتوبر ٢٠٢٠). كازاخستان ـ ألما آتا.





المُقدِّمَة

بدأت الصلات بين روسيا والعالم الإسلامي زمن الدولة العباسية[1]، حيث تبادلت الدولة الإسلامية السفارات مع روسيا، ولمّا ضمّت روسيا إليها بعض المناطق الإسلامية ازداد الاهتمام بالإسلام والعالم الإسلامي. وقد أفادت روسيا من الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا خصوصاً في فرنسا، حيث أوفدت روسيا بعض الباحثين للدراسة في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس. وقد شجعت الحكومات الروسية في العهود المختلفة دراسة التراث العربي الإسلامي خصوصاً ذلك الذي يتعلق بالأقاليم الإسلامية الواقعة تحت سيطرة روسيا، وذلك لتوسيع المعرفة بالشعوب الإسلامية. وكانت المصادر الثقافية العربية تشكل ركناً أساسياً من مصادر معرفة شعوب القوقاز وآسيا الوسطى، هذه المعرفة التي انعكست بشكل إيجابي لمصلحة روسيا كما يعترف بذلك المستشرقون أنفسهم. وقد ذهب الأمر ببعض هؤلاء إلى اعتبار التراث الشرقي الإسلامي جزءاً من تراثهم. يقول أحد المستشرقين الروس: نحن الروس، وجميع الذين في الساحة الروسية القيصرية السابقة، شرقيون بروحيتنا، وجزء من أراضينا موجود في آسيا، وثلثا حدودنا مع دول آسيوية مثل تركيا والصين.

وفي عام (١٧١٦) أمر الإمبراطور بطرس الأول بترجمة القرآن إلى اللغة الروسية في بطرسبورغ من قبل بطرس بوسنيكوف، الذي أنجز أول ترجمة للقرآن إلى الروسية من نسخة فرنسية وضعها في (١٦٤٧) الفرنسي أندريه دي

---

(١) د. ليخاتشوف. **الإرث العظيم**. موسكو. ١٩٧٥. ص٥٨.

ريير (Andre du Ryer، توفي ١٦٧٢). ثم صدرت أول ترجمة روسية لكتاب **ألف ليلة وليلة**، وكان لإنشاء كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الروسية أثره في نشأة وتطور المدرسة الاستشراقية، فاستحدثت جامعة خاركوف في العام (١٨٠٤) كرسياً لتدريس اللغات الشرقية، وبدأت جامعة قازان في العام (١٨١١) بتدريس الألسنية العربية.

لقد كان للاستعراب الروسي منذ البداية مدرستان متمايزتان[(١)]، ارتبطت إحداهما بوزارة الخارجية الروسية، وقد أسهمت هذه المدرسة في خدمة القرار السياسي والمصالح الروسية الخارجية، إذ برز في ذلك الوقت اتجاه للدراسات الشرقية لأغراض سياسية، يحركها التعصب الديني. ولكن في الوقت نفسه كان هناك حركات تقف ضد هذه التيارات المتعصبة وضد الدراسات الشرقية الكنيسية غير المستندة إلى وقائع تاريخية ثابتة.

أما المدرسة الثانية فقد اعتمدت الطابع المعرفي العلمي البحت، وحرص المستعربون فيها على استقلالية عملها. هذه المدرسة نشأت وما زالت في بطرسبورغ، حيث بذلت جهود كبيرة من قبل العلماء في بطرسبورغ لتحقيق درجة من الاستقلال المهني، ونشر الدراسات بعيداً عن التوجه السياسي. وتمت الاستعانة بعلماء من الغرب، كما كان الشأن بالنسبة إلى المجالات الأخرى المختلفة. عندما بدأ القيصر بطرس الأول الإصلاحات في السياسة والعلوم والجيش ومختلف أوجه الحياة في روسيا، استعان بالخبرات الأوروبية من فرنسا وألمانيا وإنكلترا وهولندا، ولكن «الاستعراب»[(٢)] الروسي ما لبث أن أخذ بتكوين نفسه معتمداً على المصادر

---

(١) إغناطيوس كراتشكوفسكي ـ **نبذات من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠.

(٢) مصطلح الاستعراب (Arabistika)؛ كما يقول كراتشكوفسكي في مقدمة كتابه نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي [١]، الذي صدر عام ١٩٤٩، بالمعنى الواسع للكلمة، هو مجموعة المناهج والمقررات التاريخية واللغوية المستندة إلى دراسة المواد العربية. ويرتبط به مسائل تعليم تلك المواد والترجمات والنشاطات العلمية =



الشرقية الإسلامية مباشرة، بداية من خلال التبادل الثقافي الذي جرى والمعايشة المباشرة للموظفين والعسكريين الروس في مناطق الفولغا والبحر الأسود والقوقاز وآسيا الوسطى. أما في شمال القوقاز فقد عاشت اللغة العربية حياة كاملة ليس في الكتابة فحسب، بل وفي الحديث أيضاً.

ويذكر أغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥١) في كتابه **نبذات من تاريخ الاستعراب الروسي**(١) أن التقاليد العلمية في مجال الاستعراب الروسي تبلورت في بداية القرن التاسع عشر. أما قبل ذلك فجرى تراكم للمعلومات العملية المتعلقة باللغة العربية والبلدان العربية. وكانت هناك بوادر للتعرف على الثقافة العربية في روسيا الكييفية (نسبة لمدينة كييف ـ عاصمة أوكرانيا المعاصرة) وروسيا الموسكوفية (نسبة إلى موسكو) [١].

ظهرت المعلومات عن العرب في روسيا بوقت مبكر نسبياً، وجرى ذلك عبر التواصل المباشر أو المصادر الشرقية والغربية. وشملت المعلومات القادمة عن العرب المجال اللغوي أو التاريخي والثقافي أو الإسلامي أو الأدبي. وكان الحج إلى بيت المقدس في فلسطين أهم مصادر المعلومات. وهناك رحلة أحمد بن فضلان (٨٧٧ ـ ٩٦٠) إلى إمارة البُلغار على ضفاف الفولغا في بداية القرن

= والتوعوية. ويشير كراتشكوفسكي إلى أن مصطلح الاستعراب كان يعني في الفترات الماضية تجميع معلومات عن البلدان العربية والثقافة العربية أكثر منه مجالاً علمياً متكاملاً. واعتقد أن مصطلح الاستعراب درج استخدامه في روسيا وخاصة من قبل كراتشكوفسكي ليميز مدرسة الاستشراق الروسية عن مثيلاتها الأوروبية التي حافظت على استخدام مصطلح الاستشراق، وقد يعود السبب في أن كراتشكوفسكي نفسه كان مستعرباً بامتياز، وربما أيضاً لأن روسيا هي دولة شرقية مثلما هي أوروبية، وبالتالي فمصطلح الاستشراق في روسيا يحتمل أكثر من مقاربة. وبالطبع فإن الاستعراب هو جزء من الاستشراق لأنه يخص كل ما يتعلق باللغة والثقافة والتاريخ والعلوم العربية.

(١) إغناطيوس كراتشكوفسكي ـ **نبذات من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠

العاشر الميلادي، واشتهر في بداية القرن ١٢ في كييف الطبيب «بطرس السرياني» الذي مثّل المدرسة الطبية السريانية ـ العربية المكتوبة باللغتين العربية والسريانية. ويعتقد كراتشكوفسكي أن كلمات عربية دخلت اللغة الروسية مثل «مثقال» و«ألماز»، وقد تكون بعض الكلمات العربية قد انتقلت إلى روسيا بفضل التتار في القرن (١٣م)، وكذلك بفضل القازانيين والبخاريين (نسبة لمدينتي قازان وبخارى) خلال عملياتهم التجارية. وكلمة «أرباط» (اسم شارع رئيسي في موسكو) تعني مكان ربط الخيل. وهناك كلمة «رافل ـ Рафл» الروسية وهي التبصير على الرمل، ويبدو أنها مشتقة من كلمة «رمل» العربية. ووصلت كلمات عربية عن طريق تتار القرم من خلال علاقاتهم القوية مع تركيا.

ومع بداية القرن (١٧) للميلاد تدفقت الكلمات العربية إلى اللغة الروسية عبر القنوات الغربية واللغات الأوروبية وخاصة عبر إسبانيا والبرتغال. وكانت الكلمات متنوعة منها ما هو مصطلح علمي ومنها كلمات تتعلق بالحياة اليومية والمعيشية، واستمرت حتى اليوم عملية إغناء اللغة الروسية بكلمات عربية من قبل المستشرقين والأدباء والرحالة[(١)].

وهناك كلمات انتقلت إلى اللغة الروسية من اللغة الفرنسية وكانت مشوهة عن أصولها العربية لكن اللغة الروسية عرفت تلك المصطلحات قبل ذلك وبصورة أقرب للأصل العربي مثل اسم الرسول ﷺ بالفرنسية «ماغاميت» بينما بالروسية «محميد» أو «محمد».

وقد اكتسبت المكتبة الروسية روائع أدبية ترجمت عن العربية من أصول هندية مثل قصة «كليلة ودمنة». ونقلت إلى اللغة الروسية قصة «حكمة أحيقار» الآشورية التي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، وموطن القصة هو بلاد ما بين النهرين، ثم ترجمت في القرون (٩ ـ ١٢م) من اللغة السريانية بدون

---

(١) إغناطيوس كراتشكوفسكي ـ **نبذات من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠



وساطة اللغة اليونانية. كما انتقلت أعمال أدبية من لغات أوروبية اقتبست من الترجمات العربية.

ولا يعرف الروس العاديون قصص المثقفين العرب الذين زاروا روسيا وكان لهم باع طويل في تطور روسيا. فمثلا بقيت شبه مجهولة الأشعار التي كتبت بمناسبة زيارة بطريرك أنطاكيا السوري يواكيم الذي زار روسيا عام (١٥٨٦) في عهد القيصر فيودور إيفانوفيتش (يوانوفيتش ـ يوحنا) بمناسبة بناء بطريركية في روسيا. ونفس الشيء يقال عن رحلة البطريرك ماكاريوس في منتصف القرن السابع عشر في عهد القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش، والتي لم يتعرف عليها الروس إلا في القرن التاسع عشر، حيث كانت قصة الرحلة مكتوبة بالعربية من قبل بطرس الحلبي ابن البطريرك ومرافقه في تلك الرحلة، ثم ترجمها الأديب السوري الذي كان يدرّس اللغة العربية في الجامعات الروسية جرجس مرقص. واستطاع الروس رؤية توقيع البطريرك باللغة العربية في شهادة التقدير التي منحت لفرقة الانشاد الديني في روسيا (١٦٦٦ ـ ١٦٦٧).

وقد لعبت الشعوب المسلمة ـ مثل تتر الفولغا وأهل بخارى في آسيا الوسطى، وشعوب شمال القوقاز ـ دوراً مهماً في الحفاظ على استخدام اللغة العربية واستمرارها في روسيا. فقد كانت بالنسبة لهم كاللغة اللاتينية في أوروبا. وكانت العلاقات بين روسيا الأوروبية وبين الشرق الإسلامي القريب ضعيفة جداً ولم تكن هناك معرفة بالآخر.

مرّ الاستعراب الروسي بمراحل متعددة امتدت من فترة ما قبل الثورة البلشفية إلى مرحلة متقدمة في تاريخه. وساهم فيه رجالات عدة من داخل روسيا والاتحاد السوفياتي، ولاحقاً من خارجها. وهذا يعني أن الاستعراب الروسي كان في بدايته ما يزال يعتمد على الخبرات الأجنبية القادمة من أوروبا الغربية. لكنه ما لبث أن تجاوز ذلك إلى خبرات محلية وشرقية.

في عهد الإمبراطور بطرس الأول بدأت مرحلة جدية في التأسيس العلمي للاستعراب، من خلال الاهتمام بإعداد الكادر المؤهل الذي يتقن اللغات



الشرقية، وارسال الطلبة إلى بلاد فارس وتركيا لتعلم اللغة الفارسية والتركية. ولم يكن بينها اللغة العربية. وعندما قام الإمبراطور بطرس عام (١٧٢٢) بجولة على شاطئ نهر الفولغا، وزار بقايا آثار إمارة البُلغار الإسلامية، طلب ترجمة (٥٠) عبارة كتبت على شواهد القبور العربية والتترية والأرمنية. أنجز الترجمة آهون قادرماميد سيونتشالييف، ويوسوب إيجبولاتوف والأرمني إيفان فاسيليف. ولم تعد تلك الآثار موجودة، لكن الكتابات المترجمة إلى الروسية نشرت في سبعينيات القرن الثامن عشر. ووجدت عشرون كتابة عربية مؤرخة في الفترة من (١٢٧١ ـ ١٣٤٢)، حاولوا ترجمتها من جديد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد أشرف ديميتري كانتيمير[١]، وهو خبير في الفلسفة الشرقية القروسطية، ومن أصل مولدافي (١٦٧٣ ـ ١٧٢٣)، ومقرب من الإمبراطور بطرس وهو أب لكاتب ساخر روسي معروف. وكان كانتيمير مرافقاً للإمبراطور في رحلته، لذلك بادر بتأسيس أول مطبعة بحروف عربية. وقد ألف كانتيمير كتاباً عن الإسلام باللغة اللاتينية تمت ترجمته لاحقاً إلى الروسية. وفي هذه المطبعة على ضفاف الفولغا تم طباعة أول بيان للإمبراطور باللغة العثمانية (بحروفها العربية) بتاريخ (١٥ تموز/يوليو ١٧٢٢م). وكانت هذه أول مرة في روسيا تطبع حروف عربية، ولم تتكرر التجربة إلا بعد (٥٠) سنة.

ويرى كراتشكوفسكي[٢] أن اهتمام الإمبراطور بطرس بالإسلام لم يكن محض صدفة، بل ارتبط بالخطط السياسية والحروب الطويلة مع الأتراك. فقد

---

(١) قدم ديميتري كانتيمير، وهو صديق ومستشار الإمبراطور بطرس الأول وهو رجل دولة بارز، مساهمة ملموسة في الثقافة العالمية ككاتب ومؤرخ وفيلسوف وشرقي. وهو عضو في أكاديمية برلين منذ عام ١٧١٤، وهو يمثل في كتاباته الانتقال من التفكير في القرون الوسطى المدرسية إلى الأشكال العقلانية الحديثة. وعمل فترة في اسطنبول بصفة دبلوماسي وكان من بين أصدقائه ممثلون للعلوم، وكان أشهرهم العالم التركي الشهير سعدي أفندي.

(٢) إغناطيوس كراتشكوفسكي ـ **نبذات من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠

سبق وأن أمر الإمبراطور عام (١٧١٦) بترجمة القرآن إلى اللغة الروسية في بطرسبورغ، واعتقدوا لفترة أن المترجم هو كانتيمير نفسه، ثم اتضح في ستينيات القرن التاسع عشر أن بطرس بوسنيكوف هو من أنجز أول ترجمة للقرآن في روسيا. ولم تكن الترجمة ناجحة، والدليل هو عنوانها غير الموفق «**القرآن عن محمد أو القانون التركي**». وشهدت فترة حكم الإمبراطورة كاتيرينا الثانية موجة من الترجمات إلى الروسية لمؤلفات وقصص عربية من لغات أوروبية مثل «ألف ليلة وليلة» وقصص أدبية أخرى.

ومنذ بدايات القرن التاسع عشر بدأت تتبلور قاعدة واضحة لمدرسة الاستعراب في روسيا، التي تأسست على يد كراتشكوفسكي، وتزامنت بنشاطات أكاديمية كبيرة مثل جمع المصادر وتصنيفها في المكتبات، وكانت مدينة بطرسبورغ مركزاً أساسياً لتلك النشاطات بعد مدينة قازان. وهناك المئات من المستعربين المعروفين الذين قدَّموا خدمات جليلة للثقافة العربية، لأنهم ترجموا ودرسوا ونشروا الثقافة العربية في المجتمع الروسي، وتعاملوا معها بكل الحب والاحترام والموضوعية.

كما لعب دوراً هاماً في التواصل الثقافي العربي ـ الروسي اهتمام روسيا الأرثوذكسية بمهد المسيحية بلاد الشام وخاصة فلسطين وسوريا، حيث قامت روسيا القيصرية بفتح مدارس دينية للعرب باللغة الروسية في لبنان وفلسطين وسوريا. ومن الذين تعلموا في هذه المدارس الكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة والمستعربة الفلسطينية كلثوم عودة ـ فاسيليفا.

وقد انتشرت الثقافة العربية والإسلامية في روسيا بفضل العلماء العرب، الذين قدموا إلى روسيا منذ القرن التاسع عشر، ووهبوا أنفسهم لمساعدة الروس في تعلم اللغة العربية وسماع النطق العربي من الناطقين بها، وكان لذلك أثر عظيم كتب عنه كراتشكوفسكي [١]، [٢]، ونذكر منهم الشيخ المصري محمد عياد الطنطاوي(١) (عمل في بطرسبورغ في القرن ١٩م) وأحمد حسين

(١) انظر الفصل الثالث من الكتاب فيه تفاصيل عن حياة هؤلاء العلماء والأدباء.



المكي (من مكة المكرمة عمل في قازان منذ ١٨٥٢م)، والسوريين ميخائيل عطايا وجرجس مرقص (في موسكو في القرن ١٩م)، والفلسطينيين بندلي جوزي وكلثوم عودة ـ فاسيليفا[١] وغيرهم الكثير. ولا ننسى أن المكتبات الكبرى في قازان وبطرسبورغ وموسكو وداغستان وفي طشقند وبخارى وغيرها من المدن الروسية والسوفياتية (سابقاً) تحتوي على مئات الآلاف من المخطوطات العربية المتنوعة ومنها ما هو نادر.

كما حظيت بلدان الشرق باهتمام روسي على مر العصور بسبب القرب الجغرافي، وذلك في المجال الدبلوماسي والعسكري والتجاري. ولعبت دوراً كبيراً في توسيع معارف الروس عن الشرق، ودفعتهم لدراسته بعمق، تلك العلاقات المتنوعة من رحلات التجار والعلاقات السياسية وتبادل السفراء والبعثات وأيضاً بسبب النزاعات العسكرية.

أسَّسَت العلاقات الثقافية القديمة بين العرب والمسلمين من جهة والروس من جهة ثانية لتواصل مستمر توارثته الأجيال من الشعبين العربي والروسي عبر حقب مختلفة من الزمان، وتأثرت هاتان الثقافتان ببعضهما البعض من خلال الرواد من المبدعين الكبار، فالكاتب الروسي مكسيم غوركي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٦) يعلن مفاخراً عن تأثره بالثقافة العربية فيما كتبه عن الأساطير، حيث قال[٢]: «ينبغي أن أعترف شخصياً أن الحكايات كان لها تأثير إيجابي تماماً على نموِّي العقلي حين كنت أسمعها من ثغر جدتي والرواة الريفيين، وقد أذهلني ورفع من تقديري للحكايات وأهميتها حقيقة كونها عملاً منشوراً. لقد قرأت في عمر الثانية عشرة «الأساطير العربية الجديدة... لقد كانت طبعة من طبعات الأقاليم الصادرة في القرن الثامن عشر».

---

(١) تزوجت كلثوم في فلسطين من ضابط روسي وقَدِمت معه إلى روسيا في نهاية القرن التاسع عشر وعملت في موسكو سنوات طويلة في القرن العشرين.

(٢) مكارم الغمري ـ **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي** ـ سلسلة عالم المعرفة ـ ١٩٩١ ـ الكويت.

ليس غوركي وحده من كان مبهوراً بالإبداعات الثقافية العربية و«ألف ليلة وليلة» وحكايات شهرزاد، وإنما كان من قبله الكاتب الروسي صاحب رواية «الحرب والسلام» ليف تولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠)، الذي غرق في عشق الشرق، وبُهِر بالقرآن حيث قرأه جيداً، وتنبه لحياة المجتمع العربي والإسلامي، وأُعجب بالحكايات والأساطير ضمن الطبعات الشعبية، التي كانت تقوم الحكومة بطباعتها للقراء الروس. وكان «تولستوي يكنُّ احتراماً عميقاً للقيم السامية، التي دعا إليها الإسلام، ويشيد بشخصية الرسول العربي»، وكان قد ألف عدداً من الروايات والكتب، التي تعكس تأثره بالثقافة العربية. وذهب نحو ما ذهب إليه تولستوي والأدباء والشعراء الروس المشهورون أمثال ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١)، ونيكولاي غوغول (١٨٠٩ ـ ١٨٥٢)، وكان قدوة هذه الكوكبة المشرقة من كبار المبدعين الروس الشاعر ألكسندر بوشكين (١٧٩٩ ـ ١٨٣٧)، الذي تأثر بلغة القرآن وبلاغته، وتأثر أيضاً بسيرة النبي محمد، كما تأثر بالأدب الشعبي العربي، وكتب متأثراً بالشرق وآدابه وفنونه كتابات شعرية كثيرة.

وقد شكلت العربية ـ باعتبارها لغة القرآن الكريم ـ وسيلة فعالة لنشر الثقافة العربية والإسلامية في مختلف أصقاع الأرض بما فيها روسيا.

وتأتي ضرورة هذا الكتاب للحديث عن المكانة البارزة للثقافة العربية والإسلامية في التاريخ العالمي بعامة، وفي تاريخ العلم بخاصة، والتي أصبحت الآن أمراً معروفاً ومتفقاً عليه. فقد احتل التراث العربي، منذ زمن، مكانة مرموقة في الثقافة العالمية، وأصبح جزءاً أساسياً من الثقافة الإنسانية العامة. كما أدت أبحاث العلماء في كثير من الدول والتي بدأت منذ عدة قرون إلى إلقاء الضوء على دور العلماء العرب والمسلمين في القرون الوسطى (الذين عاشوا وعملوا في مساحة واسعة ممتدة من إسبانيا وشمال أفريقيا حتى الهند) في تطوير فروع كثيرة من العلم: التاريخ، الجغرافيا، الكيمياء، البيولوجيا، الطب، الرياضيات والفيزياء. وكان للعلماء الروس (والسوفيات) نصيباً وفيراً



وإسهاماً متميزاً في دراسة الثقافة والعلم العربيين، بما فيهم المستعربين والمتخصصين في الرياضيات والفيزياء والفلك.

وقد عملتُ في مجال المخطوطات العلمية لأكثر من عشرين سنة وبكل موضوعية، لإبراز الإسهامات العلمية العربية والإسلامية بشكل عام، وركزت اهتمامي على الرياضيات في المغرب العربي والأندلس بشكل خاص، لأن الأخيرة كانت غائبة عن المكتبة العلمية الروسية.

ونميز في تاريخ دراسة العلم العربي في روسيا والاتحاد السوفياتي (سابقاً) جانبين: فمن جهة التسلسل الزمني لهذه الدراسة، ومن جهة أخرى إشكالية الدراسة. وفي نفس الوقت فهما مرتبطتان بشكل قوي مع بعضهما البعض.

تتميز المرحلة الأولى من دراسة العلم العربي في روسيا بالبحوث في مجال الاستعراب بالمعنى الضيق للكلمة: دراسة اللغة والأعمال الأدبية والدينية. واختتمت هذه المرحلة في أواسط القرن (١٩م) بنشوء مدرسة الاستعراب الروسية، والتي حظيت بتقدير عال من المستعربين في العالم بأجمعه. أما دراسة المؤلفات العلمية العربية في الرياضيات والفلك وغيرهما من العلوم الدقيقة، فتعود إلى مرحلة متأخرة نسبياً وقد بلغت مستوى متقدماً من التطور في منتصف القرن العشرين.

أجرى المستعربون الروس بحوثاً دقيقة عبر دراسة أعمال العديد من العلماء العرب والمسلمين مثل الخوارزمي والبيروني وثابت بن قرة وابن سينا وعمرالخيام وعبد الرحمن الخازني ونصير الدين الطوسي وأبي كامل المصري وأبي الوفاء البوزجاني وجمشيد الكاشي وبهاء الدين العاملي وابن عراق وابن البغدادي وغيرهم الكثير. ومن أبرز المستعربين الروس الذين تركوا بصمات في دراسة تاريخ الرياضيات العربية في القرون الوسطى، نذكر أ.يوشكيفيتش وب. روزينفلد وغ. ماتفييفسكايا وم. روجانسكايا وإ. لوتر وغ.د. مامدبيلي وغ.د. جلالوف وم.ي.ميدفوي وبولغاكوف وأحمدوف والدباغ وغيرهم. وقد كان لي شرف العمل مع عدد من هؤلاء العلماء مثل ماتفييفسكايا

وروجانسكايا ولوتر وإنجاز عدد من الأبحاث المنشورة في مجلات علمية مرموقة (انظر المراجع).

ويهدف الكتاب إلى إطّلاع العالَم على الدور الهائل للمستعربين الروس في دراسة التراث العربي والإسلامي في القرون الوسطى. ويعتبر الكتاب رسالة للمهتمين بالتراث والثقافة للتعرف على أشهر المستعربين والباحثين الروس في تاريخ وفلسفة العلوم العربية، والاهتمام بتلك البحوث القيمة التي نشرت بالمئات ولم يصل إلا النادر منها إلى القارئ العربي. كما أنني أحقق رغبتي بنشر بعض أبحاثي العلمية المتعلقة بتاريخ الرياضيات العربية في القرون الوسطى، والتي عملت عليها خلال (٢٠) سنة في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية وأتابعها حتى اليوم.

وأرى أن من واجبنا ـ عرباً ومسلمين ـ أن نمد يد العون والدعم للمستعربين الروس، الذين قَضَوا جلّ حياتهم المهنية مع المخطوطات العربية، سواء بالقيام بترجمتها أو دراستها ونشرها، ولأنهم قالوا كلمة منصفة وعادلة بحق ذلك التراث العلمي والحضاري العظيم، وهؤلاء العلماء يستحقون منا كل الاحترام والتقدير.

❁ ❁ ❁

ويتكون الكتاب من المقدمة وسبعة فصول وخاتمة، وكذلك السيرة الذاتية للمؤلف وقائمة بمؤلفاته وأبحاثه باللغتين العربية والانجليزية وقائمة بالمراجع.

ركز الفصل الأول المكرس للعلاقات الثقافية القديمة بين روسيا والمشرق العربي الإسلامي على: اهتمام الروس بالمشرق العربي في عهد الإمبراطور بطرس الأول، وعن بدايات مدرسة الاستعراب وتشكلها في القرن التاسع عشر، وعن تأثير التراث العربي والإسلامي في الثقافة الروسية، ودور الترجمة في التفاعل الثقافي بين العرب والروس، وكذلك تأثر الأدباء الروس بالثقافة العربية والإسلامية مثل بوشكين وليرمنتوف وتولستوي وبونين وتيخونوف، وتجسد ذلك أيضاً في ترجمات القرآن الكريم إلى الروسية.

كما تضمن هذا الفصل العلاقات الروحية المسيحية بين روسيا والمشرق العربي، فتم عرض لمحة عن تاريخ العلاقات الروحية بين روسيا والمشرق العربي، والاهتمام الثقافي لروسيا القيصرية بالأراضي المقدسة وبلاد الشام، وعن رحلة البطريرك مكاريوس بطريرك أنطاكية ودمشق إلى روسيا وكتابة كراتشكوفسكي عنها. وتضمن هذا الفصل أيضاً معلومات تاريخية مهمة عن دخول الإسلام والمسيحية إلى روسيا، وتطرق إلى موضوع فكري وسياسي حساس بالنسبة للمفكرين والكتاب الروس، وهو الهُوية الروسية بين الشرق والغرب.

وحمل الفصل الثاني عنوان: تاريخ الروس في الأبحاث والمؤلفات العربية. وتناول الحديث عن أصول الروس على ضوء أعمال المؤرخين العرب، وكذلك رسالة أحمد بن فضلان كأقدم مرجع عن تاريخ الروس.

واحتل الفصل الثالث حيزاً كبيراً في هذا الكتاب، وقد كُرِّس لتاريخ الدراسات الاستعرابية في روسيا، وتضمن الاقسام الآتية: مدرسة الاستعراب الروسية في القرون (١٨ و١٩ و٢٠)، وخاصة مرحلة كراتشكوفسكي. واستعرض الفصل سير حياة أشهر المستعربين الروس مثل: كاظم بيك، بيريزين، غيرغاس، روزين، بارتولد، كريمسكي، كراتشكوفسكي، دانتسيغ، غرانده، بيغوليوفسكايا، بيليايف، يوشمانوف، بيلكين، كوفاليوف، دولينينا، فرولوفا، غابوتشيان، ميدفيدكو (وابنه وحفيده)، شيخ سعيدوف، بولشاكوف، بريماكوف، خالدوف، لاندا، بروزوروف، بياتروفسكي، نعومكين، فرولوف، ريزفان،

وتضمن الفصل الثالث السير الذاتية لشخصيات أدبية عربية مؤثِّرة في الاستعراب الروسي مثل: الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وكلثوم عودة ـ فاسيليفا، وبندلي صليبا الجوزي، وميخائيل نعيمة، ومكي أحمد بن حسين المكي، وجرجس إبراهيم مرقص، وعبد الله قلزي، وميخائيل يوسف عطايا، وفضل الله صروف، وأنطوان خشّاب، وسليم نوفل، وتوفيق جبران قزما. كما تم التعريف بالمتحف الآسيوي (الذي أصبح لاحقاً معهد المخطوطات الشرقية في



سان بطرسبورغ) ومعهد لازاريف للغات الشرقية في موسكو (الذي أصبح جزءاً من معهد الدراسات الشرقية في موسكو).

أما الفصل الرابع وعنوانه تاريخ الاستعراب العلمي في روسيا، فقد احتوى على أقسام تتعلق بمدرسة الاستعراب العلمي في روسيا، ومؤسسها يوشكيفيتش، والنتائج الأساسية لمدرسة تاريخ العلوم العربية في روسيا، ودراسة الفلك والطب والفلسفة والميكانيكا العربية، وإسهام المستعربين الروس في دراسة المخطوطات العلمية العربية من خلال دراسات ماتفييفسكايا حول تطور مفهوم العدد وأعمالها الأخرى. واحتوى هذا الفصل على تعريف بالمخطوطات النادرة لابن الهيثم، التي عثر عليها في جامع مدينة كويبشيف الروسية.

كما تم الحديث بالتفصيل عن الموسوعات الروسية المكرسة لتاريخ العلوم العربية في القرون الوسطى. وخاصة المدرسة السوفياتية في تاريخ الرياضيات، وكتاب يوشكيفيتش عن الرياضيات في البلاد الإسلامية، وكتاب ماتفيفسكايا حول تاريخ علماء الرياضيات والفلك في العالم الإسلامي ومؤلفاتهم في القرون الوسطى.

واحتوى الفصل الرابع على السير الذاتية لأشهر مؤرخي الرياضيات العربية في روسيا: يوشكيفيتش، روزنفيلد، ماتفييفسكايا، روجانسكايا.

وقدم الفصل الخامس عرضاً موسعاً لخزائن المخطوطات العربية في مكتبات روسيا والجمهوريات السوفياتية السابقة: في معهد المخطوطات الشرقية فرع سان بطرسبورغ، والمكتبة الوطنية الروسية (سان بطرسبورغ)، والمكتبة العلمية في جامعة سان بطرسبورغ، والمكتبة العلمية لجامعة قازان (مكتبة لوباتشيفسكي)، ومعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان، ومخطوطات العلوم الرياضية والفيزيائية.

وتضمن الفصل السادس لمحة عن تاريخ العلوم العربية في المغرب العربي والأندلس، والتواصل العلمي مع المشرق العربي.

وقد كرس الفصل السابع لموضوع فكري فلسفي يتعلق بمكانة العلم العربي وأسباب تراجعه، وتضمن: أهمية التراث العلمي العربي والإسلامي في



الرياضيات، وتدهور العلم العربي وإمكانية استعادته، وتقدم العلوم في الحضارة العربية الإسلامية، وأهم الإسهامات الرياضية للعلماء العرب بالإضافة إلى كيفية انتقال العلوم العربية وتأثيرها في النهضة الأوروبية. وتم التوقف عند أهم عوامل تدهور العلم العربي وأسباب عدم تحوله إلى العلم الكلاسيكي الحديث.

وأخيراً تناول الفصل أقساماً مثل: النظرة إلى العلم العربي، ووضع التعليم العالي وحرية البحث، وعلاقة العلم بالدين. وكذلك عن التفكير الرياضي ـ كنموذج للمعرفة العلمية، وعن الرياضيات العربية والشعر في القرون الوسطى.





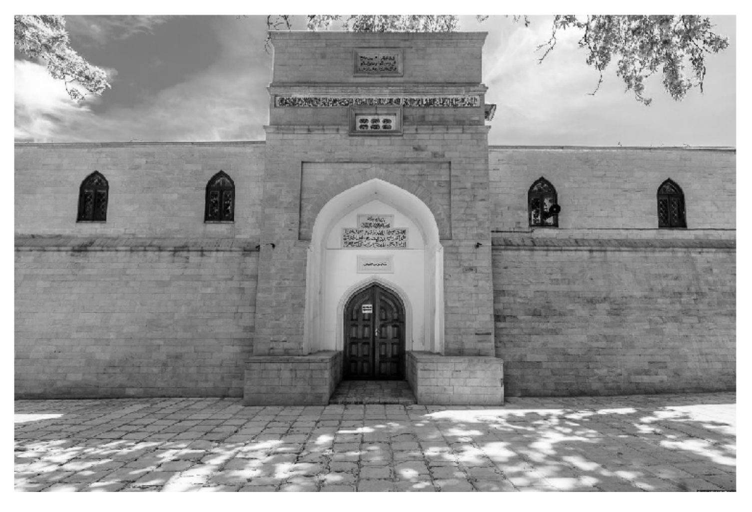
الفصل الأول

العلاقات الثقافية والروحية بين روسيا والعرب في (١٠٠٠) سنة

أولاً: العلاقات الثقافية القديمة بين روسيا والمشرق العربي الإسلامي:

١ ـ اهتمام الروس بالمشرق العربي:

دخل الإسلام إلى روسيا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ـ بداية ق ٧م من خلال مدينة دربند (باب الأبواب) في داغستان. وبدأ اهتمام الروس بتاريخ العرب وثقافتهم من بداية الرحلات التجارية والبعثات الدينية الأرثوذكسية إلى الأماكن المقدسة في فلسطين. فالعلاقات التجارية كانت تتم بين تجار المشرق العربي، وتحديداً تجار بغداد، وتجار شعوب آسيا الوسطى لتمتد إلى السوق الكييفية الروسية.



مسجد في مدينة باب الأبواب (ديربند) في داغستان أول مدينة دخلها الإسلام في داغستان وروسيا



وإن المواد التي تراكمت عبر التاريخ عن العرب وصلت إلى روسيا عبر المصادر التالية[(١)] [٣]:

ـ الانطباعات الشفهية للتجار والمرسلين الأرثوذوكس والحجاج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين والدبلوماسيين والعسكريين الروس والكلمات العربية التي دخلت اللغة الروسية عبرهم، وزيارة العلماء والمسيحيين العرب لروسيا.

ـ الإشعاع الحضاري العربي ـ الإسلامي وبالذات الإسلام الذي اعتنقته شعوب القوقاز وحوض الفولغا وآسيا الوسطى، والذي شكّل قفزة نوعية في وعيها لكافة القضايا الدينية والدنيوية.

ـ المخطوطات العربية من علم وشعر وقصة ونوادر وروايات وفلسفة وغيرها.

ويرى المستشرق الروسي ب. دانتسيغ (١٨٨٦ ـ ١٩٧٣) أن بعض المصطلحات الطبية والكيميائية والفلكية والأدبية ذات الأصل العربي دخلت إلى اللغة الروسية في أواخر القرن الثامن عشر، عن طريق المستشرقين الغربيين والأدباء والسوّاح، وخصوصاً بواسطة الإسبان والبرتغاليين[(٢)]. كما أن زيارات عدد من التجار ورجالات العلم العرب في بداية القرن الثالث عشر، تركت تأثيراً ملحوظاً. منها على سبيل المثال لا الحصر: مكوث الطبيب العربي بطرس السرياني في إمارة كييف الموسكوفية، حيث اشتهر آنذاك بمعالجته لرجالات الإمارة ونشاطه العلمي، الذي أدى إلى دخول العديد من الكلمات العربية التي لها علاقة بالطب والتجارة إلى اللغتين الروسية والأوكرانية القديمتين [١].

ويمكن القول بكل تأكيد بأن السلافيين عرفوا الطريق إلى الشرق الأوسط في القرن السادس والسابع للميلاد، حيث كان هناك تواصل مع البيزنطيين،

---

(١) ب.دانتسيغ ـ **الشرق الأوسط في العلم والآداب الروسية**. موسكو ١٩٧٣.

(٢) عرف الروس المؤلفات العربية من أساطير وكتب تاريخية وجغرافية وعلمية عربية عن طريق الترجمات الغربية.



وبعض السلافيين خدموا في الجيش البيزنطي أو شاركوا في الهجوم على الإمبراطورية[١] البيزنطية.

وفي منتصف القرن التاسع للميلاد تواجد المحاربون الروس في الشواطئ الجنوبية للبحر الأسود. وفي ستينيات وسبعينيات القرن التاسع، كما كتب الجغرافي العربي ابن خرداذبه[٢]: «كان الروس من قبيلة السلافيين يقومون ببيع فرو السمور والثعالب السوداء على شواطئ البحر المتوسط. وكانوا يدفعون العُشر لإمبراطور بيزنطة. وأحياناً كانوا يسافرون إلى بغداد مروراً ببحر قزوين».

ويقتبس كراتشكوفسكي خارطة طريق التجار السلافيين من كتاب الجغرافي العربي ابن خرداذبة، الذي يبين أن التجار الروس كانوا يتنقلون عبر نهر الدون والفولغا وبحر قزوين إلى الجنوب. وأولى المخطوطات التي توثق تلك الرحلات التجارية للروس مع البلدان الإسلامية وبيزنطة تعود إلى اربعينيات القرن التاسع للميلاد[٣].

وتفيد الوثائق القديمة بتوقيع اتفاقية عام (٩٤٤) بين الإغريق والروس، وتعميد الأميرة أولغا أم الأمير فلاديمير في القسطنطينية في عام (٩٥٧م). وتذكر أيضاً وصول سفراء الأمير العظيم فلاديمير. وجرى تعميد روسيا واعتناق المسيحية عام (٩٨٨). وهناك معلومات مهمة جداً عن حملة الأمير ياروسلاف ابن فلاديمير عام (١٠٤٣) الفاشلة في البحر الأسود.

ولا تتحدث الوثائق القديمة عن الصلات بين الروس والعرب في تلك الفترة. ولكن اكتشاف مجموعات كبيرة من القطع المعدنية العربية تعود إلى القرون (٨ ـ ٩) للميلاد، في مناطق مختلفة من روسيا، تؤكد وجود صلات

---

(١) ب.دانتسيغ ـ **الشرق الأوسط في العلم والآداب الروسية**. موسكو ١٩٧٣.

(٢) ابن خرداذبة. **كتاب المسالك والممالك**. طبع في ليدن. مطبعة بريل. ١٨٨٩. وابن خرداذبة جغرافي عربي من القرن التاسع ميلادي جاء في وصف للبلدان والتقسيمات الإدارية. ص ١٩٥.

(٣) المرجع السابق.



قديمة بين الروس والعرب، سبق وأن تحدث عنها الجغرافيون العرب. ونستنتج بأنه ليس فقط التجار والرحالة العرب وبُلغار الفولغا زاروا مناطق روسيا القديمة، وإنما التجار الروس زاروا البلاد العربية.

وتقوّت العلاقة بين الروس والشرق بعد اعتناق روسيا للمسيحية. فأصبح يزور الأماكن المقدسة رجال الكنيسة الروسية بالإضافة إلى العسكريين والتجار. وتذكر كتب التاريخ الزيارات العديدة التي قام بها ممثلون عن الكنيسة الروسية إلى القسطنطينية والعكس. فقد كان المطران في كييف بدايةً يأتي من بيزنطة. وبدأ الروس العاديون أيضاً بالحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين.

وحصلت مصاهرات بين الأمراء الروس وعائلات الأباطرة البيزنطيين في القرن الحادي عشر، وكذلك زار المطران غيورغي القسطنطينية عام (١٠٧٣). وتوسعت زيارات الحجاج الروس إلى الأماكن المقدسة في فلسطين في الفترة من نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر. وكان الحجاج يزورون بيت المقدس وكذلك بيت لحم، حيث ولد السيد المسيح عليه السلام، وكذلك يزورون نهر الأردن ويتعمدون فيه.

ولم يعرف التاريخ الروسي قصصاً رواها كتاب روس عن زياراتهم لفلسطين حتى بداية القرن الثاني عشر للميلاد. واستمرت العلاقات بين روسيا وبلدان المشرق وخاصة بلاد الشام بالتطور، مع الأخذ بعين الاعتبار الصراعات الروسية العثمانية وانعكاساتها على تابعي الديانتين المسيحية والإسلامية. ولم ينقطع اهتمام روسيا بمسيحيي المشرق، بل ازداد كثيراً في عهد القيصر بطرس الأول القرن (١٨م)، الذي كان توجهه أوروبياً بامتياز.

ومن الأمور اللافتة أنه في نهاية القرن السادس عشر في عهد بوريس غودونوف كانت أجهزة شؤون الحدود تقوم بسؤال كل قادم إلى روسيا من الخارج والاستفسار من أين هو، ومن أي مكان قدم إلى روسيا وتواريخ تنقلاته وغيرها من الأسئلة المفصلة حول كل ما يتعلق بسفر الشخص والبلدان التي مر بها. وعندما يصل إلى موسكو تقوم الإدارة المسؤولة عن السفارات أيضاً



بطرح أسئلة عديدة على الشخص القادم، وكانوا يهتمون بشكل خاص بالمعلومات التي يجلبها القساوسة ورجال الكنيسة، الذين عملوا في تركيا وفلسطين وعرفوا سيناء وأتوس ومولدافيا وفالاخيا، وقدموا معلومات عن الأوضاع السياسية والاقتصادية في البلدان المذكورة. وكان يطلب من السفراء التنسيق مع بطاركة القسطنطينية للحصول على معلومات دقيقة. ولكن الأمور اختلفت في بداية القرن الثامن عشر للميلاد في عهد الإمبراطور بطرس الأول، حيث عين سفيراً له في القسطنطينية، وأصبحت السفارة هي المصدر الوحيد للمعلومات [١، ٤].

وكان الرحالة الروسي الراهب الايغنومين دانيال(١)، هو أول من زار القدس أكثر من مرة بين أعوام (١١٠٦ ـ ١١١٣)، وبنى صداقات واسعة مع رجالات الدين المسيحيين في فلسطين. ورحلات التاجر المعروف آنذاك، أفاناسي بنكتين، الذي عاش حوالي (٢٥) سنة منتقلاً بين الهند والعالم العربي وكييف وموسكو، والذي بقي من آثاره قصة يروي فيها انطباعاته الجميلة عن مضيق هرمز، ويقال بأن هذه القصة تضمنت الكثير من الكلمات العربية والفارسية [٤].

ولقد بقيت مجموعة قصص للضابط الروسي فيودور خبن، الذي مكث حوالي عشر سنوات بين أعوام (١٣٧٠ ـ ١٣٨٠) في كل من مصر وسورية وفلسطين وبعض بلدان المغرب العربي، يعكس في تلك القصص انطباعاته عن جمال هذه البلدان وعن وضعها العسكري، فيصف شوارع القاهرة الضيقة

---

(١) صاحب هذه الرحلة دانيال كان راهباً وهيغوماناً أي رئيساً على بعض أديرة وطنه روسيا. وكانت رحلته إلى القدس الشريف قد تمت من السنة ١١٠٦م إلى سنة ١١٠٨م.

Khozhdeniye igumena Daniila v Svyatuyu Zemlyu ZHITIYe I KHOZHENIYe DANIILA, IGUMENA RUSSKOY ZEMLI. Perevod M.A.Venevitinova. Russkaya istoricheskaya biblioteka.

والمزينة بالخضار، كما أنه يتوقف عند الفن العمراني لمدن دمشق ويافا وجدة والقاهرة والإسكندرية وطرابلس الغرب وتونس.

إن هؤلاء العسكريين ومدوني الأسفار أغنوا اللغة والثقافة الروسية آنذاك بكلمات ومفردات وحِكَم وأمثال، ما زالت ماثلة حتى الآن في الثقافة الروسية المعاصرة. وهذه لم تُصَب في حقيقة الأمر بأية تشويهات تذكر. وفي عملية البحث عن ديانة سماوية بطلب من الأمير فلاديمير، اعتمد مبعوثوه على معلومات من كتاب المؤرخ اليوناني غيورغيا أماتو حول «تاريخ العالم»، الذي تكلم بشكل مقتضب عن الإسلام، وأفرد فصلاً كاملاً للعلاقات البيزنطية العربية. فكتب بشكل سلبي عن الإسلام، بحيث كانت الصورة تتناقض مع نظام المأكل والمشرب وعلاقات الزواج في روسيا. وكان يُعرف عن الأمير فلاديمير حبه لأكل لحم الخنزير ولشرب الخمور ولاختيار زوجة واحدة، وهذا ما لا يتفق مع التصور الذي لقنه إياه أنصاره عن العادات الإسلامية، إذ يُحكى عنه بأنه هو صاحب القول المشهور[(١)]: «لا معنى لحياة الروس بدون ارتشاف رحيق الكؤوس» وكان هذا الأمير يعتقد ـ اعتماداً على أقوال الإغريق ـ بأن كارثة قد تصيب روسيا ككارثة سدوم وعمورة إذا تجرأ الأمير واعتنق الإسلام [٤].

واستمرت هذه الكتابات التي يغلب عليها الطابع الديني إلى حد ما متأثرة في ذلك بالحملة الإعلامية الهوجاء التي قام بنشرها الصليبيون عن فلسطين في معظم أنحاء أوروبا. بيد أنها كانت تسمح بنشوء كل الكتابات الصادرة في اللغات الأوروبية في روسيا عن العرب والإسلام. ولعل أهم الكتابات المناهضة للإسلام في القرن السادس عشر، دراسة الكاتب الايطالي ريكادلوس دي مونتيه كروتسييس، التي حملت العنوان التالي: "Confutatio Ligis Latac Saraccnisaa Maledicto Mahumeton"، وكتابات البولوني الكاثوليكي النزعة مارتين بالسكي، التي ترجمت إلى الروسية بين أعوام (١٥٧٨ ـ ١٥٨٠)،

---

(١) ب.دانتسنغ ـ **خواطر حول تاريخ الاستشراق الروسي**. دار نشر العلم، موسكو ١٩٥٣.

وكتابات اليهودي بيوتر الفونس وغيرها، التي أعطت صورة منحازة للغرب حول الصراع، الذي كان يدور بين ممثلي الكنيسة الشرقية وحكام تركيا ومصر، وشوهت النظرة الحقيقية حول العقلية العربية الإسلامية.

وفي أواخر القرن السابع عشر، قامت الأوساط العلمية الروسية بترجمة العديد من الكتابات الالمانية والإيطالية(١)، أهمها: السلسلة التي صدرت منذ عام (١٦٨٤) تحت عنوان «**حكايات عن محمد منذ بداية رسالته وحتى النهاية**»، فتميزت عن غيرها باتجاهها غير المنحاز للعصبوية المسيحية الغربية. والجدير بالذكر أن معظم المواد المترجمة إلى اللغة الروسية لم تكن تشرف عليها هيئة مختصة، فلقد جاء الانتقاء في الترجمة، على حد قول كراتشكوفسكي، عشوائياً بمحض الصدفة [٣].

ويجدر الذكر بأن الثقافة العربية بكافة تجلياتها، لم تصل إلى روسيا مباشرة من العالم العربي، بل إنها مرت في البداية عبر المصفاة الأوروبية الغربية. فجاء معظمها مشوهاً بعيداً عن الموضوعية العلمية، هذا من جهة. ومن جهة ثانية، لقد أرادت روسيا الاستعانة بوجهة النظر الأوروبية الغربية عن الإسلام، لكي ترتكز على مستندات فكرية توظفها الأورثوذكسية المسيحية الفكرية الروسية ضد الدوغمائية الإسلامية التترية.

أما فيما يتعلق بالأدبيات العربية الأخرى(٢)، من علوم وشعر ورواية، فلم تصل هي بدورها عن العربية، بل إنها ترجمت بدورها عن اللغات اليونانية والألمانية. ومنها على سبيل المثال، كتاب «**كليلة ودمنة**» الذي ترجم عن اليونانية، والذي كان الإغريق قد أطلقوا عليه تسمية «**ستيفان واهنيلان**». وتم نشر كتاب

---

(١) إغناطيوس كراتشوفسكي ـ **نبذات من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو لينيغراد. ١٩٥٠.

(٢) سهيل فرح. **الاستشراق الروسي نشأته ومراحله التاريخية** ـ مجلة الفكر العربي. العدد ٣١ ـ ١٩٨٣. بيروت. وانظر ايضاً: سهيل فرح. **صورة العرب والمسلمين في الإستشراق الروسي: مقاربة بيو بيبليوغرافية تاريخية**. مارس، ١٠، ٢٠١٧. موقع روسيا والعالم الإسلامي ـ مجموعة استراتيجية ـ موسكو.



«**سر الأسرار**» للعالم اليهودي سحارى، والذي أشار اليه الأكاديمي كراتشكوفسكي: بأن معظم أفكاره، حول أدب الحياة والعائلة وأسلوب الإدارة الحكومية هي نفسها تماماً الموجودة في كتاب «**أهل المدينة الفاضلة**» للفيلسوف العربي أبو نصر الفارابي. كما أن القارئ الروسي تعرّف على الكتابات الفلسفية لأبي حامد الغزالي، وبالذات كتابه «**مقاصد الفلاسفة**». وراجت أفكار الفلكي الأندلسي البطـروجي، وإنجازات الطبيب الفيلسوف إسحاق بن سليمان. هذا، وإن معظم أسماء الأعلام والعناوين الكلاسيكية الأدبية والعلمية العربية كانت تنقل إلى الروسية بشكل مشوّه. وبقيت التسميات تحتفظ بشكلها المغلوط حتى أوائل القرن التاسع عشر، الذي شهد نهضة علمية استشراقية كبرى من قبل مستعربين كبار، سنأتي على ذكرهم فيما بعد، ساعدهم في ذلك وصول المخطوطات العربية إلى خزانات المخطوطات في كلّ من بطرسبورغ وقازان [٥، ٦].

٢ ـ في عهد الإمبراطور بطرس الأول (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥):



يعتبر من أهم الشخصيات في التاريخ الروسي، التي لعبت دوراً مميزاً في الصعود بروسيا على المستوى الجيوسياسي والجيواستراتيجي إلى الساحة السياسية الدولية. ولقد كان بالفعل من القياصرة القلائل الذي تمتعوا برؤية

شمولية متنورة للسياسة والعلم والثقافة والجيش، وبفضله انتقلت روسيا من مرحلة التخلّف إلى مرحلة الانفتاح على العلم والتطوّر والتقدّم الاجتماعي. ولعله، هو وأنصاره، قد ساهموا في دفع روسيا نحو أوروبا، حيث تعرّفوا على المعالم الحضارية والعمرانية والعلمية والثقافية. إن طموحات بطرس الأول لمعرفة الغرب والشرق على حد سواء، جعلته يفكّر في تأسيس مراكز علمية متخصصة في كافة العلوم. وأبدى اهتماماً خاصاً بالشرق وتراثه، وبالذات الإسلام منه، لأنه كان يرى فيه فلسفة ومنهجاً يسير على ضوئها رجالات الحكم في المناطق الإسلامية. لذا، فلقد عيّن الأمير المولدافي الأصل دميتري كانتيمير (١٦٧٣ ـ ١٧٢٣) الاختصاصي في قضايا الشرق الإسلامي مستشاراً له، حيث أدخل إلى روسيا أول مطبعة ذات حروف عربية. وكخطوة أولى، أرسل بطرس الأول، أربعة شبان إلى ايران لتعلم اللغات الشرقية ـ الفارسية والتركية والعربية، وذلك بتاريخ (١٤ شباط/فبراير ١٧١٦). ولم يعرف ماذا كانت نتيجة هذه البعثة العلمية الأولى. وأمر أيضاً ببناء متحف خاص للاحتفاظ بكافة المخطوطات والآثار العربية، ومن مسكوكات ونقوشات عربية على الصخور وبعض الزخارف الأخرى التي تم العثور على بعضها في منطقة الفولغا، ويرجع تاريخها إلى عامي (٦٧٠ و٧٤٦م).

وظهر الاهتمام بالخرائط والمؤلفات الجغرافية عن بلدان المشرق وخاصة تركيا لاسباب تتعلق بالحروب والصراعات. وصدرت صحيفة «فيدوموستي» عام (١٧٢٧) وكان لها ملاحق. ونشرت في أحد ملحقاتها بتاريخ (٦ أيلول /سبتمبر ١٧٢٩) معلومات مفصلة عن القافلة التي توجهت إلى مدينة مكة وتضمنت المعلومات وصفا للجزيرة العربية جغرافياً وسياسياً.

ومنذ أربعينيات القرن الثامن عشر وحتى الحرب الروسية التركية (١٧٦٨ ـ ١٧٧٤) تراجع كثيراً الاهتمام بدراسة الشرق في أكاديمية العلوم في سان بطرسبورغ. ولم يبق عالم واحد يتحدث بلغة شرقية في الأكاديمية بعد المستشرق الكبير غيورغ كير (١٦٩٢ ـ ١٧٤٠)، الذي كان موسوعة في اللغات

والدراسات الشرقية. ويقال إنه تعلم على أيدي العالم العربي الدمشقي سليمان النغري (الأسود أو الإفريقي) وتعلم اللغة العربية وعدة لغات شرقية. وهو الذي ترجم من الفارسية إلى اللاتينية الجداول الفلكية للعالم الاوزبيكي أوليغ بيك.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ازدادت فعالية السياسة الخارجية الروسية باتجاه حل مشاكل مهمة مثل تقوية الحدود الروسية التركية أمام الغزوات من قبل تتر القرم، وكذلك للخروج إلى البحر الأسود من أجل التجارة مع بلدان أوروبا الشرقية والجنوبية ومع دول الشرق الأوسط. وكذلك من أجل ضم الأراضي الأوكرانية والبيلاروسية إلى روسيا. وفي ستينيات القرن نفسه برزت ضرورة قصوى لتلبية المصالح الاقتصادية للطبقة الحاكمة.

وبعد خوض حربين مع تركيا وحَّدت روسيا وتركيا القيادة العسكرية البحرية للبلدين في مواجهة جيش نابليون (١٧٩٨ ـ ١٨٠٠) تحت إمرة الإدميرال الروسي ف. أوشاكوف. وهنا برز اهتمام إضافي كبير لدى الروس تجاه الشرق الأوسط، فتنشطت رحلات التجار والدبلوماسيين والعسكريين، وبرز الاهتمام بالترجمات لخدمة أغراض سياسية وحربية.

وبعد وفاة كير الذي طالما طالب بتأسيس «اكاديمية شرقية» لم يُنس المشروع، ويكفي أن يكون أكبر عالم في تاريخ روسيا، وهو ميخائيل لومونوسوف قد فكر بمشروع تأسيس أكاديمية شرقية، وذكر ذلك كراتشكوفسكي في مؤلفاته[(١)]. وفي عام (١٧٦٤) قدم لومونوسوف مشروع «التوزيع المبدئي الجديد وتأسيس أكاديمية بطرسبورغ للعلوم»، وتضمن المشروع إنشاء قسم خاص بالتاريخ والقانون واللغات الشرقية.

ولقد بوشر بتعليم العربية في مدارس ثانوية باشراف عدد من المستشرقين اليونانيين والألمان. وشهدت دراسة اللغات الشرقية والسامية وجود تيارين:

---

(١) إ.كراتشكوفسكي. **مؤلفات مختارة (١٩٥٥ ـ ١٩٦٠)**. المجلدات ١ ـ ٦. موسكو ـ لينينغراد.



الأول: كان يهدف إلى إحياء اللغة العبرية واللهجات العربية الأخرى.

والثاني: أصر على تعليم اللغة العربية كلغة مستقلة، على أن يُعطى لها الأولوية.

وكان التيار الأول يهدف، على حد قول كراتشكوفسكي، إلى إحياء الخرافات التوراتية، التي كان يروج لها معظم المستشرقين الغربيين. وهذا لم يبرز في الربع الأول من القرن الثامن عشر إلا مستشرقين، كان لهما أثرهما الملحوظ على مسيرة الاستشراق الروسية، وهما: ز.ت. باير (١٦٩٤ ـ ١٧٣٨) وغ.ي.كير (١٦٩٢ ـ ١٧٤٠)، اللذين عمدا إلى إدخال بعض الكلمات العربية إلى الروسية، وقاما بكشف خصائص الحرف الكوفي على (١٨) قطعة نقدية عربية. ولقد أثبت كير خطأ النظرة الشائعة آنذاك بأن الحرف الذي يستعمله العرب لم يكن من صنعهم، بل إنه جاء إليهم من الهند.

بعد عودة البعثات الطلابية إلى روسيا، في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، توزّعوا على عدة لجان علمية، واشتغل بعضهم في وزارة الخارجية. ومع الزمن، ازداد الاهتمام في تعلّم اللغات الشرقية إلى أن أصدرت الإمبراطورة كاترينا الثانية[(١)] (١٧٢٩ ـ ١٧٩٦) قراراً، بتاريخ (٢٧ أيلول/سبتمبر ١٧٧٢)، يقضي بإلزامية تدريس اللغة العربية في المدارس المختصة بتعليم اللغات الشرقية، إلى جانب التترية والفارسية والبُخارية.

لقد كان الاهتمام بتدريس اللغات الشرقية يرتدي دون شك طابعاً سياسياً.

---

(١) حكمت الإمبراطورة كاترينا الثانية روسيا في الفترة ١٧٦٢ ـ ١٧٩٦، وهي من أصول ألمانية، وقامت بنهضة كبيرة في روسيا من تطوير للجيش وضم مناطق جورجيا والقرم والقوقاز وسيبيريا إلى الإمبراطورية الروسية، كما أمرت بتدريس اللغة العربية في العديد من المدارس الثانوية وفي بعض الجامعات الروسية، وكذلك تم طباعة القرآن الكريم لأول مرة باللغة العربية، واعطت حرية واسعة للمسلمين في بناء المساجد وممارسة طقوسهم الدينية، وأصبح الإسلام ديناً رسمياً في روسيا إلى جانب المسيحية الأرثوذكسية.



ومن جملة الخطوات التي قامت بها الإمبراطورة كاترينا الثانية في برنامجها الدعائي العلمي: هو توكيلها للأكاديميين في كل من بطرسبورغ وقازان بإعادة طبع القرآن، وتوزيعه بكميات كبيرة بين مسلمي روسيا القيصرية في آسيا الوسطى. وكانت ترى في هذا الأسلوب منفعة سياسية تساعدها في التقرّب من الشخصيات السياسية المؤثرة وسط المتدينين الآسيويين وتعبئتهم، ليكونوا للسلطات القيصرية احتياطاً بشرياً ومادياً في معاركها ضد الأتراك [١]، [٥، ٦].



صورة يكاتيرينا عندما جاءت إلى روسيا من ألمانيا



ولقد تزايد الاهتمام العلمي والأدبي الروسي بالثقافة العربية بعد ترجمة كتاب «**ألف ليلة وليلة**»، بين أعوام (١٧٦٣ ـ ١٧٧١)، وطبع بعدئذ خمس مرات بين (١٧٧٦ و١٨٠٣).

وبعد ذلك ترجم الأدباء الروس قصص ونوادر وحكايات شرقية وعربية عن الفرنسية، على سبيل المثال: «**عمر وقصص عربية**»، «**طرائف آسيوية**»، «**حكايات شرقية**». وكانت أهم الأدبيات العربية تترجم عن الألمانية والفرنسية. وبهذا تكون الثقافة العربية في عصر كاترينا الثانية قد دخلت اهتمامات ومخيلة المثقفين والأدباء الروس، حيث أشار المؤرّخ براتشيف والعالم اللغوي بالتين إلى أن الكثير من الكلمات الروسية يرجع أصلها إلى اللغة العربية؛ ويسرد العالم بالتين قائمة من المصطلحات اللغوية والدينية والسياسية والعلمية والفلسفية... ومنها التالية:

المصطلحات القانونية والسياسية: مجلس، قاض، ولايات، عرف، جزية، مهر، طلاق، حدود، وغيره. المصطلحات العلمية العربية «المحولة إلى اللغات الاوربية»: أدميرال، الكيمياء، الحبر، الكحول، الأكسيد، وغيرها؛ بالإضافة إلى الآلاف من الكلمات العربية المحوّرة الأخرى، في كافة الاختصاصات التي دخلت الروسية عن طريق اللغات التترية والأوزبكية والأذربيجانية والكازاخية وغيرها، ناهيك عن الكلمات العربية التي استقرت في اللغات الآسيوية للجمهوريات السوفياتية سابقاً.

وقد لوحظ أن الاتجاه الذي كان يعير الأهمية الخاصة لإبراز اللهجات الشرق أوسطية كان ما يزال يحاول أن يضع العربية في مقام اللهجات السورية والمصرية واليمنية والعبرية. ولعلّ الهدف من وراء ذلك كان ـ كما يشير كراتشكوفسكي[(١)] ـ «هو إبراز دور اللغة العبرية وإعطاؤها مكانة أكبر في حجمها وتأثيرها بكثير». وهناك ثلاثة عوامل، حالت دون أن تبلور مدرسة الاستشراق الروسية وجهها العلمي، حتى أواخر القرن الثامن عشر، وهي:

الأول: عدم تدريس العربية بشكل منتظم ودائم في المدارس العليا الروسية المختصة باللغات الشرقية.

---

(١) إ.كراتشكوفسكي ـ **نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠.



والثاني: هو قلة الكادر العلمي والمعلومات والمخطوطات العربية اللازمة. وضعف المنهج العلمي الروسي في ميدان الدراسات الشرقية، الذي كان يعكس ضعفاً عاماً في مستوى الدراسات العلمية.

والثالث: اعتقد البعض من المشرفين على أكاديمية العلوم الروسية بأن لا فائدة مرجوة من تعليم العربية وبعض اللغات الشرقية على أساس أنها ـ على حد اعتقادهم ـ قد شاخت ولا تأتي للدولة بأية فائدة.

٣ ـ بدايات مدرسة الاستعراب:

ظهرت البدايات الأولى لتكوين مدرسة استعرابية روسية مستقلة في جامعة خاركوف، حيث عمل البروفيسور بيرنديت على إرساء تقاليد علمية جديدة في تعليم اللغات الشرقية، بيد أن مكوثه مدة قصيرة في جامعة خاركوف لم يمكنه من تحضير كوادر علمية جديدة. جاء بعده المستشرق الألماني رامل (١٧٧١ ـ ١٨٥٩)، الذي كان معجباً باللغة العربية، ووصفها بأنها «لغة رائعة وغنية جداً». وكان وجوده في روسيا محض صدفة أثناء هجوم نابليون على ألمانيا، حيث تعاقدت معه جامعة خاركوف، وبدأ العمل فيها من عام (١٨١١) حتى عام (١٨١٤)، حيث ترك مجموعة من الآثار العلمية منها: **تأملات عن العرب**، و**أبو الفدا** وأهّل عدداً من التلاميذ الجامعيين. جاء بعد «رامل» الأكاديمي دورن الذي أدخل على قسم تدريس اللغات الشرقية في جامعة خاركوف عدداً من اللغات الشرقية الجديدة كالأفغانية والتركية والأثيوبية، وفهرس عدداً من المخطوطات الشرقية. وكان لهذا الأكاديمي تأثير كبير، ليس على النشاط العلمي في جامعة خاركوف وحسب، بل إنه امتد ليشمل العاصمة بطرسبورغ ومدينة قازان. حيث كان من المساهمين الأوائل في تأسيس مراكز علمية لدراسة الشرق.

المدينة الثانية التي كانت مركزاً هاماً للدراسات الشرقية هي **قازان**، حيث أمّها البروفيسور فرين (١٧٨٢ ـ ١٨٥١)، والذي اصطدم هناك بصعوبات كثيرة بين الأوساط العلمية. غير أن مكوثه فيها لمدة عشر سنوات، جعله يخلق نواة



نشيطة لدراسات علمية في القضايا الشرقية. ففي عام (١٨١٤) أعاد طباعة القرآن الكريم في قازان، وأعادَ طباعة العديد من الأسفار والحكم العربية، وحاول أن يؤسس معهداً للدراسات الشرقية في الجامعة. بيد أن الحماس الفاتر الذي لقيه في قازان جعله يتجه بعدئذٍ إلى العاصمة سان بطرسبورغ.

أما **موسكو**، فلم تنشط فيها الدراسات الشرقية إلا في فترة متأخرة جداً، رغم أن محاولات أولية بذلت من قبل البروفيسور الروسي بولديريف (١٧٨٠ ـ ١٨٤٢)، الذي تتلمذ على أيدي مستشرقين ألمان وفرنسيين؛ وكان للمستشرق الفرنسي سلفستر دو ساسي (١٧٥٨ ـ ١٨٣٩)، أثر ملحوظ على توجهاته العلمية. وقام بولديريف في عام (١٨١١) بتدريس العربية في جامعة موسكو، ومن ثم ترأس قسماً جديداً لتعليم اللغات الشرقية، وحاول الإشراف على إصدار كتب عربية في «النحو والصرف»، مستنداً في معظم موادها على أعمال سلفستر دو ساسي. وقد لاقت تلك الكتب نقداً لاذعاً من مستشرقي سان بطرسبورغ، ومن أستاذه دو ساسي لأنها لم تأتِ بأية نصوص جديدة. بيد أن هذه الكتب، وبالذات الكتاب المدرسي لتعليم اللغة العربية يعتبر إنجازاً كبيراً، لأنه الأول من نوعه في الكتابات اللغوية الروسية عن العربية، حيث بقي هذا الكتاب ولمدة أربعين عاماً المرجع الأساسي في جامعة موسكو، إلى أن طبع الكتاب الجديد الذي ألفه العالمان جرجس وروزين في عامي (١٨٦٨ و١٨٧٥). لقد كان لبولديريف وتلامذته فضل كبير في ترجمة قصص وحكم شرقية ونشرها في المجلات الروسية. ومن تلامذته الذين ساهموا في أعمال الترجمة: كاركونوف (١٨٠٦ ـ ١٨٥٨)، الذي ترجم قصائد لم نتعرّف على عناوينها للنابغة الذبياني. كما ساهم بولديريف ـ الذي عمل فيما بعد عميداً لجامعة موسكو ـ في تعريف الأدباء الروس الكبار كـ ليرمنتوف وغونشيرييف على آداب العرب وحضارتهم. وترك عدداً من القصائد والقصص عن الشرق العربي عكست حبه وتعلّقه بالأدب العربي [٧].

مدينة **فيلنوس** هي المدينة الأخرى التي اهتمت بالدراسات الشرقية.

وبحكم قربها من بولونيا ـ حيث بدأت هناك حركة استشراق نشيطة ـ تأثرت الأوساط العلمية بفيلنوس بالمناخ العلمي في بولونيا والمدن الروسية الرئيسة الأخرى. ومن أشهر مؤرخي تلك الفترة المؤرخان غردويك (١٧٨٦ ـ ١٨٢٥) وليليفال (١٧٨٦ ـ ١٨٦١)، اللذان تركا تأثيراً علمياً ملحوظاً على مدرسة الاستشراق الروسية. ومن نتائجه: «**جغرافية القرون الوسطى**» الذي صدر كسلسلة من الكتيبات بين (١٨٥٠ و١٨٥٧). ومن العلماء المشهورين آنذاك والذين جذبتهم الحضارة العربية: برغيليوفسكي ثم إيلينا غانسكي زوجة الأديب الفرنسي الكبير بلزاك. إن مكوث برغيليوفسكي عدة سنوات في العالم العربي ساعده في تشجيع الدراسات العربية في فيلنوس. ولعلّ من أهم الأعمال العلمية التي تركها: تأسيسه، مع المستشرق هامير في فيينا، مجلة دورية دولية تهتم بقضايا الاستشراق، أطلقا عليها تسمية "Mines d’Orient".

ومن الأسماء الأخرى التي لمعت في ميدان الاستشراق في فيلنوس[١] كان بايروفسكي، حيث تعلم العربية في فيينا وباريس لمدة خمس سنوات (١٨١٧ ـ ١٨٢٢). حاول التعرف في فيينا على الشخصية الثقافية العربية المشهورة، التي لها تأثير على عدد من المستشرقين البارزين في باريس وفيينا، هذه الشخصية هي ع. العريضي (١٧٣٦ ـ ١٨٢٠). إلا أن بايروفسكي لم يتمكن من اللقاء بالعريضي في تلك الفترة، لأن هذا الأخير كان قد عاد إلى وطنه في بلاد الشام.

وبالرغم من الصعوبات الكثيرة التي اعترضت المستعربين الروس، فقد خطت مدرسة الاستعراب الروسية خطوات نحو مدرسة مستقلة عن الاستشراق الغربي؛ إذ توفرت كمية لا بأس بها من المواد والمخطوطات والقواميس الشرقية. ولعبت الترجمات الروسية للأدب والعلم العربيين دوراً مؤثّراً على الثقافة الروسية، بيد أن مدرسة الاستعراب الروسية لم تتبلور إلا على يد المستعربين في العاصمة سان بطرسبورغ، وتحديداً ابتداء من الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

---

(١) إ.كراتشكوفسكي ـ **نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠.

ففي عام (١٨٢٠) مثلاً صدر كتاب - Die Koran Oder Tanger Sprache (القرآن أو لغة طنجة). اعتمد الكاتب على دراسات ألونغ، وحاول تشويه الحرف العربي الراهن، وذلك عبر طروحاته الداعية إلى استعمال الأحرف «الحميرية»، التي كانت سائدة في عصر الجاهلية وما قبلها في الجزيرة العربية، للتعبير عن الثقافة العربية. ولعل الهدف الكامن وراء هذه الطروحات هو محاولة إنعاش بعض اللهجات والأحرف الأبجدية البائدة مكان العربية. لكن المستعرب الروسي فرين تصدّى لهذه الفكرة الخاطئة وفضحها، خاصة وأنها اكتسبت أنصاراً لها، ليس في روسيا وحسب، بل وفي بلدان أوروبا الغربية.

وفي عام (١٨١٠) صدر في موسكو كتاب «**موجز تاريخ كتابة اللغات، نشأتها، انتشارها وتحولاتها**» للمؤرخ أرلوف، الذي تناول الظروف والتحولات التي طرأت على تاريخ عدد من اللغات، ومنها اللغات الشرقية، كالتركية والأثيوبية والمنغولية واللغات السامية. ويقول بأن أصل كل اللغات السامية جاء من اللغة العربية. وسادت هذه الفكرة بين العديد من المستشرقين الغربيين أيضاً. وقد يرجع ذلك التصور، على الأرجح، إلى عدم إلمام أرلوف الواسع بتاريخ اللغات السامية، والذي يؤكد استنتاج كراتشكوفسكي هذا، هو إشادته باللغة العربية التي انتشرت في معظم بلدان الشرق. ففي معرض حديثه عن العربية التي أفرد لها فصلاً كاملاً في كتابه، يقول أرلوف: «لا يحتاج أي امرئ يجيد اللغة العربية إلى مترجم، عند تنقله من أفريقيا باتجاه الشرق حتى الصين ومن الشمال حتى روسيا باتجاه الغرب، ومن الغرب حتى أقاصي أفريقيا الشمالية، وذلك لأنه يجد في كل هذه الأماكن محمديين، يتكلمون العربية». (قد يكون الباحث الروسي قد انطلق من الديانة الإسلامية المشتركة بين تلك الشعوب، فاعتقد أنهم يفهمون على بعضهم لأنهم يعرفون لغة القرآن العربية) [١].

وفي تلك الفترة بالذات، برزت بعض الأصوات التي هاجمت الأدب والشعر والحضارة العربية ـ الإسلامية بشكل عام، ومنهم عميد جامعة قازان براتشكوفسكي آنذاك، الذي انبرى ليكرر ما يقوله «المركزيون الأوروبيون»،

أمثال: آرون وآخرون، من «أن شِعر الشعوب الإسلامية سطحي، بعيد عن العمق الجمالي والفلسفي، وأفكاره كلها متقاربة...، كما أن الحِكَم والـ «الإنجازات الحضارية العربية» لم نجد فيها أي شيء مميز... وإذا كان هناك من تطوّر جرى في مرحلة معينة من تاريخ الحضارة العربية ـ الإسلامية، فهذا يرجع إلى اليونان وبخاصة إلى أعمال الفيلسوف الكبير أرسطو... فالثقافة الإسلامية جامدة غير قابلة للتطور...». كانت هذه الأفكار المنافية للحقيقة، تكرِّر وتردِّد بشكل ببغاوي ما كان يفكّر به ويحاول تثبيته «كنماذج ثابتة» في ذهن الإنسان الأوروبي بعض المستشرقين الغربيين الذين كانوا يفكرون، انطلاقاً من مصالح النخب الحاكمة في دولهم، وانطلاقاً من الأرضية القومية العنصرية التي كانت توجّه رؤيتهم العامة للعالم العربي.

وإلى جانب العمل الإيجابي في الاستعراب الروسي، المنفتح بوعي وفهم إنساني للحضارة والتراث الإسلامي والعربي، فقد برز بين الحين والآخر في بيئة هذا الاستعراب من كانت لهم مواقف معادية للإسلام[١]، سواء بين العلماء الروس أو الأساتذة العرب. فمن العرب الذين كان لهم موقف سلبي من الإسلام وكانوا في الجامعات الروسية **سليم نوفل** (الذي سمح مراراً لنفسه في كتبه بالنيل من الرسول محمد ومن الإسلام، وقد احتج السفير التركي على ذلك وطلب مصادرة كتبه) وكراتشكوفسكي نفسه لا يخفي امتعاضه من سليم نوفل، الذي يراه موظفاً في الخارجية الروسية أكثر منه عالماً، على الرغم من دوره التعليمي في تدريس اللغة العربية. يقول عنه: وقد حقق لنفسه في وزارة الخارجية الروسية درجة كبيرة من الوظيفة، وتسلم كثيراً من الرتب والأوسمة. وصار روسيّاً لدرجة أن أولاده نسوا اللغة العربية، وهو نفسه انصرف عن الاشتغال بالأدب، ولكنه نشر بعض الكتب في الفقه الإسلامي باللغة الفرنسية، لكنها لم تكن كتباً علمية، بل أقرب إلى الكتب السياسية) [١].

---

(١) إغناطيوس كراتشكوفسكي. **نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠.

وقد مثلت المواقف المتعصبة المناوئة للإسلام مجلة (التبشير المناهض للإسلام)، وقد تصدى للرد على هذه المواقف المتعصبة التي برزت في هذه المجلة المستعرب بارتولد (١٨٦٩ ـ ١٩٣٠م)، فيقول[١]: إن الحضارة الإسلامية هي ظاهرة تاريخية ليس من البساطة بمكان، لكي يتناولها المرء بمقالة أو بحث صغير، هذا على الرغم من أن هناك فئة وجهت الاتهام لبارتولد نفسه، في زعمه أن الرسول ﷺ قد ألف القرآن مع مسليمة الكذاب، وأن المستعرب بيليايف، قد ردد هذه المزاعم، وينفي هذه التهمة عند بارتولد عدد من المستعربين، منهم المستعرب المعاصر أنس خالدوف، فيرى أن هذه المزاعم ترجع إلى سوء فهم لبارتولد في بحثه (مسيلمة)، فيقول: إن بارتولد كان مفكراً حديثاً وباحثاً، وغير مسلم، فكان أن قام بالمقارنة بين الديانات، ومحاولة فهم كل شيء ضمن أصوله التاريخية والموضوعية، وأما ما ردده يفغيني بيليايف المستعرب من موسكو فقد كان في إطار تقديم وجهة نظره تجاه الإسلام، في إطار حركة انتقاد الأديان، التي برزت في العشرينات والثلاثينيات، فكان أن أخذ ما كتبه بارتولد، وقدمه من وجهة النظر اللادينية هذه، وكأن بارتولد هو الذي قالها، وأظن أنه لم يكن منصفاً لبارتولد، الذي لم يكن معادياً للإسلام، بل كان باحثاً موضوعياً [٧، ٨].

ومن الملاحظ، أن هذه الأفكار الخاطئة لم تترك آثاراً ملموسة على تطوّر مسيرة الاستعراب الروسية في ذلك الوقت. فالاتجاه الصحيح هو الذي طبع إلى حد كبير مسيرة الاستعراب الروسية بطابعه. فآراء المستعربين الروس كانت تتميز برؤية أكاديمية موضوعية عادلة للتراث العربي، والدليل على ذلك هو حماسهم لتعليم اللغة العربية، بشكل منتظم ودون توقف منذ عام (١٨١٨)، وفي أهم جامعات روسيا آنذاك، جامعة بطرسبورغ. وفي هذا العام بالذات، تم

---

(١) ف.بارتولد. **تاريخ دراسة الشرق في روسيا وأوروبا..** المؤلفات، المجلّد التاسع. موسكو. ١٩٧٧.



تأسيس «المتحف الآسيوي»(١) التابع لأكاديمية العلوم الروسية، الذي ترأس أعماله ونشاطاته المستعرب الكبير فرين، الذي كان من أشد المتحمسين للتعمق في دراسة الثقافة العربية.

٤ ـ تشكل المدرسة الاستعرابية في القرن التاسع عشر:

بدأت مدرسة الاستعراب الروسية تقف على رجليها في هذه الظروف، وساعدها في ذلك وجود خطة علمية لدراسة المخطوطات العربية، التي بدأت تدخل خزانة المخطوطات في المتحف الآسيوي، ونجح هذا المتحف بشد معظم المستشرقين الروس إليه. ويعود الفضل في نجاح أعماله إلى فرين، الذي أشرف عليه حتى مماته في عام (١٨٥١. وكان للدبلوماسي الروسي ايتالينسكي دور ملحوظ في تأسيس ونجاح أعمال المتحف الآسيوي، ومن الملفت للنظر أن هذا المتحف كان بمثابة مركز علمي، فيه توضع المخطوطات الشرقية وتدرس ويتم تحقيقها؛ ومنه أيضاً، كانت تصدر دراسات علمية متنوعة حول الشرق.

لقد كان للجهود الشخصية الكبيرة العلمية التي قام بها مؤسس المتحف فرين الدور الفعال في تبويب الأقسام وتنظيمها، وفي إرساء تقاليد علمية لدراسة الآثار الشرقية من قطع نقدية ونماذج مختلفة عن بعض المعالم الحضارية العربية. وبجهوده أيضاً، لفت أنظار الذين حوله من الاختصاصيين إلى ضرورة وأهمية دراسة المسكوكات العربية. ووضع في (١٨٢٣) دراسة عن ابن فضلان ما زالت حتى الآن ترتدي أهمية خاصة، لأن الباحث الذي يقرأها يتمكن من الاستدلال على الطريقة الفضلى لدراسة المراجع الروسية والأجنبية المتعلقة بالتراث العربي وبتاريخ الاستعراب الروسي. كما أن فرين كتب عدة مقالات علمية عن الاستشراق الأوروبي والروسي نشرها في مجلات غربية وروسية. وبعمله في المتحف الآسيوي الذي قام في الواقع على أكتافه، يكون قد

---

(١) تقرير عن المتحف الآسيوي في ١٩١٦. أخبار أكاديمية العلوم الروسية. بتروغراد. العدد ٦. المجلد ١١. ١٩١٧.

أرسى حجر الزاوية لمدرسة علمية متكاملة، لدراسة المخطوطات الشرقية؛ حيث أدخل، هو بالذات الطباعة العربية إلى المتحف، فحافظت على العديد من المخطوطات القديمة التي كانت مكتوبة على الجلد.

أكسب نشاط فرين في المتحف الآسيوي احترام وتقدير كل المستشرقين والمستعربين الروس، فعلى حد قول المستشرق سافيلييف: «لا يوجد مستشرق في روسيا إلا وتأثر بفرين... وذلك بفضل إحساسه العلمي المرهف وثقافته الأكاديمية العالية. كان يوجد قبله في أكاديمية العلوم علماء مشهورون، أمثال كير وكلبروت. بيد أن مؤلفات هؤلاء لم تترك آثاراً قوية في العلم الروسي؛ أما فرين، فلقد ترك أعمالاً عظيمة تركت آثارها على كل الأبحاث الروسية حول الاستشراق». وعلى خطاه سار تلاميذه، فساهموا بدورهم في تقدّم علم الاستشراق، وأهمهم سينكوفسكي وفولكوف.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر، لمعت شخصية علمية في ميدان الاستعراب الروسي هي البروفسور سينكوفسكي. فقد كان البروفيسور الوحيد في عصره[١]، الذي مكث في العالم العربي عدة سنوات، حيث أتقن اللغة العربية بشكل جيد. رافق هذا، إلمامه الواسع ـ العميق بكافة التيارات الثقافية السائدة، وموهبته الأدبية الفذة. الأمر الذي ألهمه كتابات هامة منها «لبنان واللبنانيين» وغيرها عن أبرز المعالم السلوكية للبنانيين والمشرقيين، التي تميزت بعين أنتربولوجية غاية في الدقة، التي ما تزال حتى أيامنا ترتدي أهمية علمية ملحوظة.

غير أن الظروف التي كانت محيطة به في جامعة بطرسبورغ، لم تساعده على العمل بشكل منتظم. ترك الجامعة بعد خمسة وعشرين عاماً من التدريس فيها. وكان المستعرب الوحيد في عصره الذي يرجع المصدر الأصلي إلى

---

(١) سهيل فرح ـ **الاستشراق الروسي نشأته ومراحله التاريخية** ـ مجلة الفكر العربي ـ العدد ٣١ ـ ١٩٨٣. بيروت.

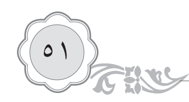


المخطوطات العربية، وإلى معرفته الواسعة بالثقافة العربية، مما كان يشكّل مصدر قلق لأولئك الذين أدانوا بالولاء لما أسميناهم بـ «المركزيين الأوروبيين»!

كما يبدو، أن كل هذه العوامل كانت السبب الرئيس في التشويش والضغط عليه، لكي يبتعد عن ميدان الاستعراب. على الرغم من هذا، فقد ترك عدة أعمال أشاد فيها كبار أدباء ونقّاد روسيا، أمثال بوشكين وتشيرنشيفسكي. وأهم أعماله «قصص شرقية» و«مذكراتي عن سورية»، ومحاضرات متنوعة عن اللغة والأدب العربي. كما أنه حرّر مع تلامذته، سافيلييف وغريغورييف، القسم المتعلق بالشرق والاستشراق في «القاموس الموسوعي»، الذي صدر في بطرسبورغ بين أعوام (١٨٣٥ ـ ١٨٤١).

وفي العقدين الثالث والرابع من القرن التاسع عشر، كانت الحركة الأدبية في روسيا نشطة، وقد شهدت تلك الفترة ترجمات أدبية عن العربية، أهمها: «رحلات السندباد» للمستشرق تيجولييف، الذي ترجم أيضاً قصائد للشاعر المصري، عمر فريد، الذي عاش في القرن الثالث عشر، وقصائد أخرى لم نستطع التعرف على عناوينها للشاعر العربي الكبير المتنبي.

والجدير بالذكر أن القسم المدرسي المختص بدراسة اللغات الشرقية كان يعير اهتمامه لتعليم العسكريين أيَضاً، فكانوا يرسَلون في بعثات خاصة إلى الشرق، حتى أن بعضهم كان يترأس القسم المدرسي، أبرزهم في تلك الفترة: الضابط المهندس م.غامازوف (١٨١٢ ـ ١٨٩٣). جمع خلال هذه المدة أرشيفاً من المخطوطات والتحف، كانت ثمينة جداً للقسم الذي كان يرأسه؛ ومنه كان يختار المستعربون الروس بعض المخطوطات لكي يترجموها إلى الروسية. إن الطابع الذي كان يغلب على النشاط الأدبي، هو ترجمة القصص والحكايات والأشعار الرومنسية عن العالم العربي. اشتهر آنذاك في ميدان الترجمة الصحافي والمستعرب ف. بيرغ (١٨٢٣ ـ ١٨٨٤)، الذي ترجم مجموعة قصائد وأغاني عربية، نشرت في سلسلة «أغاني الشعوب» في المجلات الروسية في مدينة بطرسبورغ.



وخلال زيارة مؤلف هذا الكتاب لمدينة اورينبورغ الروسية العريقة في أواخر عام (٢٠١٩)، حيث تقيم مؤرخة العلوم العربية المستعربة غالينا ماتفييفسكايا منذ (١٩٩٢) وتعمل في جامعة أورينبورغ الحكومية، اكتشفنا بأن هذه المدينة قدمت إسهاماً كبيراً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في مسيرة الاستشراق وتدريس اللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية في الكلية العسكرية.

إن نوعية النتاج الأدبي والفلسفي والسياسي المترجم ومكانة العاملين في ميدان الاستعراب كانتا بمثابة المحور الذي يحبّب أو يبعد القارئ الروسي عن التراث والثقافة في العالم العربي. فالمكانة العلمية الكبرى والمعرفة الموسوعية والإلمام العميق بثقافة العرب ـ التي كانت تميز أفكار ونشاط فيرن وسينكوفسكي ـ كانت موضوع تقدير واهتمام الأوساط الأدبية والثقافية الروسية. وبواسطة هذين المستشرقين الكبيرين، تطوّرت حركة الاستعراب الروسية.

في العقد الرابع من القرن التاسع عشر رافق مسيرة الاستعراب الروسية شيخ الأزهر المصري محمد عياد الطنطاوي (١٨١٠ ـ ١٨٦١)، الذي صادق فيرن وسنكوفسكي وسافيلييف وغيرهم، وكان له تأثير ملحوظ على العديد من المستعربين، وبخاصة الفنلندين منهم. ولقد لعب الطنطاوي دور صلة الوصل الثقافية بين المستعربين في سان بطرسبورغ وبين الكتّاب والأدباء المصريين، كأحمد تيمور ومحيي الدين الخطيب وغيرهم. ولقد أسس، في الواقع، جيلاً من المستعربين كانت تربطهم ببعضهم علاقات حميمة. قال عنه المستعرب غريغورييف[(١)]: «محاضراته كانت غنية جداً بالمفردات واللفظ العربي الجميل والسليم، كما أنه كان إنساناً رائعاً، عصامياً في أخلاقه، مفيداً وغيوراً على طلابه». وعرّف المستشرقين والوسط الأدبي في بطرسبورغ على مؤلفاته، التي قدرت بحوالي (٢٧) مؤلفاً بين تأليف وتحقيق لمخطوطات قديمة. هذا، عدا

(١) مع المخطوطات العربية. صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر. تعريب الدكتور محمد منير مرسي ـ الناشر دار النهضة العربية. ١٩٦٩.



عن عشرات المقالات اللغوية التي نشرها في المجلات المصرية، منذ كان طالباً في الأزهر وحتى قبيل رحيله إلى روسيا في عام (١٨٤٠)، حيث بدأ العمل في جامعات العاصمة بطرسبورغ حتى مماته في عام (١٨٦٠). ودفن في المقبرة الإسلامية التتارية في بطرسبورغ [٢].

هذا، ولم ينحصر تأثير الطنطاوي على مدرسة الاستعراب الروسية، بل على المستشرقين الألمان والفنلنديين والمجريين أيضاً، ولعلّ أهم طلابه، المستشرق الفنلندي جورج وليم (١٨١١ ـ ١٨٥٢)، الذي قال عنه كراتشكوفسكي «إنه يملك طاقة لغوية عربية فذة».

لم تكن الصحافة الروسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر بعيدة عن تغطية ومتابعة مسيرة الاستعراب الروسية؛ فبواسطة أعمال المستشرقين الكبار، أمثال: فرين وسينكوفسكي، ازداد الاهتمام بالثقافة العربية، ودفع بالبعض من المثقفين الطليعيين آنذاك للكتابة عن الأدب العربي. لعلّ أهمهم أحد رموز حركة «الديسمبريين»(١) الشاعر الكسندر بوشكين، الذي كان يكتب عن «القصة الشرقية» والذي كتب ملحمة شعرية خالدة أسماها «محاكاة القرآن» وقصيدة «النبي»، التي تعكس مدى تعلقه بالجانب الشعري والروحي لشخصية النبي محمد، وبدوره الكبير في نشر الرسالة السماوية على الأرض. كما أن تورغينيف الكاتب الروسي الكبير الذي دخل قائمة الكتاب العالميين، كان بدوره يتابع الشعر العربي من خلال الترجمات الموجودة في الروسية، ومن

(١) «حركة الديسمبريين» حركة سياسية جمعت ممثلين عن طبقة النبلاء الروس المتنورين، المتأثرين بالثورة الفرنسية، قاموا بانتفاضة سياسية ضد السلطات القيصرية في العام (١٨٢٥)، لم تفلح محاولاتهم بالنجاح؛ فنفي بعضهم إلى سيبيريا. كان تورغنيف وبوشكين وغلينكا من أشد المتحمسين لهذه الثورة، وهي تعتبر بمثابة المرحلة الأولى للثورة الروسية التي مرت بثلاث مراحل، والتي انتهت بالإطاحة بالنظام القيصري في العام (١٩١٧).
http://ar.wikipedia.org/wiki.

خلال قراءاته للقصة والشعر العربيين في اللغة الإنجليزية. كتب قصائد عن فلسطين وجبال لبنان، نشرها في مجلة «أتيتشستفني زابيسكي»، وتناول الصحافي كرايفسكي الأحداث التي كانت تعيشها مصر في الأربعينات من القرن الماضي، ونشرها في المجلة المذكورة آنفاً؛ وكان الناقد الروسي الكبير دوبرولوبوف يتناول بالتحليل والنقد العلمي الدراسات الروسية الإسلامية؛ هذه الدراسات كان لها أثر ملحوظ على تفكير المثقفين الروس، ذلك لأنها تناولت الإسلام بشكل موضوعي، لا يمت بصلة للتعصب الديني، نشرها دوبرولوبوف في مجلة «سافريمينيك» في عام (١٨٥٨). وفي العام (١٨٦١) نشر الدبلوماسي الروسي قسطنطين بازيلي كتاباً عن «سورية وفلسطين»، تناول فيه الوضع الاقتصادي والسياسي الذي يعيشه هذان البلدان؛ وأعطى فيه صورة مشوقة عن العادات والتقاليد، التي كان يمارسها سكان ضهور الشوير وبيروت في لبنان. ولم ينسَ إفراد فصل خاص من كتابه عن الطبيعة الخلابة في الشوير وضواحيها، ولقد نشرت وقدّمت هذا الكتاب المستشرقة السوفياتية المعروفة سماليانسكيا في عام (١٩٦٥) [٩].

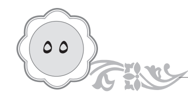
ومع ازدياد الاهتمام بالشرق وبالحضارة الإسلامية، ارتفعت بعض الأصوات للمطالبة بتأسيس مجلة مختصة بالاستشراق، إلا أن هذه الفكرة لم تر النور إلا بعد مائة سنة.

ومن أهم المشاريع التي أسهمت في تقدم مسيرة الاستعراب الروسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، هي: إقامة «المتحف الآسيوي» و«الأكاديمية الآسيوية»، والأقسام المختصة بدراسة اللغات الشرقية التابعة لأكاديمية العلوم ولوزارة الخارجية الروسية. كل هذه المؤسسات، جعلت الاهتمام بالتاريخ العربي والثقافة العربية يشمل أوساطاً واسعة من النخبة الأكاديمية والفكرية الروسية. ولعلّ الفضل في هذا، يعود إلى فرين وسينكوفسكي، اللذين أرسيا حجر الزاوية لمدرسة استشراق أعطت، فيما بعد أعمالاً علمية هامة، ساهمت في إغناء الثقافة الروسية بشكل عام، واستطاع من خلالها القارئ الروسي أن يوسّع معارفه، ويغير

بعض الأفكار المشوّهة الموروثة عن العالم العربي. ظهرت تلك الأعمال بشكل جلي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وقد ساعد التراث الغني، الذي تركه فرين، في إغناء خزانة المخطوطات في «المتحف الآسيوي»، وفي ترسيخ وتكريس تقاليد عملية في ميدان الاستعراب، الأمر الذي أدّى إلى دفع مسيرة الاستعراب إلى الأمام؛ تمثّل هذا، بإقامة كلية خاصة للغات الشرقية، ثم افتتاحها في السابع والعشرين من شهر أغسطس/آب عام (١٨٥٥). هذه الكلية، التي تمركز وتمحور حولها الاستشراق والاستعراب الروسي. ومن الشخصيات العلمية التي ساهمت في نشاط هذه الكلية في المتحف الآسيوي كان ب. دورن (١٨٠٥ ـ ١٨٨١)، الذي جاء من مدينة خاركوف في عام (١٨٣٥) إلى العاصمة ليدرّس اللغات الشرقية، بما في ذلك العربية في القسم المدرسي التابع لوزارة الخارجية الروسية. وأصبح عضواً في أكاديمية العلوم في عام (١٨٤٢). كان يتميز بحبه الكبير للعمل وبمعرفته الواسعة بالشرق وبالعالم العربي، إلا أنه لم يكن على مستوى من النشاط والمعرفة الأكاديمية والتنظيمية التي تميز بها سلفه فرين. لقد تابع الدور الذي لعبه فرين في المتحف الآسيوي، إذ إنه نشر كتيباً، تناول فيه المسيرة التي قطعها المتحف في خمسة وعشرين عاماً. إلا أن المتحف لم يعد يلعب الدور الأساسي في حركة الاستشراق، وتراجع دوره إلى أن أعيد تنشيطه بعد قيام ثورة أوكتوبر الاشتراكية (١٩١٧).

أما بشأن كلية اللغات الشرقية، فلقد تم إنشاؤها في العاصمة سان بطرسبورغ، ذلك لأن مركز نشاط الاستشراق كان هناك، بعد أن تم إقفال قسم اللغات الشرقية في جامعة قازان. فقد درّس في كلية بطرسبورغ عددٌ من الأساتذة سبق وأن ساهموا في تدريس العربية والفارسية والتركية في جامعات روسية مختلفة، أبرزهم: أو. كوفاليفسكي (١٨٠١ ـ ١٨٧٨) كان يجيد العربية جيداً، وكان على إلمام واسع بمعرفة الحضارات الشرقية الفرعونية والعربية والفارسية. وكان يعمل بالسر بعيداً عن الأضواء. لقبه معاصروه بـ «الصامت



العظيم»، لذلك تم ترشيحه وتعيينه، بإجماع الأساتذة، عميداً للكلية في الفترة (١٨٥٩ ـ ١٨٦٦).

وبرزت شخصية استشراقية كبرى كان لها شهرة عالمية ساهمت في توطيد القاعدة العلمية للاستعراب الروسي، هي شخصية ميرزا كاظم بيك. عرفته الأوساط العلمية بتحقيقه وتقديمه للمخطوطة الجغرافية الهامة للمؤرخ العربي أحمد اليعقوبي، الذي توفي نحو (٩٠٥م)؛ كما أنه كان من كبار الباحثين في الإسلاميات، ومُلِمّاً بأوضاع المسلمين في مدينة قازان لأنه عاش فترة هناك، حيث قام بتدريس اللغتين العربية والفارسية في الجامعة. بعدها انتقل إلى بطرسبورغ قبل تأسيس الكلية الشرقية للغات، حيث انتخب أول عميد للكلية، قبل أن يحلَّ محلّه كوفاليفسكي. كانت تربطه علاقة صداقة مع العالم المصري الشيخ محمد عياد الطنطاوي؛ وكان هذا الأخير يشيد بمعرفة كاظم بيك الواسعة باللغة العربية. أضف إلى ذلك، اتقانه للغات الأوروبية الرئيسية، وهذا ما أكسبه شهرة واسعة في الغرب، ليس لمعرفته اللغوية وحسب، إنما لأعماله العلمية التي تضمّنت دراسات فكرية وبيبليوغرافية، وتحقيقات عن المطبوعات وعن الحضارة العربية الإسلامية. غير أن أوساط الاستشراق الأوروبي الغربي، كانت تعتبره «غريباً» عن الوسط الأوروبي لأنه مسلم، أذربيجاني الأصل[١]. وكان دائماً يرتدي الزي القومي في المؤتمرات العلمية العالمية حول الاستشراق، مما كان يلفت نظر المستشرقين الأوروبيين [١، ٢].

---

(١) اعتنق ميرزا كاظم بيك المسيحية وأطلق على نفسه اسم ألكسندر. كما أنه ترجم مخطوطة نصير الدين الطوسي لنيكولاي لوباتشيفسكي المتضمنة لأفكار مهمة حول محاولة برهان المسلّمة الخامسة لإقليدس (مسلّمة المتوازيات) واقترح فيها دراسة الرباعي، والذي انطلق منه العالم الروسي لويتشيفسكي في اكتشاف هندسة لا إقليدية تعتمد على سطح يشبه سطح جرة الماء (أو مزهرية الورد) والتي يتحقق فيها مسلّمة مختلفة عن مسلّمة إقليدس الخامسة، وذلك بأنه من نقطة واحدة يمكن رسم عدد لا نهائي من الخطوط المتوازية على ذلك السطح.

تميزت هذه المرحلة من مسيرة الاستعراب الروسي، بوجود تيارين:

الأول، اهتم بالقضايا النظرية البحتة.

والثاني، ركز على القضايا العملية الراهنة.

لقد كان كاظم بيك من أنصار التيار الأول، الذي شدد على أهمية دراسة تاريخ الإسلام.

أما التيار الثاني، فلقد كان يمثله تلميذ كاظم بيك، الاختصاصي بقضايا تركيا والشرق الأوسط، بيريوزيف (١٨١٨ ـ ١٨٩٦)، الذي كان يركّز على دراسة القضايا الراهنة التي تعيشها منطقة الشرق الأوسط. جال في تركيا وإيران ومصر، وتعرّف على مشاكلها السياسية وعلى تاريخها، واستطاع أن يأتي بحصيلة من المعلومات والمخطوطات، ساهمت بشكل كبير في إغناء خزانة المخطوطات في كلية اللغات الشرقية. لقد كان يجيد العربية والفارسية والتركية بشكل جيد، وكان يتميز بمخيّلة شاعرية وأدبية فذّة، إذ إنه كان من الكتاب المشهورين للمجلات المركزية الروسية، مثل: «موسكفيتيان» (الموسكوفي) و(البشير الروسي) و«سافريمنيك» (المعاصر) وغيرها... ولقد قال عنه أحد معاصريه المستشرق غريغوريف: «إنه كان يعي جيّداً ثقافة الإنسان الآسيوي، ويتمتّع بموهبة متنوعة أوصلته إلى المكانة التي كان يحتلها سينكوفسكي».

وثمّن الكاتب الروسي الكبير تشيخوف أعماله ومقالاته العلمية عن العالم العربي، في «القاموس الموسوعي الروسي»، وقال «بأن هذه المقالات تفتح أمامنا أفقاً جديداً، من خلاله نطلّ على ثقافة عريقة وأدب غني في شكله ومضمونه».

وفي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، توسّع تأثير المستشرق غريغوريف (١٨١٦ ـ ١٨٨١)، رغم أنه جاء متأخراً إلى العاصمة، لكنه نشط في إطار اللغات الشرقية، حيث شغل منصب العميد في الأعوام (١٨٧٣ ـ ١٨٧٨). وأعد في تلك الفترة كتاباً عن تاريخ الاستعراب الروسي؛ وكتب مقالات عديدة عن الاستعراب الروسي في «القاموس الموسوعي»، ودرّس اللغة العربية سنوات عديدة.



هناك ميزة أخرى رافقت مسيرة الاستعراب الروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هي التركيز على إعداد المستعربين من سكان آسيا الوسطى، ودعوة اللغويين العرب للعمل في كلية اللغات الشرقية. ففي الخمسينات من القرن الماضي، لم نتمكن من معرفة الأساتذة العرب الذين عملوا في الكلية؛ ولكن عثرنا على المراجع الروسية حول الموضوع، التي تشير إلى أنه في عام (١٨٥٢) درّس في قازان، ومن ثم في بطرسبورغ، مكي أحمد حسين المكي، (لم يشر إلى بلده). حاضر في هاتين المدينتين عن «اللغة العربية المعاصرة»، وكتب في عام (١٨٥٨) كتاباً مدرسياً، حمل العنوان التالي «المحادثة الروسية ـ العربية».

وفي عام (١٨٦٥)، علّم عبد الله قلزي (١٨١٩ ـ ١٩١٢) العربية في بطرسبورغ. وتشير المعلومات في أرشيف معهد الاستشراق في موسكو، إلى أن عبد الله هذا من أصل أرمني كاثوليكي. درس في العام (١٨٣٧) العربية في سورية، وعاش فترة طويلة من الزمن في بطرسبورغ. ألّف أثناءها كتاباً حول «منهج المحادثة الاجتماعية الروسية ـ العربية» (١٨٦٨)، تضمّن الكتاب بعض الأشعار والحكايات الشعبية العربية.

لم تمض فترة قصيرة من الزمن على رحيل فرين وسينكوفسكي، حتى لمعت شخصية علمية، كان لها الأثر الكبير في تطوّر حركة الاستعراب الروسية وهو غرغاس (جرجس) (١٨٣٥ ـ ١٨٨٧)، روسي الجنسية من أصل ليتواني. أنهى دراسته الثانوية في بطرسبورغ، وتعلّم العربية على يد نافروتسكي. كان عليه ـ حسب التقليد المتبع في الكلية آنذاك ـ أن يدرس اللغات الشرقية الأخرى، فركز في البداية على دراسة التركية. تعرّف في باريس على المستشرق المعروف سلفستر دي ساي، الذي وجهه بدوره لأن يتتلمذ على كوسان دي برسنال (١٧٩٥ ـ ١٨٧١). وعند رينو (١٧٩٥ ـ ١٨٦٧). مكث غرغاس في باريس حوالي ثلاث سنوات، وتأثر كثيراً بأستاذيه، إذ أخذ عنهما إلمامهما الواسع باللغة والأدب العربيين. بعدئذٍ، زار سورية ولبنان وفلسطين ومصر، حيث

مكث فيها ثلاث سنوات، قضى معظم أوقاته في ضهور الشوير؛ تمكن خلال هذه الفترة من التعمق بدراسة اللغة العربية، ومن التعرف على أهم المستجدات السياسية والأدبية التي تعيشها المنطقة. عندما رجع إلى روسيا دافع عن أطروحته التي كانت حول «حقوق المسيحيين في الشرق حسب القوانين الإسلامية» ارتدت هذه الأطروحة أهمية خاصة لكونها جاءت بعد الأحداث الطائفية الدامية في لبنان عام (١٨٦٠)، وحتى تاريخه، ومازالت مفيدة جداً لكونها ارتكزت على النصوص القرآنية، واستقرأت أوضاع المسيحيين وحقوقهم في التاريخ العربي الحديث. واهتم غرغاس في الأصول المورفولوجية للغة الغربية، التي كانت عنوان أطروحة الدكتوراه التي دافع عنها في العام (١٨٧٣).

بدأ حياته العملية كمساعد لأستاذه نافروتسكي في عام (١٨٧١)؛ وبعد وفاة أستاذه كان البروفيسور الوحيد في كلية اللغات الشرقية، حتى عام (١٨٧٢)، إلى أن جاء ف. روزين الذي ألف معه الكتاب المدرسي حول «الأدب واللغة العربيين». وبين عامي (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦)، اكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة ليس في روسيا وحسب، وإنما في أوساط المستعربين في كل مكان. كما أن كتابته حول **تاريخ الأدب العربي** (١٨٧٣)، وترجمته **القوانين الإسلامية في العام (١٨٨٢)**، كانا يعتبران المرجعين الرئيسيين في تاريخ الاستعراب الروسي، حتى الثلث الأول من القرن العشرين. اشتهر غرغاس في تعريفه القارئ الروسي على كتاب **الأغاني للأصفهاني**، الذي نشر في بحث مطوّل بعد وفاته في العام (١٩٠٠)، وكان قد قام بتحقيق وكتابة المقدمة للمخطوطة العربية التي تناولت تاريخ «أبو حنيفة الدينوري»، والتي نشرت في العام (١٨٨٧)؛ شارك في مؤتمرات عالمية عديدة حول الاستشراق الروسي. مما لا شك فيه، أن طاقاته الكبيرة ومنهجه العلمي الرصين الذي تميز به دون سواه من معاصريه، هي التي أكسبته الشهرة الواسعة، ولو لم توافه المنية في (٢٨ شباط / فبراير ١٨٨٧) إثر مرض عضال، لكان قد أعطى لعلم الاستشراق وللثقافة الروسية والعربية معاً الكثير.



أما ف. روزين (١٨٤٩ ـ ١٩٠٨)، فهو روسي الجنسية من أصل فرنسي، والدته من جورجيا، عندما التحق بالكلية الشرقية وهو في السابعة عشرة من عمره (١٨٦٦)، كان المستعرب غرغاس في الكلية. مع أن الفرق بين عمر الاثنين أربعة عشر عاماً، سرعان ما لحق بأستاذه بعد ست سنوات، وأصبح مساعداً له في الكلية، وتعاون معه في تنظيم العمل وفي تأليف الدراسات والكتب. هذا، ناهيك عن الدراسات الجديدة التي أعدّها أيام شبابه عن الأدب الفرنسي. كان من الاختصاصيين البارزين باللغتين العربية والفارسية، كما أنه كان يجيد اللغة العبرية، تلقاها على يدي المستشرق هوالسون. تعرّف على مدرسة الاستشراق الغربية من خلال مكوثه لمدة سنة في لايبزنغ (١٨٧٠ ـ ١٨٧١)، تعرف هناك على المستشرق فليشرغ، (١٨٠١ ـ ١٨٨٨). وتأثر روزين بشكل ملحوظ بأعمال المستشرق ألواردت (١٨٢٨ ـ ١٩٠٩)، الذي كان على اطلاع واسع بالشعر العربي وبالآداب الشرقية العامة. ومن خلال رحلاته إلى الخارج بنى علاقات وطيدة مع أهم المستشرقين في عصره، ومنهم: المجري غولدتسهير (١٨٥٠ ـ ١٩٢١)، والايطالي كويدي (١٨٤٤ ـ ١٩٣٥)، والفرنسي شيفر (١٨٢٠ ـ ١٩٩٨)، والإنجليزي براون (١٨٦٢ ـ ١٩٢٦)، والهولندیان م.ي.دي غويه (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩) ومزت هواتسم (١٨٥١ ـ ١٩٤٣).

أولى روزين اهتماماً كبيراً للتحقيق والتدقيق بالمخطوطات الشرقية، وللحفاظ عليها، ووضعها في أماكن لا تؤثر عليها تقلّبات الطقس. وهذه المسألة كانت هامة جداً، لأنه في ذلك التاريخ لم تكن المواد الكيميائية متوفرة، ولا الأماكن الجيّدة ولا التنظيم الحديث للأرشفة، مما أدى إلى إتلاف العديد من المخطوطات القديمة القيّمة.

حقَّق روزين عدد من المخطوطات الهامة، أبرزها مخطوطة الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري (ت ١٠٩٤)، ونشرها مرتين. الأولى في العام (١٨٧٨)، والثانية في العام (١٩٠٣). ورسالة الرحالة العربي «ابن فضلان»[١]

---

(١) رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة =

(٨٧٧ ـ ٩٦٠م) في عام (١٩٠٤). ودرس العلاقات البيزنطية ـ العربية، وكتب عن هذه القضية دراسةً تناولت حياة ونشاط المؤرخ العربي المسيحي يحيى الأنطاكي (١٨٨٣). وفي محاضراته أمام طلابه، كان يدعو لأن يكون للاستعراب الروسي دور أبعد من أن يكون متعلقاً بالعلاقات الروسية ـ العربية، وبتاريخها الثقافي والعلمي والاقتصادي، كان يدعو لأن تتوسع دائرة اختصاص الاستعراب لتتناول دراسة تحليل القضايا الدولية، وللمشاركة في صنع القرارات التاريخية المصيرية للشعوب، وللتأكيد على دور الحضارة العربية والروسية في صنع الحضارة الإنسانية. كما هو ملاحظ، فطموحاته كانت أكبر بكثير من الإمكانيات المتوفرة للاستشراق الروسي. إلا أنه بصرف النظر عن ذلك، كان يساهم شخصياً ـ من خلال أعماله العلمية ـ في إغناء الثقافة العالمية بأسرها. فقد لعب دوراً بارزاً في المؤتمر العالمي الثالث للمستشرقين الذي عقد في سان بطرسبورغ في العام (١٨٧٦)؛ وانتخب فيه مسؤولاً عن العلاقات الخارجية، ومساعداً للأمين العام لاتحاد المستشرقين العالميين. نُشر له كتاب حول هذا المؤتمر في العام (١٨٧٩) تناول فيه بالتحليل والنقد وضع حركة الاستشراق الدولية في ذلك الوقت.

بعد فشل المحاولة في الثمانينات لإقامة مركز للاستشراق، يدخل في إطار الأقسام المستقلة والمختصة في أكاديمية العلوم، عمل روزين عميداً للكلية الشرقية للغات لمدة عشر سنوات (١٨٩٣ ـ ١٩٠٣)، وترأس القسم الشرقي للمخطوطات، الذي سرعان ما تحول إلى جمعية شرقية تركت آثارها على مسيرة الاستشراق الروسي عموماً. ومنذ العام (١٨٨٦)، أصبحت مجلة «زابيسكا» تغطي بشكل دوري أخبار المستشرقين؛ وكانت تطبع بلغات أجنبية. منذ ذلك الحين، بدأ الاستشراق الغربي يتوجه نحو روسيا للتعرّف عن كثب على أعمال المستعربين الروس [١].

= ٣٠٩هـ ـ ٩٢١م. حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩.

وتمكن روزين ـ من خلال نشاطه في كلية اللغات الشرقية، والقسم المدرسي التابع لوزارة الخارجية، ومجلة «زابيسكا»، والجمعية الشرقية ـ أن يجمع حوله خيرة العاملين في ميدان الاستشراق. ولعل أهمهم: الاختصاصي باللغات الشرقية ن.ي.مار (١٨٦٤ ـ ١٩٣٤)، والناقد الأدبي المشهور والاختصاصي بتاريخ الهند أولدنبيرغ (١٨٦٩ ـ ١٩٣٤)، والاختصاصي المعروف في تاريخ الإسلام والشرق الإسلامي بارتولد (١٨٦٩ ـ ١٩٣٠). وكل هؤلاء لعبوا دوراً لا يستهان به في مسيرة الاستشراق الروسية والسوفياتية، وترك كلّ منهم أعمالاً خلّدت اسمه في تاريخ الثقافة الروسية والعالمية. وفي مقدمة هؤلاء: مار، الذي كان يجيد العربية، وكان على إلمام واسع بالمخطوطات العربية الموجودة في بطرسبورغ، وبعض المدن الآسيوية الروسية، كما أنه تعمّق في دراسة الأدب العربي، حيث ترك حول هذا الموضوع مؤلفات عديدة، أشهرها: **مار وانطباعاته عن الأدب العربي، ومار والادب العربي الجديد.**

أما بارتولد، المستشرق الشهير، الذي درس التاريخ العربي والإسلامي ونشر الدراسات المكتوبة بأسلوب ميسر ليفهمها القارئ غير المتخصّص، فلقد كان خير ما يطمح اليه أن يعطي للثقافة العربية حقّها وحجمها الطبيعيين، وأن يعرّف أوسع فئة من الناس عليها. ولقد قدَّم أبحاثاً أخرى حول تاريخ آسيا الوسطى، وحول الإسلام بالذات، تلك الأبحاث تعتبر إحدى أهم الأبحاث العالمية حول هذه المواضيع، وقد كُتب معظمها في الفترة السوفياتية. وهكذا الأمر بالنسبة لأولدنبيرغ، الذي كان يراوده نفس طموح بارتولد، بيد أن دراساته لم ترقَ إلى مستوى كتابات بارتولد، وأهمها **تأثير الحضارة العربية على بلاد الأندلس** (١٩١٠).

تحت تأثير روزين، تمكّن العالم الروسي الاختصاصي بالشؤون الإسبانية بيتروف (١٨٧٢ ـ ١٩٢٥)، أن يدرس اللغة العربية وهو في سن متقدّم. ألقى سلسلة من المحاضرات عن «الأدب العربي في إسبانيا» وكتب عدة مقالات عن

التأثير والتأثر المتبادل بين الأدب العربي والإسباني، كما أنه نشر كتاباً في العام (١٩١٤)، عن «ابن حزم».

كل الأمثلة التي أوردناها، إن دلّت على شيء إنما تدل على أن مدرسة الاستعراب الروسية تطورت على المستوى الأكاديمي عمودياً وأفقياً. إن أعمال غرغاس وروزين وسينكوفسكي وفرين وغيرهم، تعمقت في دراسة التراث العربي والمخطوطات العربية. كما أن إيجاد كوادر علمية مختصة بدراسات الشرق في مناطق متنوعة، أدّى إلى انتشار مدرسة الاستعراب وإلى فتح فروع لها في أكثر من مدينة روسية. ونحن، إن توقّفنا مطوّلاً عند مدرسة بطرسبورغ في الاستشراق والاستعراب، ذلك لكونها كانت تحتل في الواقع مركز كل النشاطات العلمية في كافة الميادين، بما فيها علم الاستشراق. غير أن هذا لا يعني إطلاقاً، بأنه لم يكن للفروع الأخرى للاستعراب الروسي أية مساهمة في إغناء المدرسة الروسية في كشف جوانب متعددة من التاريخ الأدبي والثقافي والعربي. فأعمال بعضهم وصلت إلى مستوى من الرصانة والبحث العلمي الموضوعي الجاد، جعلها تحتل مكانة مرموقة في التاريخ الثقافي للشعب الروسي.



ثانياً: تأثير التراث العربي والإسلامي في الثقافة الروسية:

كما سبق ذكره، تعود العلاقات الثقافية بين روسيا والبلدان العربية والإسلامية إلى قرون عدة. ولم تقترن هذه العلاقات الثقافية والروحية التاريخية فقط بدخول الإسلام إلى روسيا قبل حوالي (١٤٠٠) عاماً وبكتابات الرحالة والمؤرخين العرب عن تاريخ الروس، والتي أصبحت مرجعاً أساسياً للروس في كتابة تاريخهم عن تلك الحقبة الزمنية.

وهناك تصوُّر لدى الكثير من الروس بأن العرب هم مسلمون فقط. ولكن هناك صفحات لا تنسى في التأثير الثقافي المسيحي السوري على الروس منذ ألف سنة تقريباً. ويقول بعض المستعربين الروس بأن الأخوين كيريل (كيريليوس) وميفودي (ميفوديوس)، اللذين وضعا الحروف الأبجدية للغة

السلافية الروسية هما سريان من سورية البيزنطية، وأن انتشار المسيحية وانتقالها إلى روسيا جاء على يد قديسين مسيحيين من سورية. كما أن رحلة البطريرك مكاريوس بطريرك أنطاكية ودمشق وسائر المشرق قبل حوالي ثلاثة قرون برفقة ابنه بولص الحلبي[١] سجلت نقلة نوعية في تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. فقد أشرف البطريرك مكاريوس بنفسه على عملية ترقية الكنيسة الروسية إلى بطريركية مستقلة. وحتى عملية إصلاح الكنيسة الروسية تمت على يد بطريرك سوري. ويجب تسليط الأضواء على هذه الصفحات لتكتمل لوحة تأثير الثقافة العربية والإسلامية في ثقافة شعوب روسيا، وذلك بهدف تعميق أواصر الصداقة بين شعوب روسيا والبلدان العربية بغض النظر عن المعتقدات الدينية والانتماءات القومية.

وليس صدفة أن يقال بأن الروس يمتلكون روحاً شرقية وأنهم أوراسيين (أوروبيين ـ آسيويين). وقد كُتِبَ الكثير عن تأثر الروس وشغفهم بالثقافة العربية والإسلامية وخاصة بعد ترجمة القرآن الكريم والقصص الشعبية العربية والأدب والشعر العربي إلى الروسية. ويكفي أن نذكر شاعر روسيا الكبير ألكسندر بوشكين الذي كتب قصائد مطولة بإيحاء من القرآن وسيرة النبي محمد (ﷺ) مثل قصيدة «محاكاة القرآن» أو «قبسات من القرآن» وقصيدة «النبي». وهناك أقوال وآراء لمشاهير الكتاب الروس مثل تولستوي وبونين وليرمنتوف ودوستوييفسكي تحدثت عن تأثرهم بالثقافة العربية والإسلامية [١٠، ١١، ١٢].

كما لعب الروس أيضاً دوراً تنويرياً، من خلال مدراسهم التي تأسست في بلاد الشام، وخرّجت شخصيات مثقفة مثل الكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة والمستعربة الفلسطينية المعروفة كلثوم عودة ـ فاسيليفا.

انطلاقاً من مبدأ الترتيب الزمني، نتوقف باختصار عند تاريخ الاستعراب

---

(١) بولص الحلبي ١٧٦٥. ترجمت للروسية من قبل جرجس مرقص عام ١٨٩٨. دار نشر سويكين. موسكو.



الروسي، ومن ثم ننتقل إلى تاريخ دراسة العلم العربي في روسيا والجمهوريات المستقلة. فقد انتشرت الأخبار عن العرب والبلاد العربية في بلاد الروس في وقت مبكر، في تخوم القرن التاسع للميلاد، وذلك مع تطور التجارة في القرون الوسطى. وتشهد على أبعاد هذه التجارة الكنوز المتعددة من العملة العربية المعدنية، التي عثر عليها علماء الآثار وما زالوا يعثرون عليها بمحاذاة الطرق التجارية القروسطية. وعرف العرب طريق التجارة عبر البلطيق وبحر قزوين بشكل جيد، لدرجة أن الجغرافيين العرب مثل ابن حوقل أطلقوا على نهر الدون تسمية «نهر الروس». وكانت منطقة خوارزم إحدى مراكز الاتصالات النشطة بين العرب والروس على مفترق الطرق الهامة للتجارة، التي تنطلق من بلاد الروس وحوض الفولغا إلى آسيا الوسطى ومنغوليا والصين. وقد قدم الجغرافي المعروف ابن فضلان معلومات قيمة عن شعوب حوض الفولغا وخاصة الروس.

١ ـ دور الترجمة في التفاعل الثقافي بين العرب والروس[(١)]:

تعد الترجمة في أحد أبعادها شكلاً من أشكال الحوار الفكري بالكلمة، لذلك يمكن القول: إنّ المترجمين يساهمون في إرساء أسس عملية الحوار الثقافي والفكري بين الحضارات المختلفة. وقد كانت الترجمة وما تزال الوسيلة الأهم لتحقيق التواصل بين الشعوب، وتعريف بعضها بالبعض الآخر. فمذ عرف الإنسان الأبجدية محققاً بذلك قفزة نوعية في مضمار التطور، ومذ بدأ يكتب معارفه ويدون تاريخه وأفكاره، كانت الترجمة الرديف المباشر لذلك التطور، بنقلها معارف هذا الشعب إلى ذاك، وتقديم أفكار هذه الأمة وإبداعاتها إلى تلك، خالقة بذلك التراكم الكمي الذي يصنع التغيير النوعي، جاعلة من البشر سلسلة متصلة الحلقات رابطتها اللغة التي تعتبر وسيلة الترجمة.

---

(١) محمود الحمزة. **دور الترجمة والاستعراب في التواصل الحضاري بين العرب والروس**. المؤتمر السنوي الرابع لمركز المخطوطات. المخطوطات المترجمة. مكتبة الإسكندرية ٢٩ ـ ٣١ مايو ٢٠٠٧. مصر. ١٦ صفحة.

فلولا الترجمة لم يعرف العرب فلسفة الإغريق ولا آداب فارس والهند والسريان، وبالمقابل لولا الترجمة لم تعرف أوروبا منجزات العرب في الطب والكيمياء والهندسة والرياضيات، ولم تعرف ابن رشد والخوارزمي وابن الهيثم... إلخ.

لقد انطلقت الحضارة العربية والإسلامية في إنجازاتها العلمية العظيمة في القرون (٧ ـ ١٠م) من ترجمة العلوم القديمة من هندية وفارسية ويونانية من اللغات السريانية والفارسية والسنسكريتية واليونانية إلى العربية وذلك بشكل منظم ومخطط له على مستوى الدولة. كما أن النهضة الأوروبية قامت على أكتاف العلوم العربية واليونانية المنقولة للعربية بترجمتها إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر للميلاد.

يعود تاريخ العلاقات الثقافية بين روسيا والعرب إلى بداية القرن الثامن عشر، لكن التواصل الحضاري قديم جداً. وساهم دخول الإسلام إلى مناطق حوض الفولغا، واعتناقه من قبل أقوام مختلفة، وتعايش المسلمين المتسامح بشكل عام مع الآخرين، في تعريف وجذب الشعوب الأخرى إلى التقاليد والقيم الإسلامية. وقد لعب المسلمون وما زالوا دوراً بناءً وإيجابياً في تاريخ الدولة الروسية، بالرغم من اقتران ذلك بفترات من الصراعات التي لم تؤثر في حقيقة التعايش الحضاري بين المسلمين والمسيحيين وغيرهم في روسيا.

وقد انتشرت الكلمات العربية في اللغة الروسية في القرن العاشر للميلاد مع رحلة أحمد بن فضلان الشهيرة[١] إلى منطقة البُلغار، حيث يقول ابن فضلان في رسالته: «لما وصل كتاب ألمش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله، يسأله فيه إرسال بعثة إليه ممن يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجداً، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة

(١) أحمد بن فضلان أحد مبعوثي الخليفة المقتدر بالله بدعوة من أمير إمارة البُلغار في منطقة حوض الفولغا. وكان البُلغار قد اعتنقوا الإسلام قبل ذلك في ٩٢٢م.

له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، فأجيب إلى ما سأل من ذلك» [١٣].



من بقايا مدينة بولغار الإسلامية

ولا بد من ذكر المؤرخ أبو الحسن علي المسعودي (٨٩٦ ـ ٩٥٦م) [١٤] وعمله الشهير «**مروج الذهب ومعادن الجواهر**» الذي كتبه في أواسط القرن العاشر للميلاد. كرس فيه فقرات مطولة للحديث عن تاريخ الروس والصقالبة. وكان المسعودي وهو مؤرخ ذو سمعة علمية عالية كمؤرخ وجغرافي قد زار منطقة القوقاز في العقد الرابع من القرن العاشر للميلاد.

وتأتي الأهمية التاريخية لما كتبه المسعودي حول شعوب أوروبا الشرقية من ندرة المصادر التاريخية حول تاريخ هذه المنطقة، وأن المؤرخين الروس اعتمدوا بشكل خاص على ما كتبه المسعودي كأحد أهم المصادر التاريخية. وربما تعود ندرة المصادر التاريخية المكتوبة حول تاريخ الروس إلى أنهم لم يمتلكوا في حينها الأبجدية للكتابة. ويصف المسعودي جغرافية المنطقة بالتفصيل ويورد تفاصيل دقيقة عن شعوبها بأمانة علمية. ويصف جبال القوقاز،

ويذكر مدينة «باب الأبواب» التي بناها كسرى أنوشروان. وهي مدينة ديربند الداغستانية[١] التي تعتبر مهد الإسلام في روسيا. وتذكر بعض المصادر أن المسلمين الأوائل وصلوا إلى ديربند في عام (٦٥٢) للميلاد.

وقد لعبت الترجمة من العربية إلى الروسية دوراً فعالاً في نشر الثقافة العربية الإسلامية في روسيا، وانعكس ذلك بشكل خاص في مجال الأدب والشعر وفي الفلسفة والعلوم الأخرى. ونسلط الضوء على جوانب من مسيرة التواصل الثقافي بين العرب والروس عبر مئات السنين [١٥، ١٦]. ونشير إلى الدور الهام للجغرافيين والرحالة والمؤرخين العرب من القرن (٩ ـ ١٠) للميلاد[٢] (مثل أحمد بن فضلان وابن حوقل والمسعودي) الذين كتبوا عن تاريخ شعوب مناطق حوض نهر الفولغا وما وراء القوقاز وآسيا الوسطى ومنهم الروس [١٧، ١٨].

كما أن أوائل المؤلفات الفلسفية التي تعرّف من خلالها قراءُ الروسية على الفلسفة عامة، كانت الأعمال المترجمة من العربية، مثل كتاب «سر الأسرار» وهو مؤلف منسوب لأرسطو ترجِم إلى العربية[٣] وترجم منها إلى الروسية في القرن الرابع عشر، وكذلك كتاب **مقاصد الفلاسفة** للغزالي، الذي نقل إلى

---

(١) انظر كتابات المؤرخ والمستعرب الداغستاني المعروف عمري شيخ سعيدوف عن ديربنت ودخول الإسلام إلى داغستان. انظر سيرته وأبحاثه في باب تاريخ الدراسات العربية في روسيا. سيرة المستعربين الروس.

(٢) إ.كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، من جزئين القاهرة، ١٩٥٧.

(٣) سر الأسرار السّياسة والفراسة في تدبير الرّئاسة لأرسطوطاليس، ترجمة يوحنّا بن البطريق (نحو ٢٠٠هـ/٨١٥م)، تحقيق عبد الرحمن بدوي في: الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٥٤)، ص٦٧ ـ ١٧١.

الروسية عبر ترجمة عبرية له في نفس القرن [١]. كما ترجم في نفس الفترة **كتاب في المنطق** للفارابي.

وبالرغم من أن أهم أهداف علم الاستشراق الأوروبي في بداياته هو سعي العلماء الأوروبيين لمعرفة عالم الشرق بقصد التأثير في ثقافته ولتسهيل السيطرة عليه، وهذا هو هدف الاستعمار الأوروبي، إلا أن للاستشراق جانب آخر إيجابي وهو تأثر الثقافة الأوروبية والروسية بشكل واضح بالأدب العربي واللغة العربية وبالعلوم العربية والإسلامية.

إن عملية تبلور الأفكار العلمية في روسيا الموسكوفية، جرت ليس على أساس التقاليد العلمية اليونانية والبيزنطية فحسب، وإنما لعبت هنا دوراً بارزاً التقاليد العلمية العربية. حيث أفاد العلم الروسي في ذلك العصر إفادة واسعة من المؤلفات الطبية العربية، وفي مقدمتها **كتاب عن العلاج** للطبيب التونسي إسحاق بن سليمان الإسرائيلي (نحو ٨٥٠ ـ ٩٣٢م)، وكذلك من أعمال ابن سينا. وفي مجال الفلك والتنجيم اعتمد الروس على المخطوطات الفلكية العربية. ويرجع الكتاب الفلكي «شستوكريل» الذي انتشر في روسيا القروسطية إلى المصادر العربية التي ترجمت إلى العبرية، وبشكل أدق إلى النموذج الهندسي للبتروجي (ق ١٢م) [١٥].

وتحتل رحلة مكاريوس بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ومعه ابنه بولص الحلبي وهما من حلب في سوريا، مكانة خاصة في التاريخ الروسي. فقد زار البطريرك روسيا خلال حكم ألكسي ميخائيلوفيتش في أواسط القرن (١٧م). وكان الهدف من تلك الزيارة هو ترقية الكنيسة الروسية إلى مستوى البطريركية. ويذكر أن مترجماً مصرياً وآخر من دمشق عملا في خدمة البطريرك خلال رحلته.

وكان للعلماء السوفييت والروس نصيب وفير وإسهام متميز في دراسة الثقافة والعلم العربيين، بما فيهم المستعربين والمتخصصين في بعض

المجالات العلمية الدقيقة. بينما يشير كراتشكوفسكي[١] إلى أنه بعد ثورة أكتوبر (١٩١٧) بدأ اهتمام ملحوظ بالتاريخ والعلوم والثقافة العربية.

بدأت أولى الأعمال الروسية في مجال الاستعراب في القرن (١٨م)، بناء على مبادرة من الإمبراطور بطرس الأول، وكانت قازان وبطرسبورغ وموسكو أهم مراكز الاستعراب الروسية منذ القرن الثامن عشر. وبداية كانت جامعة قازان هي الأولى، حتى أمر الإمبراطور نيكولاي الأول بإغلاق مركز الدراسات الشرقية في جامعة قازان ونقله إلى جامعة سان بطرسبورغ عام (١٨٥٤) بحجة تجميع النشاط العلمي في مركز واحد قريب من العلماء، باعتبار أن قازان بعيدة جداً عن المركز وقد تكون هناك أسباب أخرى[٢].

تعددت وسائط المؤثرات من الرحلات والترجمات والصحافة وجهود الدبلوماسيين الروس في الشرق إلى العوامل المساعدة، ولاسيما الجغرافي والنفسي. أما العامل الجغرافي فيرتبط بموقع روسيا: جارة الشرق والغرب، وقد أشار الناقد الكبير د. ليخاتشوف[٣] إلى أن «الثقافة الروسية محظوظة جداً (والأدب بالطبع)، فقد نمت على السهول المتسعة المجاورة للشرق والغرب في الشمال والجنوب». أما العامل النفسي فيرتبط بوجود شعوب شرقية ومسلمة في عداد روسيا، وقد صارت هذه الشعوب جزءاً لا يتجزأ من تاريخها.

---

(١) إغناطيوس كراتشوفسكي ـ **نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠.

(٢) حدث تطور نوعي في أواسط القرن التاسع عشر، وهو نقل مركز الاستشراق من جامعة قازان إلى جامعة سان بطرسبورغ، حيث تم نقل ١٩ أستاذاً متخصصاً في الدراسات واللغات الشرقية ومنها اللغة العربية، وتم نقل المخطوطات وغيرها. علماً أن قازان لعبت دوراً رئيسياً في تأسيس مدرسة الاستشراق وجمع المخطوطات والعملات المعدنية القديمة.

(٣) د. ليخاتشوف، **شاعرية الأدب الروسي القديم**. موسكو. دار ناوكا. ١٩٧٩.

٢ ـ تأثر الأدباء الروس بالثقافة العربية والإسلامية:

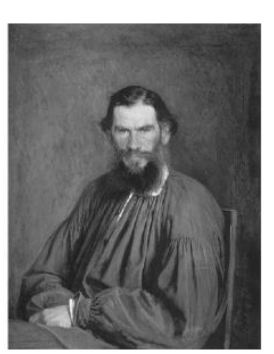
حظيت المؤلفات الأدبية العربية، مثل «كليلة ودمنة» القرن (١٣م) و«حكايات السندباد» و«حِكَم لُقمان» القرن (١٦م) و«حذاء أبي القاسم الطنبوري» وأساطير «ألف ليلة وليلة» القرن (١٨م)، باهتمام بين القراء الروس وخاصة النخب الأدبية والأكاديمية.

أما في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وبتأثير المد الرومانسي الذي اجتاح أوروبا، صار الشرق عامة، والمشرق العربي ـ الإسلامي خاصة، قبلة كثير من الأدباء والمفكرين الروس، الذين راحوا يذودون عنه، ويتغنون به، ويتمثلون قيمه، ويستلهمون تراثه. وبدأ الروس بالتعرف على شعر الشرق وارتبط ذلك ببداية الاستشراق في روسيا والاهتمام بالشرق [١٠، ١١، ١٢].

أهم الكتاب والشعراء الروس (ق١٩ ـ ٢٠م)


الشاعر الكسندر بوشكين


الشاعر ميخائيل ليرمنتوف


الكاتب ليف تولستوي

أ ـ شاعر روسيا الأكبر ألكسندر بوشكين (١٧٩٩ ـ ١٨٣٧):

يعدُّ بوشكين أعظم شاعر وأديب في تاريخ روسيا كلها، ويعترف بذلك كبار الأدباء والنقاد الروس. ويكفي أنهم قالوا عنه: كلنا نمشي على هدي بوشكين. وسموه أيضاً «شمس الأدب الروسي». وسماه مكسيم غوركي: «بداية البدايات في الأدب». وهو شاعر الحرية. كما سماه الناقد الروسي الكبير بيلينسكي «موسوعة الحياة الروسية». وقد كان شاعراً عبقرياً بدأ يكتب الشعر منذ شبابه. وكان يدعو للحرية في شعره وأدبه، ولذلك تعرض للنفي اكثر من مرة من قبل



القيصر. وسنقتطع مقتطفات من الشعر الروسي المتأثر بالثقافة العربية والإسلامية من ترجمات الدكتور إبراهيم إستنبولي[١].

ومن أسباب تأثر بوشكين بالثقافة العربية والإسلامية والشرقية عموماً أنه يعود من جهة جده ـ أبي أمه ـ إلى أصول أفريقية، حيث كان جده إبراهيم حبشياً اشتراه السفير الروسي في إسطنبول وهو في الثامنة من عمره من الاتراك الذين أسروه، وأرسله السفير إلى القيصر هدية. وأثبت إبراهيم أنه خارق الذكاء فقربه القيصر من نفسه، وأرسله ليتعلم في الكلية العسكرية في باريس، وترفع في المراتب حتى وصل إلى درجة الجنرال، وكان من طبقة النبلاء. وأصبح ابنه يوسف جد بوشكين من جهة أمه. فلعبت الجذور الشرقية الأفريقية دوراً في تأثر بوشكين بالشرق.

وقد اطلع بوشكين على ترجمات بولديريف عن الفارسية والعربية المنشورة في مجلة **بشير أوروبا**، وكان بينها مقتطفات من الأسطورة الشعبية العربية المحبوبة «مجنون ليلى» والحكم والأقوال المأثورة العربية. وذكر كراتشكوفسكي بأن بوشكين قد قرأ باهتمام شديد الترجمات الفرنسية لمؤلفات أحد بشائر الأدب العربي الحديث، الأديب المصري الأصل الفرنسي الإقامة يوسف يعقوب (١٧٩٥ ـ ١٨٣٢) [١٠].

---

(١) الدكتور إبراهيم إستنبولي ـ طبيب وكاتب ومترجم سوري عن الروسية، من مواليد طرطوس عام ١٩٥٧. وهو صديق وزميل الدراسة الجامعية في موسكو. من بين إصداراته: «حضرة عنايت خان: تعاليم المتصوفين» (٢٠٠٦)، و«رحلة صيد وراء الفكرة» لفلاديمير ليفي (٢٠٠٧)، و«ثلاث عشرة قطة سوداء» ليوري دميترييف (٢٠٠٨)، و«الرماد الحار» لفسيفولد أفتشينّيكوف (٢٠٠٩)، و«رسول حمزاتوف ـ مختارات شعرية» (٢٠١٠)، و«أن تختار القمر ـ قراءات ودراسات في الأدب الروسي» (٢٠١١)، و«كبرياء جريح ـ قصائد مختارة للشاعرة الروسية مارينا تسفيتاييفا» (٢٠١٣)، و«حبُّ الحياة ـ حركة الحب. الرجل والمرأة» لجيكارنتسيف (٢٠١٨)، و«ديوان الشعر الروسي» (٢٠٢٠)،و «مختارات من الشعر الروسي» (٢٠٢١).

وبوحي من شعور القرابة من الشرق توطدت أواصر الصداقة بين بوشكين وبحار مصري كان يدعى «علي»، وقد كان هذا البحار يتردد على ميناء أوديسا وقت إقامة الشاعر هناك (١٨٢٣). وقد عبر بوشكين عن اعتزازه بهذه الصداقة، التي كانت بالنسبة له في تلك الفترة وعلى حد تعبيره «المتعة الوحيدة». وقد كان بوشكين يعلل ارتباطه الروحي بالبحار المصري «علي» بأنه «من يعرف فربما جدِّي وجدُّه من أقرب الأقارب» وكتب عام (١٨٢٧):

تحت سماء أفريقيا ولدت

وعشقت الحياة في مصر

لكني هنا مفتون بك

ونسيت وطني

وكل كنوز الأرض

ومداركي الرائعة

أهبها لعينيك الزرقاوين

وخصلات شعرك المتموجة[(١)]

ويعرف عن بوشكين ميوله المتمردة وحبه للحرية. وقد ترك آثاراً أدبية هائلة وهو في سن الشباب. وقتل نتيجة مبارزة مفتعلة من قبل السلطات للتخلص منه. ولكن روسيا كلها تفتخر ببوشكين وبأدبه وشعره الذي لم تر روسيا مثله لا من قبل ولا من بعد. لقد نفي إلى القوقاز فترة فتعرف على المسلمين وتأثر بهم.

وأبدع بوشكين أعمالاً متميزة ومتأثرة بروح «ألف ليلة وليلة» مثل «روسلان ولودميلا» و«ليال مصرية» و«أندجيلو» وقصيدتي «القمر يتألق» و«التعويذة».

ويلاحظ أن النقاد الروس لم يبرزوا تأثر بوشكين بالثقافة العربية

---

(١) إبراهيم إستنبولي. **قصائد للشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين** ـ بمناسبة ذكرى رحيله في عام ١٨٣٧.



الإسلامية، وقليل منهم كتب عن هذه المؤثرات العربية الإسلامية باعتبارها ذات تأثير ثانوي على إبداع بوشكين. وهذا يجافي الحقيقة [١٠].

وكتب بوشكين قصائد متأثراً بشخصية العربي: ويقول في قصيدة «من وحي العربي»:

من وحي العربي

فتى جذاب فتى دمث

لا تخجل مني فنحن أهل

وبداخلنا لهب عاصف

ونعيش حياة واحدة

لقد تآلفنا معاً:

تماماً مثل جوزة مزدوجة

أسفل قشرة واحدة(١)

وله قصائد من وحي التاريخ المصري مثل «كليوباترة» و«ليال مصرية» و«قضينا الأمسية في الداتشا». وتتحدث القصيدة الأخيرة عن سهرة قضاها الشاعر مع أصدقائه في المنزل الصيفي، حيث تحدث عن أفضل امرأة في العالم يقول إنها كليوباترة لأنها تعدّ تجسيداً للأنثى الحقيقية.

وصارت السيرة النبوية بالنسبة لصفوة من المثقفين الروس ورواد الحركة الوطنية نموذجاً للقدوة الحسنة الصابرة على الرسالة والمكافحة في سبيلها، ولا أدل على ذلك من كلمات الأديب والثائر الديسمبري تشادايف التي أكد فيها على «عظمة» الرسول محمد ﷺ الذي حمل لواء الدعوة الجديدة التي كان لظهورها الفضل في ذلك «الغليان الديني في الشرق».

ونظم بوشكين قصائد تحت تأثير مباشر لسيرة النبي ﷺ والقرآن الكريم. وتحتل قصيدة «قبسات من القرآن» (أو محاكاة القرآن) و«النبي» مكانة

---

(١) من ترجمة الدكتور إبراهيم إستنبولي.

خاصة في الأدب الروسي المتأثر بالإسلام. وقد كتب الناقد الروسي الكبير بيلينسكي بأن قصيدة بوشكين «قبسات من القرآن» «ماس يتألق في إكليل أشعار بوشكين».

ولم يقتصر ذلك على ما هو معروف نسبياً من مؤثرات شرقية، لا سيما عربية، على مشاهير أدباء روسيا وشعرائها، أمثال بوشكين وليرمنتوف وتولستوي وغوركي. ففي ذلك الحين غدت «الحكايات الشرقية» من أقرب الألوان الأدبية إلى نفوس مثقفي روسيا. ومما له دلالته هنا أن ترجمة «ألف ليلة وليلة»، والتي صدرت في (١٢) مجلداً ما بين عامي (١٧٦٣ و١٧٧١)، قد أعيد طبعها أربع مرات خلال الأربعين عاماً المنصرمة بعد ذلك، وأنه في عام (١٨٨٨) نقلها كازادايف شعراً إلى الروسية، فجاءت في حوالي (٧٢) ألف بيت! [١٢]. هذا الولع بالشرق هو الذي يفسر لنا وقائع بالغة الدلالة، ربما لا يعرفها الكثيرون منا: بيت الشعر العربي المنقوش على قبر أديب روسيا الكبير تورغينيف (١٨١٨ ـ ١٨٨٣)، والأشعار العربية التي اعتاد الأديب والدبلوماسي الروسي البارز غريبايديف (١٧٩٥ ـ ١٨٢٩) تطريز كتاباته بها، وشخصية ناظر المدرسة في بلدة نائية والذي أمضى حياته كلها في جمع المواد المتعلقة بتاريخ العباسيين وذلك في رواية ليسكوف (١٨٣١ ـ ١٨٩٥) المعروفة «لا ملجأ»، «نيكودا» وغيرها.

بوشكين اهتم بالقرآن وأعجب به بل شغف به شغفاً عظيماً. ومن فرط إعجابه به تأثر بآياته وبسيرة وشخصية النبي العربي محمد ﷺ. وقد تأثر الشاعر بأفكار الإسلام التي تدعو للحرية وللعدالة والمساواة ومقاومة الظلم. وربما تكون «قبسات من القرآن» من أهم أعمال بوشكين من وجهة النظر الفكرية والجمالية [١٢].

أقسم بالشفع وبالوتر،

أقسم بالسيف وبمعركة الحق،

أقسم بنجمة الصبح،

أقسم بصلاة العصر.
كلا، أنا ما هجرتك.
فمَن إذن شملتُ برعايتي،
وأنزلت السكينة عليه،
وحميته من المطاردة القاسية.
ألستُ أنا الذي سقيتك
من ماء الصحراء في يوم العطش؟
ألست أنا الذي وهبت لسانك
سلطاناً عظيماً على العقول؟
كُنْ شجاعاً إذن، احتقر الخداع،
اتبع درب الحق بهمة عالية،
أحبب اليتامى، وبشر بقرآني
للمخلوقات الضعيفة.

وقد قرأ بوشكين «ألف ليلة وليلة» وسحرته حكاياتها المليئة بالخيال، وانعكس ذلك في ملحمته الشعرية «روسلان ولودميلا»، وفي قصيدة «البلسم». وقد استخدم في هذه القصيدة كلمات عربية كثيرة مثل: الطلسم أو الطلسمان، وقد دخلت اللغة الروسية مثلها مثل عشرات الكلمات الأخرى. كما كتب قصيدة جميلة من وحي «مجنون ليلى» بعنوان «ليلى العربية المتعالية».

ومن أعظم قصائده: قصيدة «النبي». وهي من أهم القصائد التي تعكس تأثر بوشكين بالقرآن وبسيرة الرسول العظيم محمد ﷺ.

ومن الجدير بالذكر أنه في عام (١٨٨٠) أثناء تدشين النصب التذكاري لبوشكين في موسكو (وهو تمثال رائع)، ألقى الروائي الشهير فيودور دوستويفسكي قصيدة (النبي) هذه مكتفياً بها. وقد قرأها بانفعال شديد وهذا ما يؤكد أنها كانت قصيدة ثورية في حينها، خاطب بها بوشكين ومن بعده



دوستويفسكي الجماهير الجائعة من أجل الثورة. وله قصائد أخرى مثل: «المغارة» وهي من وحي السيرة النبوية.



ويعتبر تأثر بوشكين بالثقافة العربية والإسلامية نموذجاً للأدباء الروس. ولذلك من المفيد التوقف عند أهم الأسباب التي أدت إلى اهتمام بوشكين وانجذابه إلى تلك الثقافة وخاصة منها القرآن(١):

١ ـ إن اهتمام بوشكين بالثقافة العربية والإسلامية هو جزء من الاهتمام الأوروبي والروسي بهما. لأن بوشكين كان يعرف جيداً مدى اهتمام اللورد بايرون وغوته وهيجو بالثقافة الشرقية ـ العربية ـ الإسلامية.

٢ ـ هناك دوافع ذاتية تتعلق بأصول بوشكين الشرقية ـ الأفريقية ـ الإسلامية ونسبه يعود إلى جده إبراهيم هانيبال الذي ينحدر من عائلة أمراء في الحبشة.

٣ ـ موهبة بوشكين العبقرية وقدرته على استيعاب الثقافات الأخرى. فقد قال بوشكين نفسه: «إن العرب ألهموا ملاحم العصور النشوة الروحية والرقة والحب ومناصرة الخير والبلاغة» [١١].

٤ ـ الوضع الاجتماعي والنفسي والسياسي للشاعر. مثلاً كتب قصيدته «محاكاة القرآن» عام (١٨٢٤م) وهو في قرية نائية صغيرة تدعى «ميخايلوفسكي» حيث كان منفياً في الشمال.

في تلك الفترة قرأ القرآن وبرز له شخص الرسول العربي صامداً صابراً،

---

(١) مالك صقور. **بوشكين والقرآن: دراسة في الأدب المقارن**. دار الحارث. دمشق. ٢٠٠٠.



فوجد في آيات القرآن الملجأ والملاذ في ذاك المكان القصي البعيد، وفي ذلك الزمان الموحش، وربما هذا ما جعله يقول:

في المغارة السرية

في يوم الهروب

قرأت آيات القرآن الشاعرية

فجأة هدَّأت روعي الملائكة

وحملت لي التعاويذ والأدعية

ويذكر صقور [١١] ملخص آراء النقاد الروس والسوفييت حول هذه القصيدة وسماتها الأساسية، التي تجسدت في نقل الجانب النفسي ـ الديني في القرآن، وتمجيد الله والإقرار بقدرته. وكذلك النزعة الإنسانية وفكرة الإله الجبار. بالإضافة إلى نقل روح الشعر العربي الصافي. وانعكاس سيرة الشاعر في القصيدة وعكس الجوانب الاجتماعية ـ الفلسفية. وفيها تصوير الجوانب الاجتماعية الموضوعية: العادات والتقاليد والأخلاق والواقع المعاش والحياة الاجتماعية والحالة الثقافية للعرب، وكذلك الجوانب الجمالية والفنية الشاعرية. كما ظهر بوضوح تصوير المضمون الأخلاقي للقرآن، والذي يتضمن: المواعظ والإحسان والصدقات والمساواة والعدل والحب، وأخيراً نقل محيا الشعب العربي.

تحتفل روسيا في العاشر من شباط من كل عام بأيام بوشكين. فبعد أن تعرض للاستفزاز من قبل المبعوث الهولندي ضابط الخيالة دانتس، وذلك بسبب قيام هذا الأخير بتلويث سمعة بوشكين وعائلته، وبدفع وتشجيع من قبل سلطة البلاط، اضطر الشاعر العظيم ـ «أسير الشرف» كما دعاه ليرمنتوف في قصيدة رثائه الشهيرة «مقتل شاعر» ـ أن يدعو دانتس للمبارزة، التي تمت في السابع والعشرين من كانون الثاني من عام (١٨٣٧) بالقرب من بطرسبورغ. جُرح بوشكين جرحاً عميقاً.. صارع بوشكين الموت على مدى يومين دون أن يفقد وعيه ليقول كلمته الأخيرة: «انتهت الحياة» وليسلم الروح في

التاسع والعشرين من كانون الثاني (الموافق للعاشر من شباط حسب التقويم الحديث في روسيا ما بعد الثورة).

ب ـ الشاعر ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١):

ثاني أكبر شعراء روسيا ميخائيل ليرمونتوف[١]، كان شبيهاً بسلفه العظيم ألكسندر بوشكين. وشاء القدر أن يموت ليرمنتوف أيضاً في سن مبكرة لم يبلغ (٢٧) عاماً، ولكنه ترك شعراً غزيراً، ومن أهم قصائده مرثية بوشكين «موت الشاعر» (١٨٣٧). ومثلما كانت الحرية سبباً لموت بوشكين فإنها أصبحت نفس السبب لموت ليرمونتوف في إحدى المبارزات وهو في ذروة مجده وإبداعه. ولقد دخل ليرمونتوف عالم الأدب الروسي في مرحلة حساسة بعد هزيمة الحركة الديسمبرية ضد القيصر والتي كان بوشكين متعاطفاً معها وليرمونتوف أيضاً.

تعرف ليرمونتوف على الإسلام من خلال تواجده في القوقاز عدة مرات في جبال القوقاز للعلاج بمياهها المعدنية. تعرف على عادات المسلمين مثل عيد الأضحى وهو في العاشرة من عمره. فكتب قصيدة «فاليريك» (١٨٤٠) التي تعكس بوضوح علاقة الشاعر وتأثره بالإسلام:

فربما، سماء الشرق
قد قربتني بلا إرادة منهم
من تعاليم نبيهم
الحياة تجول دائماً. وكذا
الكد والهموم ليلاً ونهاراً
كل شيء يعوق التأمل
ويؤدي إلى بدائية
النفس المريضة: القلب ينام

(١) إبراهيم إستنبولي. **ليرمنتوف: الشاعر ـ النبي.**

ولا يوجد براح للخيال

وفي قصيدة «الشركسي» (١٨٢٨) يقول ليرمونتوف:

إنني مستعد للموت

والآن أقسم بمحمد

أقسم، أقسم بالعالم كله!

فقد حلت الساعة التي لا مفر منها.

وله قصيدة طويلة بعنوان «ثلاث نخلات»، وأرادها الشاعر اسطورة شرقية، والتي قال عنها الناقد الكبير بيلينسكي «الثلاث نخلات تعبق بالطبيعة القائظة للشرق وتنقلنا إلى الصحراء الرملية للجزيرة العربية وإلى الواحات المزدهرة لها». وله قصيدة: «النبي» متأثراً بشخصية الرسول ﷺ وفيها يقول:

منذ أن منحني الإله الأزلي

رؤيا الرسول

أقرأ في أعين الناس

صفحات الحنق والرذيلة

أخذت أنادي بالحب

وحق التعاليم الطاهرة

وفي قصيدة «ساشكا» (١٨٣٥ ـ ١٨٣٦) عبر ليرمونتوف عن انجذابه تجاه حضارة الشرق قائلاً:

إنني لا أبحث عن عقيدة: فلست نبياً

رغم أنني أسعى بروحي إلى الشرق

حيث تندر الخنازير والخمر

وحيث، كما يكتبون، كان يعيش أجدادنا!

وكتب عن فلسطين قصيدة «غصن فلسطين» (١٨٣٧):

قل لي، يا غصن فلسطين:

أين نَمَوْتَ وأين ازدهرت؟



ولأي ربوة، ولأي واد؟
كنت الزينة لهم؟

❁ ❁ ❁

تقف أنت يا غصن القدس
حارساً وفياً للمقدسات
الغسق الصافي ضوء القنديل
حافظ الإيقونة والصليب رمز التقديس
كل شيء يمتلئ بالسلام والسلوى
من حولك ومن فوقك.

وكتب عن مصر وأهراماتها. كما تحدث عن حالة النوم والتأخر التي اصابت حضارات الشرق:

جنس الناس ينام هناك عميقاً
للقرن التاسع

❁ ❁ ❁

إن كل شيء هنا في متناول العين
ينام هانئاً بالسكون.

ج ـ ليف تولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠):

ترى الباحثة المصرية د. مكارم الغمري [١٠] أن اهتمام تولستوي كان مركّزاً على دعوة الإسلام للعدالة التي كانت مطلباً ملحّاً في عصره، وعلى المحبة والتكافل الاجتماعي، ودعوة الإسلام إلى التآزر ومساعدة المحتاج، فضلاً عن التسامح واحترام المرأة.

لقد تعرف الأديب والمفكر الكبير ليف تولستوي على الإسلام ومعتنقيه من سكان روسيا في زمن مبكر من حياته، وتواصل معهم أكثر من أي أحد من الأدباء الكلاسيكيين الروس. فقد انتقلت أسرته، وكان له من العمر (١٣)

عاماً، إلى مدينة قازان عاصمة جمهورية تتــارستان حالياً، حيث كان جده إيليا أندرييفيتش حاكماً هناك من (١٨١٥ إلى ١٨٢٠)، وبالمناسبة ما زال قبره قائماً في مقبرة كيزيتشيسكي. والتحق تولستوي في عام (١٨٤٤) بجامعة قازان ـ قسم اللغات الشرقية في كلية الفلسفة (وبعدها انتقل إلى كلية الحقوق حيث درس حوالي عامين). وخلال تلك الأثناء، ولو لفترة غير طويلة، تلقى دروساً في العربية والتركية على يد المستعرب الكبير ميرزا كاظم بيك (١٨٢٠ ـ ١٨٧٠) أحد مؤسسي الاستشراق الروسي.

أقنعه أخوه الأكبر نيكولاي في عام (١٨٥١) بالسفر معه إلى القوقاز، حيث أمضى حوالي ثلاثة اعوام في بلدة قوقازية تقع على شاطئ نهر تيريك، وسنحت له الفرصة للقيام بجولات في مدن كيزلار وتبليسي وفلادي قوقاز، فضلاً عن أنه شارك في العمليات العسكرية (في البداية كمتطوع ومن بعدها في الخدمة العسكرية). وتُجسد أعماله، التي نتلمس فيها جوانب من سيرته، مثل «القوقاز» ومجموعة قصصه «الغارة» و«يد الغابة» علاوة على عمله الأخير «حجي مراد»، جلال الطبيعة ومعرفة نمط عيش الطرفين المتحاربين، وكذلك فهمه لطبيعة وخصائص الشخصية المحلية، التي تكونت بتأثير التعاليم الإسلامية. وسجل تولستوي في دفتر مذكراته أنه تعلق بهذا «المكان الموحش، ومن الغرابة والشاعرية تتوحد أكثر الأشياء تناقضاً: الحرب والحرية». واحتفظ طيلة حياته بذكريات دافئة عن أصدقائه (الكوناك بلغة القوقاز) المسلمين من القوقاز. وعلق بخاطره حادث خسرانه في لعبة القمار كل ماله، فبات مهدداً بأن يكون مديوناً طيلة حياته، بيد أن سادو ميسيربيف الشيشاني هبَّ لإنقاذه، وسدد عنه كل ما خسره. وحمل ذلك طيلة حياته إلى جانب الانطباعات التي تركتها تعاليم الطريقة الصوفية التي كان الشيخ كوناك حجي كيشييفتش من دعاتها، حيث كان يحث على الوفاق ونبذ العنف.

وكتب تولستوي «قصص سيفاستوبل» الشهيرة خلال حرب القرم، حيث كان قائدًا لبطارية مدفعية تدافع عن سيفاستوبل المحاصرة، وأبدى، بشهادة

معاصريه، شجاعة نادرة استحق عليها نيل وسام «آنا» وميداليات. ولم يتعرف تولستوي في القرم على البسالة ومأساوية الحرب وحسب، وإنما أيضاً على تتار القرم المسلمين سكان القرم الأصليين. هذا علاوة على أن الأفكار الهامة التي ظهرت في تلك السنوات تتيح لنا القول إن الضابط الشاب احتفظ بحيويته في شخصية تولستوي الداعية فيما بعد: كان يحلم «بالتبشير بدين جديد» خالٍ من التعقيدات الكهنوتية والغموض، وكان يرى ذلك في الدين الإسلامي، حتى أنه قال ذات مرة: اعتبروني من أبناء دين محمد (الإسلام).

وفي وقت متأخر تبادل الرسائل مع مفتي مصر الشيخ محمد عبده، ووجدت هاتان الشخصيتان البارزتان لغة مشتركة وقواسم مشتركة في تفكيرهما. كما تبادل تولستوي الرسائل مع الكثير من الشخصيات ذات الأصول التتارية سواء من معتنقي الإسلام الأصولي أو من دعاة الإصلاح. وفي واقع الحال كانت لدى تولستوي، الذي لم يتلق تعليماً إسلامياً ولم يكن عالماً بالإسلاميات، معارف وتجربة معايشة استثنائية بالنسبة لرجل من النخبة الروسية في ذلك العصر، الذي ساد فيه فكر الحضارة الأوربية وتقاليدها وميولها وأهمية محاكاتها.

وقد كان تولستوي على ثقة بأن شعوب الشرق لم تفقد بعد الإيمان بأهمية قانون «السماء والرب» وبدا يقترب من المؤمنين من الفقراء البسطاء. وقرر دراسة الأديان. وقد كتب تعريفاً مهماً بالإسلام في مقدمة كتاب أخت زوجته بيرس، ولكنها للأسف لم تنشر كلها بسبب الرقابة على المطبوعات.

لقد عرف تولستوي الإسلام وفهم الكثير عنه، وعرف الكثير من المسلمين من مختلف القوميات، وربطته بهم علاقات ودية وتبادل للرسائل، وتركت أعماله لنا صوراً أدبية ذات مستوى فني رفيع للمسلمين وخاصة من سكان القوقاز. وهي كأية صورة فنية راقية قد تثير الجدل، ولكنها عميقة وتجسد فكرة الإسلام.

ودرس تولستوي القرآن الكريم بعمق، وتوجد في متحفه الواقع في ضيعته المتحف ـ ياسنايا بوليانا ـ النسخة التي كان يقرأها من القرآن الكريم باللغة



الفرنسية. وقد وضع عشرات الهوامش عليها، مما يدل على أنه طالعه باهتمام وعمق. ورغم أن أتباعه الذين يطلق عليهم اسم «التولستيين» قريبون من الإسلام بأفكارهم ونمط حياتهم، إلا أنهم بقوا في إطار المسيحية.

وتجلى تقدير تولستوي للإسلام وتعاليمه في الكثير من أعماله الفكرية والفلسفية ورسائله، ورداً منه على حملة من جمعيات المبشرين في قازان على الدين الإسلامي، التي نسبت إلى الرسول أمورا تناقض الحقيقة، قام بوضع كتاب يوضح جوهر الإسلام، وهو عبارة عن مقدمة بقلم تولستوي وأحاديث نبوية (عددها ٩١ حديثاً) وسمي الكتاب، الذي نقل عن الإنجليزية «**أحاديث مأثورة لمحمد**» بهدف إيصال تعاليم الإسلام إلى سكان روسيا. ويقول تولستوي في فصل من كتابه الذي جاء بعنوان **من كان محمد**(١): **من أراد أن يتحقق مما عليه الدين الإسلامي من تسامح فليس له سوى أن يطالع القرآن الكريم بإمعان وتدبر. فقد جاء في آياته ما يدل على روح الإسلام السامية ومنها** ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. علماً أن المترجم سليم قبعين(٢) هو من ترجم الكتاب ووضع له مقدمة عن آراء تولستوي في الإسلام [١٢].

ويقول أيضاً: «لقد تحمل في سنوات دعوته الأولى كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانة الوثنية القديمة وغيرها، شأنه شأن كل نبي قبله نادى أمته بالدعوة إلى الحق. ولكن هذه المحن لم تثن عزمه بل ثابر على دعوة أمته، مع أن محمداً لم يقل إنه نبي الله الوحيد، بل آمن أيضاً بنبوة موسى

---

(١) ليف تولستوي. **حكم النبي محمد**. ترجمة سليم قبعين. الطبعة الثالثة. القاهرة. ١٩٨٣.

(٢) سليم قبعين من أهم الشخصيات الأدبية الفلسطينية والعربية خاصة في مجال الترجمة. ولد سليم قبعين عام ١٨٧٠م في مدينة الناصرة في فلسطين حيث ما زال بعض أفراد عائلته يقيمون إلى يومنا هذا. تلقى سليم قبعين دراسته في المدرسة الروسية بالناصرة وكان من أوائل الخريجين بهذه المدرسة وتوفي ١٩٥٠.

والمسيح، ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضاً، وقال إن اليهود والنصارى لا ينبغي أن يُكرَهوا على ترك دينهم بل يجب عليهم أن يتبعوا وصايا أنبيائهم».

وتفيد المصادر أن تولستوي فكّر في إعداد كتيب مختصر عن سيرة الرسول وأعماله للأطفال الروس. وقد ركز في كتبه على إبراز أهمية أحاديث الرسول، التي تحث على العمل وقيمته في حياة الإنسان.

ومن الأحاديث التي ذكرها تولستوي والتي تحث على العمل:

ـ «إن الله تعالى يحب أن يرى عبده ساعياً في طلب الحلال».

ـ «اعقلها وتوكل»

ـ «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه، وإن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

ـ وتأثر تولستوي بتحذير الإسلام الناس من الإغراق في شهوات الدنيا وكذلك بالتزهيد.

ـ كما استوقف اهتمام تولستوي دعوة الإسلام إلى العدل والنهي عن الظلم.

ـ وجذبت اهتمامه أيضاً دعوة الإسلام إلى المحبة والتآزر ومساعدة المحتاج وفعل الإحسان وصلة الرحم. ولذلك تبرع بثروته لكي يحقق العدالة الاجتماعية.

ـ لكنه رفض فكرة العنف والثورة انطلاقاً من فلسفة التسامح والمصالحة الاجتماعية، وكان إنساناً مسالماً. واستشهد تولستوي بأحاديث للرسول حول الصدق وأنه يهدي إلى البر. وكذلك الرأفة بالحيوان.

ـ كما اهتم تولستوي بالفولكلور والأساطير الشرقية ومنها «ألف ليلة وليلة»، وكتب قصصاً للأطفال من وحي قصص تاريخية في المشرق العربي والإسلامي مثل «علي بابا والأربعين حرامي»[(١)].

د ـ إيفان بونين (١٨٧٠ ـ ١٩٥٤):

---

(١) مكارم الغمري ـ **مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي** ـ سلسلة عالم المعرفة ـ ١٩٩١ ـ الكويت.



أحد أعظم الأدباء الروس، رفض ثورة أكتوبر عام (١٩١٧)، وهاجر إلى فرنسا وعاش فيها حتى مماته. قال عنه الشاعر السوفيتي تفاردوفسكي بأن بونين «آخر الكلاسيكيين الروس». وقد نال جائزة نوبل للآداب عام (١٩٣٣)، واشتهر بشغفه بالشرق، وقال عنه الأديب الكبير مكسيم غوركي بأنه «يمتلك جاذبية موروثة تجاه الشرق». ومن خلال زياراته المتكررة لبلدان الشرق تعرّف على حياة شعوبها وعلى عادات أبنائها وتقاليدهم. وقد انعكس إعجابه بالشرق وبأهله في أشعاره[١] وفي قصصه ومذكراته. وله عشرات القصائد التي اختار لها عناوين عربية مثل: «ليلة القدر»، «محمد في المنفى (الهجرة)»، «امرؤ القيس»، «البدوي»، «القاهرة»، «القافلة». وهذه بعض قصصه عن الشرق الأوسط: «الدلتا»، «بحر الآلهة»، «اليهودية»، «ظِلّ الطير»، «معبد الشمس»، «صحراء الشيطان» وهي تحكي عن مصر، لبنان، فلسطين، عن الخلود ولحظية الحياة.

امتد طريق الإبداع عند بونين حوالي (٧٠) عاماً، إذ صدر لـه أول ديوان شعر في منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر. وقد اتسم الإبداع الفني لإيفان بونين في ذروة عطائه بسعة الأفق وبعمق النظر إلى درجة مدهشة... فقد صارت قريبة إلى عقله وقلبه جميع الأزمان والبلدان، والمبادئ الإنسانية العامة بخصوص الخير والجمال والعدل. وقد ساعد في إنضاج وتفتح مواهبه ترحاله المستمر ـ تنقلاته في بلدان العالم. في عام (١٩٠٧)، وخلال استعداداته للسفر إلى الشرق الأوسط، من أجل القيام برحلة حج نوعاً ما إلى «الأراضي المقدسة»، قام بونين بدراسة وتعلم الإنجيل والقرآن، وبالاطلاع على الدراسات المتعلقة بالشرق القديم بمصر والقدس وفلسطين. أثناء تنقله لم تكن تفارقه قصائد الشاعر الصوفي المفضّل لديه سعدي الشيرازي، الذي كانت حياته موضع إعجاب الكاتب الروسي: «بعد ولادته، استثمر ثلاثين عاماً لاكتساب المعرفة، ثلاثين عاماً في الترحال وثلاثين أخرى في التفكر، التأمل

---

(١) ابراهيم إستنبولي. سحر الشرق في الأدب الروسي ـ إيفان بونين في الأراضي المقدسة.



والإبداع». وقد عبر الكاتب عن الغاية من تنقلاته مستعيراً كلمات الشاعر المسلم الكبير: «... أنا، كما قال سعدي، سعيت لكي أتعرف على الدنيا، ولكي أترك فيها انسكابة من روحي». لقد زار بونين أكثر من مرة كل من تركيا وشواطئ آسيا الوسطى، واليونان، ومصر بما في ذلك بلاد النوبة؛ كما تنقل عبر سوريا، وفلسطين، وزار الجزائر، وتونس وأطراف الصحراء الغربية؛ وسافر بحراً إلى سيلان، وبراً عبر كل أوروبا.

أما القصائد «الإسلامية»، فهي كثيرة جداً عند بونين لدرجة أنه لو لم تكن معروفة تفاصيل حياته اليومية وكينونته، لكان من الممكن الاعتقاد أن هذا الأخير بين الكتاب الروس الكلاسيكيين العظام ـ لم يكن يفارق القرآن الكريم أبداً، كما لو أنه كان يحمله معه في حقيبة سفره طوال حياته. بل إن الواقع هو كذلك. فقد كانت نسخة من القرآن الكريم بترجمة أ.نيكولاييف بالنسبة لإيفان بونين بمثابة واحد من أهم واكثر الكتب المقروءة لديه[١]. وفي القصائد المملوءة بنفحة الشرق الإسلامي نجد أن الشاعر الروسي كان يتبع القرآن الكريم بشكل مباشر، وأحيانا كان يكرر آيات القرآن الكريم. عدا ذلك، فقد تابع بونين بكل حماس تقاليد بوشكين و«محاكاته للقرآن».

إن قصائد بونين (وكما هي قصصه، بالمناسبة) كانت تستند بشكل أساسي إلى المعاناة الشخصية العميقة[٢].... ففي العشرات من قصائده نجد هذا المسيحي الأرثوذكسي الغيور، الذي يفاخر بأصوله الروسية النبيلة، وقد استطاع أن يتقمص بالكامل شخصية المسلم، الدرويش المتجول، والحاج إلى المقدسات... وتارة يتحول إلى مغنٍّ يتغنى بالهناء في أجواء الحريم، وأحيانا أخرى إلى شاهد على خلق العالم من قبل الله وشاهد عيان على يوم الحساب العظيم.

لقد شاهد بونين مختلف جوانب العقيدة الإسلامية والحياة الإسلامية. كان

---

(١) لقد تم التثبت من أنها نسخة صادرة في موسكو عام ١٩٠١.

(٢) إبراهيم إستنبولي. **سحر الشرق في الأدب الروسي ـ إيفان بونين في الأراضي المقدسة.**



مستعداً، وهو في رمال الليالي، أن يثق بالمثل العربي: «أيها المسافر، لا تخفْ! هناك في الصحراء كثير من الروعة والسحر. هذه ليست أعاصير، بل إنها الجن تُقلِق الصحراء. هذا هو الملاك، خادم الرب الرحيم، قد قذف شياطين الليل بسهم ذهبي».

ففي بعض القصائد، مثل «ليلة القدر»، «تسبيح»، «الحجر الأسود في الكعبة»، «المقام المقدس»، «أبراهام. القرآن، السورة السادسة»، «إبليس والإله»، «الطير»، «محمد في المنفى»، «الفقير»، «الخالد»، «عرش سليمان»، «الحجيج»، «يوم الحساب» وفي مجموعة أخرى من القصائد المكتوبة في أعوام مختلفة، نجد أن الشاعر الروسي يتحول إلى روحاني إسلامي متحمس، بل ويظهر كمتصوف حقيقي. وتعتبر قصيدة «السر» من عيون الكنوز الشعرية عند بونين، تلك القصيدة المرفقة باقتباس من القرآن: «آلم..».

زفر على المِدية ــ وإذ بشفرةِ
خنجرهِ السوري
تلمع في الدخان الأزرق:
و في الدخان لمعت بوضوح أكبر
على الفولاذ رسوم ذهبية
محفورة بزخرفة من ذهب.
«باسم الله والنبي،
اقرأ، يا عبد السماء والقدر،
نداءك المهين: قل، بأي
شعار قد زُيِّن خنجرك؟»
قال هو: «شعاري رهيب.
إنه ــ سر الأسرار: ألف. لام. ميم».

كما إن قصائد بونين الكثيرة في الغزل هي الأخرى حسنة، والتي تبرز فيها ألحان وصور إسلامية. مثلاً، قصيدتان عن الحسناء ــ اليهودية صفية،



زوجة الرسول. في إحداهما، الثمانية الرائعة والتي تسلب شغاف القلب، نجد كيف أن النبرة الدنيوية، الخفيفة بعض الشيء، تتحول فجأة إلى احتفالية:

صفيّة، وقد استيقظت، راحت تجدل بيد
زرقاء ماهرة خصلات الجدائل السود:
«الكل يعيرني، يا محمد، باليهودية» ـ
تتكلم عبر الدموع، ودون أن تمسح الدموع.
محمد، وهو ينظر مع ابتسامة ساخرة وبحب،
يجيب بوداعة: «قولي لهم، يا صديقتي:
أبراهام ـ أبي، موسى ـ عمي، ومحمد ـ زوجي».

إن النبي وبكلمات قليلة يؤكد صلته بالتوراة، والتعاقبية في رسالته. ولقد امتزجت الألحان والموضوعات الإسلامية في إبداع بونين مع الحان وموضوعات التوراة والإنجيل. وبمعنى ما إن «الديانات السماوية» الثلاث كانت بالنسبة له ديانة واحدة.

إن القرن العشرين المليء بالكوارث البشرية قد غير بشكل جذري حياة الشعوب الإسلامية. فقد انعكست عميقاً في شعر بونين الأمواج العاتية للعصر الحديث؛ وكانت بعض قصائده مثل «أمواج» و«أحفاد النبي» عبارة عن صدى مباشر لما يحدث في السياسة العالمية. لقد كانت عزيزة على قلب الشاعر الروسي مشاعر الاعتزاز والكرامة لدى المسلم في وجه المحتلين والمستعمرين الأوروبيين. وقد ظلَّ بونين حتى نهاية عمره يحلم بذلك التمازج الساحر بين الحكاية الشرقية والحياة المنفتحة.

لقد تنقل بونين كثيراً في بلدان الشرق الأوسط، التقى مع الناس، وكان يكتب ملاحظاته باستمرار.

«فلسطين. ٨ أيار.... عندما جئت في المرة التالية بمفردي إلى حيث نصب البدو خيامهم فقد استقبلوني كصديق. كانت خيمة الشيخ عيد هي الأكبر والأوسع، وعندما دخلت وجدت هناك عدداً كبيراً من المشايخ المسنين،

الذين كانوا يجلسون حول الحيطان اللبادية السوداء للخيمة، وقد رفعت جوانب المدخل. خرج الشيخ عيد لاستقبالي، قام بالانحناء وبوضع اليد اليمنى على الشفاه وعلى الجبين... وفي هذا الوقت كانوا يحضرون وراء الخيمة الطعام لي وللضيوف...»... نزلنا في فندق الشرق. على مسافة ساعة من السير راكباً في عربة ـ ينكشف منظر رائع على دمشق. أنا صعدت عالياً إحدى التلال، رأيت الشمس منخفضة وجبل حرمون، وإلى الجنوب، على طريق القدس، شاهدت ثلاثة مرتفعات (اثنان مع بعضهما، وواحد ـ منفرد) زرقاء. وفي الصباح صعدت إلى المئذنة. تحتنا الوهدة الهائلة بأكملها والمدينة كذلك. وفي البعيد حرمون تغطيه الثلوج (من جهة جنوب ـ غرب). ومن جديد الخطاطيف تدور وتخترق الهواء. والمدينة كما لو أنها تلمع في لون أصفر باهت طيني، وهي مملوءة بالسطوح المستوية، تكاد تبدو بسطح واحد ملتحم. بعد ذلك ذهبنا إلى البازار. يا للروعة!...

هـ ـ الشاعر نيكولاي تيخونوف (١٨٩٦ ـ ١٩٧٩):

أحد أهم الشعراء الروس الذين تحول ولعه بالشرق إلى شغف عميق ملأ حياته بأكملها. وفي الستينيات من القرن العشرين، وأثناء زيارته إلى إحدى بلدان هذا الشرق طرح عليه أصدقاء الكلمة سؤالاً فيما إذا كان يعرف شيئاً عن ليلة القدر. هكذا بدأ اهتمام الشاعر السوفياتي تيخونوف بهذه الليلة المقدسة. ولقد وجد ذلك تعبيراً لـه في قصيدته الرائعة «الإسلام»[(١)].

لكن الشعر الروسي الكلاسيكي عرف قصيدة تحت نفس العنوان لآخر الأدباء الروس الكلاسيكيين، الشاعر والكاتب والرحالة المعروف إيفان بونين، الذي قدّمَ لقصيدته «ليلة القدر» بآية من ذات السورة القرآنية:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾

(١) إبراهيم إستنبولي. **ليلة القدر في الشعر الروسي ـ تنزّل الملائكة والروح فيها.** الحوار المتمدن ـ العدد: ١٧١٠ ـ ٢١/١٠/٢٠٠٦.

إنها ليلةُ القدرِ. تلاقتِ الجبالُ واتحدتْ...

إن هذه القصيدة الممتلئة بالبهجة والإعجاب، بالحب وبالجمال وبالأمل، إنما تنبع من قلب نضر حي ينبض بالربيع الباكر. بينما نجد أن ليلة القدر المقدسة قد استدعت أحاسيس أخرى عند الشاعر **ألكسندر كوسيكوف**. ففي قصيدته «ليلة القدر»، التي يصف أول شركسي في منطقة كوبان لا توجد تلك اللوحة الشاملة للعالم كما هو الحال عند إيفان بونين. إلا أنه بالنسبة لكوسيكوف أيضاً، الذي صوّر جذموراً قديماً في دغلة صغيرة، فإن حلول ليلة القدر إنما يعني إمكانية ازدهار وتفتح جديد. «ينتظرنا بياض آمال جديدة».

ويقول تيخونوف في قصيدته «الإسلام»:

اليومَ في ليلةِ القدر

يدخلُ الجنّةَ مع الأنبياء

حتى أشدّ المنبوذين بين الناس.

إن سورة «ليلة القدر» العظيمة، وعلى الرغم من قصرها، قد أعطت دفعة قوية لمثل ذلك الإلهام الشعري الرفيع، وتسبب الإطلاع عليها بنشوء تيارات عميقة من الرؤى والتصورات في الأدب الروسي.

٣ ـ ترجمات القرآن الكريم إلى الروسية:

القرآن الكريم كما هو معروف واحد من أصعب النصوص للترجمة إلى أي لغة أخرى. ويعتقد خبراء في مجال ترجمة القرآن[1] أن الترجمة عاجزة عن نقل الروح الداخلية للقرآن بالكامل، وكذلك بعض الصياغات. وبنفس الوقت يرى العلماء أن ترجمة القرآن ضرورية لإيصال المعاني العميقة والصعبة لآياته إلى الأشخاص الذين لا يتحدثون العربية. وإذا عدنا إلى التاريخ نرى متى تمت أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة الروسية وما هي أهم الترجمات إلى اللغة الروسية.

---

(1) http://ar.wikipedia.org/wiki.

القرن الثامن عشر

في عام (١٧١٦)، بموجب مرسوم من الإمبراطور بطرس الأول، تمت أول ترجمة للقرآن من اللغة الفرنسية إلى اللغة الروسية تحت عنوان «القرآن المحمدي، أو قانون تركيا». ويعتبر صاحب الترجمة بطرس بوستنيكوف (١٦٦٦ ـ ١٧٠٣)، وهو دبلوماسي وطبيب وكان يتقن العديد من اللغات. لم يكن بوستنيكوف يعرف اللغة العربية ولم يكن مستشرقاً، لكن اهتمامه بالقرآن منحه لقب أول مترجم للقرآن إلى اللغة الروسية. إن اختيار المصدر الفرنسي يطرح تساؤلاً حول ترجمة بوستنيكوف. علماً أنها أول ترجمة للقرآن إلى اللغة الروسية. لكن الباحث أ.كرومينغ أشار إلى أن الترجمة المنسوبة لبوستنيكوف هي في الحقيقة تعود لمؤلف مجهول، بينما ترجمة بوستنيكوف هي التي عمل على مراجعتها وتحريرها المستعرب الكبير كراتشكوفسكي.

أ ـ العثور على أول مخطوطة للقرآن في سان بطرسبورغ:

منذ حوالي مائة عام في سان بطرسبورغ، تم العثور على مخطوطة يعود تاريخها إلى الربع الأول من القرن الثامن عشر للميلاد وتحت عنوانها «القرآن أو قانون المحمدي. ترجمه من العربية إلى الفرنسية السيد دي ريير». وتضمَّن ترجمة لعشرين سورة من القرآن.

في عام (١٧٨٧)، في عهد يكاترينا الثانية، تم لأول مرة في روسيا طباعة القرآن كاملاً باللغة العربية، وكان ذلك في مدينة سان بطرسبورغ.

ب ـ ترجمة فيريوفكين:

أما الترجمة الجديدة للقرآن. فتنسب إلى ميخائيل فيريوفكين (١٧٣٢ ـ ١٧٩٥)، هو مترجم محترف لنصوص مختلفة. لديه ترجمات للكتب الفرنسية والألمانية حول الشؤون البحرية، ويعمل على مقارنة الترجمات الروسية للكتاب المقدس بالفرنسية والألمانية واللاتينية. تعامل فيريوفكين مع النص القرآني بشكل أفضل بكثير من زملائه المعاصرين.

ج ـ ترجمة أ.كولماكوف:

في عام (١٧٩٢)، في سان بطرسبورغ، تم إصدار ترجمة جديدة للقرآن تحت عنوان «القرآن المحمدي»، للشاعر والمترجم أ.كولماكوف، حيث اعتمد على الترجمة الإنجليزية التي تعود للإنجليزي جورجي سال، وفيها ألحق كل سورة بتعليقات وملاحظات تفسيرية وتاريخية مختارة من المؤرخين الأكثر موثوقية، ومن المستعربين أمثال الإيطالي ليودوفيكو ماراتشي، وتعتبر الترجمة أكثر اكتمالاً بسبب وجود تفسيرات للنص. وكان كولماكوف مترجماً متخصصاً في النصوص التقنية، وليس له أي علاقة بالدراسات الشرقية. لكنه أصبح المترجم الأول الذي قدم النص الروسي مع تفسيرات مفصلة.

القرن التاسع عشر

د ـ ترجمة ميرزا كاظم بيك (ألكسندر):

في (١٨٥٩) نشر «مفتاح كنوز القرآن» للمستشرق ميرزا كاظم بيك (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠) مؤسس مدرسة الاستشراق في قازان.

هـ ـ ترجمة ك. نيكولاييف:

في عام (١٨٦٤)، تم نشر ترجمة روسية جديدة للقرآن، ومؤلفها هو ك.نيكولاييف، الذي أخذ النص الفرنسي لألبير دي بيبيرشتين ـ كازيميرسكي كمصدر للترجمة. وتمت إعادة طباعة الكتاب مراراً وتوزيعه على نطاق واسع في روسيا.

و ـ ترجمة د. بوغوسلافسكي ـ أول ترجمة من اللغة العربية:

المثير للدهشة أن المترجم المحترف المستشرق الجنرال بوغوسلافسكي (١٩٢٦ ـ ١٩٩٣)، الذي تخرج من كلية اللغات الشرقية كطالب غير مداوم، أصبح أول مترجم للقرآن من اللغة العربية. عمل كمترجم رسمي في البلدان الشرقية لعدة سنوات. في عام (١٨٧١)، أثناء عمله في اسطنبول، لم يترجم القرآن فحسب، بل قام بتدوين تفسيراته للنص الروسي. أشار بوغوسلافسكي

إلى عدم الدقة في ترجمة نيكولايف وعبر عن رغبته في إكمال عمله بالاعتماد على المصادر الإسلامية. ووفقاً للذين كتبوا عن حياته، فإنه اعتمد أساساً للتفسير كتاب «مواكب» لإسماعيل فاروقي. وقد كان مستوى هذه الترجمة أرقى من غيرها نظراً لاعتمادها على المصادر الإسلامية.

ظلت الترجمة غير منشورة لفترة طويلة. الجنرال نفسه لم ينشرها، ورفضت أكاديمية سان بطرسبورغ للعلوم، التي تقدمت إليها أرملته للنشر، رغم أنها أشادت بهذه الترجمة وتحدثت عن الرغبة في نشرها. وتم نشر الترجمة لأول مرة فقط في عام (١٩٩٥).

ز ـ ترجمة غ.سابلوكوف:

نُشرت الترجمة الأكثر شهرة في فترة ما قبل الثورة من حيث جودتها اللغوية والترجمة المعاني، بين جميع ترجمات عصر الإمبراطورية الروسية في عام (١٨٧٨) من قبل أستاذ المدرسة اللاهوتية في قازان غوردييا سابلوكوف (١٨٠٤ ـ ١٨٨٠) الذي شارك في الدراسات الشرقية، وكان يعرف العديد من اللغات، ومن بينها العربية. وأعيدت طباعة الترجمة مراراً.

القرن العشرين

ح ـ ترجمة كراتشكوفسكي:

حتى الآن، ربما تكون ترجمة أغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥١) هي الأكثر شهرة بين المعاصرين. كان كراتشكوفسكي محاضراً في القرآن الكريم بكلية اللغات الشرقية في سان بطرسبورغ. وعمل على ترجمة القرآن من (١٩٢١ إلى ١٩٣٠). واشتهرت ترجمته بأنها ترجمة علمية موجهة للباحثين والمستعربين ونقلت المعاني بدقة. وأثارت هذه الطريقة في ترجمة القرآن انتقادات من قبل المؤسسات الدينية الإسلامية. وبقي كراتشكوفسكي يعمل على تنقيح النص الروسي حتى نهاية حياته. ولم يتم نشر الترجمة إلا بعد وفاته عام (١٩٦٣).

وفي تسعينيات القرن العشرين، ظهرت ترجمتان شعريتان للقرآن في وقت واحد. كان مؤلف الكتاب الأول هو ثيودور شوموفسكي والثاني هي فاليريا ـ ايمان بوروخوفا.

ط ـ ترجمة شوموفسكي الشعرية الفريدة من نوعها:

ثيودور شوموفسكي (٢٠١٢ ـ ١٩١٣) مستشرق معروف وتلميذ كراتشكوفسكي، مؤسس المدرسة السوفياتية للدراسات الشرقية. ولد المؤلف المستقبلي للترجمة الشعرية للقرآن في عام (١٩١٣) في جيتومير، في عائلة بولندية. قضى طفولته وشبابه في شاماخي (أذربيجان)، العاصمة القديمة لمملكة شيرفان، حيث انتقلت عائلته إليها خلال الحرب العالمية الأولى. وقد أثار اهتمام شوموفسكي باللغة العربية، خلال زياراته للمساجد المحيطة والمقابر الإسلامية، العديد من النقوش باللغة العربية.

تعرف شوموفسكي على القرآن الكريم في لينينغراد، عندما كان طالباً في إحدى الجامعات وعمل في الوقت نفسه أمين مكتبة، حيث عبّر عن ذلك بقوله: قام مديرنا، الذي يريد تحرير رفوف الكتب من «المجموعة المتراكمة»، بإلقاء عدد من الكتب المغبرة في سلة المهملات. وفي واحدة منها، كانت تومض الحروف العربية أمام عيني، حيث انتسبت منذ فترة قريبة إلى قسم الدراسات العربية. لذلك، عندما خرج المدير، بدأت في البحث في سلة المهملات وسحبت حزمة من الصفحات بصعوبة. أشار أولها باللاتينية إلى مكان وسنة النشر: «روما، ١٥٩٢»، متبوعاً باسم الناشر «نيكولاي بانيتيو»، واحتوى المنشور نفسه على النص العربي لأول عشرين سورة من القرآن الكريم مع ترجمة لاتينية موازية. حينها أدركت أن لؤلؤة ببليوغرافية كبيرة وقعت بين يدي. وبخجل يميز الطالب المبتدئ، أبلغت شيخ «العربية» للدراسات العربية العلمية في بلدنا، الأكاديمي كراتشكوفسكي بالاكتشاف.

تجدر الإشارة إلى أنه قبل شوموفسكي في روسيا، تم التعرف على ترجمتين فقط من القرآن الكريم (سابلوكوف ـ مدرس أكاديمية ساراتوف اللاهوتية)

والأكاديمي كراتشكوفسكي، مؤسس المدرسة السوفياتية للدراسات الشرقية. ومع ذلك، تم كتابة كل الترجمات بطريقة النثر. وعلى الرغم من اعتماد شوموفسكي إلى حد كبير على كراتشكوفسكي، كونه تتلمذ على يديه، فقد أشار إلى عدد لا بأس به من الترجمات الخاطئة وغير الدقيقة في ترجمة كراتشكوفسكي.

حاول شوموفسكي الجمع بين التحليل العلمي للنص، باتباع التقليد الشرقي الكلاسيكي مع التفسيرات التقليدية المقبولة. وربما هذه هي الترجمة الشعرية الوحيدة للقرآن. كما أشار المؤلف نفسه، فإن الآيات هي التي تجعل من الممكن نقل اللغة العربية الأصلية بشكل صحيح وكافٍ، حيث يمكن بسهولة التعبير عن كل شيء بشكلٍ شعري.

ي ـ ترجمة فاليريا ـ إيمان بوروخوفا:

مؤلفة الترجمة التالية للقرآن إلى الروسية كانت فاليريا ـ إيمان بوروخوفا (١٩٤٠ ـ ٢٠١٩). بدأت العمل على ترجمة القرآن في عام (١٩٨٥). وتم الانتهاء من النص بعد (٦) سنوات فقط، أي في عام (١٩٩١). بالنسبة للكثيرين، أصبح الكتاب اكتشافاً: على خلفية الترجمات السابقة، كان النص مختلفاً في سهولة اللغة. وقد تميزت الترجمة باعتمادها على كون المترجمة اعتنقت الإسلام وتعاونت مع كبار علماء الإسلام في جامعة الأزهر. وبالرغم من ذلك فهناك انتقادات لبعض الأخطاء، وتستمر مراجعة النص حتى يومنا هذا، لذلك تختلف الإصدارات الجديدة عن الإصدارات السابقة.



ترجمة كراتشكوفسكي



ترجمة فاليريا ـ إيمان بورخوفا



ك ـ ترجمة م.عثمانوف:

في عام (١٩٩٥)، صدرت ترجمة وصفت بأنها ناجحة، تم توزيعها على نطاق واسع في روسيا. كان مؤلفها محميد ـ نوري عثمانوف (١٩٢٤ ـ ٢٠١٥)، وهو مستشرق من داغستان، متخصص في اللغة الفارسية. عند العمل على الترجمة، استشار عثمانوف مع المستشرقين الروس واستخدم تفسير القرآن، المعروف على نطاق واسع في العالم الإسلامي. وقد كتبت عته المستعربة دولينينا بأن لغته الروسية جيدة ومن المهم أنه يحتوي على تفسير وشروحات تساعد القارئ على فهم الآيات.

ل ـ الترجمة الأحمدية:

عام (٢٠٠٦) صدرت ترجمة من قبل ميرزا أحمد من اللغة الأوردية وهو ينتمي إلى جماعة الأحمدية. وفيها تعليق وتفسير ومقدمات لكل سورة.

م ـ ترجمة أبو عادل:

صدرت عام (٢٠٠٨) ترجمة للقرآن الكريم مع التفسير وكانت ترجمة موفقة برأي بعض الباحثين.

ن ـ ترجمة عليودينوف:

أصبحت ترجمة الإمام شامل علاء الدينوف (مواليد ١٩٧٤)، التي نُشرت في عام (٢٠١٧)، مشهورة جداً. وهي تتضمن تعليقات المترجم على سور القرآن. واستند إلى وجهة النظر الشافعية والحنفية في التفسير.

س ـ ترجمة س. ريسجانوف:

في عام (٢٠١٩) نشرت ترجمة جديدة للقرآن الكريم لريسجانوف من كازاخستان.

ع ـ وفي (٢٠١٩) صدرت ترجمة عن الإدارة الدينية لجمهورية تتارستان. تم العمل عليها مدة (٧) سنوات.

وعلى الرغم من وجود أكثر من عشرين ترجمة روسية للقرآن، فقد ننتظر عشرات أو حتى مئات الأعمال الجديدة.

❁ ❁ ❁



ثالثاً: العلاقات الروحية المسيحية بين روسيا والمشرق العربي

١ ـ لمحة عن العلاقات الروحية بين روسيا والمشرق العربي:

منذ أن اعتنق الأمير فلاديمير المسيحية عام (٩٨٨) في مدينة كييف ـ عاصمة الدولة الروسية آنذاك، حيث تفيد بعض المصادر بأن من نقل الديانة المسيحية إلى روسيا كانوا سريان (سوريين) من رعايا الدولة البيزنطية. وحتى أن اللغة الكيريلية (الأبجدية الروسية) وضعها ميفودي وفيودور، وهما أيضاً من رعايا الدولة البيزنطية، ويقال إنهما من أصول سريانية (سورية) بيزنطية، حسب رأي مستشرق روسي.

وقد فرض فلاديمير اعتناق الدين الجديد على الروس، وأشرف على تعميد الناس شخصياً، حيث دعاهم إلى نهر الدنيبر، وشاهد بعينيه كيف يعمَّد الناس، لكن بعضهم تهرّب ورفض التعميد، لأنهم لم يشاؤوا التخلي عن دينهم الوثني وآلهتهم المصنوعة من الطين والخشب. وقد مورس كم هائل من العنف وسالت دماء خلال نشر المسيحية في روسيا ولاقت عملية نشر الدين الجديد مقاومة وصلت إلى استخدام القوة والقتل من الطرفين. وقد تبلورت عبر الزمن علاقة روحية خاصة بين مسيحي الشرق الأرثوذكس وبين الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

وفي عصور القياصرة المختلفة قدمت روسيا القيصرية[١] مساعدات مالية ومعنوية للمسيحيين في بلاد الشام، والسبب الأساسي الذي كان وراء ذلك الدور الروسي في دعم المسيحيين في المشرق هو انهيار الدولة البيزنطية، وسقوط القسطنطينية بيد العثمانيين فتحوّل مركز دعم المسيحيين من قسطنطينية إلى موسكو. وحتى أن روسيا بدأت تخطط لتصبح روما الثالثة بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى روما الغربية الكاثوليكية (روما الأولى)،

---

(١) إ.كراتشكوفسكي. **مؤلفات مختارة (١٩٥٥ ـ ١٩٦٠)**. المجلدات ١ ـ ٦. موسكو ـ لينينغراد.



وبيزنطة الشرقية (روما الثانية) التي انهارت. ويبدو أن الحروب بين الإمبراطورية الروسية (المسيحية) والإمبراطورية العثمانية (المسلمة) تناغمت مع العامل الديني وتجذرت أكثر. ولهذا السبب تنازعت الإمبراطوريتان حول شبه جزيرة القرم بأغلبيتها التتارية المسلمة (ذات الأصول التركية) وحول البلقان وجورجيا وأوسيتيا ومنطقة القوقاز.

ويرجع مفهوم حماية الكنيسة الأرثوذكسية في الإمبراطورية العثمانية إلى أن روسيا كانت أهم سلطة سياسية أرثوذكسية في ذلك الوقت، حتى أنه تم إعطائها الحق في الاشراف الجزئي على حقوق المسيحيين في أراضي الدولة العثمانية بإحدى معاهدات كيتشوك كاينارجي في عام (١٧٧٤م). بعدها نشبت معركتان أظهرتا تماماً الميل التقليدي لروسيا لدعم إخوانهم في الايمان في عهد نيكولاي الأول (١٨٢٥ ــ ١٨٨٥)، حيث قامت الأولى بعد اندلاع الحرب اليونانية ضد الحكم التركي. أما المعركة الثانية المعروفة تاريخياً بحرب القرم (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) انتهت بمعاهدة باريس التي خضعت لها روسيا بشروط غير ملائمة إطلاقاً. وكانت قد أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية بحجة اضطهاد الأخيرة للمسيحيين الأرثوذكس.

لكن الدور الروسي في حياة الأرثوذكس في بلاد الشام كان أقل نشاطاً بكثير منه في البلقان والقوقاز. ومع ذلك ظلت الروابط بين الأرثوذكس العرب والإمبراطورية الروسية قوية جداً. وكانت ترسل موسكو الصدقات والمساعدات المالية بانتظام إلى الكنائس الأرثوذكسية الشرقية منذ عهد القيصر إيفان الرابع (الرهيب) في الفترة (١٥٣٤ ــ ١٥٨٤). وكانت الكنيسة الأرثوذكسية في أنطاكيا من بين أهم المتلقين للمساعدات الروسية.

وسجل المؤرخون تبرعات غير مسبوقة من مبالغ نقدية كبيرة قدّمها إيفان الرابع أمير موسكو وأول قياصرة روسيا إلى جميع البطاركة الشرقيين في سبتمبر/أيلول عام (١٥٥٨م) من خلا ل كاهن بالكنيسة الشرقية يدعى غينادي وتاجر يدعى فاسيلي بوزنياكوف. ومن المفترض أن هذه الصلة الوثيقة بين

روسيا وبطريركية أنطاكية قد بدأت بعد زيارة بطريرك أنطاكيا يواكيم داود لموسكو عام (١٥٨٦م). وحينها ذكر المطران عيسى أحد رفقائه بالزيارة أن يواكيم كان سعيداً بجمال موسكو وسحر حكمة تسار (القيصر).

وقد كتب المستعرب قسطنطين باتشينكو: «وهكذا أغرت الأساطير المنتشرة حول ثروات موسكو الخرافية عموم رجال الدين الشرقيين للسفر إلى روسيا على أمل الحصول على عطايا القيصر». وبالرغم من أن تلك الزيارات إلى موسكو كانت قليلة ومتقطعة، إلا أن مشاعر من المودة والتعاطف الروسي نشأت تجاه الأرثوذكس العرب، وأدت إلى نتائج سياسية لدرجة أن البعض قال بأن روسيا أصبحت خياراً استراتيجياً كسندٍ جيوسياسي للأرثوذكس العرب.

وتأتي زيارة بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ماكاريوس إلى روسيا في منتصف القرن السابع عشر[١] كحدث رئيسي في تاريخ العلاقات الروسية مع أرثوذكس المشرق.

وتفيد المصادر التاريخية بأن روسيا بمقابل مساعداتها المالية والمعنوية للمسيحيين العرب، كانت تنتظر من بعضهم مساعدة في المجال الاستخباراتي عن الوضع في الشرق الأوسط. وكان العديد من الشخصيات المسيحية الأرثوذكسية من الأراضي العثمانية يزودون روسيا بمعلومات وتحليلات للأوضاع السياسية والعسكرية العثمانية. باختصار كان هناك شعور لدى البطاركة ورجال الدين بنوع من التبعية للكنيسة والدولة الروسية.

وفي هذا السياق جاء تأسيس الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية عام (١٨٨٢) من قبل القيصر ألكسندر الثالث، والتي لا زالت تعمل حتى اليوم، ويرأسها حالياً سيرغي ستيباشين (ضابط أمن ورئيس حكومة أسبق). ومهمة الجمعية إنسانية وثقافية ـ كما هو معلن ـ وهي رعاية حج

---

(١) بولص الحلبي. ١٧٦٥. ترجمها للروسية جرجس مرقص عام ١٨٩٨. دار نشر سويكين. موسكو.



الأرثوذكس إلى الأماكن المقدسة، والبحث العلمي في فلسطين، وعلم الاستشراق والتعاون الإنساني مع شعوب بلاد الشام، وهي ممولة من الحكومة الروسية.

وتفيد المراجع الروسية بأن العلاقات الودية بين روسيا والأرثوذكس العرب استمرت حتى في العهد السوفياتي ولكن بأشكال أخرى.

أ ـ الاهتمام الثقافي لروسيا القيصرية بالأراضي المقدسة وبلاد الشام:

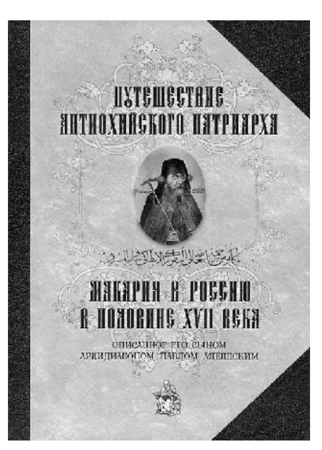
أسست موسكو في فلسطين ولبنان وسوريا مدارس عديدة تدرس كافة المواد باللغة الروسية وتعلّم العلوم والديانة المسيحية. وقد درس في هذه المدارس الداخلية، التي كانت تؤمن للتلاميذ كل المستلزمات المادية والكتب وغيرها، تلاميذ أصبحوا أعلاماً في الأدب والثقافة مثل ميخائيل نعيمة من لبنان، وكلثوم عودة ـ فاسيليفا من الناصرة، حيث زار كل منهما روسيا فيما بعد في ظروف مختلفة. فالأديب اللبناني المعروف نعيمة جاء إلى موسكو للدراسة في الأكاديمية الأرثوذكسية في بولتافا، فتعلم اللغة الروسية وأتقنها، ولكنه لم يرغب بالبقاء في روسيا، فغادر إلى أمريكا ليقضي بقية حياته. وهناك قصةٌ حصلت بين المستعرب الروسي كراتشكوفسكي وبين ميخائيل نعيمة (نوردها لاحقاً في القسم المكرس لميخائيل نعيمة).

أما كلثوم عودة، فإنها تزوجت من ضابط روسي وجاءت إلى روسيا في بدايات القرن العشرين، حيث عاصرت ثورات وحروب أهلية، وأصرت على البقاء مع زوجها، فذهبت إلى الجبهة كممرضة. وبعد انتهاء الحرب واستشهاد زوجها بدأت تعمل مدرسة للغة العربية في موسكو، وتخرج من تحت أيديها كبار المستعربين السوفيت. وكان المستعرب كراتشكوفسكي يدللها ويناديها ابنة الناصرة ليشير إلى أنها ابنة المدينة التي ولد فيها السيد المسيح.

بعد افتتاح الكلية الشرقية للغات، التي كانت بمثابة التحول النوعي في مسيرة الاستشراق الروسي في سان بطرسبورغ، وروسيا عامة، شهدت بقية المدن تقدّماً ملحوظاً في هذه المسيرة، وهذا ما سنحاول استعراضه وتقويمه في كل من موسكو وقازان، حيث كانتا المدينتين الرئيسيتين بعد بطرسبورغ.

وفيهما برز مستشرقون كانت لهم أهمية كبرى في إغناء مدرسة الاستعراب والثقافة الروسية بأسرها.

٢ ـ رحلة البطريرك مكاريوس بطريرك أنطاكية ودمشق إلى روسيا [١٨، ١٩]:



زار البطريرك مكاريوس (ابن الزعيم) روسيا مرتين في عهد القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش[١]. الأولى في عام (١٦٥٦) لجمع تبرعات بسبب الضائقة المالية التي كانت تعاني الكنيسة منها، والثانية بعد عشر سنوات أي في عام (١٦٦٥)، حيث سافر إلى روسيا مروراً بمولدافيا وأوكرانيا والبلقان ليحكم في مشكلة البطريركية الروسية وخلاف البطريرك الروسي «نيكون» شخصياً مع القيصر، حول علاقة الكنيسة بالدولة والفصل بينهما، وكانت في سنة (١٦٦٦ ـ ١٦٦٩). وكان برفقة البطريرك ابنه بولص الحلبي الذي كان مساعداً وسكرتيراً لأبيه ومرافقاً له في رحلاته، وهو يعتبر من الشخصيات المرموقة في تاريخ الكنيسة الأنطاكية. وقد كان يتحدث الروسية بشكل ممتاز لدرجة أنهم اقترحوا عليه البقاء في موسكو ليعمل مترجماً في الممثلية الأرثوذكسية. وترك بولص الحلبي أبرز مؤلف مسيحي في العصر العثماني باللغة العربية المحكية (اللهجة الحلبية)، وهو وصف رائع ونادر جداً لرحلة البطريرك مكاريوس، التي

---

(١) بولص الحلبي. ١٧٦٥. ترجمت للروسية من قبل جرجس مرقص عام ١٨٩٨. دار نشر سويكين. موسكو

دامت (٣) سنوات أي حتى عام (١٦٧٠)، لكن البطريرك عاد وحيداً جريح الفؤاد لفقد ولده، الذي اغتيل في تفليس (تبيليسي المعاصرة عاصمة جيورجيا) عام (١٦٦٩). ولم يلبث أن رسم مطراناً أصيلاً لحلب متخلياً عن إدارتها بذاته، وعاد إلى كرسيِّه في دمشق إلى أن توفي[1].

لقد كتب بولص عن كل شيء، وأغنى المخطوطة بملاحظاته الذكية ومتابعاته لكل صغيرة وكبيرة تتعلق بمختلف جوانب الحياة في البلدان والأماكن التي زارها البطريرك. وسجل كل ما سمعه ورآه عن أخلاق الناس وعاداتهم وتقاليدهم، وعن المدن والعمران، وعن ممتلكات الكنيسة والمعابد، وعن طقوس الصلوات التي شارك فيها مع أبيه، ووصف الاستقبالات الحافلة للبطريرك في القصور والكنائس، وعن الأحداث السياسية والعسكرية التي شاهدها أو سمع عنها أثناء وجوده في روسيا. وقدَّم في الكتاب وصفاً لأهم الشخصيات الحكومية والسياسية والدينية، وبالطبع كان الجزء الأعظم من الكتاب مكرَّساً لروسيا.

ويعتبر الكتاب [٢٠] من حيث حجم معلوماته وتنوعها عن روسيا من أهم وأفضل المراجع في تاريخ روسيا في أواسط القرن السابع عشر، وقد تقدم على الرحالة الغربيين الذين تحدثوا عن روسيا في تلك الحقبة. ووصف كيف أن القيصر لم يكن يثق بالسفراء الأجانب، ولذلك عينوا شرطة سرية تراقب مقرات إقامة السفراء، وكان من الصعب عليه مقابلة الناس في موسكو، وتعذر عليهم معرفة حالة المجتمع الموسكوفي. بينما بولص الحلبي، بوصفه رجل دين، تمكن من زيارة أي مكان يريده، وتحدث مع الناس دون أن يثير اهتمام السلطات الروسية. وساعده في مهمته معرفته للغة اليونانية، حيث اختلط بالأشخاص الذين ينحدرون من أصول يونانية، وتعرف على آرائهم حول الحياة في روسيا. بالإضافة إلى أن بولص كان يعرف الكثير نتيجة حضوره لقاءات القيصر والبطريرك نيكون والبطريرك مكاريوس.

---

(١) من مقدمة المترجم جورجس مرقص من العربية إلى الروسية لكتاب **رحلة البطريرك الأنطاكي مكاريوس إلى روسيا ١٧٦٥.**

وبالرغم من القيمة العلمية العالية لكتاب بولص الحلبي، الذي يمثل المرجع الشامل الوحيد في تاريخ روسيا منتصف القرن (١٧م)، فإن المخطوطة لها قيمة أدبية راقية.

قام بترجمة المخطوطة من اللغة العربية إلى اللغة الروسية البروفيسور الدمشقي جرجس مرقص، الذي كان يعمل في تدريس اللغة العربية في معهد لازاريف للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية الروسية في موسكو. وقد ترجمت المخطوطة أيضاً إلى اللغات الإنجليزية والرومانية والأوكرانية والفرنسية.

تحدثت الباحثة يوليا بيتروفا[١] من معهد أ.كريمسكي للدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الأوكرانية عن رحلة البطريرك مكاريوس الأنطاكي، وعن الكتاب كأبرز مؤلف للأدب المسيحي باللغة العربية المحكية لبولص الحلبي (١٦٢٧ ــ ١٦٦٩)، وهو ابن البطريرك مكاريوس، ويعدّ بحق أهم المؤلفات المسيحية والأدبية للروم الأرثوذكس العرب في القرن السابع عشر. فالكتاب يمتاز من الناحية الأدبية بغنى المعلومات وأصالة الفكر، ومن الناحية اللغوية فهو مادة غنية للدراسة لانه كتب باللغة العربية الوسطى (المحكية). وترى الباحثة أن الفترة التي كتب فيها المخطوط تميزت بضعف استخدام العربية الفصحى من قبل رجال الدين المسيحيين، بينما المسلمون استخدموا الفصحى بسبب القرآن الكريم. لكن المستشرق الأوكراني كريمسكي ذكر مثلاً عربياً يشير إلى ثلاثة أشياء مستحيلة (من باب الطرفة): «سكرة المسلم ونحو النصارى وغناء اليهود»، لكن الحقيقة برأي كريمسكي هي أن هناك مسيحيين يتقنون العربية أحسن من المسلمين، وقد ارتبطت النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر في سوريا ولبنان وما تزال بأسماء العديد من المثقفين والمفكرين المسيحيين.

وكانت مدينة حلب السورية، وهي مركز اقتصادي مزدهر في القرن

(١) يوليا بيتروفا. **رحلة البطريرك مكاريوس الأنطاكي: أبرز مؤلَّف للأدب المسيحي باللغة العربية الوسطى.** معهد أ.كريمسكي للدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم الأوكرانية. المؤتمر الدولي الأول في تاريخ الآداب العربية. كييف. ٤ ــ ٥ يونيو ٢٠١٥.

السابع عشر، وثالث مدينة في الإمبراطورية العثمانية من حيث المساحة، والتي سكنها (٣٥) ألف مسيحي، مركزاً لنهضة ثقافية عاشها الروم الأرثوذكس، وشهدت تلك الفترة انفتاح للمسيحيين على العالم، ومنها زيارات روسيا مروراً بمولدافيا وأوكرانيا.

أ ـ كراتشكوفسكي عن رحلة البطريرك مكاريوس:

كتب كراتشكوفسكي[١]: «لقد حدث في أعوامي الدراسية القديمة أن التهمت من غير كلل كُّل ما وجد في هذه الغرفة من المجموعات السنوية الكاملة لمجلة «الأرشيف الروسي»، ومجلة «القِدَم الروسي»، ومجلات أخرى مشابهة. وبالمصادفة عثرت آنذاك على صورة قديمة أعجبت بها في عدد كان قد نشر حديثاً من مجلة «مطالعات جمعية التاريخ والآثار الروسية». ونظرت فيما كُتب تحت هذه الصورة فإذا هي صورة لبطريرك أنطاكية مكاريوس. وعرفت للمرة الأولى من المجلة أن البطريرك مكاريوس زار روسيا مرتين في زمن القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش. على أنه قد بقيت في الحقيقة أشياء كثيرة مما قرأت غير مفهومة لي، وفي مقدمة هذه الأشياء مسألة كيف يمكن أن يكون هذا البطريرك عربياً في حين أن كل العرب مسلمون؟ هكذا فكرت ببساطة. لكنني في ذلك الوقت تذكرت رواية «يوحنا الدمشقي» لألكسي تولستوي، ومع ذلك، لم أفهم أيضاً لماذا رحل بطريرك أنطاكية من دمشق. ومرت عدة أعوام قبل أن أعرف أن العرب المسيحيين لعبوا دوراً مهماً في الخلافة العربية، وأن تاريخهم هو صفحة مهمة في الثقافة العربية. ولكن كل هذه الأشياء كانت في ذلك الوقت شيئاً غامضاً شأنه شأن الكلمات غير المفهومة التي كانت تحت صورة البطريرك مكتوبة بالعربية إلى جانب الكلمات اليونانية».

ب ـ الإسلام والمسيحية في التاريخ الروسي المبكر:

بعض الحقائق التاريخية تبدو غير واضحة لدى بعض المهتمين بالشؤون

---

(١) إ.كراتشكوفسكي. **مع المخطوطات العربية. صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر.** تعريب الدكتور محمد منير مرسي ـ الناشر دار النهضة العربية. ١٩٦٩.

الروسية، حيث يخلطون بين عملية إعلان الإسلام ديانة رسمية لإمارة «بُلغار» على أثر رحلة أحمد بن فضلان إلى حوض نهر الفولغا في بداية القرن العاشر الميلادي، وعملية إعلان المسيحية الديانة الرسمية لإمارة «كييف» الروسية التي جرت في نهاية القرن العاشر للميلاد. عدا ذلك، فإن تسمية «بُلغار» أو «بولغار» تضفي على هذه المسألة «تشويشاً» إضافياً لدى هؤلاء المهتمين، فهم يخلطون بين إمارة «بُلغار» الغربية التي كانت تقع في منطقة البلقان واعتنقت المسيحية رسمياً في عام (٨٦٣م)، وعلى أساسها تشكلت دولة بلغاريا الراهنة، وبين إمارة «بُلغار» الشرقية ـ الشمالية التي كانت تقع في حوض نهر الفولغا واعتنقت الإسلام رسمياً في القرن العاشر الميلادي على أثر زيارة أحمد بن فضلان[١] إلى هذه المنطقة، التي تقع عليها حالياً جمهورية تتارستان الحالية وعاصمتها قازان.

ومن المفيد الإشارة[٢] هنا إلى أن إمارتي «بُلغار» الغربية والشرقية الشمالية تشكلتا بنتيجة تفكك دولة «بُلغار» الكبرى، التي كانت تمتد حدودها من سواحل بحر قزوين وحوض نهر الفولغا في الشرق إلى منطقة البلقان في الغرب، وذلك على أثر زحف قبائل الخزر من أواسط جنوب أسيا إلى منطقة جنوب شرق أوروبا (القفقاس والمناطق المتاخمة المحيطة بالبحر الأسود) في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، ويوجد إجماع بين علماء الانتروبولوجيا على أن قبائل البُلغار والخزر تنتمي عرقياً إلى الشعوب الناطقة باللغة التركية تاريخياً.

---

(١) **رسالة ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد) في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة (٣٠٩هـ ـ ٩٢١م)**. حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩.

(٢) عمر شعار، «**الروس وأصولهم على ضوء عمل المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر**» مجلة التفاهم. العدد ١١. ٢٠٠٥. عُمان.



انتشر الإسلام في المناطق الداخلة حالياً في أراضي روسيا الاتحادية قبل المسيحية عبر طريقين:

الأول: عن طريق القوقاز، وذلك في عصر الفتوحات الإسلامية، حيث خاض العرب المسلمون منذ منتصف القرن السابع وحتى منتصف القرن الثامن الميلاديين حروباً عنيفةً ومتواصلةً مع خاقانية الخزر، انتشر الإسلام خلالها في هذه المنطقة، وحول هذه الأحداث نجد معلومات وافرة لدى المسعودي[١] والطبري وابن الأثير وغيرهم من مشاهير المؤرخين العرب.

والثاني: عن طريق خطوط التجارة الشمالية الممتدة من أواسط آسيا إلى أوروبا الشرقية، وكانت مدينة أتيل عاصمة الخاقانية الخزرية التي كانت عند مصب نهر الفولغا في بحر قزوين إحدى محطاتها التجارية الرئيسية، بالإضافة إلى إمارة البُلغار الشرقية الشمالية، التي كانت تقع في أواسط حوض نهر الفولغا، الذي كان يسمى في ذلك الوقت نهر «إتيل»، وكان يشكل بحد ذاته ممراً مائياً تجارياً أساسياً في العلاقة بين الشرق الأسيوي والغرب الأوروبي، فعند مصبه في بحر قزوين كانت تحط المراكب النهرية التجارية الواردة من أقاصي شمال غرب أوروبا وتعود محملة بالبضائع الشرقية، ومع ازدهار الحضارة العربية الإسلامية انتشر الإسلام في وسط الشعوب القاطنة على سواحل حوض نهر الفولغا «إتيل»، وتؤكد على ذلك التنقيبات الأثرية، حيث تم العثور في أغلب المناطق المطلة على حوضه وفي حوض بحر البلطيق على أعداد كبيرة من الكنوزمن النقود العربية الإسلامية تعود إلى القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية. ويسود اعتقاد خاطئ لدى البعض مفاده أن الإسلام انتشر في حوض نهر الفولغا على يد أحمد بن فضلان في بداية القرن العاشر الميلادي، بينما تؤكد الدراسات التاريخية والتنقيبات الأثرية على أن

(١) أبو الحسن المسعودي. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٨٧.



الإسلام انتشر في هذه المنطقة قبل ذلك بكثير[١].

ففي منتصف القرن السابع الميلادي، وعلى أثر تفكك دولة البُلغار التركية الكبرى[٢]، التي امتدت حدودها من السواحل الغربية لبحر قزوين إلى منطقة البلقان، هاجرت عدة قبائل بُلغارية نحو المنطقة الشمالية ـ الشرقية وتمركزت في الحوض الأوسط لنهر الفولغا (إتل). وهذه الحقيقة التاريخية تؤكدها التنقيبات الأثرية التي جرت في المنطقة، حيث أسست هذه القبائل في هذه المنطقة مملكة البُلغار يترأسها خان، وهو منصب أدنى من منصب الخاقان (الإمبراطور)، وكانت مملكة البُلغار تابعة لخاقانية الخزر.

في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي بدأ الإسلام بالانتشار في منطقة شرق أوروبا، فقد كانت القوافل التجارية تصل إليها من آسيا الوسطى التي توطد فيها الإسلام في تلك الفترة، فهذه المنطقة كانت مرتبطة منذ أقدم العصور بأحد خطوط طريق الحرير، الذي ينطلق من أقاصي آسيا ويمر عبر آسيا الوسطى باتجاه السواحل الشرقية ـ الشمالية لبحر قزوين، ومنها إلى حوض نهر الفولغا، حيث كانت تتوقف القوافل التجارية في مملكة البُلغار، وفيها كانت تحمل البضائع على المراكب النهرية الصقلبية والروسية في مجرى نهر الفولغا بالاتجاه الشمال ـ الغربي لتصل إلى بحر البلطيق عبر مجرى نهر الدفينا الغربي، ومن بحر البلطيق إلى عموم البلاد الإسكندنافية وبالعكس. فقد كانت مملكة البُلغار محطة أساسية للبضائع الواردة من أقاصي المناطق الأوربية الشمالية ـ الغربية، ومن البُلغار إلى الجنوب عبر مجرى نهر الفولغا باتجاه مدينة إتل عاصمة الخاقانية الخزرية عند مصب نهر الفولغا في بحر قزوين، وإلى الشرق باتجاه آسيا الوسطى عبر الخط الشمالي لطريق الحرير. ولذلك كانت مملكة البُلغار على تماس واحتكاك دائم مع الصقالبة (السلاف)

---

(١) عمر شعار، «**الروس وأصولهم على ضوء عمل المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر**» مجلة التفاهم. العدد ١١. ٢٠٠٥. عُمان.

(٢) ي.تاغيروف. **تاريخ الدولة الوطنية للشعب التتاري وتتارستان**، قازان ٢٠٠٠م.

والروس، وتشير المصادر التاريخية بأنه إلى جانب التجارة كان الشعب البُلغاري يمارس زراعة الحبوب وتربية الحيوانات. وتؤكد التنقيبات الأثرية بأن تركيب سكان مملكة البُلغار كان مختلطاً، ويتألف من البُلغار (الترك) والصقالبة (السلاف) والأغوريين والفلنديين، وتشير أيضاً إلى أن الإسلام في بداية القرن العاشر الميلادي انتشر بشكل واسع بين سكان إمارة بُلغار.

ورغم حالة الوهن السياسي التي كانت تعاني منها الخلافة العباسية في تلك المرحلة، إلا أنه يوجد إجماع بين المؤرخين بأن القرنين الرابع والخامس الهجريين يعتبران تاريخياً مرحلة العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية، والتي كانت تعتبر في تلك المرحلة أرقى حضارة إنسانية في القرون الوسطى.

وفي تلك المرحلة أصبحت المدن الإسلامية في آسيا الوسطى بخارى وطشقند وسمرقند وخوارزم وغيرها مراكز إشعاع حضارية عالمية، وقد انعكست مؤثراتها الحضارية على مملكة البُلغار الإسلامية في حوض الفولغا، التي كانت تعيش قبل اعتناقها الإسلام حالة شبه همجية.

فعلى المستوى الداخلي تم إعادة تنظيم البنية السياسية للدولة البُلغارية وفق الأنظمة التي كانت سائدة في الخلافة العباسية، وإليها انتقلت المنجزات الثقافية والتكنولوجية العلمية الإسلامية، ففي القرن العاشر الميلادي ازدهرت الحياة التجارية والزراعية والحرفية والثقافية في مدينة بُلغار العاصمة ومدينة سوفار، وتحولتا مع المدن البُلغارية الأخرى إلى مدن إسلامية، حيث شيد فيها العديد من الجوامع وعشرات المساجد. وأكد المؤرخ الروسي سيرغي سولوفيوف[(١)] أنه: «هنا منذ القدم كان يعيش شعب البُلغار التجاري والصناعي، منذ القدم وقبل أن يبدأ الروسي السلافي بتشييد الكنائس المسيحية على ضفاف نهر أوكا، وقبل أن يتوسع إلى هذه المناطق...كان البُلغاري يستمع للقرآن على ضفاف نهري الفولغا وكاما».

---

(١) سولوفيوف. س.م. **تاريخ روسيا منذ أقدم العصور**، الكتاب الثالث (الأجزاء ٥ ـ ٦)، دار ميسل (الفكر). موسكو. ١٩٨٩.

وفي القرن العاشر الميلادي كانت دولة البُلغار مركزا للاتصال مع الشرق، حيث استطاعت أن توفر الأمن الكامل للقوافل التجارية المتوجهة نحو الشرق الآسيوي، وتحولت مملكة بُلغار إلى مركز تجاري مهم بين الشرق والغرب، وتؤكد كافة المصادر التاريخية والتنقيبات الأثرية على أن مملكة بُلغار الإسلامية كانت في القرن العاشر الميلادي مركزاً حضارياً إسلامياً متقدماً في منطقة شرق أوربا، وبحكم موقعها الجغرافي والتجاري المتميز في حوض نهر الفولغا كانت على تماس مباشر مع بعض قبائل الصقالبة (السلاف)، التي رحلت إلى حوض الفولغا في القرن الثامن الميلادي، واندمج جزء منها مع البُلغار واعتنقت الإسلام، وكانت أيضاً على احتكاك مباشر مع القبائل الفيلندية ـ الأوغورية الشمالية ومع إمارة كييف الروسية. لقد استمرت مملكة البُلغار في الوجود حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، عندما تقوضت على أيدي التتار والمغول ودخلت في عداد الأوردا (القبيلة) الذهبية إلى جانب الإمارات الروسية.

ورغم انتشار الإسلام بشكل واسع وسط شعوب وقبائل المنطقة، وفي داخل الدولة الروسية وعاصمتها كييف، إلا أن النخبة الحاكمة الروسية الفارياغية[١] التي كانت تعيش على التجارة البحرية كانت تبحث عن كيان سياسي ضخم تعتمد عليه سياسياً واقتصادياً، وبالأخص في تصريف البضائع وعقد الصفقات التجارية، وهذا العامل كان بلا شك يتوفر في الدولة البيزنطية ككيان سياسي واقتصادي، حيث كانت القسطنطينية واحدة من المراكز التجارية الأساسية في حوض البحر الأبيض المتوسط وعلاقاتها التجارية واسعة بين الشرق الأوسط وأوربا وشمال أفريقيا، والروس كانت لهم علاقات تجارية تاريخية مع القسطنطينية والتي كانوا يسمونها «مدينة القيصر».

وبدورها كنت الدولة البيزنطية تسعى حثيثاً لكسب ود الروس والتحالف معهم، لاتقاء شرهم من ناحية، ولاستخدامهم في إضعاف أخصام وأعداء

---

(١) ي. غالكينا، **الخاقانية الروسية**، موسكو ٢٠٠٢م.

الدولة البيزنطية في أوروبا وآسيا، وخير مثال على ذلك علاقة القسطنطينية مع الأمير سفياتوسلاف والد فلاديمير، الذي استخدمته في تصفية خاقانية الخزر منافستها على النفوذ في منطقة جنوب شرق أوروبا. وبلا شك لعبت العلاقات التجارية والبعثات التبشيرية التي كانت ترسلها القسطنطينية إلى المنطقة دوراً كبيراً في انتشار المسيحية وسط شعوب المنطقة ومن ضمنهم الروس، وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي استطاعت الكنيسة المسيحية أن تستقطب رموزاً مهمةً في النخبة الروسية الحاكمة في كييف، ومن ضمنهم الأميرة اولغا وحفيدها الأمير ياروبولك.

وفي عام (٨٦٣م) اعتنقت المملكة البُلغارية الغربية المسيحية رسمياً بالإضافة إلى الدويلات السلافية في منطقة البلقان، وكانت علاقات الدولة الروسية القديمة مع هذه المنطقة متينة للغاية، وبالأخص في فترة حكم الأمير سفياتوسلاف، الذي أقام لفترة طويلة في منطقة حوض نهر الدانوب، وبلا شك تأثر الروس بعملية انتشار المسيحية في منطقة البلقان، والتي ترافقت تاريخياً مع عملية ابتكار الكتابة السلافية من قبل الأسقفين كيريل وميفودي في منتصف القرن التاسع الميلادي، وفي منتصف القرن العاشر الميلادي تراكمت في بُلغاريا الغربية كمية كبيرة من الأدبيات المسيحية المكتوبة باللغة السلافية، وانتشرت تدريجيا في وسط القبائل السلافية الشرقية القاطنة في الدولة الروسية.

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي اعتنقت الممالك الألمانية رسمياً الديانة المسيحية، وتبعتها الدولة البولونية وبقية الدويلات السلافية الغربية، ورغم تبعية هذه الدول للكنيسة البابوية الغربية في روما، إلا أنه في تلك الفترة لم يكن قد جرى الانقسام بين الفاتيكان والقسطنطينية، ويبدو أن وضعية خضوع الكنيسة بالكامل لإرادة الإمبراطور البيزنطي كانت تتناسب وتنسجم مع توجهات النخبة الروسية الحاكمة في كييف، ولذلك اختارت الارتباط بالكنيسة الشرقية البيزنطية، والتي انقسمت نهائياً عن الكنيسة



البابوية الغربية على أثر الخلاف حول مشروع الحملات الصليبية نحو الشرق في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي.

وفي عام (٩٨٧م) جرت في الدولة البيزنطية[١] حرب داخلية ساهمت بشكل مباشر في عملية اعتناق الروس للديانة المسيحية. ففي هذا العام جرى عصيان عسكري في الجيش البيزنطي بقيادة الجنرال فارد فوك وأعلن نفسه إمبراطوراً، وفي بداية عام (٩٨٨م) زحفت قواته نحو القسطنطينية. في تلك الفترة كان يحكم الدولة البيزنطية إمبراطوران شقيقان، حيث توجه أحدهما الإمبراطور فاسيلي الثاني بطلب المساعدة من الأمير الروسي فلاديمير، الذي استجاب بسرعة وأرسل ستة آلاف مقاتل من الروس، الذين لعبوا دوراً أساسياً في قمع حركة العصيان، وفيما بعد تكررت هذه الحالة أكثر من مرة، وأصبحت القوات الروسية القوة العسكرية الضاربة للدولة البيزنطية.

وعلى أثر قمع حركة العصيان توطدت علاقات التحالف بين الدولتين الروسية والبيزنطية، تجسدت في زواج الأمير فلاديمير من الأميرة آنا شقيقة الإمبراطور البيزنطي في عام (٩٨٨م)، حيث جرت مراسم عقد الزواج وفق الأصول المسيحية، وسبقها اعتناق فلاديمير المسيحية. ومن ثم أعلن فلاديمير المسيحية الديانة الرسمية للدولة الروسية، وأصدر أوامره إلى جنده لتحطيم كافة تماثيل الآلهة الوثنية وحرق معابدها، وألزم أهالي كييف باعتناق المسيحية بشكل قسري وجماعي. وتؤكد المصادر التاريخية الروسية أن عملية الإكراه على اعتناق المسيحية بحد السيف في كييف وبقية المدن والمناطق الروسية جرت تحت إشراف القساوسة البيزنطيين، وترافقت بمقاومة عنيفة من قبل القبائل الوثنية، حيث جرت عمليات ملاحقتهم في القرى والغابات، وفي كثير من الحالات تم حرقهم وهم أحياء وإغراقهم في الأنهار والبحيرات. والمسلمون الذين رفضوا اعتناق المسيحية نزحوا إلى قبائل البيجنك والبولوفيتسي (وهي

---

(١) ف.كوزمينكو. **تاريخ روسيا**، موسكو ١٩٩٩م.

قبائل القفجاق والكومان التركية والتي كانت تقطن في السهول المطلة على سواحل البحر الأسود والسهول المحيطة بجبال القوقاز، وأطلقت عليها قبائل الصقالبة السلافية تسمية البولوفيتسيين والتي تعني باللغة السلافية سكان السهوب)، أما الجالية اليهودية فقد هربت إلى بولونيا واستوطنت في مدنها ومراكزها التجارية.

لقد تم تأسيس الكنيسة المسيحية الروسية وفق نموذج الكنيسة الإغريقية البيزنطية، وفي البداية كانت إسقفية يترأسها إسقف، وتحولت فيما بعد إلى مطرانية يترأسها مطران، وكان الأساقفة والمطارنة بيزنطيون ويتم تعيينهم من قبل بطريرك القسطنطينية شخصياً. وكانت علاقة الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية البيزنطية مع الدولة مبنية على الولاء الكامل لرأس الدولة (الأمير أو القيصرأو الإمبراطور). وتتلخص بشكل مكثف في شعارها الداعي إلى الولاء للقيصر والعقيدة والوطن. وهذه الوضعية كانت تتناسب مع نزعات النخبة الحاكمة في الدولة الروسية، وهناك إجماع بين المؤرخين على أن الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية ولاحقاً الروسية لعبت دوراً كبيراً في توطيد دعائم الحكم القيصري الاستبدادي المطلق في الدولة الروسية.

ج ـ رؤية حول الهُوية الروسية:

لطالما طرح المثقفون والمفكرون الروس موضوع الهوية الوطنية الروسية والانتماء الحضاري لروسيا. فهل هي أوروبية أم شرقية؟ ونسمع منهم أن روسيا متميزة ولها طريقها الخاص في التطور فلا هي أوروبية خالصة ولا هي شرقية. وعند الحديث عن الثقافة والتاريخ والروحانيات فالفكر الروسي يميل إلى الشرق، وعندما نتحدث عن الصناعة والتقدم التكنولوجي، فالروس يؤكدون على أوروبيتهم. وليس صدفة أن يقول الشاعر الروسي فيودور توتشيف في عام (١٨٦٦): «لا يمكن أن نفهم روسيا بعقلنا» (بل بقلوبنا). ويريد التأكيد على أن تاريخ روسيا وتطورها الحضاري له بالفعل خصوصية. وللشعب الروسي عقلية متميزة. فالروسي تجده من الناحية الروحية قريب من الشرق. والكتاب الروس

تأثروا كثيراً بالثقافات الشرقية وخاصة العربية والإسلامية. كما أن روسيا هي الدولة الوحيدة التي عرفت العبودية في أوروبا، وأن نظام العبودية بدأته الدولة نفسها. بالإضافة إلى أن الديانة المسيحية في روسيا اتخذت طابعاً متميزاً هو الأرثوذكسية التي تعتبر روسيا مركزها العالمي.

ولا يمكن تجاهل الموقع الجغرافي لروسيا الممتد في قارتين: أوروبا وآسيا. وبالتالي فالدولة الروسية تجمع أقواماً وأتباع ديانات مختلفة جداً مثل الروس وهم الاغلبية الساحقة، والتتار والقوقازيين من مسيحيين أرثوذكس ومسلمين وبوذيين ويهود في أرض واسعة جداً. وهنا يبرز سؤال مشروع: ما هي هوية الروس هل هم شرقيون أم أوروبيون؟

المؤرخ الروسي شمورلا[(١)] يرى «أنه إلى جانب التأثير الحضاري الأوروبي الغربي على روسيا، كان ثمة خط مواز ثقافي ترك آثاره بدوره عليها، وهو الخط المتمثّل بالتأثير التاريخي الثقافي الآسيوي. فرغم أن هذين الخطين كان كل منهما ينصب العداء للآخر، فإن روسيا كانت تتأرجح بينهما وتتأثر سلباً وإيجاباً بهما». ويعتبر الناقد الروسي المشهور ليخاتشوف أن الثقافة الآسيوية الشرقية لم تترك أي أثر ملحوظ على الثقافة الروسية. فلقد كانت أنظارها متجهة نحو الثقافة الأوروبية الغربية [٦].

لكن شعار الدولة الروسية وهو صقر ذو رأسين، ينظر أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب يعبر بوضوح عن توجه السياسة الروسية[(٢)] التي تؤكد الانتماء إلى حضارتين: الشرقية الآسيوية والغربية الأوروبية. ومن هنا برزت

---

(١) سهيل فرح ـ **صورة العرب والمسلمين في الإستشراق الروسي: مقاربة بيو بيبليوغرافية تاريخية.** مارس ١٠، ٢٠١٧. موقع روسيا والعالم الإسلامي ـ مجموعة استراتيجية ـ موسكو.

(٢) لأول مرة استخدم في روسيا شعار الصقر ذي الرأسين في عام ١٤٩٧ في عهد الأمير إيفان الثالث الذي حرر روسيا من سيطرة التتار (القبيلة الذهبية).



نظرية الأوراسيا الروسية (الأوروبية الآسيوية) التي طرحهاالمفكر الروسي المعاصر ألكسندر دوغين وعرضها في مؤلفاته وخاصة جيوبوليتيك الأوراسيا الروسية[١].

ولم يغفُ سؤال الهوية القومية في روسيا منذ استفاق لحظة توحّد الأمارات الروسية إلى اليوم. سؤال، من نحن؟ يؤرق المفكرين والكتاب الروس. تجدهم في حالة بحث دائم عن فكرة تقوم عليها دولتهم. فهل تعود جذور هذا السؤال إلى مخاوف داخلية أم إلى مشاريع خارجية؟

مسألة عدم تناسب مساحة روسيا الهائلة مع عدد سكانها القليل نسبياً، وبالتالي حاجتها إلى فكرة جامعة تحول دون انفصال الأقاليم المتنوعة إثنياً ودينياً مسألة جديرة بالاهتمام، ولكن، هل ينتهي السؤال هنا، أم هو مشروع توحد من أجل السيطرة؟ تجد لسؤال الهوية الذي لا ينفصل عن سؤال النفوذ ومصالح الدولة حاملة الهوية الجمعية المركبة امتداداً لعلاقة روسيا بالشعوب المنتشرة تحت جناحي الحلم الروسي، في أوروبا وآسيا، وبالديانات التي تعتنقها. وهنا يجدر البحث عن جوهر المشروع الأوراسي وممكناته.

من هنا تبدأ أوراسيا. هنا الحروب والتحالفات واعتناق الأديان والارتداد عنها، وهنا التفاعل الثقافي المؤهل للاندماج، آنَ تبرد الرؤوس وتغمد السيوف. هنا، يختار الأمير فلاديمير عقيدة لدولته وشعبه، بعيداً عن حبه للخمر ولحم الخنزير والنساء أو تخليه عن الأربع الزوجات والحوريات.. وهنا يهزم مماي على يد دونسكي في معركة كوليكوفا ويعيش الآسيوي في الثقافة والوجه الروسيين.

روسيا وارثة بيزنطة التي آل إليها نصف الإمبراطورية الرومانية، لا ترى نفسها جناحاً من جناحي الصقر، إنّما لها الصدر منه والقلب. فكيف ورثت روسيا بيزنطة وورثت معها فكرة أوراسيا؟ ولماذا تعد نفسها «روما الثالثة»؟

---

(١) ألكسندر دوغين. **أُسسُ الجيوبوليتيكا: مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي**. ترجمة عماد غانم. بيروت. دار الكتاب الجديد. ٢٠٠٤.

أقام فلاديمير حلفاً مع إمبراطور بيزنطة في القرن العاشر الميلادي، فرفع مكانة كييف الروسية. وكان ذلك الحلف ضرورياً لتقوية استقلال الدولة الروسية آنذاك، وقد أراد له الأمير أن يفتح آفاقاً هامة لتطور عسكري ونمو اقتصادي. ولكن امتلاك القوة وضمان التقدم كانا يقتضيان عدم الدخول في صراعات داخلية. وكانت ترجمة ذلك تعني أنّ على الدين الجديد أن يأخذ بالحسبان وثنية روسيا ويتكيف معها. فتحطيم الرموز الوثنية لاقى مقاومة شرسة من الشعب ومن الكهان، وتم التعامل معهم بعنف، ومع ذلك استمرت التقاليد الوثنية مع طقوس العبادة المسيحية الجديدة. ذلك كله قاد إلى تعميق خصوصية التقاليد الأرثوذكسية السلافية، وبالنتيجة مهَّد هذا الاندماج الخلّاق لتطور عام في الثقافة، وإلى قفزة في فن العمارة، ونشأت معه صروح كتابية في روسيا القديمة.

في هذه الحقبة، لم يتوقف الصقر الروسي الطامع بما هو أبعد من وراثة بيزنطة (روما الثانية) عن البحث جنوباً وغرباً لتحقيق روما الثالثة (الإمبراطورية الروسية). لكن أعين الصقر الأربع كانت تقع على جيران أقوياء شرسين لهم صقورهم التي لا تغمض لها عين. ومع ذلك، عرف الصقر الروسي كيف يسيطر على منطقة أوراسية أوسع من امتداد جناحيه. بل ازداد حلمه الأوراسي رسوخاً بعد سيطرته على جغرافيا قائمة على ثقافات مختلفة متفاعلة في بوتقة عقيدتين ـ الإسلام واليهودية. فلتكن أوراسيا، إذن مشروعاً ثقافياً وليس مشروع عسكرة واقتصاد فقط. أليست اللغة الروسية رباط الأوراسية الجامع، كما كانت في العهد السوفياتي؟

دخلت قوات جنكيز خان روسيا عام (١٢٢٣م)، ولم يبدأ تحرر روسيا إلا مع حلول عام (١٣٨٠)، حين انتصر ديمتري دانسكوي على مماي خان (القائد التتري) في موقعة كوليكوفا، ومع ذلك استمرت بدفع الجزية للقبيلة الذهبية (التترية). وبعد مائة عام من ذلك احتشد جيشاً الأمير إيفان الثالث وأحمد خان الأوردي، الذي أراد استعادة الهيبة والسيطرة، بعد موقعة كوليكوفا دون

جدوى، واستعرضا القوة طويلاً على ضفتي نهر (أوغرا) وأحدهما قبالة الآخر، إلى أن أيقن أحمد خان استحالة هزيمة جيش إيفان فانسحب إلى ما وراء الفولغا عام (١٤٨٠). ويعد ذلك نهاية الحقبة التترية المغولية في روسيا. الحقبة التي استمرت أكثر من قرنين ونصف القرن، تاركة ملامحها ليس على الوجه الروسي فقط، بل وعلى كثير من الطبائع والعادات والتقاليد في انزياحاتها وتفاعلاتها الممكنة مع قاعدة أرثوذكسية سلافية وثنية. كانت روسيا قبل ذلك قد عرفت الإسلام. فقد راح الإسلام ينتشر ولكن ببطء شديد مواكباً رحلات التجار بين القرنين السابع والعاشر الميلادي. كما عرفت روسيا اليهودية عبر الخزر.

كان بعض الخزر، الذين شغلت مملكتهم الشديدة البأس المنطقة الجنوبية الغربية من الإمبراطورية الروسية، وتحكمت بالمعابر التجارية، اعتنق الإسلام بفضل التجار العرب. ثم جاء القائد المسلم **مروان بن محمد** فاتحاً، فاعتنق ملكهم الإسلام. ولكن ما إن ضعفت سلطة العرب المسلمين حتى رأوا في الإسلام دين غزاتهم، واختار ملكهم الديانة اليهودية. انتشر الدين الإسلامي واليهودي في روسيا مع تفكك مملكة الخزر، وبقيت أرضهم ساحة منافسة بين بيزنطة وكييف الروسية. ومع تفكك مملكتهم، بقي قسم من الخزر على الإسلام واستمروا في العيش في شبه جزيرة القرم ومناطق قوقازية أخرى، فيما كان آخرون اعتنقوا المسيحية عبر بيزنطة. وهكذا، انتقل الحال في منطقة المشروع الإمبراطوري الروسي من الصراع إلى تفاعل للثقافات، السلافية الأرثوذكسية واليهودية والإسلامية، تحت ظل جناحي الصقر. وفي الثقافة استمر الحلم الروسي بأوراسيا للصقر الروسي القلب منها واللسان.

يعود الصقر الثنائي الرأس، شعار روسيا الحالية، إلى الإمبراطورية الرومانية، وقد كان آنذاك رمزاً لتوحيد شطري الإمبراطورية الشرقي والغربي، إلى أن انهار الغربي وورثت الشرقي بيزنطة، جاعلة الصقر الثنائي الرأس تعبيراً عن سلطة لها تشمل أوروبا وآسيا. ثم أخذته روسيا عن بيزنطة وجعلته



مطابقاً للأصل البيزنطي (صقر ذهبي على درع أحمر)، مؤكدة حمولته الرمزية. يُعد الصقر الثنائي الرأس من أقدم الرموز السياسية، فقد عُثر على أولى رسومه في آثار سومر. اعتمدت روسيا هذا الصقر رمزاً لإمبراطوريتها، بعد أن قام إيفان الثالث بخطبة صوفيا بوليلوغ حفيدة إمبراطور بيزنطة الأخير قسطنطين بوليلوغ، عام (١٤٧٢). وأعد الصقر الموروث، منذ ذلك الحين، رسالة رمزية إلى روسيا تضع بين يديها مهمّة متابعة ما ستنتهي دونه الإمبراطورية البيزنطية. وحملت روسيا الأمانة، دينياً وثقافياً وسياسياً.

وهكذا، فيمكن للقارئ المتفحّص اكتشاف علاقة وثيقة بين مشروع (روما الثالثة) الثقافي الكنسي وحلم إمبراطوري جيوسياسي أوراسي واقتصادي وعسكري، الأمر الذي يفسر التطابق في المواقف حيال هذا المشروع بين الكنيسة والكريملن. ومنه، فليس اشتغال الكريملين الحالي على أوراسيا جديدة (دوغين هو المنظر لنظرية الأوراسيا الروسية) إلا امتدادا لحلم كنسي ومتابعة لمشروع إمبراطوري روسي كان الاتحاد السوفياتي واحداً من تجلياته. ويمكن تلخيص تاريخ الدولة القيصرية الروسية على أنها تحالف وثيق سلطوي ديني بين سلطة القيصر وقوة الكنيسة الأرثوذكسية وتأثيرها ودعمها للقيصر.

يراد لأوراسيا الجديدة أن تكون قطباً فاعلاً وقوة اقتصادية وعسكرية أقدر على مواجهة المشاريع الأميركية، ويضمر لها أن تخدم في الوقت نفسه حلماً روسياً قديماً، وفكرة قومية جامعة للروس، يتكئون عليها للنهوض من جديد بعدما أقعدهم انهيار الاتحاد السوفيتي طوال عقدين. وأمّا الواقع فهو الذي يختبر نجاح الفكرة وقابلية النوايا للتحقق.

ويرى بعض المنظرين المعاصرين في روسيا أن «الفكرة الروسية» أو «العالم الروسي» هي أفكار تجمع الروس وكل من يتحدث الروسية لتلتف حول الدولة الروسية، لدرجة أن قالوا بأن روسيا متيميزة بكل شيء عن الغرب والشرق ولها طريقها الخاص وديمقراطيتها الخاصة (الديمقراطية السيادية) ولذلك نجد

بالفعل حتى التجربة الاقتصادية الليبرالية بعد تفكك الاتحاد السوفيتي عام (١٩٩١) جاءت متعثرة ومعقدة ومختلفة كليا عما هو سائد في العالم.

وعند الحديث عن الاهتمام الروسي بمسيحيي الشرق، فإن ذلك أيضاً يتعلق بالنشاط الكنسي المشرقي، حيث توجد بطريركيَّتان تمثِّلان المسيحيين في بلاد الشام، وهما: بطريركيَّة القدس وبطريركية أنطاكيا. وتمتدُّ ولاية بطريركية أنطاكيا إلى سوريا ولبنان والعراق والمنطقة الشرقية مِن تركيا. وهما تتنافسان منذ أمَد طويل في بسط نفوذهم بالمنطقة. فخلالُ القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، كانَتَا في سِجالٍ مستمرة للحصول على الصدقات المَلَكية الروسية. وتبحث بطريركية أنطاكيا عن أي تحالفٍ مع بطريرك موسكو، في حين تركِّز كنيسة القدس جهودَها نحو التحالف مع كنيسة القسطنطينية. وعِند هذه النقطة يتطابق التوجُّه السياسي للكنيسة الأُرثوذكسية الروسية والحكومة الروسية، حيث أنَّه في الوقت الحالي ترتبط مصالح الدولة الروسية ارتباطاً وثيقاً بوضع المسيحيين الأُرثوذكس في سوريا والمنطقة.

ويشكل العامل الديني أحد التوجهات الأساسية للسياسة الخارجية الروسية في الشرق الأوسط، والذي يفسر جزئياً التدخل العسكري الروسي في سوريا في (٣٠ سبتمبر، أيلول ٢٠١٥)، حيث تحدثت القيادة الروسية أكثر من مرة وعلى أعلى مستوى عن قلقها على وضع المسيحيين مستخدمة ذلك كحجة للاهتمام الكبير بالوضع السوري. وليس صدفة أن يصرح البطريرك كيريل الأول، بطريرك موسكو وعموم روسيا حول سوريا: «يجب أن يتَّفِق المجتمع العالمي اليوم على الحرب ضدَّ الإرهاب، فالأمر يجب ألا يهمَّ روسيا فقط، بل كلُّ الشعوب. لذا علينا أن نتَّحد لهزيمة الشر، في حربٍ أدعوها بالمُقدَّسة».

ويأتي في هذا الإطار الاجتماع النادر الذي عُقِد في كوبا في (فبراير/ شباط ٢٠١٦) وجمع البطريرك الروسي كيريل وبابا الكنيسة الكاثوليكية الأب فرانسيس، وناشدا المجتمعَ الدولي إلى «اتِّخاذ إجراءات عاجلة لمنع المزيد مِن نزوح المسيحيين مِن الشرق الأوسط». وقد دعم الموقف الروسي ويليام



فرانكلين غراهام، رئيس جمعية بيلي غراهام الإنجيلية، وأيد موقف الكنيسة الأُرثوذكسية الروسية والحكومة الروسية في سوريا، قائلاً: «أعتقدُ أنَّ تأييد (البطريرك كيريل) للحكومة السورية يمكن أن يحمي حياة المسيحيين هناك» وهكذا تم استخدام العامل الديني حجة لدعم نظام الاسد الاستبدادي في سوريا.

وقد تكون خسارة روسيا لمنطقة البلقان المهمة من ناحية دينية أرثوذكسية وجيوسياسية (عند تقسيم يوغسلافيا في نهاية تسعينيات القرن الماضي)، تفسر أيضاً الاهتمام غير العادي لروسيا بمنطقة بلاد الشام مهد الأرثوذكسية.





الفصل الثاني

تاريخ الروس في الأبحاث والمؤلفات العربية

أولاً: حول أصول الروس[1]:

موضوع أصول الروس من المواضيع التي دار حولها جدل بين الباحثن والمؤرخين الروس، وقد أشار المؤرخ السوري عمر شعار إلى أن المؤرخين الروس، في دراسة تاريخهم القديم، يعودون إلى مصادر أجنبية كونها في غاية الأهمية وذات قيمة تاريخية علمية، ومن أهمها مصادر جاءت من بيزنطة وأخرى من الرحالة العرب المسلمين [٢٠].

فمن هم الروس؟ هل ينتمون عرقياً إلى القبائل النورماندية الجرمانية؟ وما هي علاقتهم بالقبائل السلافية (الصقالبة) أو القبائل السكيفية ذات الأصول الإيرانية؟ حول هذه الأسئلة وغيرها من الاحتمالات تدور حوارات حامية الوطيس في أوساط المؤرخين الروس، والأجانب المتخصصين بتاريخ شعوب أوروبا الشرقية منذ ثلاثة قرون، وحتى وقتنا الراهن. وبلا شك تتضمن هذه الحوارات إسقاطات فكرية ودينية وسياسية، وجيوبوليتيكية تبرز بشكل حاد على السطح السياسي الروسي في المراحل التاريخية الانعطافية في سياق الإجابة على السؤال الكبير: هل الدولة الروسية تنتمي حضارياً إلى الحضارة الأوروبية الغربية، أم إلى الحضارة الآسيوية الشرقية؟

---

(١) عمر شعار. **الروس وأصولهم على ضوء عمل المسعودي: «مروج الذهب ومعدن الجوهر»**. مجلة التفاهم ـ سلطنة عمان. العدد ١١. عام ٢٠٠٥.



وكدلالة على أهمية وحساسية موضوع أصول الروس في وقتنا الراهن يكفي الإشارة إلى أن صحيفة «أزفيستيا» الروسية[١] أجرت حواراً مطولاً مع الأكاديمي أندريه ساخاروف، مدير معهد تاريخ روسيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية، وفي صيف عام (٢٠٠٤م)، قام الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، بزيارة إلى المناطق الواقعة في شمال غرب مدينة نوفغراد الروسية، والتي تجري فيها تنقيبات أثريـة واسعة النطاق بهدف الإجابة على هذا السؤال الكبير[٢].

وفي العهود القيصرية تبنت الجهات الرسمية الروسية النظرية «النورماندية»، معتمدة في ذلك على مخطوطة «رواية الأعوام البائدة»، التي كتبها القس نيسطور في نهاية القرن الثاني عشر وأكد فيها على أن الروس هم مجموعة من قبائل «فارياغ» النورماندية الجرمانية الشمالية، الذين سيطروا بقيادة زعيمهم ريوريك في بداية القرن العاشر الميلادي على القبائل السلافية «الصقالبة» المتناحرة المستوطنة في حوض نهر الدنيبر، وأن «الروس الفارياغيين»، لعبوا دوراً أساسياً في تشكيل إمارة «كييف الروسية» القديمة، وشكلوا فيها لاحقاً النخبة الحاكمة العيا ممثلة في سلالة ريوريك التي حكمت الدولة الروسية حتى نهاية القرن الخامس عشر عندما توفي الأمير دميتري ابن إيفان الرابع (الرهيب)، أول وآخر قيصر من هذه السلالة، ودخلت الدولة الروسية على أثر ذلك في مرحلة الفتنة «سموتا»، وفي عام (١٦١٣م) انتقل زمام السلطة في الدولة الروسية إلى عائلة رومانوف القيصرية[٣].

في منتصف القرن الثامن عشر وعلى أثر تشكل الإمبراطورية الروسية

---

(١) مقابلة مع الأكاديمي أندريه ساخاروف مع صحيفة أزفيستيا الروسية بتاريخ ١٧ يناير ٢٠٠٤. وكان مدير معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم الروسية. ومعروف بأفكاره القومية المتعصبة.

(٢) صحيفة أزفيستيا بتاريخ ٢٠٠٤/٧/١٧م.

(٣) **تاريخ روسيا**: إصدار معهد تاريخ روسيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية تحت إشراف الأكاديمي ساخاروف، في ثلاثة أجزاء، موسكو ٢٠٠٠ م. ج١.

معبرا بذلك عن بداية بزوغ الشعور القومي السلافي، وطموح الدولة الروسية لتزعم الشعوب السلافية الأرثوذكسية في مواجهة الدول الأوروبية الغربية، والإمبراطورية العثمانية، وقد ازدهرت النظرية السلافية القومية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وأصبحت سائدة في أوساط المثقفين والسياسيين الروس، وأيدتها بقوة الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

في العهد السوفياتي تبنى الشيوعيون النظرية السكيفية، ومفادها أن الروس والسلاف ينتمون إلى القبائل السكيفية والسارماتية ذات الأصول الإيرانية التي كانت تقطن في جنوب أوكرانيا على السواحل المطلة على البحر الأسود في الألف الأولى قبل الميلاد، والتي ذكرها هيرودوت في كتاباته التاريخية، وبذلك أراد الشيوعيون السوفييت أن يربطوا الروس بالشعوب المحلية القديمة ورفضوا بشدة مقولة الروس الفارياغيين الوافدين إلى منطقة حوض نهر الدنيبر، ويعتبر الأكاديمي السوفياتي اليكسي ريباكوف أبرز ممثلي النظرية السكيفية. في مرحلة البروسترويكا، وعلى أثر إشاعة الحريات الديمقراطية، ورفع القيود عن حرية الفكر ظهرت آلاف الدراسات المكرسة لهذا الموضوع، وكلها تتمحور حول وجهتي النظر الأساسيتين: النورماندية التي يتبناها ممثلو التيار الليبرالي التغريبي، والسكيفية التي يدافع عنها ممثلو التيارات القومية والشيوعية.

بعد هذا العرض الموجز للخلفية التاريخية والسياسية لهذه الإشكالية يبرز السؤال التالي:

ما هي علاقة المسعودي بهذا الموضوع الشائك؟

الإجابة على هذا السؤال تنحصر في أن أغلب المؤرخين الروس يستشهدون بأعمال المؤرخين والرحالة العرب المسلمين وبالأخص بعمل المسعودي «مروج الذهب وجوهر المعادن»، الذي زار المنطقة في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي[١]. وقبل التوقف عند ما كتبه المسعودي حول

---

(١) أبو الحسن المسعودي. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٨٧



الروس وأصلهم وعلاقاتهم مع السلاف (الصقالبة)، لا بدَّ من التعرض لخصوصية جغرافية المنطقة التي بدونها لا يمكن فهم وتفسير نصوص المسعودي حول هذا الموضوع.

تتميز المنطقة التي شهدت أحداث ولادة إمارة «كييف الروسية القديمة» في القرن العاشر الميلادي بوضعية جغرافية فريدة من نوعها، فهي شبه مغطاة بالغابات ومملوءة بالبحيرات والمستنقعات والأنهار الصغيرة والمتوسطة، وفيها تجري ثلاثة أنهار كبرى: الفولغا (إتيل)، والدنيبر، ودفينا الغربي، المتصلة مع بعضها البعض من خلال المنبع من ناحية وتصب في بحار مختلفة، فهذه الأنهار الثلاثة تنبع من منطقة واحدة، وهي منطقة الفالداي الواقعة في مقاطعة نوفغراد الروسية، التي تقع شمال غرب موسكو على بعد أربعمائة كيلومتر، ففي هذه المنطقة يقع منبع نهر الفولغا الذي ينحدر نحو الشرق، ومن ثم ينعطف نحو الجنوب ليصب في بحر قزوين، ومنها ينبع نهر الدنيبر الذي ينحدر نحو الجنوب ويصب في البحر الأسود، وفيها أيضاً يقع منبع نهر دفينا الغربي الذي يتجه نحو الغرب ويصب في بحر البلطيق. وبذلك نلاحظ أن البحار الثلاثة: البلطيق، والأسود، وقزوين مرتبطة ببعضها بعضاً منذ أقدم العصور من خلال الملاحة النهرية في أحواض الأنهار الثلاثة، وهذا الواقع الجغرافي يجب أخذه بعين الاعتبار عند دراسة مسألة أصول الروس وعلاقاتهم مع شعوب وقبائل المنطقة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

ويضيف عمر شعار[١] بأن الأهمية التاريخية الاستثنائية لما كتبه المؤرخ والجغرافي العربي حول شعوب أوروبا الشرقية تتجسد في حقيقة تاريخية، مفادها: أن المصادر التاريخية المكتوبة المتعلقة بشعوب أوروبا الشرقية نادرة للغاية، وتنقسم إلى مجموعتين:

---

(١) عمر شعار، **الروس وأصولهم على ضوء عمل المسعودي**. مجلة «التسامح» عُمان. العدد ١١. ٢٠٠٥.



الأولى: ما ورد في أعمال المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب المسلمين(١).

الثانية: الكتابات والوثائق البيزنطية وبالأخص وثائق الكنيسة الإغريقية.

وتنحصر أسباب ندرة المصادر التاريخية المكتوبة المتعلقة بشعوب أوروبا الشرقية في الألف الميلادية الأولى في الحقيقتين التاريخيتين التاليتين:

الأولى: أن غالبية شعوب أوروبا الشرقية في تلك المرحلة، باستثناء شعوب اللان، ومملكة السرير، والأرمن، والخزر، والبُلغار، لم تمتلك في ذلك الحين كتابة خاصة بها، ومن هنا لم يكن لديها مصادر تاريخية مكتوبة، ويتوجب التنويه هنا إلى أن إمارة كييف الروسية اعتمدت الأبجدية الكيريلية بعد أن اعتنقت المسيحية رسمياً في نهاية الألف الأولى الميلادية (٩٨٨م)، وقبل هذا التاريخ لا تتوفر معلومات حول طبيعة الأبجدية التي كان الروس يكتبون بها. ويحتمل أن بعض الشعوب كان لديها أبجدية ومصادر تاريخية مكتوبة خاصة بها، لكنها أتلفت وتعرضت للدمار، وهذا الأمر وارد إذا أخذنا بعين الاعتبار الحقيقة الثانية.

الثانية: وهي أنه في الألف الميلادية الأولى شهدت منطقة شرق أوروبا حروبا تدميرية متوالية بنتيجة ما يطلق عليه المؤرخون عصر «هجرات الشعوب الكبرى» التي جرت في تلك المرحلة، والمقصود بذلك زحف قبائل الجرمان من شمال أوروبا إلى جنوبها وشرقها، وكذلك زحف قبائل القوط إلى شرق أوروبا في القرنيين الثالث والرابع الميلاديين، ومن ثم هجرة قبائل الهون في القرنين الرابع والخامس الميلاديين من أقاصي آسيا إلى شرق أوروبا، وتمركزها في هذه المنطقة، ثم هجرات القبائل التركية المتوالية على مدى

---

(1) Thorir Jonsson Hraundal, The Rus in Arabic Sources: Cultural Contacts and Identity. Ph D dissertation, Supervisor: Dr Ildar H. Garipzanov. Bergen: University of Bergen, Centre for Medieval Studies, 2013. Available from: http://www.core.ac.uk/download/pdf/30851659.pdf



النصف الثاني من الألف الأولى الميلادية من أواسط آسيا (القبائل التركية الغربية وقبائل البجناك والقفجاق وغيرها)، والتي تمركزت أيضاً في شرق أوروبا، التي كانت في تلك المرحلة بمثابة منطقة عبور واستيطان من الشرق إلى الغرب وبالعكس. وقد ترافقت عمليات هجرات الشعوب المتوالية، بحروب تميزت بطابع الإبادة ودمج الشعوب، والتدمير الشامل لكافة الكيانات السياسية القديمة ونشوء كيانات سياسية جديدة اتسمت بتدمير الأوابد الحضارية القديمة ومن بينها الوثائق والكتابات التاريخية. وبنتيجة عمليات الهجرات كان تركيب سكان شرق أوروبا في نهاية الألف الميلادية الأولى متنوعاً للغاية وبالغ التعقيد.

ويرى «شعّار» بأن العرب المسلمين احتكوا بشعوب أوروبا الشرقية قبل عملية تشكل دولة كييف الروسية القديمة بفترة زمنية طويلة نسبياً، وتعرفوا إلى أراضي أوروبا وآسيا في القرنين السابع والثامن الميلاديين خلال المعارك العسكرية التي خاضوها ضد الدولتين الفارسية والبيزنطية، وأيضاً ضد الخاقانية الخزرية.

ففي خلال فترة زمنية قصيرة توسعت حدود الخلافة العربية الإسلامية، وشملت مساحات من قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا امتدت من إسبانيا في الغرب إلى أواسط آسيا في الشرق، ومن بينها شعوب ما وراء القوقاز (أرمينيا وجورجيا)، حيث انضوى تحت لواء الخلافة العربية الإسلامية أعداد كبيرة من الشعوب تنتمي إلى مختلف الأعراق والأجناس، وهيمنت الدولة العربية الإسلامية على معظم الطرق وخطوط المواصلات التجارية التاريخية ومنها طريق الحرير العظيم، ولذلك برزت أمام الدولة العربية الإسلامية مسألة الاهتمام بالعلوم الجغرافية والتاريخية وتطويرها بالاعتماد على المراكز العلمية التي كانت موجودة في المدن التاريخية (الإسكندرية ودمشق وطبرستان وسمرقند وغيرها). ومع تطور كافة العلوم في ظل الخلافة العربية الإسلامية ازدهرت العلوم الجغرافية والتاريخية.

وفيما يتعلق بجغرافية أوروبا الشرقية وتاريخ شعوبها توجد في الأدبيات



الجغرافية العربية الإسلامية عدة مدارس أهمها مدرستا العالمين الجغرافيين البلخي والجيهاني. ففي أدبيات هاتين المدرستين نجد معلومات جغرافية وتاريخية فائقة الأهمية حول طريق الفولغا ـ البلطيق التجاري، وحول الأوضاع الاجتماعية للقبائل والشعوب القاطنة في هذه المنطقة، ومن بينها الروس والصقالبة (السلاف). ونجد وصفاً لخصائص أوضاعهم الاقتصادية، وعاداتهم ومعتقداتهم الدينية.

وقد تميزت مدرسة البلخي في سلسلة أدبياتها «مسالك الممالك»[١] باهتمامها بالطرق وخطوط المواصلات التجارية البرية القديمة وبمحدودية معلوماتها الجغرافية حول البحار، حيث لم يعرف ممثلو مدرسة البلخي شيئاً حول وجود البحر الأسود وبحر آزوف، وعوضا عن هذين البحرين يذكرون خليج القسطنطينية الذي كانوا يعتقدون أنه يمتد بشكل مباشر إلى الشمال حتى نهاية العالم.

وحتى بداية القرن العاشر الميلادي كانت المعلومات التاريخية والجغرافية المتعلقة بشعوب أوروبا الشرقية محدودة أيضاً في أدبيات مدرسة الجيهاني، ولكن في النصف الأول من هذا القرن توسعت المعلومات المتعلقة بهذه المنطقة بفضل حدثين مهمين:

الأول: زيارة أحمد بن فضلان إلى منطقة حوض الفولغا، والتي وصفها في رسالته[٢].

---

(١) أبو إسحق الإصطخري الكرخي. **مسالك الممالك.** طبع في مدينة ليدن المحروسة. مطبعة بريل. ١٨٧٠. وهو معول على كتاب «**صور الأقاليم**» لسلفه العلمي أبي زيد أحمد بن سهل البلخي (من القرن ٩ ـ ١٠ للميلاد).

(٢) رسالة ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد) في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١م). حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩



الثاني: زيارة الجغرافي، والمؤرخ العربي المسعودي[١] إلى منطقة القوقاز في العقد الرابع من القرن العاشر الميلادي.

وتكتسب المصادر التاريخية والجغرافية العربية أهمية علمية استثنائية، وبشكل خاص عمل المسعودي «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وأهميته لا تنحصر فقط في أن مؤلفه يعد من أبرز العلماء المؤرخين والجغرافيين العرب المسلمين، ويتمتع بسمعة علمية عالية المستوى، واحترام كبير في الأوساط العلمية العالية التي تطلق عليه لقب «هيرودوت العرب»، وإنما تنحصر أهمية عمله كذلك في أنه لم يكتب في «مروج الذهب»، حول شعوب أوروبا الشرقية فقط بالاعتماد على ما كتبه الآخرون من الجغرافيين والمؤرخين، بل استقى المسعودي معلوماته من خلال تجربته الخاصة بعد أن تواجد شخصياً في منطقة القوقاز، وتجول في أرجائها في العقد الرابع من القرن العاشر الميلادي.

توفي العلامة أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي في مدينة الفسطاط بمصر في عام (٣٤٦هـ الموافق ٩٥٦م)، أي قبيل انهيار خاقانية الخزر وزوالها عن خارطة شرق أوروبا بعشر سنوات. وكان قد توجه إلى شرق أوروبا في عام (٣١٤هـ الموافق ٩٣٢م) وأقام فيها عدة سنوات، ومن ثم عاد إلى مصر، وكتب فيها عمله، وبلا شك فقد اطلع المسعودي على أعمال من سبقه من الرحالة والجغرافيين العرب المسلمين، الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها قبله، ومن بينهم ابن فضلان، ولكن المسعودي على عكس ابن فضلان كان رجل علم ذا ثقافة موسوعية ودقيقاً في معلوماته التاريخية والجغرافية بعيداً عن الآراء الفنتازية التي تتميز بها رسالة ابن فضلان، الذي لم يكن سوى رسول الخليفة العباسي المقتدر بالله، إلى ملك البُلغار والصقالبة لتعريف شعبه بأصول الديانة الإسلامية (في عام ٩٢٢م).

(١) أبو الحسن المسعودي. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٨٧.

ورغم أهمية المعلومات التي تحتويها رسالة ابن فضلان إلا أنه بالمقارنة مع المسعودي لم يكن رجل علم بالمعنى الواسع، ولذلك احتوت رسالته الكثير من الأوصاف والآراء الذاتية الخاطئة، والعبارات غير اللبقة التي لا يستخدمها رجالات العلم في وصفهم للشعوب الأخرى. أما المسعودي فقد كان أميناً ودقيقاً في تعابيره وآرائه، ويحتوي عمله على معلومات جغرافية وتاريخية، وأنثروبولوجية ثمينة للغاية بعيدة عن الذاتية والمبالغة والإثارة المصطنعة.

يتألف عمل المسعودي «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، من أربعة أجزاء (إصدار المكتبة العصرية. بيروت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م). والفقرات المتعلقة بشعوب أوروبا الشرقية وردت في الجزأين الأول والثاني.

ورغم أن المسعودي خصص لكل شعب من شعوب أوروبا الشرقية باباً خاصّاً به ـ إلا أنه يذكر هذه الشعوب مرة أخرى في سياق الوصف الجغرافي للمنطقة وخلال حديثة عن علاقة هذا الشعب أو ذاك مع الشعوب الأخرى. مثلا خصص المسعودي باباً خاصّاً للروس وآخر للصقالبة في الجزء الأول، ولكنه يتحدث عنهما مرة أخرى في مواضع أخرى عندما يرد الحديث عن الخزر والبُلغار وغيرهم، ومرة ثالثة يذكرهما عندما يتحدث عن المعتقدات الدينية في الجزء الثاني.

في البداية يقدم المسعودي وصفاً جغرافياً للمنطقة، ويبدأ بوصف البحار المتاخمة لأوروبا الشرقية: نيطش (نيطس ـ البحر الأسود)، وبحر مانطش (مايطس ـ بحر أزوف)، ومضيق البوسفور، والدردنيل، ويسميه خليج القسطنطينية، حيث يقول: «وبحر نيطش متصل ببحر مانطش، ومنه خليج القسطنطينية الذي يصل إلى بحر الروم وما يتصل بـه، فبحر نيطش وبحر مانطش يجب أن يكونا أيضاً بحراً واحداً، وإن تضايق البحر في بعض المواضع بينهما...»، وبذلك يؤكد المسعودي على أن بحر أزوف (مانطش)، متصل بالبحر الأسود (نيطش) المتصل بدوره عبر خليج القسطنطينية (مضيق البوسفور، والدردنييل)، ببحر الروم (البحر الأبيض المتوسط).



ومن ثم يتوقف المسعودي عند قضية جغرافية بالغة الأهمية في عصره وهي:

هل بحر الخزر (قزوين) متصل ببحر مانطش (بحر أزوف)؟

وعند الإجابة على هذا السؤال يشعر القارئ أنه يقف أمام عالم جليل حريص على الأمانة العلمية، ودقيق إلى أبعد الحدود في استخلاص النتائج، حيث يقول المسعودي: «وقد غلط قوم زعموا أن البحر الخزري يتصل ببحر مايطس، ولم أر فيمن دخل بلاد الخزر (من التجار، ومن ركب منهم في بحر مايطس ونيطس إلى بلاد الروس والبُلغر، أحد يزعم أن بحر الخزر يتصل) ببحر من هذه البحار أو بشيء من مائها أو من خلجانها إلا نهر الخزر، وكيف دخل الروس في المراكب إلى بحر الخزر وذلك بعد الثلاثمائة، ورأيت أكثر من تعرض لوصف البحار ممن تقدم وتأخر يذكرون في كتبهم أن خليج القسطنطينية الآخذ من نيطش يتصل ببحر الخزر، ولست أدري كيف ذلك، ومن أين قالوه؟ أمن طريق الحدس أم من طريق الاستدلال والقياس؟ (أو توهموا أن الروس ومن جاورهم على هذا البحر هو الخزر)، وقد ركبت فيه من أبسكون، وهو ساحل جرجان، إلى بلاد طبرستان، وغيرها، ولم أترك ممن شاهدت من التجار ممن له أدب وفهم، ومن لا فهم عنده من أرباب المراكب إلا سألته عن ذلك، وكل يخبرني أن لا طريق له إليها إلا من بحر الخزر حيث دخلت إليه مراكب الروس».

نحن بالفعل أمام لوحة علمية ثمينة، ومثال نموذجي في أسلوب البحث العلمي نادراً أن نجد مثيله في وقتنا الراهن، فمن أجل أن يفند المسعودي آراء بعض الجغرافيين الذين سبقوه، وعاصروه القائلين بأن بحر قزوين (الخزر) متصل ببحر أزوف (مانطش)، يورد المسعودي في البداية آراء من سبقه من الجغرافيين، ويطابقها مع الواقع الطبيعي، ويقارنها مع آراء مختلف أنواع التجار، ويعتمد على حادثة هجوم الروس على سواحل بحر قزوين، الذين أتوا من خلال نهر الفولغا (أتيل أو الخزر)، وليس من خلال بحر مانطش (بحر أزوف)، وقد جرت هذه الحادثة في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي (يقول المسعودي بعد الثلاثمائة هجري).

ومن ثم يقدم المسعودي وصفاً جغرافياً لجبال القوقاز التي كانت تسمى في ذلك الوقت (جبل القبخ) والمناطق المحيطة به، حيث يقول: «أما جبل القبخ فهو جبل عظيم، وصقعه صقع جليل، قد اشتمل على كثير من الممالك والأمم، وفي هذا الجبل اثنتان وسبعون أمة، كل أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها». وهنا يتحدث المسعودي عن مدينة الباب والأبواب (مدينة دربند الراهنة) التي بناها كسرى الدولة الفارسية أنوشروان كثغر عسكري محصن وظيفته «دفع أذى الأمم المتصلة بذلك الجبل من الخزر واللان (وأنواع الترك)، والسرير وغيرهم من الكفار». ويورد هنا المسعودي أسماء الممالك التي كانت موجودة في تلك المنطقة: مملكة الإيران، ومملكة الموقانية، ومملكة اللكز، ومن ثم يتابع وصفه لجبل القبخ (القوقاز).

فيقول: «وهذا الجبل ذو أودية وشعاب وفجاج، وفيه أمم لا يعرف بعضهم بعضاً لخشونة هذا الجبل وامتناعه وذهابه في الجو، وكثرة غياضه وأشجاره وتسلسل المياه من أعلاه، وعظم صخوره وأحجاره». وبعد ذلك يتحدث المسعودي حول مملكتي طبرستان وجيدان، وحول الأخيرة يقول: «ويبادي أهل الباب والأبواب مملكة يقال لها جيدان، وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر، وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر، وذلك أنها افتتحت في بدء الزمان، افتتحها سليمان بن ربيعة الباهلي... فانتقل الملك عنها إلى مدينة أمل، وبينها وبين الأولى سبعة أيام، وأمل التي يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك، ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز وتصب في بحر مايطس، ولهذه المدينة جانبان، وفي وسط هذا النهر جزيرة فيها دار الملك، وقصر الملك في وسط هذه الجزيرة، وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن، وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية، فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه».

في هذا المقطع يتحدث المسعودي عن مدينة سمندر عاصمة مملكة الخزر



القديمة، والتي لم يعثر عليها حتى الآن، ومن ثم يتحدث المسعودي حول مدينة أمل العاصمة الجديدة لمملكة الخزر التي أيضاً لم يعثر عليها حتى الآن، ولكن المسعودي يؤكد على أن مدينة أمل تقع على ضفتي «نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك»، وهو نهر الفولغا ويقصد ببلاد الترك مملكة بُلغار التي زارها ابن فضلان، وكانت تقع في الحوض الشرقي ـ الشمالي لنهر الفولغا، ويبدو أن المسعودي كان يتصور أن نهر الدون يتفرع من نهر الفولغا عندما يقول: «ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز وتصب في بحر مايطس» (بحر أزوف)، ولهذا السبب كان المسعودي يتصور بأن بحر الخزر (قزوين) متصلٌ بواسطة هذه الشعبة (نهر الدون) ببحر أزوف (مايطس).

وبعد أن يتحدث المسعودي بشكل مفصل عن الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية السائدة آنذاك في مملكة الخزر، والأعراق، والأجناس التي كانت تعيش في عاصمتها، ينتقل المسعودي للتحدث عن نهر برطاس المتشعب من نهر الفولغا وعن أمة برطاس التي كانت تعيش على حوض ذلك النهر، وهنا يقول: «وفي أعالي نهر الخزر مصب متصل بخليج من بحر نيطس، وهو بحر (الروس) لا يسلكه غيرهم، وهم على ساحل من سواحله، وهي أمة عظيمة جاهلية لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة، وفيهم تجار يختلفون إلى ملك البرغز، وللروس في أرضهم معدن الفضة كثير».

يبين لنا هذا المقطع أن المسعودي كان يتصور أن المنطقة التي ينبع منها نهر الخزر (وهو نهر الفولغا وكان يسمى أيضاً إتيل) متصلة عبر ممر مائي (يسميه المسعودي خليج) بالبحر الأسود (نيطس). وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن نهر الدنيبر ينبع أيضاً من المنطقة نفسها التي ينبع منها نهر الفولغا (وهي منطقة الفالداي التي أشرنا إليها) فإن ما يقصده بالخليج هو نهر الدنيبر تحديداً، ويطلق عليه المسعودي تسمية (بحر الروس لا يسلكه غيرهم)، ويبدو أن المسعودي لم يكن مطلعاً على مجرى نهر الدنيبر، ولذلك كان يتصور أن البحر الأسود متصل بمنطقة «فالداي» أو بحيرة «لادوغا» الملاصقة من ناحية



الشمال لمنطقة الفالداي عبر ممر مائي ضخم يسميه أحيانا بالخليج، وأحيانا بالبحر. وقد اختلط الأمر على بعض المؤرخين الروس عندما تصوروا أن ما يقصده المسعودي بقوله: «وهو بحر الروس لا يسلكه غيرهم» هو البحر الأسود، وهذا تصور خاطئ لأنهم اعتمدوا في قراءتهم على نصوص مروج الذهب وجوهر المعادن للمسعودي المترجمة إلى اللغة الروسية من اللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية، ومن المفيد أن نذكر هنا أن المستعرب الروسي دميتري ميكولسكي نقل من اللغة العربية مباشرة إلى اللغة الروسية في عام (٢٠٠٢م) فقط الجزأين الثالث والرابع من عمل المسعودي المذكور المتعلقين بتاريخ الخلافة العربية الإسلامية، واستبعد الجزأين الأول والثاني المتعلقين بموضوعنا لأسباب نجهلها يحتمل لصعوبة الموضوع وتعقيداته.

وأعتقد أنه لا يمكن أن يطلق المسعودي على البحر الأسود تسمية «بحر الروس ولا يسلكه أحد غيرهم»؛ لأن المسعودي سمى بشكل واضح البحر الأسود ببحر «نيطش» أو (نيطس) وبحر أزوف «مانطيش» أو (مانطيس) وهي تسميات إغريقية اقتبسها المسعودي من أعمال الجغرافيين الإغريق القدماء، عدا ذلك فقد كان البحر الأسود في عصر المسعودي مسرحا للأسطول البيزنطي ولسفن الشعوب الأخرى المطلة على البحر الأسود، ومن بينهم الروس الذين كانوا يصلون إليه عبر مجرى نهر الدنيبر الذي يصب في هذا البحر، ويشكل عند مصبه خليجاً كبيراً نسبياً، وهذا يؤكد أن المسعودي يقصد بذلك مجرى نهر الدنيبر، وقول المسعودي حول هذا الممر النهري يتطابق مع التسمية التي كانت سائدة في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية، التي أطلقتها الشعوب والقبائل المستوطنة في حوض نهر الدنيبر على ممره بـ (الطريق المؤدي من الفارياغ إلى الإغريق)، وهذه التسمية مثبتة في كافة مخطوطات إمارة كييف الروسية القديمة منذ نهاية القرن العاشر الميلادي، وعلى مدى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وهي تعني أن هذا الممر المائي النهري كان يصل بين بلاد الفارياغ (النورماند) وبلاد الإغريق، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن إحدى وجهات النظر الأساسية حول أصول الروس تقول بأنهم الفارياغ (النورماند)



فقد كانوا منذ أقدم العصور يردون إلى المنطقة من البلاد الإسكندنافية الشمالية على سفنهم عبر بحر البلطيق، ومن ثم على متنها يدخلون في مجرى نهر دفينا الغربي، ويصلون إلى منطقة الفالداي، وينتقلون إلى مجرى نهر الدنيبر، ويتوجهون نحو البحر الأسود، حيث يبحرون إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، والتي كان الروس يسمونها (مدينة القيصر)، أو كانوا ينتقلون إلى مجرى نهر الفولغا (إتيل)، ويتوجهون نحو بحر قزوين حيث كان لهم تواجد شبه دائم في مدينة إتيل عاصمة الخاقانية الخزرية[١].

ولكن نرى عند المسعودي متابعة للموضوع أكثر دقة، حيث يقول: «والروس: أمم كثيرة وأنواع شتى، ومنهم من يقال لهم اللوذاعنة، وهم الأكثرون، يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر...». أعقتد أن هذا المقطع من عمل المسعودي مهم للغاية ويساعد على إلقاء الأضواء على أصول الروس، فتسمية «اللوذاعنة» التي يوردها المسعودي يقصد بها مجموعة كبيرة من الناس، ومفردهم (لوذاعني)، وهي على الأغلب، تسمية تطلق على الشخص الواحد بالانطلاق من أصله المكاني الجغرافي حسب المدينة أو المنطقة التي ينحدر منها وتعتبر مسقطا لرأسه، مثلا نطلق نحن السوريين على أهالي مدينة اللاذقية تسمية (اللواذقة)، والواحد منهم نسميه (اللاذقاني)، وإذا رجعنا إلى نص المسعودي حول نهر برطاس المتشعب من نهر الفولغا الذي يسميه أحيانا (نهر الخزر)، وأحيانا أخرى (إتيل) الذي يقول فيه: «وفي أعالي نهر الخزر مصب متصل بخليج من بحر نيطس وهو بحر (الروس) لا يسلكه غيرهم...».

ويرى «شعّار» بأن موطن الروس الأصلي يقع في المنطقة التي تنبع منها الأنهار الثلاثة: الفولغا والدنيبر ودفينا الغربي، أو متاخمة لها، ويضيف إذا تمعنا في خارطة منطقة الفالداي والمناطق المحيطة بها، فإننا نشاهد في شمالها الغربي بحيرة لادوغا الكبيرة، وعلى سواحلها يوجد العديد من التلال الأثرية،

---

(١) عمر شعار، **الروس وأصولهم على ضوء عمل المسعودي**. مجلة «التسامح» عُمان. العدد ١١. ٢٠٠٥.

وعدة مدن أهمها مدينة لادوغا، وعندما نجري مقارنة مع تسمية المسعودي للروس (اللوذاعنة)، وفق مثال: لاذقية وأهليها اللواذقة والواحد منهم اللاذقاني ـ فإننا نلاحظ ما يلي: لادوغا وأهاليها اللوادغة والواحد منهم اللادوغاني.

أعتقد أنه لا توجد حاجة لملاحظة مدى التشابه الكبير بين تسمية المسعودي (اللوذاعنة)، وتسمية (اللوادغة) المشتقة من لادوغا، ومن المثير للاهتمام أن علماء الآثار الروس يجرون حالياً تنقيبات أثرية واسعة النطاق في مدينة لادوغا القديمة على عدة كنوز من النقود العربية الإسلامية تعود إلى القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية، وعثروا على كميات كبيرة من اللقيات الأثرية المتنوعة للغاية، والتي تعود إلى حضارات شتى: البيزنطية والإسلامية والخزرية والأندلسية وغيرها، وهذا يؤكد كلام المسعودي حول ممارسة الروس للتجارة في البحر والأحواض النهرية، حيث يقول: «.. يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر...».

ونظرا لأهمية مدينة لادوغا في تاريخ الروس وأصولهم فقد أشرت في بداية هذه الدراسة إلى الزيارة التي قام بها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين إلى مدينة لادوغا، والمناطق المحيطة بها، للاطلاع على نتائج التنقيبات الأثرية الجارية فيها على قدم وساق، التي تؤكد أيضاً على أن هذه المنطقة كانت مستوطنة منذ أقدم العصور من قبل القبائل الفيلندية والأغورية، كما هاجرت القبائل السلافية (الصقالبة) إلى هذه المنطقة في بدايات القرن السادس الميلادي واستوطنت فيها، وقد شملت هجرة القبائل السلافية الوافدة من أوروبا الوسطى كافة مناطق شرق أوروبا، وكان لها حضورٌ متميز في الخاقانية الخزرية، وتشير إلى ذلك المصادر العربية والبيزنطية. ورغم أن المسعودي وغيره من الجغرافيين العرب كانوا يذكرون الروس والصقالبة (السلاف) بشكل منفصل، مما يؤكد أنهما كانا في تلك المرحلة شعبين مستقلين، إلا أنه في الوقت نفسه كان يورد ذكرهما إلى جانب بعضهما بعضاً، وسبب ذلك يعود إلى عملية اندماج الروس مع الصقالبة في منطقة لادوغا، والتي بدأت في بداية



القرن التاسع الميلادي، واستمرت هذه العملية في القرن العاشر في كافة المدن الواقعة في حوض نهر الدنيبر أدت إلى تشكيل عدة كيانات سياسية روسية ـ سلافية في هذه المنطقة أبرزها: لادوغا، ونوفغراد، وكييف، والتي توحدت فيما بعد بزعامة مدينة كييف تحت قيادة سلالة ريوريك الروسية، التي شكلت دولة قوية خاضت عدة حروب ناجحة ضد الإمبراطورية البيزنطية، وقامت في عهد الأمير سفيتوسلاف بتهديم الخاقانية الخزرية اليهودية في عام (٩٦٧م)، ونتيجة ذلك فقد زالت نهائياً عن خارطة أوروبا الشرقية.

في المحصلة يمكن القول بأن الروس هم مجموعة من القبائل استوطنت على مدى عدة قرون في منطقة لادوغا، واختلطت مع الشعوب المحلية: الصقالبة (السلاف)، والفيلنديين والأغوريين، وحتى بداية القرن العاشر الميلادي كانت لادوغا عاصمتهم ومسقط رأسهم، وكان الروس يشكلون النخبة الحاكمة في مدينة لادوغا، ولاحقا في نوفغراد وكييف وغيرها من المدن الواقعة في حوض نهر الدنيبر. وقد تميز الروس بإتقانهم ومهارتهم في التجارة النهرية والبحرية، واشتهروا بقدراتهم العسكرية الفائقة، وبسالتهم في المعارك، وتشير إلى ذلك كافة المصادر التاريخية البيزنطية والعربية، التي تشير أيضاً إلى أن الروس أسسوا على مدى عدة قرون عدة مستوطنات ومستعمرات كمحطات تجارية في أحواض الأنهار الثلاثة الكبرى: الدنيبر، ودفينا الغربي، والفولغا، وعلى سواحل وجزر البحر الأسود، وقد صادفهم المسعودي في المدن المطلة على بحر قزوين وفي مدينة إتيل عاصمة الخاقانية الخزرية وصادفهم ابن فضلان في إمارة بُلغار في حوض نهر الفولغا.

ويناقش المؤرخ شعار موضوعاً حيوياً مفاده: هل تنتمي روسيا إلى الحضارة الأوروبية الغربية كما يدّعي ذلك ممثلو التيار التغريبي الليبرالي؟ أم أن روسيا تمثل حضارة أوراسية كما يؤكد ذلك ممثلو التيار القومي الروسي؟

ويرى «شعّار» أنه لو اقتصرت مساحة دولة الروس المندمجين مع السلاف (الصقالبة) على المناطق الغربية ـ الشمالية، والتي تضم مناطق لادوغا،

ونوفغراد، والفالداي بالإضافة إلى حوضي نهري دفينا الغربي، والدنيبر كما كان الأمر حتى منتصف القرن الثالث عشر، فإنها كانت ستنتمي حتما إلى الحضارة الأوروبية بالمعنى الواسع (عرقياً وثقافياً ودينياً)، ولكن بعد خضوع الإمارات الروسية للسيطرة التتارية منذ منتصف القرن الثالث عشر، ودخولهم في عداد دولة أوردا الذهبية على امتداد أكثر من قرنين، وتشكل دولة موسكو الروسية المركزية الموحدة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وقيامها في منتصف القرن السادس عشر على يد إيفان الرهيب بضم الإمارات التتارية الواقعة في حوض الفولغا، ومناطق الأورال وسيبيريا إلى الدولة الروسية، واستمرار توسعها لاحقاً في الفضاء الآسيوي، حدثت تغييرات انثروبولوجية جوهرية في تركيب الشعب الروسي، فعلى امتداد حوالي الثمانية قرون جرت عملية اندماج عدة عروق وأجناس أوروبية وآسيوية (اندماج الروس مع السلاف، والفنلنديين والأغوريين، والبجناك والقفجاق، والتتار وشعوب سيبيريا وآسيا الوسطى)، وقد تبلورت هذه العملية بشكل خاص في مرحلة تشكل الإمبراطورية الروسية بدءاً من عهد الإمبراطور بطرس الأول في بداية القرن الثامن عشر وانتهاءً بالحقبة السوفياتية في نهاية القرن العشرين، والآن من يدقّ بيده على صدره مفتخراً بانتمائه إلى القومية الروسية تجري في عروقه دماء مختلفة ومتنوعة للغاية.

ويؤكد «شعّار» بأنه يمكن أن نجزم بأنه تشكل في خلال الفترة المذكورة شعب روسي له حضارته الخاصة به ويستند على تاريخ مشترك ولغة وثقافة وعادات مشتركة وواقع جيوبوليتيكي أوروآسيوي مشترك ومقدس، لا أحد يستطيع المساس به، حتى بوريس يلتسين، الذي كان يمثل ذروة الليبرالية المتهورة والمنبطحة أمام الغرب لم يستطع المساس بوحدة أراضي روسيا، وذلك عندما رفض التنازل عن جزر الكوريل لليابان رغم العروض المغرية للغاية. هذه العملية التي تشكلت تاريخياً لا تنفي بالطبع وجود بعض النزعات الانفصالية المحدودة لدى بعض الأقليات القومية، والتي برزت في مرحلة التسعينات من القرن العشرين، ولكنها تبقى ضمن إطار محدود للغاية ولا تؤثر على وحدة

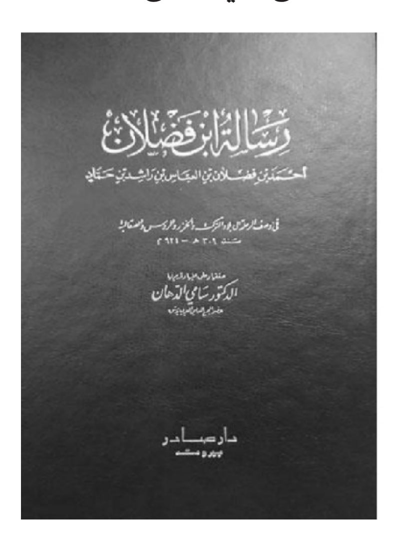


أراضي الدولة الروسية والشعب الروسي، الذي يحمل الموروث التاريخي للإمبراطورية الروسية في العهدين القيصري والسوفياتي، والموروث الثقافي للديانتين الأرثوذكسية والإسلامية، اللتين ترفضان الانصياع لإرادة الغرب الكاثوليكي، فروسيا ـ على حد تعبير الأكاديمي يفغيني بريماكوف ـ لا يمكن إلا أن تكون قوية ودولة عظمى، وتدل معظم المؤشرات التاريخية على أن وضعية فلاديمير بوتين تشبه إلى حد كبير وضعية القيصر ألكسندر الثاني الذي تبوأ عرش الإمبراطورية الروسية في فترة هزيمة روسيا في حرب القرم في عام (١٨٥٦م)، حيث قال لوزير خارجيته الأمير كورجاكوف جملته المشهورة: «أريد عشر سنوات هادئة بدون حروب»، كان ألكسندر الثاني في أمسّ الحاجة إليها لإجراء إصلاحات داخلية: اقتصادية، واجتماعية، ولتحديث الجيش الروسي. وبالفعل لقد عادت روسيا بعد عشر سنوات إلى الساحة الدولية قوة عسكرية وسياسية وبشرية عظمى. ويلخص شعار رؤيته لروسيا بأنها تنتمي إلى مجموعة الدول التي تميزت بكينونة خاصة بها، فروسيا بخصائصها التاريخية والجغرافية والأنثروبولوجية والثقافية والسياسية هي روسيا لا تشبه إلا نفسها.

❁ ❁ ❁

ثانياً: رسالة أحمد بن فضلان من أقدم المراجع في تاريخ الروس:





١ ـ رسالة أحمد بن فضلان:

يعتبر ما كتبه ابن فضلان [١٣] في بداية القرن العاشر ميلادي أقدم وصف أجنبي للترك والصقالبة والروس والخزر(١). ومما لا شك فيه أن أحمد بن فضلان برحلته(٢) إلى بلاد الترك والروس والصقالبة قد بلغ موضعاً لم يبلغه رحالة إسلامي قبله. وتعتبر وقائع رحلة ابن فضلان، كما دوّنها في رسالته إلى الخليفة المقتدر بالله، ووصف فيها بلاد الترك والبُلغار والروس والخزر وأيضاً البلاد الإسكندنافية، من كتب الرحلات المهمة عند العرب، إذ أضاءت تلك الرسالة ثغرة كبيرة عن الماضي البعيد لتلك الشعوب، وقدّمت للروس إضاءة حقيقية لماضيهم البعيد، وأنارت في صفحات واسعة أساليب حياتهم في الزمن الغابر. في أمانة ودقة نادرين، لذلك فقد عُنوا بترجمتها ونقلوا فصولاً عنها إلى لغتهم(٣).

---

(١) رسالة ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد) في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ ـ ٩٢١م). حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩.

(٢) انظر أيضاً المراجع التالية:

Montgomery, James E. (2000). " Journal of Arabic and Islamic Studies, vol. 3 (2000): pp. 1 - 25. Online at: Frye, Richard N. (2005).

Ibn Fadlan’s Journey to Russia: A Tenth - Century Traveler from Baghdad to the Volga River. Princeton: Marcus Weiner Publishers.

Ibn Fadlan and the Land of Darkness: Arab Travellers in the Far North. Translated by Lunde, Paul; Stone, Caroline E.M. Penguin Classics. 2011.

(٣) **رسالة ابن فضلان** (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد) **في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١م)**. حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩.



ومع توسع رقعة الخلافة العربية الإسلامية في القرن الثامن الميلادي ازدهرت كافة أنواع العلوم ومن ضمنها الجغرافية والتاريخية، حيث اهتم الجغرافيون والمؤرخون العرب المسلمون بحضارات الشعوب المنضوية تحت لواء الخلافة العربية الإسلامية. ضمن هذا السياق تعتبر «رسالة أحمد بن فضلان» من الوثائق التاريخية المكتوبة النادرة المتعلقة بتاريخ وحضارات الشعوب، القاطنة في حوض نهر الفولغا (إتيل)، البُلغار والصقالبة (السلاف) والأغوريين والفلنديين والروس، التي لم يكن لدى أغلبها في تلك المرحلة لغة مكتوبة، وكانت تعيش في ظلمات الجهل والوثنية والتخلف الاجتماعي.

أما بالنسبة للمعلومات التاريخية التي تحتويها رسالة «رسالة أحمد بن فضلان»، فهي معروفة وأصدرتها العديد من دور النشر العربية، ويمكن التعرف عليها في «معجم البلدان» لياقوت الحموي، ولكن بالنسبة لموضوعنا، ففي عام (٩٢١م الموافق ٣٠٩ هجري) بعث خان البُلغار أيدار (ألميش) رسالة إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله، عبر كبير الصقالبة (الجند العبيد) في حاشية الخليفة في بغداد واسمه نذير الخُرمي، أعلمه فيها عن رغبته باعتناق الإسلام، وطلب منه أن يرسل إلى بُلغار من يعلمهم أصول الدين الإسلامي، واستجاب الخليفة لطلب خان البُلغار وأوفد بعثة برئاسة أحمد بن فضلان وبعضوية سوسن الرسي وتيكين التركي وبارص الصقلبي، وكلهم يعملون في ديوان الخليفة، وباستثناء ابن فضلان فإن بقية أعضاء البعثة ينتمون من حيث الأصل إلى منطقة حوض الفولغا، وأخذ الترك والصقالبة على عاتقهم مهمة مرافقة البعثة والحفاظ على أمنها. وقد سجل أحمد بن فضلان كافة تفاصيل رحلته في كتاب أطلق عليه تسمية «رسالة أحمد بن فضلان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة»، ولكن ليس واضحاً السبب الذي دعاه لإطلاق تسمية «ملك الصقالبة» على خان البُلغار، يبدو أن سبب ذلك ينحصر في اختلاط البُلغار (الترك) مع الصقالبة (السلاف) في مملكة البُلغار، ويوجد أيضاً سبب آخر ينحصر في أن بعض الجغرافيين العرب المسلمين كانوا يطلقون على المكان



الذي هاجرت إليه بعض القبائل البُلغارية وأسسوا فيه دولتهم تسمية «بلاد الصقالبة». فقد أثبتت الدراسات التاريخية الحديثة المعتمدة على التنقيبات الأثرية أن البُلغار ينتمون إلى مجموعة الشعوب التركية، وأن الصقالبة ينتمون إلى مجموعة الشعوب السلافية، وهذه الحقيقة تتطابق مع ما ورد في أغلب مؤلفات المؤرخين والجغرافيين العرب المسلمين، الذين ميزوا بشكل واضح بين البُلغار والصقالبة، وهذا الأمر نشاهده عند ياقوت الحموي(١)، الذي أورد في معجمه الجزء الوارد في رسالة إبن فضلان المتعلق بمهمته الأساسية، التي أوفد لأجلها إلى ملك «الصقالبة»، تحت مصطلح بُلغار، وليس تحت مصطلح صقلب، ولكن ياقوت الحموي يطلق أيضاً على مكان تواجد دولة البُلغار تسمية «بلاد الصقالبة»، ويقصد بذلك البلاد الشمالية.

بلا شك ساهمت عملية اعتناق الإسلام في تقوية المملكة البُلغارية في حوض نهر الفولغا وتعزيز مكانتها في منطقة شرق أوروبا، فعلى أثر زيارة ابن فضلان قام ابن ملك البُلغار بزيارة إلى بغداد وحج إلى مكة المكرمة، وتعززت علاقات مملكة البُلغار مع الخلافة العباسية، وبشكل خاص العلاقات التجارية والثقافية مع مراكز الحضارة الإسلامية في آسيا الوسطى، وبالدرجة الأولى مع خوارزم، مما ساهم في تقوية موقع مملكة البُلغار سياسياً واقتصادياً في شرق أوروبا.

ويعود الفضل لياقوت الحموي في تعريف الباحثين برحلة ابن فضلان من خلال الفقرات والمقاطع التي أوردها في كتابه الشهير «معجم البلدان» (موسوعة جغرافية كتبت في بداية القرن الثالث عشر للميلاد)، ما شد انتباههم ودفعهم للبحث والتنقيب عن مخطوطته الأصلية.

ذكر المستشرق الألماني فرين (الذي عمل في روسيا كل حياته) في تقديمه لابن فضلان في اللغة الألمانية: «إذا كان الغرب قد أغفل روسيا، فإن

---

(١) ياقوت الحموي ـ **معجم البلدان**، بيروت دار الكتب العلمية ١٩٩٠م ج١.

العرب تحدثوا عنها». وقد بدأ الاهتمام بالرحلة على أيدي المستشرقين الروس باعتبارها من المصادر النادرة للتعريف بالملامح الجغرافية لتلك المناطق في وقت لم يكن تاريخ روسيا وما جاورها معروف في العصور القديمة والوسطى، وتقدم هذه الرحلة أقدم المعلومات الخاصة عن بُلغار الفولغا، فليس هناك من سبق بن فضلان إلى هذه البلاد.

واكتسبت رسالة ابن فضلان أهمية خاصة، لا سيما أنها تضيء مرحلة غامضة لتاريخ بعض الشعوب كروسيا وبلغاريا والبلاد الإسكندنافية، أي في الفترة التي بدأت تتعرف بها على المسيحية، ولا يزال قسم منها على الديانة الوثنية، وغارقاً في التقاليد القديمة. فابن فضلان ـ كما يشير إلى ذلك المستشرق الروسي كراتشكوفسكي(١) ـ قدَّم لنا صورة حية للظروف السياسية في العالم الإسلامي، والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المتاخمة لها في آسيا الوسطى، والأصقاع النائية التي كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك مثل حوض نهر الفولغا. وتحفل رسالته بمادة إثنوغرافية قيّمة جداً ومتنوعة بصورة فريدة، وهي تمسُّ عدداً من القبائل التركية البدوية القاطنة في آسيا الوسطى، وعدداً من الشعوب التي كانت تلعب دوراً سياسياً في تاريخ أوروبا الشرقية، كالبُلغار والروس والخزر. ولقد أصبحت رسالة ابن فضلان مصدراً من أهم المصادر عن تاريخ الأقطار التي زارها، وعن صورتها الجغرافية وحياة السكان الاجتماعية، ولا تزال تدرّس في كل المدارس الروسية.

يذكر أندريه ميكيل في كتابه «جغرافية دار الإسلام البشرية»(٢) عن فضل ابن فضلان على تاريخ روسيا، بقوله: «وقد جمع في رحلته جملة معلومات نادرة عن هذه الأمة الغامضة جداً والنائية». ويمكن القول: أن ابن فضلان قد كتب

---

(١) رحلة ابن فضلان في حوض الفولغا. تحت إشراف الأكاديمي إ. كراتشكوفسكي. مطبعة أكاديمية العلوم الروسية. ١٩٣٩. موسكو. لينينغراد.

(٢) أ. ميكيل. **جغرافية دار الإسلام البشرية**. ج٢. إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع. دمشق. ١٩٨٥.



وثيقة استثنائية لا تتعلق بالبُلغار وحدهم، بل بالخوارزميين والغز والبجناك والجفرد، بالإضافة إلى بعض المعلومات عن الروس والخزر، وإن كان العمل يتركز على البُلغار، أو الصقالبة على حد تسمية ابن فضلان لهم. ولقد حافظت الرسالة على قيمتها بالنسبة لتاريخ الروس وبُلغار الفولغا إلى الآن. ولقد ارتبطت تلك الرحلة منذ البداية بمهمة سياسية عليا للخلافة العباسية في بغداد، التي بقيت محافظة على هيبتها الكبرى في العالم الخارجي، وعلى مهابتها الروحية داخل دار الإسلام، رغم انحسار نفوذها السياسي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وهذا يفسر كثرة الوفود التي قصدت بغداد لعقد الصلات والتحالفات ولإظهار الولاء. من هنا نفهم قدوم وفد من الصقالبة البُلغار، وهم من سكان شمال أوروبا على أطراف نهر الفولغا وعاصمتها على مقربة من قازان الحالية، طالبين العون من الخليفة المقتدر بالله في المجالين السياسي والديني.

امتاز ابن فضلان بوصفه الدقيق بأسلوب ممتع شائق، لا زلنا ننعم بعد مضي ما يزيد على ألف عام بالصور التي نقلها عن عادات تلك الشعوب وتقاليدها، وحياتها الأخلاقية في ذلك العصر. وكان دقيق الملاحظة، يسجل أكثر ممَّا يريده السائح، فيصف الحكم والأمراء، ورجال الشعب على حد سواء، كما يرسم الهيئة والوجود على إيجاز رسالته وقصرها. وامتاز ابن فضلان عمن سبقه بأنه وضع العلاقة الأساسية بين المكان والزمان، التي سوف تصبح في وقت لاحق صفة من الصفات التي تميز الرحلة، كما نراها عند ابن جبير وابن بطوطة كانت رسالته نوعاً متوسطاً بين الجغرافية والتاريخ، فهي كالجغرافية تهتم بالمكان بعد أن تعيد تنظيمه على معايير زمنية يختص بها التاريخ. فضلاً عما تتسم به تلك الرسالة من وصف إثنوغرافي لحالة الشعوب فقد وضع ابن فضلان في مقدمة اهتماماته حال الإنسان العادي: سلوكه، وعاداته، وتقاليده، ودياناته، وطقوسه الحية، والمظاهر الأخرى لاعتقاداته، ولا ينسى أفراحه وأتراحه، وطرائق زواجه، وتربيته، وطقوسه في الدفن والموت،



فضلاً عن اهتمامه بمنشأ السلطة والسلطان، ومظاهر العمران الأخرى إن وجدت، وتأثير الطقس، ومظاهر العجائب والمدهش في حياة تلك الشعوب.

ذكر الجغرافي المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» (صدر عام ٩٨٥م)، أن المسلمين كانوا يجلبون كثيراً من السلع من جنوبي روسيا، عدّ منها الجلود والفراء والشمع والقلانس والعسل والسيوف، وقال أنهم يستجلبون الرقيق من الصقالبة. والصقالبة في عرفهم كانت تشمل السلافيين والجرمان وبعض سكان أوربا. وكان أهم ما يحمله هؤلاء التجار إلى الأقاليم النائية أنواع المنسوجات والتحف والفواكه.

وبالإضافة إلى رحلات التجار ومساعيهم الفردية كانت السلطات والحكومات تبعث بوفودها ـ كما نقول اليوم ـ إلى الأقطار والممالك، وتحملها مسؤوليات ومهمات تقوم بها، إما سياسية أو ثقافية أو دينية أو تجارية أو استطلاعية خالصة.

وفي القرن العاشر كانت بغداد عاصمة الخلافة من أغنى عواصم العالم. وفي عهد الخليفة المقتدر بالله (أبي الفضل جعفر بن الخليفة المعتضد بويع بالخلافة سنة ٢٩٥هـ وعمره ثلاث عشرة سنة) كان هناك بذخ وتبذير لا يوصف. وكانت رحلة ابن فضلان سنة (٣٠٩هـ/٩٢١م).

ويرى بعض الباحثين أن أسلوب ابن فضلان في رسالته عكس شعوره بما عرفه من ترف وحضارة في مملكته أصبح يستصغر أحوال الممالك وخاصة أوروبا الشمالية، فرسمها رسماً غريباً يشعرنا بأنه كان ينظر إليها في عجب، كما ينظر بعض سفراء الغرب اليوم إلى من يسمونهم بسكان الممالك المتخلفة.

كانت سمعة بغداد في الخارج جيدة، بل عظيمة، يتهافت الملوك والأمراء عليها ليعقدوا معها أجمل الصلات وأوثق التحالفات. حتى أن الصقالبة وهم من سكان الشمال في أوروبة على أطراف نهر الفولغا وعاصمتهم (عاصمة البُلغار) على مقربة من قازان اليوم في خط يوازي مدينة موسكو، قد طلبوا عون الخلافة ومساعدتها. فقد ذكر ابن فضلان أن مليكهم «ألمش بن يلطوار»

(يقول محمد سامي الدهان أن بلطوار هي نفسها كلمة فلاديمير ملك الفولاذ)[١] طلب إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله أن يرسل إليه بعثة من قبله تفقهه في الدين وتعرفه شرائع الإسلام وتبني له مسجداً وتنصب له منبراً يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته، وسأله إلى ذلك أن يبني له حصناً يتحصن فيه من الملوك المخالفين له. وقد بسط ابن فضلان أمر هؤلاء المخالفين فقال إنهم ملوك الخزر وهم من اليهود، وكانوا يعتدون على قومه ويفرضون عليهم الضرائب يؤدونها عن كل بيت في المملكة جلد سمور، وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصباً، والخزري يهودي وابنة الصقلبي مسلمة. وقد رأى ابن فضلان أن مملكة الصقالبة واسعة وأموالها جمّة وخراجها كثير، فسأل الملك عن سبب استنجاده بخليفة المسلمين، فأجاب بأنه يتبرك بأموال المسلمين ويعتز بدولتهم.

وهذا الأمر يدعو إلى الزهوّ من جانب بغداد، ويوضح هيبة الخليفة، ويرسم مكانة السلطان في أوروبا آنذاك، وخاصة حين يستنجد به ملك لمملكة واسعة ويسعى إلى حلف ثقافي ديني عسكري كما نعبر عن ذلك اليوم.

الأوائل قبلنا جهلوا عنه كل شيء، فنقل عنه الجغرافيون كما قلنا ولم يذكروا اسمه، ولم يعرضوا له في مصادرهم التي أخذوا منها. فقد قرأ الرسالة منذ القرن الرابع وما بعده: الأصطخري وابن رستم والمسعودي ولكنهم لم يثبتوا في كتبهم أنهم نقلوا منه، فاختلط عندهم ما جمعوه من غيره بما نقلوه عنه. وفي القرن السابع كان ياقوت[٢] أول من أشار إلى فضله، واختار

---

(١) رسالة ابن فضلان **في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١م)**. حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩. ص ٥٧.

(٢) ياقوت الحموي. **معجم البلدان**. طبعة وستنفلد في ليبتسيك. ١٨٦٦.



فصولاً من الرسالة جعلها في كتابه «معجم البلدان»، وهي التي عرَّفت به في العصر الحديث وسيَّرت ذكره.

المستشرقون هم أول من تنبه إلى خطر هذه الرسالة فبحثوا عنها في المراجع العربية، ورأوا أن فصولاً منها ثبتها ياقوت وحده مشيراً إلى صاحبها، فراحوا منذ أهلّ القرن التاسع عشر يعنون بها دراسة وتعليقاً وترجمة، فنشر سنة (١٨٠٠) ما قاله الجغرافيون العرب عن الروس ومنهم الإدريسي والمسعودي وابن فضلان.

وفي سنة (١٨٨٤) جمع المستشرق راسموسين Rasmussen مقاطع من هذه الفصول وترجمها إلى الروسية ونقلها عنه نيكلسون بعد أربع سنوات.

وفي سنة (١٨١٩) راح المستشرق الروسي (ألماني الأصل) فرين Fraehn بجمع مخطوطات ياقوت ليستخرج منها ما نقله عن ابن فضلان، وينشرها تباعاً، فنشر سنة (١٨٢٢) الفصل الخاص بالخزر إلى اللاتينية، ومعه ما قال ابن حوقل فيهم. وكان عنوان الكتاب الذي أصدره فرين: «رسالة ابن فضلان والجغرافيين العرب الآخرين عن الروس في أقدم الأزمان ـ ١٨٢٣ ـ بطرسبورغ»

وفي سنة (١٨٢٣) نشر الفصل الخاص بالروس إلى اللغة الألمانية مع شيء كثير من التفصيلات والتعليقات، فكان مؤلفه كتاباً ضخماً كبيراً بلغ (٢٦٨) صفحة من القطع الكبير. مع العلم بأن الفصل عن الروس لا يتجاوز إحدى عشرة صفحة، ترجمها في إحدى عشرة صفحة مقابلة إلى الألمانية، وعلق عليها في (١١٥) صفحة زخرت بالنقول عن اليونانية والفرنسية والإنجليزية والعربية، وأتبعها بالفهارس والملاحق على نفقة المجمع العلمي القيصري آنذاك (أكاديمية العلوم الروسية).

وهذا الكتاب على قدمه جدير بالترجمة والنقد والدراسة لمن يعنون بما قال العرب عن روسية. وما وقع لعلماء الآثار من النقود العربية والأقمشة التي تعود إلى عصر المقتدر، وبعضها ما يزال محفوظاً في متحف لينينغراد، ولعلها منذ زيارة أحمد بن فضلان وبعثته إلى البُلغار.



وفي سنة (١٨٣٢) نشر فرين نفسه الفصل الخاص بالبُلغار ونهر الفولغا (إتل) في بطرسبورغ. وهكذا نشر أكثر فصول الكتاب عن ياقوت، وعني به عناية فائقة وتمنى أن يحصل على مخطوطة الرسالة كاملة ولكنه قضى قبل أن يصل إلى أمنيته الغالية.

وفي سنة (١٩٢٢) نشر المستشرق فون روزن Rosen مقالاً بالروسية عن ابن فضلان وأوصافه لإتل والخزر والروسية. وبعد عامين نشر المستشرق الروسي بارتولد Barthold بالروسية دراسة عن موضوع الرحلات إلى روسيا عند العرب.

وفي سنة (١٩٢٤) وقع الحدث الخطير في المعلومات عن ابن فضلان إذ تسلم المعهد الآسيوي للاستشراق في بطرسبورغ (المقصود المتحف الآسيوي الذي تأسس عام ١٨١٨)، وتحول إلى معهد الدراسات الشرقية عام (١٩٢٩)، والذي تحول لاحقاً إلى معهد المخطوطات الشرقية) ورقتين مصورتين من النسخة الخطية التي اكتشفت في مدينة مشهد «طوس» من إيران، ووصلت بقية الأوراق مصورة بعد عشر سنوات إلى هذا المعهد (المتحف)، فتغير سير الدراسات عن الرحلة بعد الحصول على النسخة[١].

منذ عام (١٩٢٤) نُشر مقالٌ بالروسية للتعريف بهذه النسخة الخطية الثمينة التي اكتشفت في خزانة المخطوطات بمشهد [١٨].

وقد جاءت مقدمتها الروسية في دراسة الرحلة وصاحبها على إحدى وخمسين صفحة. ثم تلتها ترجمة الرسالة إلى الروسية في مئة وعشرين صفحة، ورقة فورقة، في ملاحظات قيمة ثمينة جداً، وأعقبتها الملاحق والفهارس. وفي آخر هذه الدراسة نشرت صورة شمسية(فوتوغرافية) للرسالة

---

(١) في سنة ١٩٣٩ صدرت دراسة بالروسية برعاية المستشرق الكبير كراتشكوفسكي في مدينة موسكو (منشورات أكاديمية العلوم الروسية بعنوان: **رحلة ابن فضلان إلى الفولغا** مع مقدمة للمستشرق الأكاديمي أغناطيوس كراتشكوفسكي في موسكو ـ ١٩٣٩).

كلها عن مخطوطة «مشهد» بخط كبير واضح ورقمت أوراقها. والحق أن هذه الدراسة هي أدق ما صدر عن ابن فضلان ورسالته وهي أصح التعليقات وأقربها إلى فهم النص، وخاصة فيما يلمّ بالبُلغار وروسيا، فهي تعتمد على المقالات والدراسات التي نشرت قبلها، وترجع إلى المصادر الحديثة الواسعة على قوة الملاحظة ووقوف على العربية..... ولم تُعن بطبع النص العربي محققاً بحروف الطباعة العربية. والملاحظ أن المستشرقين اهتموا برسالة ابن فضلان اكثر من العرب، علماً أنها وثيقة سياسية تاريخية هامة.

وقام بتحقيق الرسالة العالم التركي زكي وليدي طوغان نشرها بالعربية سنة (١٩٣٩)، ولكنها تحتوي على أخطاء. وهناك تحقيق ودراسة مهمة[١] قام بها ونشرها الدكتور محمد سامي الدهان عام (١٩٥٩) [١٣].

أ ـ الروس:

رحل ابن فضلان إلى بلاد الروس أثناء بعثة قادته إلى بلاد البُلغار في أواسط القرن العاشر الميلادي، أي قبل عهد الملك فلاديمير، وكان الروس آنئذ لم يعتنقوا المسيحية بعد. ويذهب مايكل كرايتون وأغلب المستشرقين الغربيين إلى أن ابن فضلان أطلق اسم روسية على السكان الذين التقاهم في بلاد الروس الحالية، ولكن هؤلاء الروس هم اسم قبيلة إسكندنافية، لذلك سماهم كرايتون[٢] في تحقيقه لرسالة ابن فضلان بـ النورديين، أو أهل الشمال، وهو يخالف رأي المستشرقين الروس الذين يعتقدون أنهم قبائل روسية أصلية السلوك الفردي والاجتماعي.

---

(١) رسالة ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد) في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١م). حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩.

(٢) م.كرايتون. **أكلة الموتى**. رواية مقتبسة عن مخطوطة ابن فضلان. ١٩٩٩. دار الهلال. مصر. والتي تحولت إلى فيلم «المحارب الثالث عشر».



ب ـ سلوكهم وعاداتهم:

لا يختلف أسلوب ابن فضلان في تناوله للروس عن تقريره الخاص بحالة شعب البُلغار، فهو لا يكتفي بالوصف السطحي للواجهة السياسية، بل يغوص لينقل لنا وصفاً إثنوغرافياً عن أساليب حياتهم المعاشية والدينية، وسلوكهم الاجتماعي والثقافي؛ فجمع لنا حسب أندريه ميكيل صورة نادرة عن هذه الأمة الغامضة والنائية، قبل أن تنتقل إلى المسيحية.

وهو يأخذ كل جانب من جوانب حياتهم الاجتماعية والثقافية على حدة ليصدر حكمه عليه استناداً إلى المقاييس القيمية التي اكتنزها، فهناك الجانب الذي يثير الإعجاب، وجانب يثير منه الاستغراب أو الاستهجان، فلكل جماعة بشرية حسب مفاهيمه مواقعها المنيرة وجوانبها المظلمة، فهو يصف بإعجاب «لم أر أتم أبداناً منهم كأنهم النخل، شقر حمر، مع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه، وسيوفهم صفائح مشطبة إفرنجية» ثم يراقب بدقة سلوكهم وعاداتهم، وأحياناً يصف ذلك بحيادية، فيها نوع من الاستغراب، فهو رآهم ينزلون بتجارتهم على نهر آتل لا يلبسون القراقط، ولا الخفاتين، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يستر به أحد طرفي جسمه، ويخرج إحدى يديه منه. والواحد منهم ينقش جسمه من ظفر رجله إلى رقبته صور مخضرة بالشجر وغير ذلك، وتضع المرأة على ثدييها حقة (وعاء) مشدودة من حديد أو فضة أو نحاس أو ذهب، على قدر مال زوجها، وعلى عنقها أطواق من ذهب وفضة، يرتبط عددها بحجم ثروة زوجها، وأجلُّ الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف.

لكنه أحياناً، يُصدَم بسلوكهم الاجتماعي، ولا سيما فيما يخصُّ العلاقة بين الجنسين، حيث يختفي التستر و«العفة» من جهة، وهو سلوك خاص بمجتمعه الثقافي ـ الديني، أو ما يخص النظافة والطهارة وما اعتاده من طقس إسلامي بهذا الخصوص، ففي البيت الواحد يجتمع عشرة أو عشرون شخصاً، لكل واحد منهم سرير يجلس عليه، ومعهم رفيقاتهم الجميلات، فينكح الواحد منهم جاريته، ورفيقه ينظر إليه، وربما يدخل عليهم تاجر فيصادف

أحدهم ينكح جاريته «فلا يزول عنها حتى يقضي أربه»، ويعبر عن صدمته لخروجهم عن طقس «الطهر» والنظافة الإسلاميين بقوله: «وهم أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط أو بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بآتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطِّه بيوتاً كباراً من الخشب». ويصف بتقزز عاداتهم اليومية بغسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء فيقول: «**ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه، وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتدفعها إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ثم يتمخط ويبصق فيها ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله في ذلك الماء، فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي إلى جانبه ففعل مثل فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها**»[١].

ج ـ الدين والسلطة عند الروس:

يلاحظ أن ديانتهم ترتبط بمعاشهم وبحاجاتهم الاجتماعية، وبتلبية هذه الحاجات، فعندما يرسون بسفنهم على شاطئ نهر آتل، يأتون بها ببضائعهم للاتجار بها، جواري وسمور؛ فيخرجون ومع كل واحد منهم خبز ولحم وبصل ونبيذ، يتجهون إلى خشبة منصوبة لها وجه يشبه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الخشبة خشبة طويلة أخرى تنصب في الأرض، هي مقدسة عندهم، فيأتي تاجرهم إلى الصورة الكبيرة ويسجد ويتضرع لها، علّها تسهّل له أمر بيعه لتجارته، فيقول لها: «يا ربِّ قد جئت من بلد بعيد، ومعي من الجواري

(١) رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ ـ ٩٢١م. حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩. ص ١٧٠.



كذا وكذا رأساً، ومن السمور كذا وكذا جلداً». فيذكر جميع ما عنده من تجارة، ثم يقول: «وجئتك بهذه الهدية»، فيترك هديته لها وينصرف. فإن تعذرت تجارته أعاد الطقس نفسه وقدَّم هدايا أخرى. فيعمد إلى ذبح غنم وبقر ويطرحها على الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها، فإذا أتت الكلاب عليها في الليل، يقول: «قد رضي ربي عني وأكل هديتي». ولفت ابن فضلان النظر إلى عقوباتهم المعتمدة في تقاضيهم، فهم يجازون السارق بنصبه على شجرة غليظة، وبشده من عنقه بحبل يعلقوه فيها، حتى يتقطع بفعل الرياح والأمطار. وإذا مرض الواحد منهم نصبوا له خيمة، وتركوا معه خبزاً وماءً، لا يقربوه ولا يكلموه، فإذا برئ رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، وإذا كان مملوكاً تركوه للكلاب وجوارح الطير.

ويغلب على الصورة التي يقدمها ابن فضلان عنهم، لون البداوة، وحياة الحرب والقسوة، والتخفف من قيود الحشمة والتعفف فيما يتعلق بعلاقتهم بالنساء، فملك الروس يحتفظ بجواره دائماً بأربعمائة رجل من صناديد أصحابه، وأهل ثقة عنده «ومع كل واحد جارية تخدمه وجارية أخرى يطؤها، يجلسون تحت سرير سيدهم، المرصع بنفيس الجواهر، ويجلس مع الملك على تخته أربعون جارية لفراشه، وربما وطئ الواحدة منهن بحضرة أصحابه وهو لا ينزل عن سريره، حتى أنه يقضي حاجته في طشت يقدَّم إليه، وله خليفة يقود الجيش ويحارب الأعداء ويخلفه في رعيته».

د ـ طقس الدفن عند الروس[(١)]:

يعرض ابن فضلان في صفحات مطولة مشاهد الدفن، التي تبدو أنها أثارت لديه انفعالات متضاربة، ففي هذه المشاهد من الغرابة والألم والسموّ

---

(١) رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١م. حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩. ص ١٧١.



واللامعقول والدلالات الغريبة، التي تبدو برمتها غير مألوفة لديه، لدرجة الصدمة. لقد سمع أن الروس يفعلون بملوكهم عند الموت أموراً غريبة بما فيها الحرق، فأراد أن يكون شاهداً مباشراً على وقائع دفن أحد الموتى من رجالهم الأجلاء، كما حرص أن يدوّن لنا المشاهد بكل تفاصيلها، فامتزج في وصفه الإحساس العميق بأن مشهداً أليماً يحدث أمامه مباشرة بمشاعر الاستغراب والتعاطف والأسى. فمن عاداتهم أن يضعوا الرجل الفقير الميت في سفينة صغيرة ويحرقونها، أما الرجل الغني فيقسمون ثروته، فثلثها لأهله وثلثها يخيطون له بها ثياباً وثلث للنبيذ الذي يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتموت مع مولاها. فأراد ابن فضلان أن يقف على إحدى تلك الحالات، فلما مات رجل جليل وضعوه في قبره حتى يخيطون له ثيابه، وسألوا جواريه: من يموت معه؟ فتقدمت إحداهن، فوكلوا لها جاريتين لتهيئانها لهذا الحدث الجليل؛ ويقضون هذه الفترة بشرب النبيذ ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح بين يديه.

فلما كان اليوم الذي يُحرق فيه الميت والجارية حضر ابن فضلان إلى النهر حيث السفينة التي يتم فيها الحرق، فجاءوا بسرير فوضعوه على السفينة وغشّوه بالمضرَّجات (أي المساند) والديباج الرومي ومساند الديباج الرومي، وتولَّت امرأة عجوز تُسمى ملك الموت أمر فرش السرير، وأحضروا الميت من القبر إلى السفينة، وألبسوه ثيابه الجديدة، وأدخلوه القبة التي في السفينة، وأجلسوه على المساند وبجانبه النبيذ والفواكه والريحان، وخبز ولحم وبصل طرحوه بين يديه، وبسلاحه، وبدابتين وبقرتين وديكاً ودجاجة قطعوها وألقوا بلحمها على السفينة. والجارية التي نذرت نفسها للموت معه تذهب وتجيء وتنتقل من قبة إلى قبة، حيث يضاجعها الرجال ويقولون لها: «قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك».

فلا يتوقف ابن فضلان عن تعقب التفاصيل، فيأتون بالجارية ويحملونها على أكفهم حتى تشرف على باب السفينة ثلاث مرات، فتقول في المرة الأولى: هو ذا أبي وأمي، وفي الثانية: أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً، وفي الثالثة: هو

ذا أرى سيدي قاعداً في الجنة، ثم يأتي دور المرأة العجوز، التي تلعب، حسب وصف ابن فضلان، دور العراف والشامان المقدس، والتي تسمى ملك الموت والمكلفة بقتل الجارية، فتدفعها إلى السفينة، وتدفع إليها قدحاً من النبيذ، فتغني وتشربه، بعدها تدخِلها إلى القبة التي فيها سيدها، وهناك يدخل ستة رجال، فيجامعوا الجارية ويضجعونها إلى جانب مولاها. وتجعل العجوز في عنق الجارية حبلاً تدفعه إلى اثنين من الرجال ليجذباه، ثم تقبل ومعها خنجر فتدخله في أضلاعها حتى تموت، والرجال في الخارج يضربون على التراس ليحدثوا ضجيجاً يمنع سماع صوتها لكى لا تخاف الجوارى الاخرى الموت مع سادتهم، ثم ينتهي المشهد بإشعال السفينة من قبل أقرب الناس إلى الميت، ثم يبادر الجميع بإلقاء الخشب المَحرَق، فتأخذ النار في الحطب ثم السفينة ثم القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها. ثم بنوا على موضع السفينة، ونصبوا في وسط البناء خشبة كبيرة، كتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا.

هذه رواية شاهد عيان حية، يلاحظ المؤرخ وجود عادة الدفن والحرق المتبعة لدى الروس القدماء وعند الصقالبة والأتراك أيضاً، وربما جاءت عادة السفينة من العالم الإسكندنافي، وتذكِّر الموكبات الموسيقية بعادات سويدية أو صقلبية؛ أما موت المرأة الإجباري فشائع عند أمم عديدة مثل الأسقونيين والأتراك والمغول والبُلغار والجرمانية والصقالبة؛ ويُعرف دفن الميت جالساً في آسيا الوسطى؛ أما دفن أغراضه معه فشائع عند الصقالبة والبُلغار والأتراك، وقد يشابه ملكة الموت عندهم آلهة الموت الجرمانية هيل.

لقد امتزج في وصف ابن فضلان لهذا الحدث الجليل، الإحساس بمرارة ومأساوية الحدث الذي تبدى أمامه بالتعاطف، وأيضاً بالدهشة والغرابة، فنحن هنا أمام ارتطام مرجعيتين ثقافيتين لا تلتقيان إلا بتلك الرغبة بالخلود، والارتفاع عن اليومي إلى ذروة التعالي، وإن كان هنا يجري ـ حسب ابن فضلان الفقيه المسلم ـ بطريقة خاطئة، ولقد كان حاضراً في وجدانه أثناء وصفه



للمشهد، هذا الافتراق في القيم والمرجعيات التي تؤسسها، فلا ينسى أمام وقوفه عند تفاصيل الموت أن يتذكّر ما جرى من حوار بينه وبين أحد الروس، عن طريق المترجم، وهم ينظرون إلى السفينة وهي تحترق، إذ قال له الروسي: «أنتم يا معشر العرب حمقى»، فقال ابن فضلان: لم ذلك؟ قال الروسي: «إنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب، وتأكله التراب والهوام والدود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته، وضحك ذاك الروسي ضحكاً مفرطاً، فسأله ابن فضلان عن السبب، فقال: «من محبة ربه له يقصد الميت قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعته». ولكن هذا الحوار بالتأكيد لم يقرِّب أسس الفهم بينهما، لذا كان الروسي مبتهجاً لحدوث التعالي أمامه، بينما كان ابن فضلان كدراً مهتزاً في أعماقه لمشهد بدا له مروِّعاً وأليماً! الأول رأى في الحدث جسراً للعبور إلى الأبدي، والثاني رأى فيه حدثاً تمتزج فيه القوة واللامعقول بالألم.

٢ ـ اهتمام العلماء الروس بمخطوطة ابن فضلان:

تعامل بعض العلماء الروس مثل أ.تسيبتسين بسلبية كبيرة مع رسالة ابن فضلان، واعتبرها من محض الخيال، ولم تكن رحلة لشخص اسمه أحمد بن فضلان. ولكن علماء آخرون مثل تيزينغاوزين رد بقوة ضد هذه الرأي واستندوا إلى المقارنة بين المعلومات الجغرافية والأسماء التي ذكرها ابن فضلان، وكذلك دققوا في التفاصيل االمتعلقة بالمدن والدول والشعوب والعملات النقدية، واستنتج المستعرب أندريه كوفاليفسكي أن معلومات ابن فضلان صحيحة وموثوقة، وأن أحمد بن فضلان كتب كل شيء بصدق وأمانة. ونشر أ.كوفاليفسكي كتاباً خاصاً بعنوان: كتاب أحمد بن فضلان ورحلته على ضفاف الفولغا[١] في عام (٩٢١ ـ ٩٢٢). خاركوف. (١٩٥٦). وأدخل كل تفاصيل الدراسات للرحلة ومحتويات الرسالة ومدى تطابقها مع الواقع.

(١) أ.كوفاليفسكي. كتاب أحمد بن فضلان ورحلته في حوض الفولغا في الفترة ٩٢١ ـ ٩٢٢م. خاركوف. دار نشر جامعة خاركوف الحكومية. ١٩٥٦

في السينما:

فيلم المحارب الثالث عشر(١) (بالإنجليزية The 13th Warrior)، كان مخيب للأمال في صندوق التذاكر، حيث لم يحقق إلا (٨٩٩،٦٩٨،٦١) دولار فقط على مستوى العالم. والرواية التي يقوم عليها الفيلم هي من وحي خيال ريتشارد فري بعد ترجمته لرحلات ابن فضلان الحقيقية وأسفاره حتى نهر الفولجا في القرن العاشر.

وقد واجه الفيلم بعض الصعوبات من أجل تحقيق مناخ تاريخي واقعي، مثل استخدام اللغة العربية، والسويدية والنرويجية والدانماركية واليونانية واللاتينية في الحوار.



تمثال أحمد بن فضلان في جامعة فورونج الروسية (٤ مايو ٢٠١١)



(١) صدر **فيلم المحارب الثالث عشر** عام ١٩٩٩. من إخراج جون مكتيرنان وبطولة أنتونيو بانديراس في دور أحمد بن فضلان، وفلاديمير كوليتش في دور (بياولف) وعمر الشريف.



الفصل الثالث

تاريخ الدراسات الاستعرابية في روسيا

أولاً: مدرسة الاستعراب الروسية في القرن العشرين:

مصطلح الاستعراب (Arabistika)، كما يقول كراتشكوفسكي في مقدمة كتابه **نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي**(1) [1]، الذي صدر عام (١٩٤٩)، بالمعنى الواسع للكلمة، هو مجموعة المناهج والمقررات التاريخية واللغوية المستندة إلى دراسة المواد العربية. ويرتبط به مسائل تعليم تلك المواد والترجمات والنشاطات العلمية والتوعوية. ويشير كراتشكوفسكي إلى أن مصطلح الاستعراب كان يعني في الفترات الماضية تجميع معلومات عن البلدان العربية والثقافة العربية أكثر منه مجالاً علمياً متكاملاً.

ويبدو أن مصطلح الاستعراب درج استخدامه في روسيا وخاصة من قبل كراتشكوفسكي ليميز مدرسة الاستشراق الروسية عن مثيلاتها الأوروبية التي حافظت على استخدام مصطلح الاستشراق، وقد يعود السبب في أن كراتشكوفسكي نفسه كان مستعرباً بامتياز، وربما أيضاً لأن روسيا هي دولة شرقية مثلما هي أوروبية، وبالتالي فمصطلح الاستشراق في روسيا يحتمل أكثر من مقاربة.

يتحدث كراتشكوفسكي في كتابه المذكور [1] عن أن التقاليد العلمية في

---

(١) إغناطيوس كراتشوفسكي ـ نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠.



مجال الاستعراب الروسي تبلورت في بداية القرن التاسع عشر. أما قبل ذلك فحصل تراكم للمعلومات العملية المتعلقة باللغة العربية والبلدان العربية. وكانت هناك بوادر للتعرف على الثقافة العربية في روسيا الكييفية وروسيا الموسكوفية.

ظهرت المعلومات عن العرب في روسيا بوقت مبكر نسبياً، وجرى ذلك عبر التواصل المباشر أو المصادر الشرقية والغربية. وشملت المعلومات القادمة عن العرب إما المجال اللغوي أو التاريخي ـ الثقافي أو الإسلامي أو الأدبي.

وبالطبع كان الحج إلى بيت المقدس في فلسطين أهم مصادر المعلومات، وهناك رحلة أحمد بن فضلان إلى إمارة بُلغار على ضفاف الفولغا، وفي بداية القرن (١٢) في كييف اشتهر الطبيب «بطرس السرياني» الذي مثّل المدرسة الطبية السريانية ـ العربية المكتوبة باللغتين العربية والسريانية. كما وصلت كلمات عربية عن طريق تتار القرم من خلال علاقاتهم القوية مع تركيا.

وتدفقت، مع بداية القرن (١٧م)، الكلمات العربية إلى اللغة الروسية عبر القنوات الغربية واللغات الأوروبية، وخاصة عبر إسبانيا والبرتغال. وكانت الكلمات متنوعة منها ما هو مصطلح علمي، ومنها كلمات تتعلق بالحياة اليومية والمعيشة، واستمرت حتى اليوم عملية إغناء اللغة الروسية بكلمات عربية من قبل المستشرقين والأدباء والرحالة.

وهناك كلمات انتقلت إلى اللغة الروسية من اللغة الفرنسية وكانت مشوهة عن أصولها العربية، لكن اللغة الروسية عرفت تلك المصطلحات قبل ذلك وبصورة أقرب للأصل العربي مثل اسم الرسول ﷺ بالفرنسية «ماغاميت» بينما بالروسية «محميد» أو «محمد».

وقد اكتسبت المكتبة الروسية روائع أدبية ترجمت عن العربية من أصول هندية مثل قصة «كليلة ودمنة». ونقلت إلى اللغة الروسية قصة «حكمة أحيقار» الآشورية التي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد وموطن القصة هو بلاد ما بين النهرين. ثم ترجمت في القرون (٩ ـ ١٢) للميلاد من اللغة السريانية



بدون وساطة اللغة اليونانية. كما انتقلت أعمال أدبية من لغات أوروبية اقتبست من الترجمات العربية.

ومن القصص التي رواها بطرس الحلبي، المرافق لأبيه بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ماكاريوس، في رحلته إلى روسيا[١] في عهد القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش في منتصف القرن السابع عشر، أنه التقى بشخصية روسية نادرة كان مسؤولاً في مناطق كاشيرا وكولومنيا وسيربوخوف القريبة من موسكو ولكنه من أصول عربية من دمشق، وقع في الأسر لدى البولنديين خلال الحرب التركية (١٦١٨ ـ ١٦٢٢)، وهرب من هناك إلى موسكو وبلغ مراتب حكومية عالية. كما عمل في متحف الأسلحة في الكريملين في نفس الفترة الرسام «سافكا ياكوفليف» وهو عربي مسيحي ومعه عمل عربي آخر اسمه مارك اوستافييف.

وقد استخدمت في اللغة الروسية كلمة «أراب ـ Arap» التي تشبه كلمة Arab لتعني الشخص العربي أو الأفريقي وعلى الأغلب كما يقول كراتشكوفسكي[٢] كانت تعني الأفريقي حصراً.

ولا يعرف الروس العاديون قصص المثقفين العرب الذين زاروا روسيا وكان لهم باع طويل في تطور روسيا. فمثلاً بقيت شبه مجهولة الأشعار التي كتبت بمناسبة زيارة بطريرك أنطاكيا السوري يواخيم الذي زار روسيا عام (١٥٨٦) في عهد القيصر فيودور إيفانوفيتش (يوانوفيتش ـ يوحنا) بمناسبة بناء بطريركية في روسيا. ونفس الشيء يقال عن رحلة البطريرك ماكاريوس في منتصف القرن السابع عشر في عهد القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش، والتي لم يتعرف عليها الروس إلا في القرن التاسع عشر، حيث كانت قصة الرحلة مكتوبة بالعربية من قبل بطرس الحلبي ابن البطريرك، ثم ترجمها الأديب السوري جرجس مرقص، الذي كان يدرس اللغة العربية في الجامعات الروسية

---

(١) بولص الحلبي. **رحلة البطريرك الأنطاكي مكاريوس إلى روسيا ١٧٦٥. ترجمها للروسية جرجس مرقص عام ١٨٩٨. دار نشر سويكين. موسكو.**

(٢) إ.كراتشكوفسكي ـ **نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠.



(في الفترة نهاية القرن ١٩ بداية القرن ٢٠م). واستطاع الروس رؤية توقيع البطريرك باللغة العربية في شهادة التقدير التي منحت لفرقة الانشاد الديني في روسيا (١٦٦٦ ـ ١٦٦٧).

وقد لعبت الشعوب المسلمة مثل تتار الفولغا والبخاريين في آسيا الوسطى وشعوب شمال القوقاز، دوراً مهما في الحفاظ على استخدام اللغة العربية واستمرارها في روسيا. فقد كانت بالنسبة لهم كاللغة اللاتينية في أوروبا. وقد كانت العلاقات بين روسيا الأوروبية وبين الشرق الإسلامي القريب منها ضعيفة جداً ولم تكن هناك معرفة بالآخر.

ويقول كراتشكوفسكي: إن الاهتمام في القرن الثامن عشر باللغة العربية المنتشرة في القوقاز وآسيا الوسطى لم يجذب انتباه العلماء في روسيا، بل كان محط اهتمام العسكريين والتجار والسياسيين. وفقط بعد ثورة أكتوبر (١٩١٧) بدأ اهتمام جدي بالآداب العربية[١]. وبالرغم من وجود شعوب ناطقة بالعربية مجاورين لروسيا وبعضهم جزء من روسيا، إلا أن روسيا تأخرت كثيراً في مجال الاستعراب، كاتجاه علمي، عن الغرب، الذي لم يكن فيه شعوب مسلمة وناطقة بالعربية.

وفي عهد الإمبراطور بطرس الأول بدأت مرحلة جدية في التأسيس العلمي للاستعراب، من خلال الاهتمام بإعداد الكادر المؤهل الذي يتقن اللغات الشرقية، وإرسال الطلبة إلى بلاد فارس وتركيا لتعلم اللغة الفارسية والتركية. ولم يذكر أن بينها كانت اللغة العربية.

وفي عام (١٧٢٢) قام الإمبراطور بطرس بجولة على شاطئ نهر الفولغا، وزار بقايا آثار إمارة البُلغار الإسلامية، وطلب ترجمة (٥٠) عبارة كتبت على شواهد القبور العربية والتترية والأرمنية. وقد أشرف السيد دميتري كانتيمير

---

(١) إغناطيوس كراتشوفسكي ـ نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠



وهو خبير في الفلسفة الشرقية القروسطية ومولدافي الأصل (١٦٧٣ ـ ١٧٢٣) ومقرب من الإمبراطور بطرس، وهو أب لكاتب ساخر روسي معروف. وكان كانتيمير مرافقاً للإمبراطور في رحلته، لذلك بادر بتأسيس أول مطبعة بحروف عربية. وقد ألف كانتيمير كتاباً عن الإسلام باللغة اللاتينية تمت ترجمته لاحقاً إلى الروسية. وفي هذه المطبعة على ضفاف الفولغا تم طباعة أول بيان للإمبراطور باللغة العثمانية بتاريخ (١٥ تموز/يوليو ١٧٢٢). وكانت هذه أول مرة في روسيا تطبع حروف عربية ولم تتكرر التجربة إلا بعد (٥٠) سنة.

ويرى كراتشكوفسكي أن اهتمام الإمبراطور بطرس بالإسلام لم يكن محض صدفة، بل ارتبط بالخطط السياسية والحروب الطويلة مع الأتراك. فقد سبق وأن أمر الإمبراطور عام (١٧١٦) بترجمة القرآن إلى اللغة الروسية في بطرسبورغ، واعتقدوا لفترة، أن المترجم هو كانتيمير نفسه إلى أن اتضح في ستينيات القرن التاسع عشر أن بطرس بوسنيكوف هو من أنجز أول ترجمة للقرآن في روسيا. ويذكر أن الإمبراطور بطرس اعتمد على الفيلسوف والرياضي الألماني المعروف ليبنيتز في وضع مشروع للجامعة واقترح استراخان موقعاً لها كونها الأقرب للشرق. ولكن المشروع لم يتحقق. ولكن كانت هناك في استراخان مدرسة متوسطة تأسست عام (١٧٨٨)، وتحولت عام (١٨٠٦) إلى مدرسة متخصصة، اهتمت بتعليم اللغات الشرقية ومن ضمنها اللغة العربية.

ومن اللافت أنه في القرن الثامن عشر تضاءل عدد المستعربين القادمين من الغرب إلى روسيا وتم التعويض عنهم بمستعربين روس. وبدأ تدريس اللغة العربية في المدارس الروسية بشكل ممنهج في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وشهدت فترة حكم الإمبراطورة يكاتيرينا الثانية موجة من الترجمات إلى الروسية لمؤلفات وقصص عربية من لغات أوروبية مثل ألف ليلة وليلة وقصص أدبية أخرى.

ومنذ بدايات القرن التاسع عشر بدأت تتبلور قاعدة واضحة لمدرسة الاستعراب العلمي في روسيا، والتي تزامنت بنشاطات علمية كبيرة مثل جمع

المصادر وتصنيفها في المكتبات، وكانت مدينة بطرسبورغ مركزاً أساسياً لتلك النشاطات.

١ ـ بدايات الاستعراب الروسي:

انتشرت الأخبار عن العرب والبلاد العربية في بلاد الروس في وقت مبكر ـ في تخوم القرن (٩ ـ ١٠) للميلاد، وذلك مع تطور التجارة العالمية في القرون الوسطى. وتشهد على أبعاد هذه التجارة الكنوز المتعددة من النقود العربية المعدنية، التي عثر عليها علماء الآثار وما زالوا يكتشفونها بمحاذاة الطرق التجارية القروسطية. عرف العرب طريق التجارة عبر البلطيق وبحر قزوين بشكل جيد، لدرجة أن الجغرافيين العرب مثل ابن حوقل[١] أطلقوا على نهر الدون تسمية «نهر الروس». وكانت منطقة خوارزم إحدى مراكز الاتصالات النشطة بين العرب والروس على مفترق الطرق الهامة للتجارة العالمية، التي تنطلق من بلاد الروس وحوض الفولغا إلى آسيا الوسطى ومنغوليا والصين. وقد قدم الجغرافي المعروف ابن فضلان من القرن (١٠م) معلومات قيمة عن شعوب حوض الفولغا والروس [١٣]. وكان ابن فضلان أحد مبعوثي الخليفة بدعوة من البُلغار في منطقة حوض الفولغا. وكان البُلغار قد اعتنقوا الإسلام قبل ذلك.

إن عملية تبلور الأفكار العلمية في روسيا الموسكوفية، جرت ليس على أساس التقاليد العلمية اليونانية والبيزنطية فحسب، وإنما لعبت هنا دوراً بارزاً التقاليد العلمية العربية. وانعكس ذلك بشكل خاص في مجال تشكل الأفكار والتصورات الفلكية والتنجيمية. ويرجع المؤلف الفلكي «شستوكريل» الذي انتشر في روسيا القروسطية إلى المصادر العربية، وبشكل أدق إلى النموذج (الموديل) الهندسي ـ الحركي لعالم الفلك الأندلسي البتروجي (ق ١٢م).

تسربت معلومات عن الطب العربي عبر أوروبا الغربية إلى روسيا الموسكوفية، ولقي انتشاراً واسعاً «كتاب العلاج للطبيب إسحاق» وهو مخطوطة

---

(١) ابن حوقل. المسالك والممالك. مدينة ليدن. مطبعة بريل. ١٨٧٣.

للطبيب الفيلسوف إسحاق بن سليمان (٩٠٠م). لكن روسيا الموسكوفية لم تؤسس بعد لتقليدها الخاص في الاستعراب العلمي، ولم تبن قاعدة له من خلال تجميع المخطوطات العربية. علماً أن المصادر تتحدث عن مجموعة (من المخطوطات) كانت تشكل جزءاً من مكتبة، لم يعثر عليها حتى الآن، تعود للقيصر إيفان الرابع (الرهيب)، ويبقى ذلك مجرد احتمال ممكن.

أدت أبحاث العلماء في كثير من الدول، والتي بدأت منذ بداية القرن العشرين، إلى إلقاء الضوء على دور المؤلفين العرب في القرون الوسطى (الذين عاشوا وعملوا في مساحة واسعة ممتدة من إسبانيا وشمال أفريقيا حتى الهند) في تطوير فروع كثيرة من العلم: التاريخ، الجغرافيا، الكيمياء، البيولوجيا، الطب، العلوم الرياضية والفيزيائية. وكان للعلماء الروس والسوفييت نصيب وفير وإسهام متميز في دراسة الثقافة والعلم العربيين، ومنهم مستعربون ومتخصصون في بعض المجالات العلمية الدقيقة.

ونميز في تاريخ دراسة العلم العربي في روسيا والاتحاد السوفيتي جانبين مرتبطين بقوة فيما بينهما: التسلسل الزمني لهذه الدراسة، وإشكالية الدراسة ومواضيعها.

تتميز المرحلة الأولى من دراسة العلم العربي في روسيا بالبحوث في مجال الاستعراب بالمعنى الضيق للكلمة: دراسة اللغة والأعمال الأدبية والدينية. واختتمت هذه المرحلة في أواسط القرن (١٩) بنشوء مدرسة الاستعراب الروسية، والتي حظيت بتقدير عال من المستعربين في العالم بأجمعه. أما دراسة المؤلفات العلمية للعلماء العرب، فتعود إلى مرحلة متأخرة نسبياً، وقد بلغت مستوى متقدماً من التطور في العقود السبعة الأخيرة.

انطلاقاً من مبدأ الترتيب الزمني، نتوقف باختصار عند تاريخ الاستعراب الروسي، ومن ثم ننتقل إلى تاريخ دراسة العلم العربي في روسيا والجمهوريات السوفياتية سابقاً.



٢ ـ مرحلة الاستعراب في القرنين ١٨ ـ ١٩ م:

تعود الانطلاقة الجديدة في الاستعراب الروسي إلى بداية القرن ١٩م:

أولاً: حسب النظام الداخلي للجامعة في (١٨٠٤م) تم إدخال تدريس اللغات الشرقية في الجامعات الروسية. وتأسست أولى أقسام اللغة العربية في خاركوف وقازان وفيما بعد في موسكو. وترأس القسم في موسكو أ.ف. بولدريف (١٧٥٨ ـ ١٨٤٢) وهو مؤلف أول «مختارات عربية» في روسيا، أما القسم الذي تأسس في وقت لاحق في بطرسبورغ فترأسه الكاتب والمستشرق المعروف على نطاق واسع في روسيا و.ي.سينكيفتش (١٨٠٠ ـ ١٨٥٨)، وقد بقي رئيساً للقسم ٢٥ سنة (١٨٢٢ ـ ١٨٤٧).

ثانياً: يمكن اعتبار البداية الفعلية للاستعراب العلمي في روسيا في عام (١٨١٨م)، حيث تأسس «المتحف الآسيوي» في بطرسبورغ على يد أحد أكبر المستشرقين في ذلك الحين خ.د. فرين (١٧٨٢ ـ ١٨٥١)، الذي عمل قبل ذلك عشر سنوات في قازان. وكان قد أجرى سلسلة كبيرة من الأبحاث في علم المسكوكات (النميات) العربية (حسب مقتنيات المجموعات الروسية) وقام بدراسة المراجع العربية في تاريخ بلاد الروس. وتعود إليه، بشكل خاص أولى الدراسات لأعمال ابن فضلان. وبهذا العمل الكلاسيكي تم بشكل ناجح افتتاح تاريخ الاستعراب العلمي في روسيا. وفي (١٨١٩م) اقتنى «المتحف الآسيوي» مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية، والتي اغتنت عام (١٨٢٥م) بمجموعة أخرى. وأضافت «الإدارة الآسيوية» التي تأسست عام (١٨١٣م) مخطوطات أخرى. واستمر تزويد المتحف الآسيوي بالمخطوطات العربية الجديدة سواء بشكل منفرد أو على شكل مجموعات كاملة قدمت كهدايا للمتحف من أشخاص، معظمهم كانوا من الدبلوماسيين في بلاد المشرق.

وقد تحول المتحف الآسيوي إلى معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية (فرع لينينغراد وحاليا يعرف بمعهد المخطوطات الشرقية). وفيما بعد، في عام (١٨٥٤) تأسست كلية اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ،

والتي احتوت على قسم اللغة العربية وآدابها. وكان من أوائل خريجيه ف.ف. غرغاس (١٨٣٥ ـ ١٨٨٧) الذي ألف قاموساً شهيراً وكتاب «مختارات»، كانت مرجعاً لأجيال من المستعربين الروس.

لقد ظهر في موسكو عام (١٨٧٢) مركز آخر لدراسة اللغة العربية ـ معهد لازاريف للغات الشرقية، الذي أصبح مع بداية القرن العشرين مركزاً حقيقياً للاستعراب العلمي، وترأسه آنذاك أ.ي. كريمسكي (١٨٧١ ـ ١٩٤١). وينتمي إلى المدرسة الموسكوفية أ.أ.سيميونوف أول مختص في العلوم الإسلامية وتاريخ المذهب الإسماعيلي. أما في قازان فقد وضعت أسس الاستعراب من قبل فرين.

ومن أشهر المستعربين في قازان كان المستعرب الكبير غ.س. سابلوكوف (١٨٠٤ ـ ١٨٨٠)، الذي أعد ترجمة رائعة للقرآن الكريم حسب التقليد الإسلامي المتأخر. وتعود كذلك إلى سابلوكوف ترجمة بعض أجزاء رسالة أحمد بن فضلان. وترأس إدارة المتحف الأسيوي بعد فرين، المستعرب ب.أ.دورن (١٨٠٥ ـ ١٨٨١) الذي عمل على دراسة المصادر العربية في تاريخ القوقاز وشواطئ بحر قزوين، حيث بذل قصارى جهده لإعداد دليل مخطوطات المكتبة العامة في بطرسبورغ (حالياً تدعى المكتبة الوطنية العامة في سان بطرسبورغ). وعلى مدى عشرين عاماً أجرى دورن سلسلة كبيرة من البحوث والدراسات للإسطرلابات العربية.

أما المدرسة التي اعتمدت الطابع المعرفي العلمي البحت، وحرص المستعربون فيها على استقلالية عملها، فقد نشأت وما زالت في بطرسبورغ، حيث بذلت جهود كبيرة من قبل العلماء في بطرسبورغ لتحقيق درجة من الاستقلال المهني، ونشر الدراسات بعيداً عن التوجه السياسي. وتمت الاستعانة بعلماء من الغرب، كما كان الشأن بالنسبة إلى المجالات الأخرى المختلفة، فعندما بدأ القيصر بطرس الأول الإصلاحات في السياسة والعلوم والجيش ومختلف أوجه الحياة في روسيا، استعان بالخبرات الأوروبية من فرنسا وألمانيا



وإنكلترا، ولكن الاستعراب الروسي ما لبث أن أخذ بتكوين نفسه معتمداً على المصادر الشرقية الإسلامية مباشرة، بداية من خلال التبادل الثقافي الذي جرى والمعايشة المباشرة للموظفين والعسكريين الروس في مناطق الفولغا والبحر الأسود والقوقاز وآسيا الوسطى. أما في شمال القوقاز فقد عاشت اللغة العربية حياة كاملة ليس في الكتابة فحسب، بل وفي الحديث أيضاً.

وأول مخطوطة علمية عربية في الرياضيات كُتب عنها في مجلة رياضيات روسية[١] في عام (١٨٦٥) واسمها: مجموعة أبحاث في الرياضيات (Matematicheskii sbornik)[٢] وهي من أكبر مجلات الرياضيات في العالم. وكان ذلك العدد الأول منها وهي مجلة جمعية علماء الرياضيات في موسكو التي تأسست تقريباً في تلك السنة. وأعضاء هذه الجمعية كبار علماء الرياضيات الروس مثل العالم تشيبيشيف Chebeshev المعروف بأبحاثه الرياضية القيمة في نظرية الأعداد، ومعظم فروع الرياضيات. وقد نشرت في تلك المجلة في العام المذكور مقالة بعنوان «كتاب التلخيص لعالم الهندسة العربي ابن البَنَّا». وكان نشرت بتوجيه من تشيبيشيف نفسه الذي أوصى بأهمية العلوم العربية وضرورة دراستها ونشرها حتى في مجلات وزارة التربية والتعليم. وهذه الحادثة تدل على الاهتمام الكبير والمبكر والفهم العميق من قبل أعظم علماء الرياضيات في روسيا منذ منتصف القرن (١٩م) لأهمية العلوم العربية وخاصة الرياضيات.

فقد اقترن النصف الثاني من القرن (١٩) بظهور العديد من المؤسسات والجمعيات في روسيا، والتي بذل أعضاؤها جهداً كبيراً في مجال الاستعراب.

---

(١) مجلة «مات سبورنيك» (Matematicheskii sbornik) ـ موسكو ـ ١٨٦٧ ـ المجلد ٢ رقم ١ الجزء ٢. ص ٢٧ ـ ٤٣.

(٢) محمود الحمزة. م.روجانسكايا. **مخطوطة تلخيص أعمال الحساب لابن البنا المراكشي**. ترجمة إلى الروسية ودراسة تاريخية ورياضية. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٥. العدد ٩ (٤٤). ص٣٤٧ ـ ٣٧٥.

وبالإضافة إلى الجامعات، فقد أصبحت مسائل الاستشراق بما فيها الاستعراب، هدفاً للدراسة من قبل أعضاء كل من: الجمعية الجغرافية الروسية وجمعية هواة العلوم الطبيعية والآثار والأجناس. أما في عام (١٨٨٢)، فقد تأسست «الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الأرثوذكسية» والتي لعبت دوراً في تنشيط الاستعراب في روسيا. أما المستعربين الروس، الذين حصلوا على تعليمهم في كليات جامعية متخصصة، فقد عملوا بنجاح في القوقاز وآسيا الوسطى حيث اكتشفوا ودرسوا مخطوطات نادرة. وأنشئت في عام (١٨٩٥) «حلقة تركستان لهواة الآثار» وهي التي نسقت أعمال التنقيب عن الآثار في آسيا الوسطى.

وقد قام المستشرق الشهير ن. خانيكوف (١٨٢٢ ـ ١٨٧٨) بدور هام ومتميز في تطوير الاستعراب الروسي وهو مؤلف كتاب «وصف إمارة بخارى» و«نبذة عن الأجناس في بلاد الفرس»، وكان قد عمل قنصلاً روسياً لفترة طويلة في مدينة تبريز. كما بذل خانيكوف جهوداً ضخمة لإغناء المكتبة العامة في بطرسبورغ بمجموعات خاصة أهداها للمكتبة. ومن ضمنها مخطوطة «كتاب ميزان الحكمة» للخازني[(١)] القرن (١٢م)، والتي قام خانيكوف لأول مرة بوصفها ونشر أجزاء منها وترجمة مقاطعها إلى الإنجليزية عام (١٨٥٩).

وترتبط مرحلة جديدة وهامة جداً في تطوير الاستعراب العلمي باسم ف. ر. روزن (١٨٤٩ ـ ١٩٠٩)، الذي كان أبرز علماء الاستشراق الروسي ومعلم لجيل كامل من المستعربين الروس [١].

وكان روزن عميداً للكلية الشرقية في جامعة بطرسبورغ لسنوات عدة، وفي عام (١٨٨٥) ترأس الفرع الشرقي لجمعية الآثار الروسية. ومنذ عام (١٨٨٦) بدأت هذه الجمعية تحت إشراف روزن بإصدار «نشرة» ـ لسان حال الاستعراب الروسي الذي اكتسب اعترافاً دولياً. وأعد روزن دليلاً من أربعة مجلدات

---

(١) كرست المستعربة مريام روجانسكايا جهوداً كبيرة في ترجمة مخطوطة «ميزان الحكمة» للخازني، إلى اللغة الروسية وقامت بالتعليق والشرح عليها.



لمخطوطات المتحف الآسيوي. وأولى اهتماماً كبيراً لدراسة المؤلفات الجغرافية والتاريخية للعلماء العرب، المتعلقة بأوروبا الشرقية. ويعد روزن أول المستعربين الروس الذين قاموا بدراسة وتحليل أعمال البيروني. وفي تقييم كتابه عن الهند الذي أصدره ساخاو نفسه، أعطى تقديراً عالياً لهذا العالم الموسوعي الكبير، وتأكد ذلك بالاكتشافات اللاحقة(١).

ويجدر التوقف عند مؤرخ الرياضيات الروسي الكبير ف. بوبينين (١٨٤٩ ـ ١٩١٩) الذي أصدر مجلة في تاريخ العلوم الرياضية والفيزيائية لسنوات طويلة، وكان يلقي محاضرات في جامعة موسكو في تاريخ الرياضيات منذ القديم وحتى عصره، حيث كرس منها عدة محاضرات لتاريخ الرياضيات العربية [١٥].

ومن التلاميذ الرائعين لروزن، كان المستشرق الروسي الكبير والمؤسس الفعلي لتاريخ آسيا الوسطى في روسيا ف. بارتولد (١٨٦٩ ـ ١٩٣٠). فألف بارتولد سلسلة كاملة من البحوث في الجوانب العامة والخاصة من تاريخ البلاد الإسلامية والعلوم العربية: «ثقافة الإسلام» «عالم الإسلام» «علماء النهضة الإسلامية» وغيرها. وحظي مؤلفه العلمي «تركستان في عهد الغزو المغولي» بشهرة واسعة واعتمد في إعداده على البحوث الدقيقة والمفصلة الواردة في المصادر الجغرافية والتاريخية للباحثين العرب. ويعود إلى بارتولد(٢) المؤلَّف التاريخي الكبير وهو «تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا»، وكان جزؤه الأكبر

---

(١) محمّد بن أحمد البيروني، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة** (فرغ منه في محرم ٤٢٣هـ)، ترجمه إلى الإنجليزية إدوارد ساخاو:

Muhammad ibn Ahmad Biruni, Alberuni's India: An account of the religion, philosophy, literature, geography, chronology, astronomy, customs, laws and astrology of India about A. D.1030. An English edition, with notes and indices by Edward C. Sachau. London: Kegan Paul, Trench, Trubner & Co., 1910, 2 vols.

(٢) إ.كراتشكوفسكي ـ **نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي**. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠.



مكرساً لتاريخ الاستعراب الروسي. وكان ذلك موضوع المحاضرات التي ألقاها خلال سنوات طويلة لطلبة الكلية الشرقية في جامعة بطرسبورغ، وأعيد نشره ثلاث مرات (آخرها في ١٩٧٧ في الأعمال الكاملة لبارتولد) [١].

وكان بارتولد أول من درس في روسيا مرحلة أولغ بك وعصره، وقيّم مدرسة سمرقند العلمية، وحلل المعطيات التاريخية والأثرية حول مرصد سمرقند. وكان في مركز اهتمام بارتولد طيلة حياته المؤلفات الجغرافية العربية، وخاصة التي تضمنت معلومات عن أراضي روسيا. وفي عام (١٩٤٠) (بعد وفاته بعشر سنوات) عثر على عمل غير منشور له «معلومات عربية عن بلاد الروس».

٣ ـ مرحلة المستعرب كراتشكوفسكي:

ثاني تلاميذ روزن أصبح إغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥١) ذو الشهرة العالمية ومؤسس مدرسة الاستعراب السوفياتية، الذي كان باحثاً واسع الإطلاع بشكل استثنائي ومؤلف العديد من الأعمال التي كشفت للقارئ الروسي عن كنوز الأدب العربي والعلوم العربية [١ ـ ٢، ١٨، ٢٢ ـ ٢٤]. وفي ظروف الحرب القاسية وحصار لينينغراد ألّف أهم عمل له «**تاريخ الأدب الجغرافي**» والذي شمل الفترة من القرن (٨) وحتى القرن (١٨م). (وقد جمع مواد هذا العمل طيلة حياته). وتعود بدايات هذه الأبحاث إلى عام (١٩٠٩) أثناء رحلة كراتشكوفسكي العلمية إلى المشرق العربي، وذلك عندما أتيحت له الفرصة لسماع سلسلة محاضرات في جامعة القاهرة للمستشرق ك. أ.نيللينو في تاريخ الفلك والجغرافيا الرياضية عند العرب.

كان كتاب «**تاريخ الأدب الجغرافي**»(١) محصلة لسلسلة محاضرات ألقاها كراتشوفسكي [١٨] في الكلية الشرقية في جامعة بطرسبورغ (١٩١٠ ـ ١٩١٧)

---

(١) إ.كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، من جزئين القاهرة، ١٩٥٧.



وفيما بعد جامعة لينينغراد (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦). وخلال (٤٠) سنة ونيف من العمل في إعداد هذا الكتاب، قام بإثرائه باستمرار بالمعطيات والمكتشفات الجديدة التي يعود قسم منها إلى المؤلف نفسه.

ويكفي القول: إن كراتشكوفسكي قام بدراسة ووصف حوالي (٣٠٠) مؤلف من المراجع الجغرافية العربية، ومعظمها محفوظ في خزائن المخطوطات في روسيا والجمهوريات السوفياتية السابقة.

ويعد كراتشكوفسكي صاحب كتاب آخر شهير «**نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي**» الصادر عام (١٩٤٩) بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد روزن. وكان قد بدأ العمل على إعداد هذا الكتاب عام (١٩١٠) بإلقائه لمحاضرات في هذا الموضوع في الجامعة، واستمر العمل به طوال حياته. وحصل كتابه العلمي المبسط «مع المخطوطات العربية» على سمعة وانتشار واسعين وأعيد نشره عدة مرات.

شكلت أبحاث بارتولد وكراتشكوفسكي بداية لدراسة حثيثة للمؤلفات الجغرافية العربية، سواء بحد ذاتها أو كمصادر من الدرجة الأولى في تاريخ روسيا والجمهوريات الإسلامية وخاصة حوض الفولغا، وآسيا الوسطى والقوقاز.

وفي عام (١٩٣٩) صدر كتاب للمستعرب السوفياتي المعروف أ.ب. كوفاليفسكي (١٨٩٥ ـ ١٩٦٩) مخصص لعمل ابن فضلان، الذي بحث فيه على أساس مخطوطة مشهد التي اكتشفت في العشرينات من القرن الماضي والتي تضم تقريباً نصه الكامل. (بينما قام كل من فرين وسبلوكوف وروزن وبارتولد بدراسة ابن فضلان، بدرجات متفاوتة، وتحدثوا عن مخطوطته من خلال ما اقتبسوه من المعجم الجغرافي لياقوت الحموي) وأعيدت طباعة كتاب كوفاليفسكي مرتين: في (١٩٣٩ وفي ١٩٥٦).

كما أصبحت المصادر العربية منهلاً لا غنى عنه لعلماء الآثار. وبفضل تلك المصادر استطاع علماء الآثار في آسيا الوسطى والقوقاز اكتشاف ومطابقة أسماء العديد من المدن والمناطق السكنية وطرق تجارة القوافل. واسترشد بالمصادر العربية أحد رواد التنقيب عن الآثار في آسيا الوسطى ف.ل. فياتكين



الذي اكتشف عام (١٩٠٨) في سمرقند بقايا مرصد أولغ بك بما فيها مزولة الرصد الشهيرة.

ولم تقتصر دراسة الأدبيات الجغرافية العربية في الاتحاد السوفياتي على المؤلفات التي احتوت معلومات عن بلاد الروس وجمهوريات آسيا الوسطى. قام، بناء على مبادرة من الأكاديمي كراتشكوفسكي، تلميذه ت.شوموفسكي بدراسة ونشر ثلاثة كتب في الملاحة البحرية عام (١٩٥٧) لأحمد بن ماجد مرشد البِحار لفاسكو دي غاما، والتي عثر على مخطوطاتها النادرة في لينينغراد.

وقام كل من ل. كوبل وف. ماتفييف المختصين بأفريقيا بدراسة وإصدار مختارات من الأعمال الجغرافية العربية مثل: المصادر في علم الأجناس، وتاريخ المنطقة الأفريقية الواقعة جنوب الصحاري والممتدة في الفترة من القرن (٨م) وحتى القرن (١٢م) (١٩٥٧، ١٩٦٤).

ويمكننا إيجاز ما ورد عن نشاط العلماء الروس في دراسة العلم العربي حتى أواسط القرن العشرين بالقول: إن توجههم الأساسي تركز على دراسة المؤلفات الجغرافية والتاريخية للعلماء العرب. وقد غابت الأعمال المكرسة لدراسة مخطوطات الرياضيات والفيزياء والفلك.

وهناك استثناء وهو عمل ب. دورن في دراسة الإسطرلابات المحفوظة في المتاحف الروسية، وكذلك نشر ووصف نيكولا خانيكوف **كتاب ميزان الحكمة** لعبد الرحمن الخازني (ت. بعد ٥١٥هـ/١١٢١م) في ١٨٦٠[1]، وعمل ف. بارتولد عن أولغ بك، وعمل م.ماسون عن «مرصد أولغ بك» (١٩٤١)، والتي وصف فيها المرصد وآلاته بالتفصيل. وأعطى تقييماً للمدرسة الفلكية

(1) Analysis and extracts of Mzn al - hikma, Book of the balance of wisdom, an Arabic work on the water - balance, written by a - Khâzinî in the twelfth century. Presented at the Society October 29, 1857. By the Chevalier N. Khanikoff, Russian consul - general at Tabrîz, Persia. Journal of the American Oriental Society (New Haven), vol. 6 (1860): pp.1 - 128.

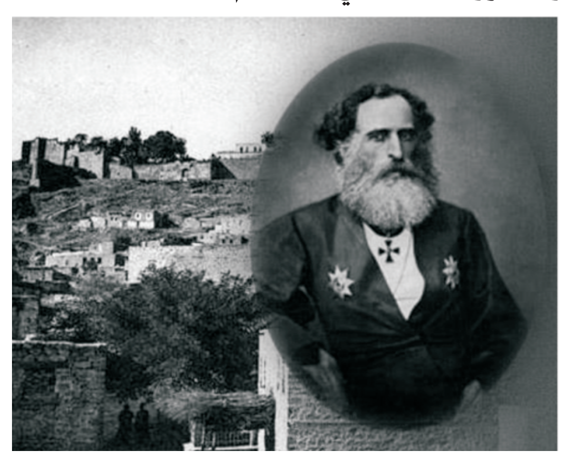
السمرقندية، وجزء من «المؤلفات الجغرافية العربية» لكراتشكوفسكي المكرس لأزياج ومؤلفات في الجغرافيا الرياضية.



ثانياً: أشهر المستعربين الروس:

سنتعرف على أهم المستعربين الروس حسب الأقدمية الزمنية، علماً أن هناك المئات من المستشرقين الروس ومن جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقاً يصعب تغطيتهم جميعاً في هذا الكتاب. وقد ركزنا على أهم المستعربين منهم الذين تركوا بصمات في تاريخ الاستعراب الروسي. وقد اعتمدت في كتابة سيرهم الذاتية على مراجع أهمها كتاب ميليباند عن المستشرقين الروس[(١)]، وكتاب نجيب العقيقي عن المستشرقين[(٢)]. ومراجع الكترونية عديدة.

١ ـ ألكسندر (ميرزا محمد علي) كاظم بيك:



(1) S.D. Miliband. Russian orientalists of the 20th and 21th Centuries. In 2 vols. Moscow. Vostochnaya Literatura Publichers. 2008.
http://www.orientalstudies.ru/rus/index.php?option=com_persnalities&lte-mid=74

(٢) نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ٣ مجلدات (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤)، طبعة لاحقة ١٩٨١، مج. ٣.



يعتبر المستشرق ألكسندر (ميرزا محمد علي) كاظم بيك (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠) أحد الرواد الأوائل للاستشراق في روسيا. وقد شغل منصب عميد كلية اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ، وكان أحد العلماء الذين وضعوا أسس دراسة الشرق في روسيا على أساس علمي، وجعلها في مصاف مدارس الاستشراق الأوروبية، وذاع صيته في العالم. علما أنه ينتمي إلى أصول أذربيجانية أو فارسية (كان الأذريون في روسيا في القرن التاسع عشر يسمون بالفرس)، وقد جمع بين إتقان الثقافتين الأوروبية والشرقية. وأجاد عدة لغات منها الفارسية والأذربيجانية والروسية والتتارية والتركية والفرنسية والعربية والإنجليزية بالإضافة إلى عدد من اللغات القديمة.

لقد استطاع هذا العالم الفذ بحكم تعليمه الممتاز ومواهبه الفطرية وسعة اطلاعه أن يقوم بترجمة الأعمال التراثية، وبكتابة البحوث ومعالجة المواضيع اللغوية ونظم الشعر، وتحقيق المخطوطات، ودراسة التشريع الإسلامي. وما زالت أعماله مرجعاً في دراسة تاريخ الشعوب التركية وكذلك تاريخ إيران والتيارات الدينية فيها. ويعود إلى كاظم بيك حسب قول بارتولد الفضل في تنظيم الدراسات الاستشراقية الجامعية في بطرسبورغ، نظراً لما كان يتمتع به «من روح المثابرة والقدرة على إبداء المبادرة».

لكن كاظم بيك عاش حياة صعبة مترعة بالمحن بسبب أفعاله الغريبة. فقد كان ابن فقيه ومشرع إسلامي معروف، لكنه اعتنق المسيحية في شبابه عام (١٨٢٣) بتأثير المبشرين من اسكتلندا. وقد أدى موقفه هذا غير المألوف بالنسبة للمسلمين إلى القطيعة مع والديه وجذوره الإسلامية. وبالرغم من أنه لم يتلق التعليم الجامعي وكان يدرس اللغات الشرقية في قازان، فقد انتخب في سن (٢٦) عاماً عضواً أساسياً في الجمعية الآسيوية الملكية في لندن، وبعد مرور عامين ألف كتاباً حول قواعد اللغة العربية وآدابها وحصل على الماجستير في اللغات الشرقية. وفي الأعوام الأخيرة من حياته حصل على لقب عضو مراسل في اكاديمية العلوم الروسية، كما منح لقب دكتور شرف في دراسة اللغات الشرقية.

٢ ـ إيليا بيريزين (١٨١٩ ـ ١٨٩٥):



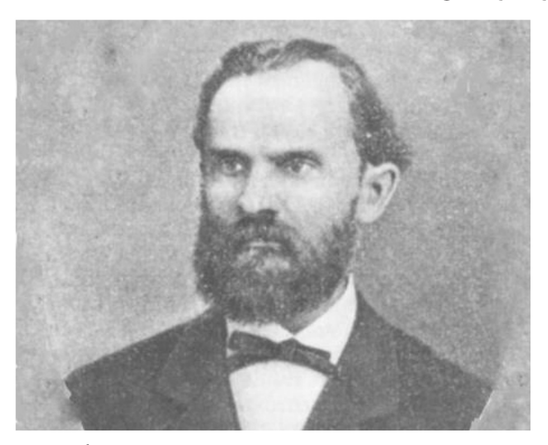
درس المستشرق الروسي إيليا نيقولايفتش بيريزين (١٨١٩ ـ ١٨٩٥) في القسم الشرقي بجامعة قازان باختصاص التاريخ واللغات الشرقية. وحصل على الماجستير في اللغات الشرقية، ثم أرسل في بعثة علمية جاب في خلالها داغستان وماوراء القوقاز وتركيا وفارس. ونشرت مقالاته حولها في مجلة «بحوث علمية» الصادرة عن جامعة قازان في عامي (١٨٤٥ و١٨٤٦).

وفي عام (١٨٤٦) عين إيليا بيريزين أستاذاً للغة التركية في جامعة قازان. وفي هذه الفترة نشر بيريزين الأعمال التالية: «فهرس المخطوطات التركية والتتارية في مكتبات بطرسبورغ» و«إضافة إلى قواعد اللغة التركية لكاظم بيك» و«رحلة في أرجاء داغستان وما وراء القوقاز» (١٨٥٢) و«مكتبة المؤرخين الشرقيين» بمجلدين (١٨٥٠ ـ ١٨٥١) الأول بعنوان «شيباني نامه» والثاني بعنوان «جامعة التواريخ» و«قواعد اللغة الفارسية» (١٨٥٣) و«البُلغار على الفولغا» (١٨٥٣) وكتاب «الغزو المنغولي الأول لروسيا» (١٨٥٢).

وبعد افتتاح كلية اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ عين بيريزين أستاذاً في قسم الاداب التركية والتتارية. وأصدر عندئذ كتاب «الأمثال لدى الأقوام التركية» (١٨٥٧) و«مختارات من الأدب التركي» (١٨٥٧ ـ ١٨٨٨) و«تأريخ المغول» وترجمة أعمال رشيد الدين إلى اللغة الروسية و«تأريخ جنكيز خان» (١٨٦١ ـ ١٨٦٥). وفي عام (١٨٦٤) ناقش بيريزين أطروحة الدكتوراه

حول أسس نظام الدولة لدى شعوب السهوب. ونشر أيضاً العديد من المقالات في مجال علم الآثار وأصدر المعجم الموسوعي الروسي بـ (١٦) مجلداً.

٣ ـ فلاديمير غرغاس:



البروفيسور فلاديمير غيرغاس (١٨٣٥ ـ ١٨٨٧) أحد العلماء البارزين في مجال الاستعراب بروسيا، ودرس اللغة العربية وآدابها في سورية ومصر، ونشر مختارات من الأدب العربي ومرجعاً حول القرآن الكريم والحديث وبعض أعمال أبي حنيفة الديناوري والعديد من البحوث في النحو والأدب العربي.

وقد وصفه إغناطيوس كراتشكوفسكي بـ «غيرغاس الهادئ» لأنه كان لا يحب الشهرة والتحدث عن نفسه أو إبراز شخصه في الأوساط العلمية والاجتماعية، لكن إنجازاته في مجال الاستعراب في روسيا جسيمة حقاً. وكان دوماً يعمل بمثابرة وبهدوء وبشكل منتظم دون جذب الأنظار إليه وترك وراءه العديد من الكتب ومنها كتابه حول النحو العربي «**دراسة المنهج النحوي للعرب**» الذي ما زال أحد مراجع دارسي اللغة العربية من الروس. وقام بخطوات كبيرة في مجال دراسة اللهجات العربية.

ولد غيرغاس في (١ ديسمبر/كانون الاول عام ١٨٣٥) بمدينة غرودنو (بيلاروس)، وتوفي في كييف (أوكرانيا) في (١٨ مارس/آذار عام ١٨٨٧). تخرج من الجامعة الشرقية في بطرسبورغ عام (١٨٥٨). وفي عام (١٨٥٩) أرسل إلى باريس لمدة سنتين كمبعوث لاستكمال معارفه في اللغتين العربية والتركية. وفي

عام (١٨٦١) ابتعث لمدة ثلاثة أعوام إلى مصر وسورية للقيام بدراسات حول الشريعة الإسلامية. ولدى عودته إلى بطرسبورغ ناقش في عام (١٨٦٥) رسالة الماجستير في الجامعة بعنوان «حقوق المسيحيين في الشرق بموجب القوانين الإسلامية». وبعد ذلك انتخب غيرغاس كأستاذ مساعد في قسم اللغة العربية. وفي عام (١٨٧٣) ناقش رسالة الدكتوراه في الجامعة بعنوان «دراسة المنهج النحوي للعرب». وبعد أن أصبح بروفيسوراً في عام (١٨٧٤) نشر كتابه «موجز تأريخ الأدب العربي» ويعتبر أول مرجع باللغة الروسية في هذا الموضوع. ثم نشر سوية مع البارون فكتور روزين «مختارات من الأدب العربي».

وفي عام (١٨٨١) أصدر «قاموس عربي روسي لألفاظ القرآن والحديث» والذي نشر في قازان. ثم ترجم غيرغاس إلى اللغة الروسية بحث المستشرق الهولندي فان دين بيرغ: «أسس الشريعة الإسلامية وفق تعاليم الإمامين الحنفي والشافعي» ونشر في بطرسبورغ. لكن حالته الصحية تدهورت واضطر إلى الاستقالة من العمل في عام (١٨٨٦) وبعد فترة قصيرة توفي في كييف. وصدرت بعد وفاته عدة أعمال لم تنشر من قبل منها حول أبي حنيفة الدينوري.

٤ ـ البارون فكتور روزين:



ينتمي البروفيسور والأكاديمي البارون فيكتور روزين (١٨٤٩ ـ ١٩٠٨) إلى رعيل الرواد القدامى من المستشرقين، الذين أولوا اهتماماً خاصاً لدراسة



المخطوطات العربية وما يرد فيها من معلومات حول تاريخ روسيا. ويعود اليه الفضل في تعريف الأوساط العلمية الروسية بأعمال الطبري ولاسيما كتابه «تأريخ الرسل والملوك».

وقد تخرج روزين من جامعة بطرسبورغ في عام (١٨٧٠)، ثم درس اللغة العربية في جامعة لايبزيغ الألمانية بإشراف البروفيسور غ.فليشر. وفي عام (١٨٧٢) ناقش روزين رسالة الماجستير «الشعر الجاهلي ونقده»، والتحق بالعمل في قسم اللغة العربية في جامعة بطرسبورغ في العام ذاته. تولى في فترة (١٨٨١ ـ ١٨٨٢) منصب مدير المتحف الآسيوي. وفي عام (١٨٨٣) ناقش أطروحة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بعنوان «الإمبراطور فاسيلي قاهر البُلغار: مقتطفات من كتاب يحيى الأنطاكي». وبعد ذلك تولى منصب بروفيسور في جامعة بطرسبورغ وواصل إلقاء المحاضرات هناك حتى وفاته.

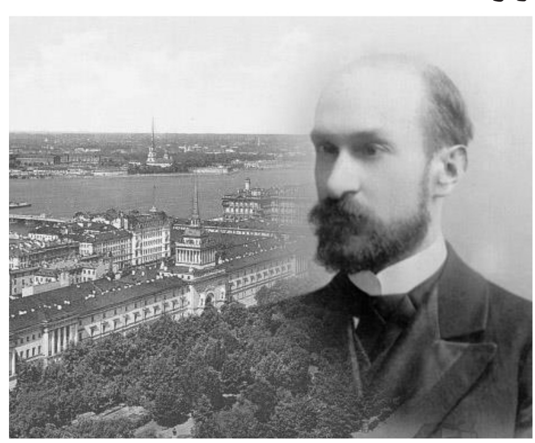
وفي فترة (١٨٨٦ ـ ١٨٩٠) كان روزين أستاذ اللغة العربية الوحيد في جامعة بطرسبورغ. وفي عام (١٨٩٣) تولى منصب عميد كلية اللغات الشرقية في الجامعة. كما قام بدراسة المصادر العربية حول تاريخ روسيا، وعمل في تحقيق المخطوطات العربية والفارسية وشارك في إصدار الطبعة الدولية لكتاب «تاريخ الطبري».

في عام (١٨٨٥) تولى روزين رئاسة القسم الشرقي في جمعية الآثار الروسية، وبدأت في عام (١٨٩٦) بمبادرته إصدارات خاصة بهذا القسم. واستطاع أن يجذب إليها خيرة المستشرقين في روسيا، ولهذا أصبحت تعتبر من أفضل إصدارات الدراسات الشرقية في أوروبا آنذاك.

ويرتبط باسم روزين تأسيس مدرسة الاستشراق الروسية. فقد تتلمذ على يديه مستشرقون ومستعربون بارزون مثل ف. بارتولد ون. مار وكراتشكوفسكي ون. ميدنيكوف وأرشميدت وس. أولنبورغ وف. جوكوفسكي وف. غولينيتشيف ون. كاتانوف وغيرهم، وكتب المستعرب ميدنيكوف في ذكرياته عن روزين يقول: «يعرف الجميع أن جهود فكتور رومانوفيتش التعليمية لم تقتصر على نشاطه في

الجامعة. فقد كان يزور بيته باستمرار ليس تلامذته فقط بل والطلاب السابقون أيضاً، وكان يضع أمامهم كنوز معارفه، ويوجه دراساتهم، ويصحح أعمالهم المكتوبة، ويضحي بوقته الذي كان بوسعه أن يكرسه لكتابة بحوثه ومؤلفاته نفسه».

٥ ـ فاسيلي بارتولد:



ولد المستشرق والمؤرخ والباحث اللغوي فاسيلي بارتولد (١٨٦٩ ـ ١٩٣٠) في عائلة عميل في البورصة. وبعد التخرج من غمنازيا بطرسبورغ التاسعة في عام (١٨٨٧) التحق بكلية اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ. وقد أتاحت إمكانيات والده المالية الفرصة له للسفر إلى الخارج من أجل مواصلة التحصيل العلمي في المراكز العلمية في إيطاليا وسويسرا والنمسا. وفي عام (١٨٩٢) بقي في جامعة بطرسبورغ من أجل التحضير لمنحه لقب بروفيسور في قسم تاريخ الشرق، وبدأ بإلقاء المحاضرات في هذا الموضوع. ومنح درجة الدكتوراه لقاء بحثه «تركستان في عصر الغزو المغولي». وصدر في برلين بالألمانية كتابه حول أعمال المستشرقين في روسيا. وفي عام (١٩٠٥) منح لقب بروفيسور في جامعة بطرسبورغ، وفي عام (١٩١٠) أصبح عضواً في أكاديمية العلوم الروسية، وسكرتيراً للجنة الروسية الخاصة بدراسة وسط وشرق آسيا، وعضواً في لجنة دراسة التركيب القبلي لسكان روسيا، وعضواً في جمعية الآثار الروسية، وأشرف على إصدار كتاب «رحلات ماركو بولو».

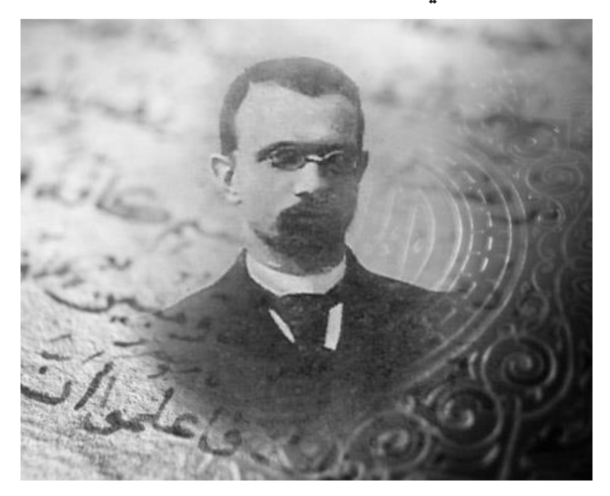
لكن مجال بحثه الرئيسي كان تاريخ شعوب ودول آسيا الوسطى الإسلامية،



والتفاعل بين الحضارتين الشرقية والغربية وتاريخ الإسلام. ومن أهم أعماله في هذا المجال: كتاب «الإسلام» (١٩١٨)، و«الحضارة الإسلامية» (١٩١٨)، و«العالم الإسلامي» (١٩٢٢)، و«مسيلمة» (١٩٢٥). وحلل فيها أهم أعمال المؤلفين العرب والمستشرقين الأوروبيين، وأعطى نظرة موضوعية جديدة إلى تاريخ فترة فجر الإسلام والفتح الإسلامي وتطور الحضارة الإسلامية. وأثار الجدل كتابه «الخليفة والسلطان» (١٩١٢)، الذي أثبت فيه أن القول حول تسليم السلطة الدينية للخليفة العباسي إلى السلطان العثماني سليم الأول في القرن السادس عشر الميلادي هو أسطورة ظهرت في القرن الثامن عشر الميلادي فقط.

وعمل بارتولد أيضاً في دراسة أعمال المؤلفين العرب الذين كتبوا عن السلافيين القدامى. وتعتبر كتبه «الأسفار الإسلامية الجديدة حول الروس» (١٨٩٦) و«الأسفار العربية حول الروس القدامى» (١٩١٨) من البحوث الهامة حول ما ورد في كتب التراث العربي حول بلاد الروس. كما أسس مجلة «عالم الإسلام» (١٩١٢ ـ ١٩١٣) وتولى رئاسة تحريرها ومجلة «العالم الإسلامي» (١٩١٧). ويعتبر بارتولد مؤسس المدرسة الروسية لعلم الاستشراق في الفترة السوفياتية، وترأس مجلس المستشرقين في عام (١٩٢١)، وترأس تحرير صحيفة «أخبار مجلس المستشرقين».

٦ ـ آغافانغل كريمسكي:



ارتبطت حياة المستشرق والمستعرب اغافانغل كريمسكي (١٨٧١ ـ ١٩٤٢) بدراسة التاريخ العربي والإسلامي، وكذلك اللغات السامية وتاريخ الشعوب الناطقة بالتركية (الأقوام الأتراكية) ولاسيما تتار القرم الذين ينتمي إليهم عن طريق والده.

ولد كريمسكي في عام (١٨٧١) في فلاديمير ـ فولينسكي. وفي عام (١٨٩٢) تخرج من معهد لازاريفسكي للغات الشرقية بموسكو، وبعد أربع سنوات تخرج من كلية التاريخ والدراسات اللغوية في جامعة موسكو. وبعد ذلك سافر إلى سورية ولبنان حيث أمضى فترة عامين (١٨٩٦ ـ ١٨٩٨) من أجل اتقان اللغة العربية. وقد استغل كريمسكي هذه الفرصة لجمع المواد العلمية اللازمة لبحوثه القادمة في التاريخ العربي والإسلامي والدراسات القرآنية. ومن ثم عمل حوالي (٢٠) عاماً في معهد لازاريفسكي للغات الشرقية بموسكو وحصل على لقب بروفيسور. وكان يلقي المحاضرات حول اللغة العربية وآدابها وتاريخ الإسلام.

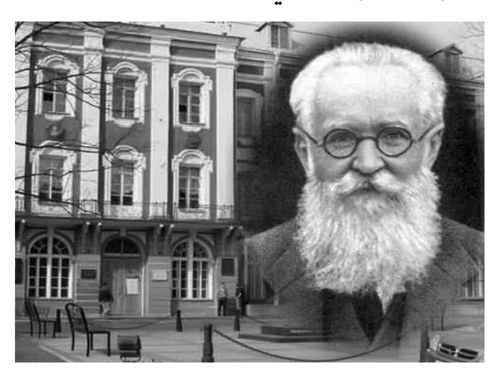
وأصدر كريمسكي العديد من البحوث العلمية منها: «دراسة تطور الصوفية حتى نهاية القرن الثالث الهجري» (١٨٩٥)، و«محاضرات حول القرآن الكريم» (١٩٠٢) و«تاريخ الإسلام» بثلاثة مجلدات (١٩٠٣ ـ ١٩٠٤)، و«تاريخ تركيا وآدابها» بمجلدين (١٩١٠ ـ ١٩١٦)، و«تاريخ العرب والأدب العربي» بثلاثة مجلدات (١٩١١ ـ ١٩١٣)، و«تاريخ فارس وآدابها وحكمة الدروشة الصوفية» بثلاثة مجلدات (١٩٠٩ ـ ١٩١٧) و«نظامي ومعاصروه» (١٩٨١) وغيرها.

وقد شارك كريمسكي ذو الأصول الأوكرانية في الحركة القومية في أوكرانيا وأيد بعد ثورة أكتوبر عام (١٩١٧) فكرة استقلال أوكرانيا. وفي عام (١٩١٨) أصبح عضواً عاملاً في أكاديمية العلوم الأوكرانية وترأس حتى عام (١٩٤١) أحد الأقسام في جامعة كييف. وفي فترة العشرينيات والثلاثينيات تعرض لملاحقة السلطات باعتباره من «القوميين البرجوازيين». ولكن بعد ضم غرب أوكرانيا أعيد إلى منصبه وقام بعدة جولات هناك. كما كان كريمسكي من كبار هواة الطوابع، ويعتبر في زمانه من كبار الخبراء في هذا المجال.

وفي عام (١٩٤١) تم اعتقاله بدون توجيه أية تهمة إليه، وتم نفيه إلى كازاخستان، حيث توفي بعد فترة قصيرة. ولم تعرف عائلته مصيره على مدى خمسين عاماً تقريباً.

كتب كريمسكي جميع مؤلفاته باللغة الروسية، وارتبط نشاطه العلمي الرئيسي بنشاط معهد اللغات الشرقية بموسكو.

٧ ـ أغناطيوس كراتشكوفسكي:

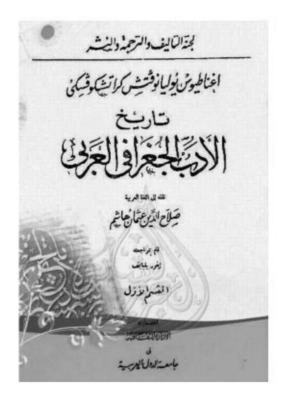


يعتبر أغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥١) بحق مؤسس مدرسة الاستعراب الروسية، حيث وضع منهج دراسة تاريخ وآداب العرب في مختلف الأمصار، وكان أول من ترجم معاني القرآن الكريم من اللغة العربية إلى الروسية مباشرة بشكل علمي دقيق. وما زال الدارسون يلجؤون إلى هذه الترجمة بالذات لدى التحقق من صحة ترجمة معاني بعض السور. وكتب كراتشكوفسكي حوالي (٤٥٠) بحثاً ومقالة نشرت في مؤلفاته الكاملة. ودرس أشعار أبو العتاهية والمعري والمتنبي والبحتري، وصنف أعمالهم في الغزل والهجاء والحماسة، كما درس الرواية التاريخية العربية، ونشرت تحت إشرافه الطبعة الأكاديمية لـ «حكايات ألف ليلة وليلة». ونشر كراتشكوفسكي دراساته في تحقيق العديد من المخطوطات العربية المحفوظة في خزائن أكاديمية العلوم الروسية في بطرسبورغ.

ولد أغناطيوس كراتشكوفسكي في ٤ (١٦ حسب التقويم الجديد) مارس عام ١٨٨٣ بمدينة فيلنوس (حالياً عاصمة جمهورية ليتوانيا على ساحل بحر

البلطيق) في أسرة مدير معهد المعلمين هناك. وقد أبدى منذ سنوات اليفاع اهتماماً بالآداب الشرقية وتعلم لغات أهل الشرق. وفي فترة (١٩٠١ ـ ١٩٠٥) درس في كلية اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ وتعلم اللغات العربية والفارسية والتركية والتتارية. وفيما بعد ركز اهتمامه على الدراسات العربية، واتبع في ذلك منهجاً مختلفاً تماماً عن مناهج المستشرقين الأوروبيين. واعتمد لحدّ كبير على المصادر العربية الأصلية، وزار لهذا الغرض لبنان وسورية ومصر، والتقى علماء اللغة ورجال الثقافة العرب، وارتبط بعلاقات صداقة مع العديد منهم، أحدهم كان أمين الريحاني. ونشرت أعماله باللغة العربية منها كتابه «**نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي**» وكتاب «**مع المخطوطات العربية**» كما نشر تحت رعاية جامعة الدول العربية كتابه حول «**تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب**». وكتب أيضاً عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي ورحلة بطريرك أنطاكية مكاريوس إلى روسيا ١٧٦٥، وكذلك عن رحلة أحمد بن فضلان إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة (٩٢١م).





وقد عانى أغناطيوس كراتشكوفسكي مثل غيره من رجال العلم والثقافة بروسيا من الأوضاع المضطربة في البلاد بعد ثورة أكتوبر عام (١٩١٧). فقد اعتقل مع زوجته في (٢٠ يوليو/تموز عام (١٩٢٢) حين كان يحتفل بذكرى مرور (١٠) أعوام على زواجه. وفي البداية زج به في سجن دائرة الأمن، ومنه نقل إلى سجن آخر ووضع في زنزانة انفرادية. ووجهت اليه تهمة التجسس لحساب فنلندا باعتباره رئيس مجموعة التجسس. وكان الاتهام يعتمد على وجود



صلة لزوجته مع عائلة فنلندية كانت تزودهم بالمواد الغذائية في عام (١٩١٧)، وتم الاتفاق معها على أن يقضي كراتشكوفسكي وزوجته العطلة الشتوية في بيت العائلة في فنلندا. وقد تدخلت إدارة أكاديمية العلوم الروسية لدى المسؤولين من أجل إطلاق سراحه لأن التهمة باطلة من الأساس. ولكن لم يطلق سراحه، بل سمح له فقط بالاستفادة من كتب المتحف الآسيوي لأكاديمية العلوم. وقرأ كراتشكوفسكي في السجن الكتب حول التاريخ العربي والإسلام والحضارة الإسلامية، ودرس النحو العربي واللهجة المصرية، وكتب عدة مقالات وملاحظات. ومن ثم سمح له بعد نقله إلى سجن آخر بأن يتنزه في باحة السجن وأن يلتقي زوجته. وقد أثمر تدخل أكاديمية العلوم الروسية في نهاية المطاف عن صدور قرار بنفي كراتشكوفسكي وزوجته إلى خارج البلاد أو إلى مقاطعة فياتكا. لكن كراتشكوفسكي طلب نفيه مع زوجته إلى فياتكا وليس إلى خارج البلاد. وتدخل في القضية ميخائيل سوكولوف العالم المختص بالدراسات العبرية وصديق كراتشكوفسكي، واستطاع إقناع السلطات ببراءة كراتشكوفسكي من التهمة الموجهة اليه. فأُخلي سبيل كراتشكوفسكي في (١٢ يناير عام ١٩٢٣) وعاد إلى مكان عمله في كلية الاستشراق. وعمل هناك حتى وفاته في عام (١٩٥١).

وبرز كراتشكوفسكي في الأوساط العلمية الروسية بصورة خاصة لترجمته معاني القرآن ولدراسته المخطوطات العربية القديمة، وكذلك إبداع أبو العلاء المعري وفكره.

لكن كراتشكوفسكي الذي ثمَّن كل التثمين هذه الترجمة وجد فيها الكثير من النواقص باعتباره يجيد نفسه اللغة العربية. حيث إن لغة الترجمة كانت مليئة بالغموض وبالألفاظ الروسية القديمة المنسية علاوة على التعابير المسيحية المستخدمة في الكتاب المقدس، مما كان يحول دون إدراك المعاني بدقة. ولهذا عكف نفسه على إعداد ترجمة علمية جديدة لمعاني القرآن منذ أعوام العشرينيات حين كان يلقي المحاضرات أمام طلابه حول تفسير القرآن،



وتوفي كراتشكوفسكي دون أن ينجز الترجمة بصورة كاملة. وقد نشرت مع ذلك بعد وفاته، ومازال المختصون يعتبرون هذه الترجمة الأكثر دقة من جميع التراجم الصادرة سابقاً ولاحقاً.

أما قصته مع أبي العلاء المعري، فهي ذات شجون، إذ اطلع لأول مرة على الترجمة الروسية لقصيدة «أبو العلاء المعري»، التي نظمها الشاعر الأرمني اف. إسحاقيان وترجمها إلى الروسية فان تيريان أحد طلاب كراتشكوفسكي. وقد انتقد كراتشكوفسكي الشاعر الأرمني بسبب وجود أخطاء في سيرة حياة أبي العلاء وردت في قصيدته. واعتبر ذلك في سياق أخطاء المستشرقين الأوروبيين في تقييم الأعمال الأدبية العربية. وكتب في رسالة إلى بريوسوف ناشر القصيدة في (١٦ نوفمبر عام ١٩١٦) أن الشاعر الأرمني مضى في درب الأوروبيين الذين يسيئون كثيراً إلى التاريخ العربي والأدب العربي بإعطاء تأويلات مشوهة للوقائع والأعمال فيهما. وبعد ذلك عثر بالصدفة على كتاب المعري «رسالة الملائكة» أثناء وجوده في القاهرة وقام بترجمته ونشره في عام (١٩٣٢). كما أبدى عجبه لعدم اهتمام العرب بتراثهم وعدم نشر الأعمال الأخرى للمعري.

واحتلت مراجعة المخطوطات العربية حيزاً كبيراً من العمل العلمي لأغناطيوس كراتشكوفسكي. ويعتبر كتابه «مع المخطوطات العربية» الصادر في عام (١٩٤٩) وترجم إلى عدة لغات أجنبية من أهم أعماله، ومنح لقاءه جائزة الدولة السوفياتية في عام (١٩٥١).

٨ ـ بوريس دانتسيغ:

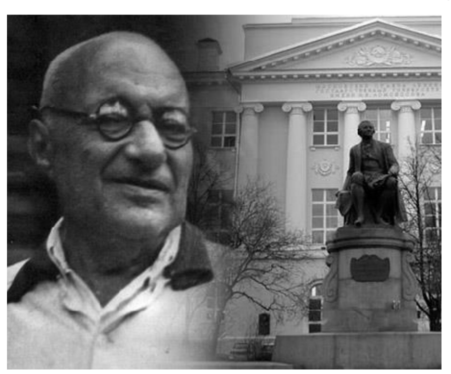
تخرج من كلية القانون في جامعة كييف الحكومية عام (١٩١٩)، وعمل في التدريس في الجامعات والمعاهد التالية: معهد الدراسات الشرقية بموسكو (١٩٢٦ ـ ١٩٣٦ و١٩٥١ ـ ١٩٥٤)، والأكاديمية العسكرية التابعة لهيئة الأركان (١٩٣٦ ـ ١٩٤٥)، والأكاديمية الدبلوماسية (١٩٤٥ ـ ١٩٥١)، ومعهد موسكو

للعلاقات الدولية (١٩٥٤ ـ ١٩٥٧)، ومعهد الدراسات الشرقية بموسكو (١٩٥٥ ـ ١٩٧٣).

وله أكثر من (٢٠٠) عمل علمي في الجغرافيا الاقتصادية للشرق الأوسط وتاريخ الاستشراق في روسيا منها:

موجز في الجغرافيا الاقتصادية لتركيا ـ (١٩٣٠)، والعراق في الماضي والحاضر ـ (١٩٦٠)، والرحالة الروس في الشرق الأوسط ـ (١٩٦٥)، ودراسة الشرق الأوسط في روسيا (القرن التاسع عشر ـ بداية القرن العشرين) ـ (١٩٦٨)، والشرق الأوسط ـ مجموعة أبحاث (١٩٧٦).

٩ ـ بنصهيون غرانده:



يعتبر بنصهيون غرانده (١٨٩١ ـ ١٩٧٤) أحد المستعربين القلائل في روسيا الذين درسوا الشعر الجاهلي وقواعد النحو بصورة وافية، كما أنه كان من مؤسسي مدرسة الاستعراب الروسية ومربياً تخرج على يديه أكثر من جيل من المستعربين في روسيا والاتحاد السوفياتي.

ولد غرانده في بلدة سودارغي في ليتوانيا في (١٥ أغسطس/آب عام ١٨٩١) ودرس في البداية في كلية الطب بجامعة موسكو. وقبيل الحرب العالمية الأولى زار فلسطين وبعض الأقطار العربية الأخرى. وفي اثناء الحرب عمل طبيباً في الجيش الروسي. ثم أكمل في عام (١٩١٨) دراسته في كلية الطب وعمل حتى عام (١٩٢٢) طبيباً في الجيش الأحمر. وفي عام (١٩٢٢) تخرج من معهد الاستشراق بموسكو وبقي للعمل فيه كمدرس للغة العربية في فترة

(١٩٢٣ ـ ١٩٢٩). وفي أعوام العشرينيات والثلاثينيات شارك في استنباط الكتابة من أجل الشعوب الصغيرة في الاتحاد السوفياتي. وفي فترة (١٩٤٤ ـ ١٩٧٤) عمل في جامعة موسكو حيث عمل في فترة (١٩٤٦ ـ ١٩٦٠) مدرساً للغة العربية وحصل على لقب بروفيسور. وفي فترة (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) تولى رئاسة القسم العربي في معهد اللغات الشرقية (معهد آسيا وأفريقيا حالياً) في جامعة موسكو. وتوفي غرانده بموسكو في عام (١٩٧٤).

أولى غرانده اهتمامه الرئيسي لدراسة اللغة العربية في العصر الجاهلي وفي فترة انتشار الإسلام، والدراسة المقارنة لقواعد اللغات السامية. وعمم في كتابه «مقرر النحو العربي في البعد التاريخي المقارن» كافة منجزات علم الاستعراب الروسي في مجال الدراسات النحوية. علما أن بعض أعماله في دراسة النحو العربي لم تنشر حتى الآن. كما راجع القاموس العبري ـ الروسي الذي أعده فيلكس شابيرو. ومن أعماله الأخرى «الجداول النحوية للغة العربية الفصحى» ومقدمة في الدراسة المقارنة للغات السامية وغيرها.

ووصفه معاصروه كإنسان بالتواضع وطيبة القلب ودماثة الخلق. وكتب زميله في الجامعة البروفيسور فلاديمير بيلكين عنه يقول: «لقد تعرفت عليه عن قرب في خريف عام (١٩٥١) بعد تخرجي من معهد الاستشراق في موسكو مباشرة. وحسب ملاحظاتي فإن غرانده كان يود أن يتولى إعداد ولو بضعة اختصاصيين في الدراسات السامية، لكن الوضع السياسي والاجتماعي آنذاك وقلة الإمكانيات في توفير العمل للمتخرجين قد ضيقت الآفاق من أجل الدراسات السامية». ويقول تلامذته إن البروفيسور غرانده كان حجة في اللغة العربية وآدابها. وحسب قول بيلكين فإنه كان يعرف حق المعرفة الشعر الجاهلي ويقدم الشروح اللازمة إلى النصوص القديمة لكل من يرغب في ذلك.

ويقول بوريس روماتشوف أحد تلاميذه إننا بأمسّ الحاجة اليوم إلى شخصيات علمية في مجال الدراسات الإنسانية بمنزلة ليخاتشوف وغوميليوف وغرانده».



١٠ ـ نينا بيغوليوفسكايا:



ولدت في مدينة سان بطرسبورغ، وتخرجت من الكلية الشرقية في جامعة بطرسبورغ عام (١٩٢٠). وعملت في الجامعة حافظاً للمخطوطات الشرقية (١٩٢٢ ـ ١٩٢٨). عالمة في التاريخ: القرون الوسطى ـ في الأدب السوري (السرياني)، وتاريخ بيزنطة والشرق الأوسط، والسامية. وأولت اهتماماً كبيراً لتاريخ الكنيسة السورية. لكنها اعتقلت عام (١٩٢٨) لمدة (٣) سنوات لمشاركتها في نشاط حلقة «الأحد» للتنوير المسيحي بقيادة أ.مبير (مجموعة دينية فلسفية). ثم عملت في معهد المخطوطات الشرقية في سان بطرسبورغ من عام (١٩٣٨) وحتى آخر أيام عمرها. وكانت أطروحة الدكتوراه في علم التاريخ عام (١٩٣٩) بموضوع بلاد ما بين النهرين في الفترة من القرن الخامس والسادس للميلاد (السجل السوري لييشو ستيليت كمصدر تاريخي). وأصبحت في عام (١٩٤٦) عضواً مراسلاً في اكاديمية العلوم السوفياتية.

أعدت ونشرت فهرس بالمخطوطات السورية في لينينغراد عام (١٩٦٠)، وكانت رائدة في تأسيس مجالات أبحاث جديدة في الاتحاد السوفيتي: تاريخ البلاد العربية ـ تاريخ الصابئة ـ تاريخ بيزنطة ـ سوريا ـ إيران ـ الهلنستية في الشرق الأوسط. كما عملت نائبة رئيسة الجمعية الفلسطينية (بعد إحياء عملها عام (١٩٥٠) واسمها الكامل هو الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الأرثوذكسية) وحتى وفاتها عام (١٩٧٠). ومن مؤلفاتها:

ـ عن المخطوطة السورية (من تاريخ الكنيسة) ١٩٢٦.

ـ من تاريخ النسطورية في القرن ٧ م ١٩٢٨.

ـ المؤلفات السورية القروسطية في الخيمياء ١٩٣٦.

ـ مخطوطة سورية مجهول مؤلفها عن تاريخ الساسانيين (المصادر السورية عن تاريخ ايران وبيزنطة) ١٩٣٩.

ـ بلاد ما بين النهرين في القرون ٥ ـ ٦ للميلاد ١٩٤٠.

ـ الدفاع عن مدن ما بين النهرين في القرن ٦ م ١٩٤١.

ـ الثقافة السريانية وأهميتها التاريخية ١٩٤١.

ـ المصادر السريانية حول تاريخ شعوب الاتحاد السوفيتي ١٩٤١.

ـ بيزنطة وإيران في القرنين ٦ ـ ٧ م ١٩٤٦..

ـ مخطوطة إغريقية سريانية بيزنطية من القرن ١١م ١٩٥٤.

ـ الأسطورة السريانية عن إسكندر المقدوني ـ ١٩٥٨.

ـ فهرس المخطوطات السريانية ١٩٦٠.

ـ العرب على حدود بيزنطة وايران في القرون ٤ ـ ٦ م ١٩٦٤.

ـ الشرق الأوسط، بيزنطة والسلافيين ١٩٧٦.

ـ ثقافة السريان في القرون الوسطى ١٩٧٩.

ـ تاريخ سورية في القرون الوسطى. أبحاث وترجمات ٢٠٠٠.

١١ ـ يفغيني بيليايف:



من مواليد (١٨٩٥) في مدينة رجيف في روسيا. تخرج من معهد موسكو للدراسات الشرقية عام (١٩٢٢) وعمل مدرساً فيه لتاريخ العرب القديم



والشرق أوسطي والحديث من عام (١٩٢٤). وحصل على الدكتوراه في علوم التاريخ. وكان عضواً في مجمع اللغة العربية في الجمهورية العربية المتحدة، وعمل في الفترة (١٩٤٥ ـ ١٩٥٥) رئيساً لقسم تاريخ واقتصاد الشرق الأوسط والأدنى في نفس المعهد. ثم عمل من عام (١٩٥١) كباحث علمي في معهد الاستشراق (المخطوطات الشرقية حالياً) في لينينغراد. بالإضافة إلى عمله في المعهد العسكري للغات الأجنبية وفي الأكاديمية الدبلوماسية التابعة لوزارة الخارجية السوفياتية. وفي الفترة (١٩٥٤ ـ ١٩٥٧) زار عدداً من الدول الأوروبية مثل بريطانيا وألمانيا وله أكثر من (١٥٠) بحثاً علمياً. وتخرج على يديه مستعربون كبار مثل دولينينا ولاندا. ثم توفي عام (١٩٦٤).

ومن **أهم مؤلفاته:** أصل الإسلام (١٩٣١)، والمذهب الإسلامي. نبذات تاريخية (١٩٥٧)، والاستعراب والدراسات الإسلامية في "Melanges Louis Massignon" (١٩٦٢)، والعرب، والإسلام والخلافة العربية في المراحل المبكرة من القرون الوسطى. (١٩٦٥).



١٢ ـ نيكولاي يوشمانوف:



يقف المستعرب والعالم اللغوي الروسي المختص باللغات السامية نيكولاي يوشمانوف (١٨٩٦ ـ ١٩٤٦) في طليعة دارسي اللغة العربية دراسة علمية في روسيا. وما زال كتابه «قواعد اللغة العربية الفصحى» يعتبر من المراجع الأساسية لدى طلاب اللغة العربية في الجامعات الروسية. كما درس يوشمانوف

لأول مرة في مجال العلم الروسي اللغة الأمهرية ولغة الهاوسا (لغة تشادية تكتب بأحرف عربية). وشملت دراساته تاريخ اللغات السامية وطرح مفاهيم مبتكرة لتطوير الجذر السامي في اللغة. وأعار يوشمانوف اهتماماً كبيراً إلى علم اللغة العام، ولاسيما نظرية نطق الألفاظ. وكان أيضاً بين أوائل دارسي نظرية الكتابة وقضايا استحداث لغات مصطنعة دولية.

ولد نيكولاي يوشمانوف في بطرسبورغ في (١٢ فبراير ١٨٩٦) وتخرج من جامعة بطرسبورغ في اختصاص الدراسات العربية. ومارس التدريس في معهد الفلسفة والأدب والتاريخ وجامعة لينينغراد الحكومية كما عمل في معهد اللغة والتفكير التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية. ومنح لقب عضو مراسل في أكاديمية العلوم السوفياتية في (١٩٤٣)، ووسام راية العمل الحمراء. وتوفي في لينينغراد في (٢ ابريل/نيسان عام ١٩٤٢).

بدأ يوشمانوف نشاطه العلمي في عام (١٩١١) كباحث لغوي ونشر مقالات حول موضوع استحداث لغة عالمية وقضايا الترابط بين اللغات.

وحدد يوشمانوف في كتابه حول قواعد اللغة العربية المهام لدى تحليل الأدبيات السابقة في مجال الاستعراب بما يلي: المساعدة في إتقان اللغة العربية عملياً، وتحديد أسلوب الدراسة العلمية لهذه اللغة. علما بأنه درس آراء النحويين العرب بشأن مختلف قضايا علم اللغة. وتناول كتابه طائفة واسعة من قضايا قواعد اللغة بالرغم من صغر حجم الكتاب. ويمكن الاستفادة منه كمرجع يتضمن بين أمور اخرى أقساما حول المورفولوجيا والإعراب ونظم الشعر والتقويم الزمني الإسلامي والمسيحي ومنظومة أسماء الأفراد.

ومن **أهم مؤلفاته:** «قواعد اللغة العربية الفصحى» (١٩٢٨)، و«نحو الألفاظ الأجنبية» (١٩٣٣)، و«تركيب اللغة الأمهرية» (١٩٣٦)، و«المدخل إلى الكتابة اللاتينية في الكرة الارضية» (١٩٤١)، و«موجز نحو اللغة العربية» (١٩٦٤).

١٣ ـ فلاديمير بيلكين:



أبدى البروفيسور فلاديمير بيلكين (١٩٢٣ ـ ٢٠٠٠) اهتماماً كبيراً بدراسة المفردات والاشتقاق في اللغة العربية المعاصرة وكذلك بتاريخ اللغة العربية. ويعود إليه الفضل في إدخال هذه المادة في المقرر الدراسي لطلاب قسم اللغة العربية بمعهد اللغات الشرقية (معهد بلدان آسيا وأفريقيا حالياً) بجامعة موسكو. كما عمل في إصدار المعجم الروسي ـ العربي الموجز، وتولى مراجعة المعجم الكبير الذي أعده المستعرب فلاديمير بوريسوف.

ولد فلاديمير بيلكين في (١١ ابريل/نيسان عام ١٩٢٣) في قرية أريفينو بمقاطعة فلاديمير القريبة من موسكو، وأنهى تعليمه الابتدائي هناك. ولكن حياته كلها ارتبطت بموسكو، حيث أنهى التعليم الثانوي هناك في عام (١٩٤١). ثم درس لفترة قصيرة في معهد الهندسة والبناء بموسكو وشارك في بناء التحصينات بضواحي موسكو خلال الحرب. والتحق بالجيش الاحمر كجندي وعريف في فرقة المشاة الرابعة وشارك في المعارك على جبهة بريانسك والجبهة البيلوروسية الأولى، وجرح مرتين.

في عام (١٩٤٦) التحق بيلكين بمعهد الاستشراق في موسكو، حيث درس «بكل غبطة» حسب قوله وكان بين أساتذته مستعربون كبار مثل كلثوم عودة ـ فاسيليفا وخارلامبي بارانوف وأستاذ اللغات السامية مايزل وأستاذ التاريخ يفغيني بيليايف. وبعد تخرجه من معهد الاستشراق في عام (١٩٥١) عمل في جامعة موسكو في البداية في القسم الشرقي بكلية الآداب وبكلية التاريخ، ومن



ثم انتقل للعمل في معهد اللغات الشرقية كمدرس ومن ثم مساعد أستاذ وأستاذ (بروفيسور) في قسم اللغة العربية وآدابها. ويذكر بيلكين لاحقاً بامتنان عمله تحت إشراف المستعرب غرانده مدير القسم آنذاك مما ساعده على تعميق وتوسيع معارفه في اللغة العربية الكلاسيكية وعلم اللغات السامية المقارن. كما أن زياراته المتعددة إلى البلدان العربية قد ساعدته في تفهم الوضع اللغوي الصعب فيها.

ولدى عمله في قسم اللغة العربية بالجامعة كان يسعى إلى تطوير مؤهلاته في مجال التربية وتعليم اللغة. وكتب عدة مقررات دراسية من أجل الطلاب منها مقرر تعليم اللغة العربية بسرعة، وكتابان حول مفردات اللغة العربية الحديثة، وتاريخ اللغة العربية. كما شارك بيلكين في تأليف العديد من المقررات النظرية الأساسية في اللغة العربية.

والمعتقد أن فلاديمير بيلكين هو أحد مؤسسي اتجاه الاستعراب اللغوي في روسيا، وقد أسهم برصيد ملموس في تطويره. وكانت اهتماماته النظرية والعلمية الرئيسية تنصب في مجال دراسة المفردات وإعداد المعاجم. وفي عام (١٩٥٦) ناقش أطروحة دكتوراة في اللغة بعنوان «أنماط التفعيلات في اللغة العربية الادبية المعاصرة». وفي عام (١٩٨٠) ناقش أطروحة دكتوراه في العلوم بعنوان «تشكيل المفردات في اللغة العربية المعاصرة». ويعرف على نطاق واسع في أوساط المستعربين كتابه «علم مفردات اللغة العربية». وقد نشر الكثير من البحوث اللغوية والدراسات حول الأدب المقارن.

١٤ ـ ألكسندر كوفاليوف:



مارس البروفيسور ألكسندر كوفاليوف (١٩٢٣ ـ ٢٠٠٠) دوراً بارزاً في تربية عدة أجيال من المستعربين في الاتحاد السوفيتي في فترة هامة من تاريخ العلاقات السوفياتية ـ العربية التي شهدت بناء السد العالي وتحرير الجزائر وتنفيذ المشاريع الكبرى في مصر وسورية والعراق واليمن.

وكوفاليوف صاحب كتاب دروس اللغة العربية الذي ألفه سوية مع البروفيسور غريغوري شارباتوف، وكان المرجع الرئيسي لدارسي اللغة العربية في الاتحاد السوفيتي وروسيا الاتحادية لفترة طويلة منذ الخمسنيات وحتى أواخر القرن العشرين. وما زال يدرس في الجامعات حتى الآن. كما أن أعماله العلمية تتجاوز (٢٠٠) بحث علمي وتربوي منشور. وعمل كوفاليوف رئيساً لقسم اللغة العربية وأستاذاً ونائب مدير ثم مدير معهد اللغات الشرقية كما عمل في قسم لغات الشرق الاوسط في الجامعة العسكرية بموسكو.

ولد ألكسندر كوفاليوف في (٢٧ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٢٣). وفي عام (١٩٤٥) تخرج من المعهد العسكري للغات الأجنبية. وفي فترة (١٩٤٥ ـ ١٩٥٦) مارس التدريس في المعهد المذكور وكان يتمتع برتبة عسكرية. وبعد انتقاله إلى السلك المدني انتخب في عام (١٩٥٧) رئيساً لقسم اللغة العربية وآدابها بمعهد اللغات الشرقية التابع لجامعة موسكو. ثم أصبح نائباً لمدير المعهد ومديراً له في عام (١٩٥٨). وبعد تغيير تسمية معهد اللغات الشرقية إلى معهد بلدان آسيا وأفريقيا عمل في الفترة من (١٩٧٥ إلى ١٩٨٤) كأستاذ (بروفيسور) في قسم اللغة العربية بالمعهد. ومنذ عام (١٩٨٤) عمل أستاذاً في قسم لغات الشرق الأوسط في الجامعة العسكرية بموسكو.

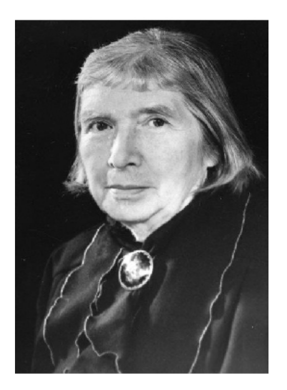
١٥ ـ أنّا دولينينا:



ولدت آنّا دولينينا عام (١٩٢٣) في سان بطرسبورغ. وقد تخرجت من الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد تحت إشراف كراتشكوفسكي. وعنه كتبت كتاباً بعنوان «حبيس الواجب» عام (١٩٩٤). وحصلت على الدكتوراه في العلوم بموضوع «الرواية العربية التنويرية في نهاية القرن التاسع عشر بداية القرن العشرين» (١٩٧٥). وركزت اهتمامها في أبحاثها العلمية على الأدب العربي في العصور القديمة والمتوسطة والعصر الحديث، وعلى نظرية الترجمة الأدبية وتطبيقاتها، وتاريخ الاستعراب. كما نشرت أكثر من (١٥٠) بحثاً علمياً وترجمات لنصوص عربية. مثلا ترجمت المعلقات الشعرية من الجاهلية القرن (٦ ـ ٧ م) في كتابها «الجزيرة العربية القديمة» (١٩٨٣)، وفي عام (١٩٨٤) أصدرت ترجمة لمقامات الحريري (من القرن ١١ ـ ١٢م). توفيت في سان بطرسبورغ عام (٢٠١٧).

ومن **أهم مؤلفاتها:** كراتشكوفسكي. أعماله في التاريخ واللغة للشرق المسيحي (٢٠١٥)، وترجمة معلقة امرؤ القيس (٢٠١٣)، ومن تاريخ المراجع الأساسية لبارتولد (من سلسلة أعمال الشرق المسيحي. دراسة تاريخ ثقافة شعوب الشرق) (٢٠٠٩)، ومقامة أبو الفضل بديع الزمان الهمداني (١٩٩٥)، وأسطورة المتحف الآسيوي (١٩٩٤).

١٦ ـ أولغا فرولوفا:



ولدت في مدينة بيتروزافودسك الروسية عام (١٩٢٦)، وحصلت على الدكتوراه في اللغويات والعلوم الإنسانية، وأصبحت رئيس رابطة سان بطرسبورغ



للتعاون الإنساني مع الدول العربية. ثم عضو في الاتحاد الأوروبي للمستعربين والمختصين بالدراسات الإسلامية.

بدأت في العمل في جامعة لينينغراد الحكومية مع انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥). وتميزت فرولوفا بثقافتها الموسوعية في مجال الثقافة والأدب العربي، بالإضافة إلى صفاتها الإنسانية الطيبة والمتسامحة والكريمة. وهي من تلامذة المستعرب الكبير ومؤسس مدرسة الاستشراق الروسية كراتشكوفسكي. كما تتلمذت على يد المستعرب الكبير بيليايف، الذي كان عضواً مجمع اللغة العربية في القاهرة. وفي (١٩٥٣) حصلت على شهادة الدكتوراه لأبحاثها حول أعمال العالم العربي ابن الأثير القرن (١٣م).

عملت في السنوات اللاحقة على مؤلفات العلماء العرب: ياقوت الحموي، ابن العربي، عبد الغني النابلسي، الشرنبابلي، القزويني، محمد الطنطاوي، ابن ضيف الله وغيرهم. وخلال زياراتها المتكررة للبلاد العربية اكتسبت خبرات ومعارف واسعة، وجلبت مخطوطات ومواد كثيرة استخدمتها في أبحاثها العلمية. فقد زارت مصر لأول مرة عام (١٩٥٧) حيث عملت مترجمة في المعرض السوفياتي في القاهرة. ثم سافرت إلى مصر بمهمة عمل طويلة من (١٩٥٩ وحتى ١٩٦٣)، حيث عملت رئيسة لقسم اللغة الروسية وآدابها في جامعة عين شمس. وبعد عودتها بدأت موضوعاً علمياً جديداً في قسم اللغة العربية في الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد الحكومية، وهو دراسة اللهجة المصرية. كما عملت على دراسة الفولكلور العربي وخاصة الشعر الشعبي المصري. وحصلت على درجة دكتوراه في العلوم عام (١٩٧٥) في موضوع «الشعر المصري باللهجة العامية».

أحبت اللغة العربية والثقافة والأدب العربي، وأحبها العرب والتقت بشخصيات كبيرة مثل الرئيس جمال عبد الناصر عام (١٩٥٧) والرئيس ياسر عرفات عام (١٩٦٩). كما كتبت مقالة مهمة في نهاية خمسينيات القرن الماضي حول تحليل النص العربي باستخدام الحاسب، وكذلك موضوع الترجمة

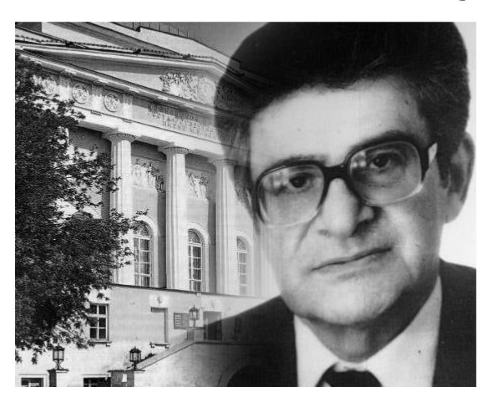


الإلكترونية ولكنها للأسف لم تلق اهتماماً من قبل المستشرقين. وبدأ الاهتمام بهذا الموضوع فقط بعد خسين عاماً تقريباً.

وبفضل فرولوفا وترأسها لقسم اللغة العربية وآدابها في جامعة لينينغراد الحكومية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي استمر العمل المنتظم على الدراسة العلمية للقرآن الكريم والمخطوطات العربية وتدريس اللغة العربية الفصحى. وعند عملها في السودان في الفترة (١٩٧٩ ـ ١٩٨٠) ألقت محاضرات في جامعة الخرطوم، وقامت بجمع مواد مهمة حول المصادر الأصلية للصوفية، التي أثبتت أهميتها في السنوات الأخيرة في روسيا وخارجها. وقد عملت لسنوات طويلة مع ت. ديرياغينا على تصنيف المخطوطات العربية، وتوصلت إلى إعداد فهرس للمخطوطات في مكتبة الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد الحكومية. وفي أبحاثها أولت اهتماماً لدراسة التأثير المتبادل بين الحضارتين الإغريقية وحضارات الشرق الأوسط. وكانت تدعى لمؤتمرات علمية في ألمانيا والنرويج واليونان والعديد من الدول العربية. وتوفيت في سان بطرسبورغ عام (٢٠١٥).

ومن **أهم مؤلفاتها:** ترجمات بعض أعمال محمد حسين هيكل ومحمود تيمور وجبران خليل جبران ونجيب محفوظ وغيرهم، ومصادر عمل ابن الأثير (١٩٥٤)، والمرحلة الأولى من العمل على إعداد خوارزمية الترجمة الإلكترونية عربي ـ روسيا (١٩٥٨)، وكتاب تعليمي: نحن نتكلم العربية (١٩٧٢)، والشعر المصري في اللهجة العامية (١٩٧٥)، والمخطوطات العربية من الخرطوم (١٩٨٠)، والمفردات الشعرية للكلمات العربية. (١٩٨٤)، وقلب المرأة. قصص وحكايات للكتاب العرب المعاصرين (١٩٨٨)، ودراسة عن الفولكلور السوداني والأدب الشعبي (١٩٩١)، ومخطوطة صوفية عن وحدة الوجود (١٩٩٤)، وفهرس مختصر بالتعاون مع ديرياغينا للمخطوطات العربية في القسم الشرقي لمكتبة جامعة سان بطرسبورغ.

١٧ ـ هراتشيا غابوتشيان:



كرس المستعرب الأرمني الأصل هراتشيا غابوتشيان (١٩٢٦ ـ ٢٠٠٤) نشاطه العلمي في مجال الاستعراب على دراسة أدوات التعريف والإعراب في اللغة العربية، ومضى شوطاً بعيداً في هذا المجال. وترجم إلى العربية كتابه «**نظرية أدوات التعريف وقضايا الاعراب في اللغة العربية**»، الذي نشر بدمشق عام (١٩٨٤).

ولد هراتشيا غابوتشيان في (٢٤ سبتمبر/أيلول عام ١٩٢٤) في القاهرة. وبعد تخرجه من المدرسة الثانوية هاجر مع بقية أفراد عائلته إلى أرمينيا في عام (١٩٤٨)، حيث التحق بجامعة يريفان وتخرج منها في عام (١٩٥٣) باختصاص اللغة العربية وآدابها. وفي العام نفسه سافر إلى موسكو، حيث التحق بقسم الدراسات العليا في معهد اللغات الشرقية في جامعة موسكو. وناقش رسالة دكتوراه في اللغة (Ph.D) بموضوع أدوات التعريف والإعراب. وبقي للعمل في المعهد، حيث حصل على لقب أستاذ مساعد (١٩٦٩) وبروفيسور (١٩٩٠). وفي عام (١٩٨٣) ترأس قسم اللغة العربية في المعهد، ومن ثم رقي إلى منصب نائب مدير المعهد لشؤون التعليم، كما تمتع بعضوية المجلس الخاص للشؤون اللغوية في المعهد.

إن مجال اهتمامات غابوتشيان العلمية واسع، منها قواعد اللغة العامة والدراسات اللغوية السامية والعربية والنظرية اللغوية العربية في منظومة «العلوم الشرعية الإسلامية» والأسس الميثودولوجية لـ «العلوم الشرعية

الإسلامية». لكن بحوثه الرئيسية تركزت على بنية اللفظ وإعراب الالفاظ العربية في الجمل ودراسة التقاليد اللغوية العربية على ضوء قضايا علم اللغة المعاصر. وترد في أعماله الأسس الميثودية لتأويل مفاهيم قواعد اللغة العربية وإعطاء تفسير جديد لمفهوم «الحرف» كإضافة إلى اللفظ وتبيان طابع الإضافة هذه في اللغة العربية الفصحى. كما أعطى تفسيراً جديداً لمفهوم الاشتقاق.

وكان غابوتشيان غالباً ما يسافر إلى الخارج لإلقاء محاضرات في الجامعات ومنها جامعة صوفيا البُلغارية وجامعة القاهرة. كما شارك في المؤتمرات العلمية (في لايبزيغ وبراغ وصوفيا وبودابست وتبليسي ويريفان وسان بطرسبورغ). وأشرف على رسالات الدكتوراه للعديد من طلاب الدراسات العليا. وصدرت له كتب عديدة وبحوث أكثرها يتعلق بقواعد اللغة وتاريخ الأدب العربي.



١٨ ـ ليونيد ميدفيدكو (وابنه وحفيده المستعربين):



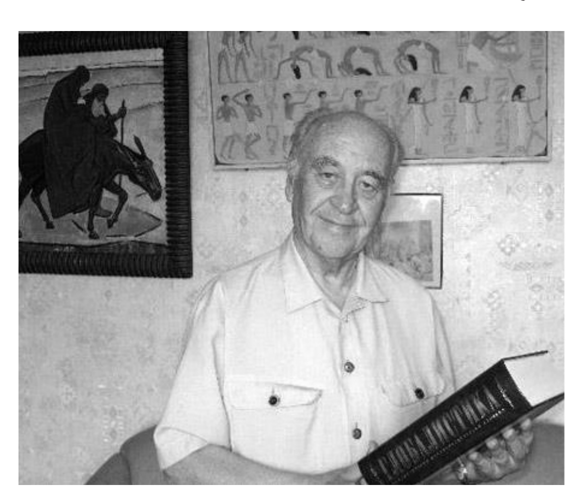
احتفل المستعرب الروسي ليونيد ميدفيدكو في (٢٠٠٨) بيوبيله الثمانين وبمناسبة مرور (٦٠) سنة على عمله في مجال الاستشراق. بدأ ميدفيدكو مشواره مع الاستشراق من اللغة التركية، وقطع شوطاً كبيراً في ترجمة أعمال الشاعر التركي ناظم حكمت إلى الروسية. ومن ثم انتقل إلى اللغة العربية فشغف بها وكانت محطّ الرحال.

ويقول الباحث: إن «المستشرق بالمفهوم الكلاسيكي للكلمة يجب أن يتقن اللغة العربية. حتى وإن اختار الاختصاص في إيران أو تركيا فلا مفر من

دراسة اللغة العربية، لأنها الأساس في القرآن والإسلام، وإليها يعود أصل كثير من الكلمات المتداولة».

ولاقى كتابه الأخير تحت عنوان «الشرق قريب منا»، الاهتمام من قبل أوساط المختصين، وقد أنجز الكتاب بالاشتراك مع ابنه سيرغي ميدفيدكو. ولعل أسرة ميدفيدكو من الأسر النادرة التي أثمرت ثلاثة أجيال من المستعربين. ويقول السيد ليونيد أن الحظ حالفه لأن أولاده وأحفاده تتلمذوا على يديه.

ليونيد ميدفيدكو (-١٩٢٨):



ليونيد ميدفيدكو من مواليد (٢٥ ديسمبر/كانون الاول عام ١٩٢٨). وهو يحتل مكانة خاصة بين المستشرقين والدبلوماسيين والصحفيين في روسيا المختصين بشؤون العالم العربي. حيث مارس عمله كباحث وصحفي في ظروف انفتاح الاتحاد السوفياتي على العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وأتيحت له الفرصة للتعرف عن كثب على الأوضاع في الأقطار العربية حين كان مراسلاً لوكالة تاس وصحيفة «برافدا».

ولد ليونيد ميدفيدكو في مدينة أوفاروفيتشي بمقاطعة غوميل البيلوروسية، وشهد الأعوام العصيبة للحرب، والتحق في نهايتها بكلية المدفعية الخاصة. وفي أواخر الأربعينيات من القرن العشرين التحق بمعهد الاستشراق في موسكو

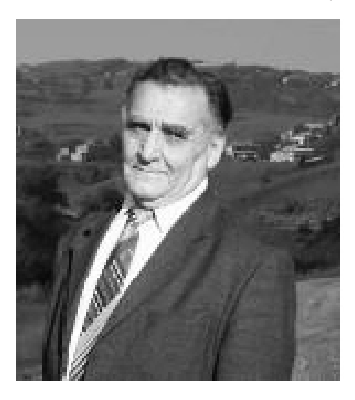


بقسم الدراسات التركية. وفي عام (١٩٥٢) سافر إلى تركيا للعمل مترجماً في الملحقية العسكرية السوفياتية. ولدى عودته إلى الوطن بدأ العمل الصحفي كمراسل لوكالة «تاس» ومن ثم كمراسل خاص لصحيفة «برافدا» في الشرق الاوسط. كما أكسبه عمله في دائرة الاستخبارات العامة في الأركان العامة بوزارة الدفاع الخبرة في تحليل الأوضاع العسكرية والسياسية في «النقاط الساخنة». وساعدته هذه الخبرة في عمله العلمي لاحقاً، حين عمل في معاهد أكاديمية العلوم الروسية، مثل معهد أفريقيا ومعهد الاستشراق وكذلك في معهد التاريخ العسكري التابع لوزارة الدفاع الروسية. وحظي كتاب «تركيا وكردستان في الأزمة العراقية» الذي شارك في إعداده باهتمام كبير لدى الباحثين لاحتوائه على الكثير من الوقائع، والتحليل المعمق للعلاقات المتشابكة بين دول الشرق الاوسط.

وأبدع قلم ليونيد ميدفيدكو الكثير من البحوث العلمية التي يربو عددها على المائة بحث، وترجم بعضها إلى اللغات الاجنبية ومنها: «رياح التغيير في الخليج العربي» و«شرق وغرب السويس» و«هذا الشرق الأوسط المضطرم» و«ألغام تحت أشجار الزيتون» و«باسم الله (تسييس الإسلام وأسلمة السياسة)» و«الحرب السابعة في الشرق الأوسط». كما يعتبر كتابه «روسيا والغرب والإسلام: صراع الحضارات» الصادر في عام (٢٠٠٣) من أهم المراجع عن تاريخ الشرق الأوسط المعاصر. ويورد المؤلف فيه مفاهيم الأمن القومي لروسيا على أساس نتائج الحربين العالمتين في القرن العشرين، وتحليل ظاهرة الارهاب الدولي. وقد اعتمدت الأفكار الواردة فيه لدى إعداد العقيدة الشاملة للأمن القومي في الاجتماع المشترك لمجلس الامن القومي ومجلس الدولة بروسيا الاتحادية في عام (٢٠٠٣). ومارس ميدفيدكو الترجمة الأدبية من اللغتين العربية والتركية إلى الروسية وترجم العديد من الروايات والقصص.



١٩ ـ عمري شيخ سعيدوف:



من مواليد (٢٠ مارس ١٩٢٨) في مدينة ديربنت بداغستان (التي سماها العرب المسلمون «باب الأبواب» وهي أول مدينة يدخلها الإسلام في آسيا الوسطى وروسيا القيصرية) تخرج من الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد الحكومية عام (١٩٥١)، حيث تتلمذ على يد كبار المستعربين مثل كراتشكوفسكي وبيليايف وغيرهم. وعاد ليعمل حتى ١٩٥٤ في محج قلعة عاصمة داغستان، مدرساً لمادة التاريخ في المدرسة الثانوية.

وعمل طيلة حياته في معهد داغستان للتاريخ والآثار والأثنوغرافيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية. وفي الفترة (١٩٧٣ ـ ١٩٩٩) ترأس قسم المخطوطات الشرقية في المعهد (الآن يسمى معهد الدراسات الشرقية). كما حصل على شهادة الدكتوراه عام (١٩٦٣) في موضوع «انتشار الإسلام في داغستان». وفي عام (١٩٧٦) حصل على شهادة دكتوراه علوم في موضوع «داغستان في القرون (١٠ ـ ١٤م). التجربة الاقتصادية والاجتماعية».

كان له نشاطات عديدة من خلال عضويته في جمعيات علمية تهتم بالاستعراب، وكذلك عضو في هيئة تحرير مجلة Central Asian Survey (London) وركزت أبحاثه العلمية على تاريخ وثقافة داغستان القروسطية، وكذلك على الإسلام والثقافة الإسلامية والمخطوطات العربية والمصادر التراثية العربية وتاريخ شعوب القوقاز. كما عمل في مجال الآثار في داغستان واكتشاف المخطوطات، حيث جمع (٣٠٠) مجموعة للمخطوطات، وقام

بتصنيفها من ضمن (٥) آلاف مخطوطة موجودة في داغستان تعود للفترة (ق١٢م وحتى القرن ٢٠م). له أكثر من (٢٥٠) بحثاً علمياً بما فيها (١٦) كتاباً. وتوفي عام (٢٠١٩).

ومن **أهم مؤلفاته:** الإسلام في داغستان في القرون الوسطى (ق ٧ ـ ١٥م) (١٩٦٩)، والكتابات تتكلم (١٩٦٩)، وداغستان في القرون (١٠ ـ ١٤م). التجربة الاقتصادية والاجتماعية (١٩٧٥)، وتاريخ داغستان منذ القدم وحتى نهاية القرن الخامس عشر (١٩٩٦)، وقلعة قريش (٢٠٠١)، وتاريخ شعوب القوقاز منذ القدم وحتى نهاية الثامن عشر (١٩٨٨)، وفهرس المخطوطات العربية في معهد الاستشراق وفهرس المخطوطات الشرقية في جامعة داغستان الحكومية.

وقد عمل في التدريس في الكلية الشرقية وكلية التاريخ في جامعة داغستان الحكومية لمدة (٤٥) عاماً. وألقى محاضرات في تاريخ داغستان وفي اللغة العربية والمخطوطات العربية والأدب العربي وفي الإسلام والثقافة الإسلامية.



٢٠ ـ أوليغ بولشاكوف (١٩٢٩ ـ ٢٠٢٠):



ولد أوليغ بولشاكوف عام (١٩٢٩)، مستعرب ومختص بالشرق الأوسط والأدنى في القرون الوسطى. وتخرج من الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد الحكومية عام (١٩٥١) ثم حصل على الدكتوراه عام (١٩٥٦). وعمل في معهد الآثار التابع لأكاديمية العلوم الروسية. وفي الفترة من (١٩٦٦) وحتى (٢٠١٦) عمل في معهد المخطوطات الشرقية (كان حينها اسمه معهد الدراسات الشرقية). وحصل على دكتوراه علوم في التاريخ عام (١٩٧٤) بموضوع

«المدينة في آسيا الوسطى في الفترة من القرن الثامن وحتى بداية القرن الثالث عشر للميلاد». وعمل في البعثات الأثرية السوفياتية في النوبة (١٩٦١ ـ ١٩٦٣) وفي العراق (١٩٦٩ ـ ١٩٧٨) وسوريا (١٩٨٧ ـ ١٩٩٠).

ركز جل اهتمامه العلمي على دراسة المدينة في الشرق الأوسط في القرون الوسطى، حيث قام بدراسة التاريخ من خلال المدن، وتجسد ذلك في كتابه من أربعة أجزاء «تاريخ الخلافة» الذي صدرت أجزاؤه تباعاً من عام (١٩٨٩). وتناول النقاط الإشكالية في رسالة أحمد بن فضلان. وساهم في كتابة فهرس المخطوطات العربية، ووصف حوالي ٢٧٩ مخطوطة. كما أعد كتاب مقامات الحريري وتم نشرها في روسيا عام (٢٠١٨).

تتلمذ على يديه عدد كبير من الباحثين وخاصة من سوريا وقيرغستان. وتوفي عام (٢٠٢٠) في سان بطرسبورغ.

ومن أهم مؤلفاته:

ـ رحلة أبو حامد الغرناطي إلى أوروبا الشرقية والوسطى (١١٣١ ـ ١١٥٣)، ١٩٧١.

ـ المدينة العربية القروسطية ـ نبذة عن تاريخ الثقافة العربية في القرون ٥ ـ ١٥م، ١٩٨٢.

ـ الخرافات والاحتيال في بغداد في القرون ١٢ ـ ١٣م، ١٩٨٤.

ـ المدينة القروسطية في الشرق الأوسط، ١٩٨٣.

ـ تاريخ الخلافة في ٤ أجزاء. بدءاً من عام ١٩٩٨ (ج١: الإسلام في الجزيرة العربية ٥٧٠ ـ م٦٣٣، ج٢: حقبة الفتوحات الكبرى ٦٣٣ ـ ٦٥٦م، ج٣: بين حربين أهليتين ٦٥٦ ـ ٦٩٦، ج٤: أوج وسقوط الخلافة ٦٩٥ ـ ٧٥٠م).

ـ كتاب تاريخ الشرق القروسطي. ١٩٩٥.

ـ تدقيق في ترجمة رسالة أحمد بن فضلان.

ـ تدقيق في ترجمة ابن خلدون، ١٩٩٨.

ـ الإصطخري، ابن حوقل والغرناطي. ترجمة وتعليق. ٢٠١٦.



ـ ترجمة مقام الحريري ـ ٢٠١٨.

٢١ ـ يفغيني بريماكوف:



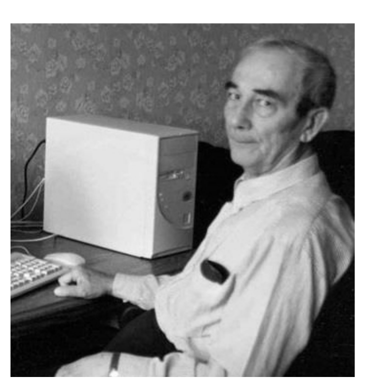
من مواليد (٢٩ أكتوبر ١٩٢٩) في مدينة كييف (عاصمة أوكرانيا)، وأمضى طفولته في مدينة تبليسي (عاصمة جيورجيا)، وقتل أبوه في عهد ستالين عام (١٩٣٧). عام (١٩٤٤) تخرج من الكلية البحرية العسكرية في باكو وتم فصله من الجيش لوضعه الصحي. وفي عام (١٩٥٣) أنهى معهد موسكو للدراسات الشرقية بتخصص «البلاد العربية» وفي عام (١٩٥٦) حصل على الدكتوراه في الاقتصاد من معهد موسكو للدراسات الشرقية بعنوان «تصدير رأس المال إلى الدول العربية كوسيلة لتحقيق أرباح عالية ومضمونة». ثم حصل عام (١٩٦٩) على درجة دكتوراه في علم الاقتصاد حول موضوع «التطور الاقتصادي والاجتماعي لمصر». وأصبح عضواً في أكاديمية العلوم الروسية عام (١٩٧٩). وشغل مناصب كبيرة في أكاديمية العلوم الروسية.

وفي الفترة (١٩٥٦ ـ ١٩٦٩) عمل بريماكوف صحفياً ومراسلاً ومحرراً ونائب مدير تحرير ورئيس تحرير البث الروسي إلى الدول العربية. وعمل في القاهرة من عام (١٩٥٦ إلى ١٩٦٩) مراسلاً في الشرق الأوسط لصحيفة «برافدا» وكمعلق سياسي في نفس الصحيفة.

ترأس معهد الدراسات الشرقية من عام (١٩٧٧) وألقى محاضرات في الأكاديمية الدبلوماسية التابعة لوزارة الخارجية الروسية. وفي (١٩٨٥ ـ ١٩٨٩) أصبح مديراً لمعهد موسكو للاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية. كان يتحدث

بالعربية والإنجليزية والجيورجية. وبدأ في الثمانينيات بممارسة العمل السياسي والحكومي وفي (٢٦ يونيو ٢٠١٥) توفي في موسكو. وله أبحاث وكتب كثيرة متعلقة بالشرق الأوسط منها: البلدان العربية والاستعمار (١٩٥٦). (يقصد الجزيرة العربية)، والشرق الأوسط: خمسة طرق إلى السلام (١٩٧٤)، وسنوات في السياسة الكبرى (١٩٩٩)، والعالم بعد (١١ سبتمبر ٢٠٠٢)، والعالم بدون روسيا؟ إلى أين يقود قِصَر النظر السياسي (٢٠٠٩)

٢٢ ـ أنس خالدوف:



ولد في تتارستان عام (١٩٢٩)، ويعتبر من أشهر المستعربين في روسيا في الثلث الأخير من القرن العشرين في مجال المخطوطات العربية. وهو ضليع في معرفة اللغة العربية وقواعدها. وتخرج عام (١٩٥١) من الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد الحكومية (حالياً جامعة سان بطرسبورغ).

عمل كباحث علمي وأستاذ في معهد المخطوطات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية (في سان بطرسبورغ) حتى وفاته. وخلالها ترأس قسم اللغة العربية في المعهد في الفترة (١٩٦١ ـ ١٩٦٨). وكذلك ترأس قسم الشرق الأوسط في المعهد في الفترة (١٩٧٨) وحتى عام (٢٠٠٠). كما حصل على درجة الدكتوراه في الأدب عام (١٩٥٥) وموضوع أطروحته «النثر الفني عند طه حسين»، ثم حصل على درجة دكتوراه علوم في الآداب في عام (١٩٨٤) وموضوع رسالته: «المخطوطات العربية والتقاليد الكتابية العربية».

منذ بداية دراسته للغة العربية ظهر جلياً لديه الاهتمام بالمخطوطات



العربية، وقد شجعه على ذلك كل من كراتشكوفسكي وبيليايف كبار المستعربين في ذلك الوقت. وقد كان أول عمل له وهو طالب دراسة مخطوطة جغرافية لأبي دلافة (١٩٦٠) بالتعاون مع بولغاكوف ب.). كما عمل على تصنيف المخطوطات العربية في مكتبة معهد الدراسات الشرقية، وقام عام (١٩٧٤) بتحقيق مخطوطة أبو كرم العندرسباني (من القرن ١٢م). وفي (١٩٧٩) قام بتوصيف مكتبات وادي حضرموت وخاصة في سيئون وتريم. وأكمل عمل استاذه بيليايف بنشر كتاب الأوراق للصولي (١٩٩٨) حول تاريخ وثقافة الخلفاء العباسيين.

وقام بتحقيق ونشر كتاب تاج الدين البُلغاري (من بداية القرن ١٣م) للمخطوطة المحفوظة في إيران (١٩٩٧). وألقى سلسلة محاضرات مجانية لطلبة الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد حول المخطوطات العربية في الفترة (١٩٧٠ ـ ١٩٨٠). كما كان أيضاً بروفيسوراً في جامعة قازان التي أولاها اهتماماً خاصّاً، وتابع عمله بالرغم من مرضه على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التترية وللأسف لم تنشر ترجمة القرآن لأسباب غير مفهومة. وتوفي في سان بطرسبورغ عام (٢٠٠١).

وله أكثر من (١٠٠) عمل علمي، أهمها:

ـ الرسالة الثانية لأبي دلافة ١٩٦٠.

ـ الفهرس المختصر للمخطوطات العربية شمل كل المخطوطات العربية الموجودة في المعهد (١٩٧١).

ـ النثر الفني ـ ١٩٦٠.

ـ كتاب أسامة بن منقذ (المسالك والديار) ١٩٦١.

ـ قاموس لحياة العندرسباني ١٩٧١.

ـ فهرس المخطوطات العربية في جمهورية اليمن الديمقراطية ١٩٧٣.

ـ اللغة العربية ـ نبذات من تاريخ الثقافة العربية القرن (٥ ـ ١٥م) ١٩٨٢.

ـ الإسلام واللغة العربية ـ ١٩٨٤.

ـ المخطوطات العربية وتقاليد الكتابة العربية ١٩٨٥.

ـ المخطوط في الثقافة العربية ١٩٨٧.

ـ معاجم إسحاق الفارابي ومحمود الكشغري (ق ١٠ ـ ١١م)١٩٨٧.

ـ الأكاديمي كرتشكوفسكي ـ قضايا الثقافة العربية، في ذكرى وفاته ـ ١٩٨٧.

ـ تاريخ الطبري ـ مقتطفات من كتابه ـ ١٩٨٧.

ـ تاج الدين البلغاري ـ الترياق الكبير ـ ١٩٩٧.

ـ أبو بكر محمد الصولي ـ كتاب الأوراق. ١٩٩٨.

ـ ساهم في تحرير كتاب المصادر العربية في أوروبا الشرقية ـ أعمال المؤتمر السابع عشر للمستعربين في أوروبا الشرقية ـ ١٩٩٧.

مؤلفات عنه:

ـ أنس خالدوف ـ ميليباند عام ٢٠٠٨.

ـ عن البروفيسور خالدوف ـ أو. بولشاكوف ـ ٢٠٠٢.

ـ أنس خالدوف ـ غ.زينولين ـ قازان ـ ٢٠٠٣.

ـ مركز الجاذبية ـ أنس خالدوف ـ قازان ـ ر. شرف الدينوف ـ ٢٠٠٤.

بولشاكوف عن خالدوف:

كتب بولشاكوف بأن رحيل خالدوف ـ تلميذ كراتشكوفسكي ومتابع تقاليده في دراسة اللغة العربية، هو قمة الخسارة لقسم اللغة العربية وقسم الشرق الأوسط في معهد الدراسات الشرقية.

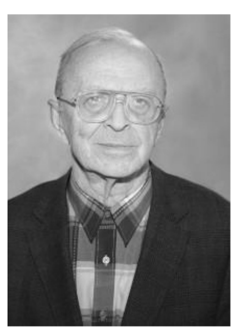
واستعرض حياته الجامعية مشيراً إلى انه لم يكن في البداية يتقن اللغة الروسية، لكنه سرعان ما تميز عن زملائه في دراسة اللغة العربية، واكتشفه كراتشكوفسكي أثناء إلقاء المحاضرات عليهم. وقد تعرض للتحقيق أكثر من مرة من قبل المخابرات السوفياتية لعلاقته بطالب كان يحمل أفكاراً سياسية معارضة للنظام السوفييتي، ولكنه صمد ولم يقبل بالتعاون مع أجهزة المخابرات.

وقال بولشاكوف أن خالدوف كان عضواً في الحزب الشيوعي، ولكنه كان ينتقد ويعبر عن رأيه بجرأة. فقد انتقد التدخل السوفييتي في أفغانستان، وكذلك سياسة الحزب الشيوعي في مجال القوميات.

وأشار بولشاكوف بعد رحيل خالدوف عام (٢٠٠١): كان خالدوف متواضعاً ووفياً في عمله وأبحاثه ولم يسع لكثرة الأبحاث، وأضاف: يموت العلماء فيزيائياً، ولكنهم يتركون لسنوات طويلة أعمالهم وتراثهم العلمي. لقد غادرنا خالدوف ورحل معه عهد كامل من تاريخ الاستعراب الروسي.

وذكر بأن خالدوف كان متابعاً جديراً بعد كراتشكوفسكي وبيليايف في قدرته على قراءة المخطوطات العربية القديمة. وأنه شارك في تصنيف المخطوطات، ليس فقط في مكتبة معهد المخطوطات الشرقية في سان بطرسبورغ، وإنما في داغستان ومكتبات اليمن وإسطنبول والقاهرة

٢٣ ـ روبرت لاندا:



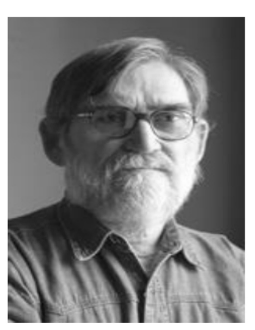
ولد عام (١٩٣١). وتخرج عام (١٩٥١) من القسم العربي في معهد الدراسات الشرقية في موسكو. وفي عام (١٩٧٤) حصل على شهادة دكتوراه في العلوم التاريخية بموضوع: «مراحل الثورة الجزائرية». وهو متخصص كبير في تاريخ المغرب العربي. وكان في الفترة من (١٩٨٨ ـ ٢٠٠٧) رئيس قسم أبحاث المقارنة في معهد الدراسات الشرقية. كما قام بالتدريس في عدد من الجامعات الروسية، حيث ألقى محاضرات في التاريخ ومنها في الجامعة التربوية في موسكو ومعهد آسيا وأفريقيا في موسكو. وأشرف على أكثر من (٤٠) طالب دراسة الدكتوراه. وله أكثر من (٣٢٠) بحثاً علمياً وحوالي (٢١) كتاباً. وقد كرس بعض دراساته للإسلام في روسيا، ونشر كتاباً الأول من نوعه: «الإسلام في تاريخ روسيا» (١٩٩٥).

ومن **أهم مؤلفاته:** تاريخ البلدان العربية (٢٠٠٥)، وروسيا والإسلام



(٢٠١٦)، وحركة التحرير الوطني الجزائرية (١٩٦٢)، والإسلام السياسي. نتائج أولية (٢٠٠٥)، ومن أنقاض قرطاج حتى جبال أطلس. قصص عن بلدان المشرق (١٩٩١)، وتاريخ الجزائر في القرن العشرين (١٩٩٩)، وتاريخ الأردن في القرن العشرين (٢٠١٦).

٢٤ ـ ستانيسلاف بروزوروف:



من مواليد مدينة فورونيج الروسية عام (١٩٣٨). تخرج من قسم تاريخ بلدان الشرق الأوسط في الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد الحكومية عام (١٩٦١)، وبعد تخرجه قام بإلقاء محاضرات في تاريخ البلدان العربية في كلية التاريخ واللغات في جامعة طاجكستان الحكومية. وفي عام (١٩٦٧) ترجم كتاب «فرق الشيعة» للحسن ابن موسى النوبختي (ق ١٠م). وكرس كل حياته للدراسات العربية والإسلامية وعمل في معهد المخطوطات الشرقية في لينينغراد. كما حصل على شهادة الدكتوراه عام (١٩٧١) في تاريخ الشيعة ونشر أطروحته عام (١٩٧٣). وبعد التدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان في عام (١٩٨٠) وجَّهت الحكومة السوفياتية بالاهتمام بموضوع الإسلام المعاصر، وتشكلت مجموعة برئاسة بريماكوف (مدير معهد الدراسات الشرقية آنذاك) لهذه المهمة السياسية. أما في لينينغراد تشكلت مجموعة بحث علمي غير مسيَّسة برئاسة بروزوروف في معهد المخطوطات الشرقية، للبحث في تاريخ الإسلام ومذاهبه وأهم مراجعه وكذلك دراسة المخطوطات العربية، وإصدار كتب مرجعية وكتب تعليمية في هذا المجال. وفي عام (١٩٩١) تم إصدار معجم باسم «الإسلام» باشراف بروزوروف.

وكذلك أشرف في أواسط التسعينيات على إصدار معجم «الإسلام في أراضي الإمبراطورية الروسية». وأشرف على إصدار ترجمة وتعليق كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني (١٩٨٤). وأصدر كتاب: الإسلام كوسيلة أيديولوجية (٢٠٠٤). ثم أشرف على إعداد برامج تدريسية للطلبة الجامعيين وطلبة الدكتوراه في المواضيع الإسلامية (٢٠٠٩).

ومن **أهم مؤلفاته:** معجم المصطلحات العربية والإسلامية (٢٠٢٠)، والنبي محمد في التقليد الصوفي كتجسيد للحب الصوفي لله (٢٠١٣)، وله أعمال أخرى كثيرة حول المذاهب في الإسلام وخاصة الشيعة.

٢٥ ـ ميخائيل بيوتروفسكي:



ميخائيل بيوتروفسكي من مواليد (١٩٤٤). وهو مستشرق روسي ومدير متحف الأرميتاج في بطرسبورغ. ترعرع في جو يتصف بحب الشرق واحترام الحضارات العريقة. وكان والده عالماً معروفاً في مجال الدرسات المصرية ومديراً لمتحف الأرميتاج أيضاً. اما والدته فهي عالمة آثار وباحثة في حضارة الأورارتو.

درس بيوتروفسكي في قسم الشرق بجامعة لينينغراد (مدينة سان بطرسبورغ حالياً)، التي أوفدته إلى مصر ليتلقى دورة تدريبية وليتمرن في جامعة القاهرة. وفي عام (١٩٦٧) أصبح بيوتروفسكي باحثاً في فرع لينينغراد لمعهد الاستشراق لدى اكاديمية العلوم السوفياتية. ثم دافع عام (١٩٧٣) عن أطروحة الدكتوراه في موضوع «قصة الملك الحميري أسعد الكامل»، ثم توجه إلى جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية حيث عمل مترجماً ومدرساً لتاريخ اليمن بالمدرسة العليا للعلوم الاجتماعية.



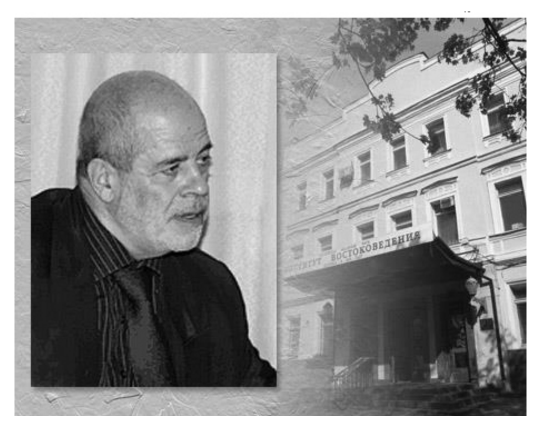
وقد رافق بيوتروفسكي الصبي أبويه خلال رحلاتهما في التنقيب عن الآثار للمستوطنات القديمة. ولعل هذا الأمر قد ساعده في تقرير مصيره العلمي فيما بعد، وألهمه على المشاركة في عمليات التنقيب الاثرية في كل من منطقتي القوقاز وآسيا الوسطى. أما في عام (١٩٨٣) فعمل في البعثة السوفياتية اليمنية التاريخية المشتركة التي قامت بالدراسات الميدانية لطرق المواصلات التجارية العريقة. كما شارك في عمليات التنقيب عن المدن والمعابد العريقة والدراسات الإثنية المرافقة.

وعكف بيوتروفسكي على دراسة جزيرة العرب. وكتب الدراسات عن مملكتي سبأ وحمير، وتاريخ الإسلام، والنقوش العربية القديمة في الجزيرة العربية، وملحمة العرب وحكاياتهم القديمة. واهتم بيوتروفسكي بصورة خاصة بالعلاقة بين الفترتين الجاهلية والإسلامية. وتناولت دراساته أواخر العصر الجاهلي ومطلع العصر الإسلامي. وقد ترجمت إلى اللغة العربية العديد من دراساته في موضوع تاريخ العرب. وألقى محاضرات في جامعات الدول العربية، حيث حظي بشهرة كونه مستشرقاً ومستعرباً معروفاً. وفي عام (١٩٨٤) دافع بيوتروفسكي عن أطروحة الدكتوراه في العلوم في موضوع «جنوب الجزيرة العربية في مطلع القرون الوسطى.

وأسند إلى بيوتروفسكي عام (١٩٩٢) بأن يتولى إدارة متحف الأرميتاج في بطرسبورغ بعد أبيه. حيث بدأ بممارسة الأنشطة الثقافية الرامية إلى الترويج للفن الروسي. وشارك بيوتروفسكي في افتتاح فروع للأرميتاج في كل من أمستردام وقازان ومدن أخرى.

وقد ذاع صيت الأرميتاج الذي أسسته الإمبراطورة كاترينا الثانية بصفته أغنى متاحف الفنون التشكيلية والتحف التاريخية والحضارية في العالم. ويعود الفضل الكبير لذلك إلى الأب والإبن بيوتروفسكي. ولا تستقبل قاعات الأرميتاج المعارض والمعروضات والتحف المختلفة فحسب، بل وتُلقى فيها المحاضرات، وتُجرى الندوات في قضايا التاريخ والثقافة والعلم المختلفة.

٣٦ ـ فيتالي نعومكين:



من مواليد (١٩٤٥). ويعتبر البروفيسور فيتالي نعومكين أحد الوجوه البارزة في مدرسة الاستعراب الروسية المعاصرة. وقد انتخب في (مايو/أيار ٢٠٠٩) بمنصب مدير معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية، وبقي حتى (٢٠١٥). ومنذ عام (٢٠١٥) أصبح المشرف العلمي على معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية، وانتخب عام (٢٠١٦) عضواً في أكاديمية العلوم الروسية. وقد اكتسب نعومكين االشهرة في روسيا والعالم العربي بصورة لبحوثه العديدة حول قضايا العرب والإسلام.

ولد فيتالي نعومكين في مدينة يكاترينبورغ في (٢١ مايو عام ١٩٤٥). وفي عام (١٩٦٨) تخرج من معهد اللغات الشرقية التابع لجامعة موسكو (معهد بلدان آسيا وأفريقيا حاليا) بتخصص تاريخ البلدان العربية واللغة العربية. وفي الفترة (١٩٦٦ ـ ١٩٦٧) تلقى دورات دراسية في جامعة القاهرة والجامعة الأمريكية في القاهرة. وفي فترة (١٩٦٨ ـ ١٩٧٠) أدى الخدمة العسكرية حيث نسب للتدريس في المعهد العسكري للغات الاجنبية التابع لوزارة الدفاع. كما مارس الترجمة الفورية لدى زيارات الوفود العربية.

في عام (١٩٧٢) ناقش رسالة دكتوراه حول مذهب العالم الصوفي أبي حامد الغزالي. وفي عام (١٩٨٠) نشر شروحه لترجمة كتاب الغزالي «إحياء علوم الدين» الذي أصدرته دار النشر «ناؤوكا». وبدأ في العام نفسه بممارسة



التدريس في معهد آسيا وأفريقيا في مواد التاريخ العربي والدراسات الإسلامية والتطور السياسي المعاصر للأقطار العربية.

وفي الفترة (١٩٧٢ ـ ١٩٧٧) عمل مدرساً في المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. وخلال عمله في اليمن قام بدراسات أثرية في جزيرة سقطرى، التي تعتبر فريدة من نوعها، حيث لم يسبقه باحث آخر في كشف أسرار الجزيرة وأهلها. وفي عام (١٩٨٤) انتقل نعومكين للعمل في معهد الاستشراق بموسكو، كرئيس لقسم البلدان العربية، ثم نائباً لمدير المعهد. وفي فترة (١٩٨٩ ـ ١٩٩٤) ترأس مركز الدراسات العربية. كما تولى رئاسة تحرير مجلة «الشرق» ومجلات علمية أخرى. وعمل كأستاذ زائر في جامعات عالمية وعربية منها جامعة كاليفورنيا في بيركلي والجامعة الأمريكية في القاهرة.

ونعومكين عضو المجلس العلمي في وزارة الخارجية الروسية، وعضو المجلس العلمي في مجلس الامن القومي الروسي، وعضو المجلس العلمي الاستشاري في وزارة العدل الروسية الخاص بدراسة المواد الإعلامية ذات المضمون الإسلامي. وفي عام (٢٠٠٦) التحق نعومكين بالمجموعة الرفيعة المستوى لهيئة الامم المتحدة «ائتلاف الحضارات». وفي عام (٢٠٠٨) عينه السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة سفيراً للإرادة الطيبة عن طريق «ائتلاف الحضارات».

ولنعومكين حوالي (٥٠٠) كتاب وبحث باللغة الروسية واللغات الاجنبية حول تاريخ الأقطار العربية وبلدان آسيا الوسطى والقوقاز والبحوث الإسلامية وعلم اللغة والعلوم السياسية. وتتركز أعماله على البحوث الخاصة بالإسلام والتاريخ العربي القديم والدراسات حول جنوب الجزيرة العربية وتطور الحركات الإسلامية المعاصرة. ونذكر من كتبه: «دور آسيا الوسطى في علاقات روسيا مع الغرب»، و«الراديكالية الإسلامية في مرآة المفاهيم والمواقف الجديدة»، و«آسيا الوسطى في السياسة العالمية»، و«النزاعات الإثنية في الاتحاد السوفيتي

السابق»، و«الإسلام المتشدد في آسيا الوسطى: بين القلم والبندقية»، و«سقطرى ـ جزيرة الأساطير» وغيرها.

٢٧ ـ دميتري فرولوف:



فرولوف من مواليد (١٩٤٦). وهو مستعرب ومختص بتاريخ الأدب العربي واللغة العربية. حيث تخرج من معهد آسيا وأفريقيا عام (١٩٧٠) بتخصص «اللغة العربية وآدابها». وحصل على دكتوراه علوم في اللغات عام (١٩٩٥) بموضوع «الشعر العربي الكلاسيكي. تاريخ ونظرية العروض». وهو عضو مراسل لأكاديمية العلوم الروسية من عام (٢٠١١). وكذلك رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في معهد آسيا وأفريقيا التابع لجامعة موسكو الحكومية من عام (٢٠٠٢). وهو عضو جمعية الدراسات اليهودية العربية وعضو الاتحاد الأوروبي للمستعربين والمختصين بالدراسات الإسلامية. وتركزت أبحاثه على الشعر العربي ودراسة القرآن الكريم، وله أبحاث في الفكر اليهودي باللغة العربية في القرون الوسطى.

ومن **أهم مؤلفاته:** تعليقات على القرآن. الجزء الثلاثون. السور ٨٨ ـ ٩٧ (٢٠١٣)، وجلال الدين السيوطي (٢٠١١)، وتعليقات على القرآن. الجزء الثلاثون. السور ٧٨ ـ ٨٧ (٢٠١١)، وابن إسحاق ابن هشام ـ السيرة النبوية. موقعة بدر الكبرى (٢٠٠٩)، واللغة العربية: قواعدها ونظم الشعر ودراسة القرآن (٢٠٠٦).

٢٨ ـ يفيم ريزفان:



من مواليد لينينغراد في (٧ أكتوبر ١٩٥٧)، كان والده ضابطا في الجيش السوفيتي وخاض الحرب الوطنية العظمى كما يسميها الروس (الحرب العالمية الثانية). وهو دكتور في العلوم التاريخية ومدير تحرير مجلة "Manuscripta Orientalia"، ونائب مدير متحف بطرس الأول للأنتربولوجي والإثنوغرافيا (التابع لأكاديمية العلوم الروسية). وهو مدرب لإدارة المتاحف تحت إشراف اليونسكو.

تخرج من قسم اللغة العربية في الكلية الشرقية في جامعة لينينغراد الحكومية (١٩٨٠). وحصل على الدكتوراه من معهد الدراسات الشرقية في لينينغراد (١٩٨٣). ثم حصل على دكتوراه علوم في التاريخ عام (٢٠٠٠). وشارك في عدة بعثات تنقيب عن الآثار في أفريقيا والصين وآسيا الوسطى ودول الشرق الأوسط ومنها اليمن عام (١٩٨٦). وأصبح من عام (٢٠٠٠) نائباً لمدير معهد المخطوطات الشرقية للشؤون العلمية في سان بطرسبورغ. ومن كتبه: القرآن الكريم وعالمه، بالإضافة إلى مساهمته في مراجعة والتعليق وشرح لغوي وتفسيري لمصحف عثمان.

وبدعوة من المستعرب الإيطالي سيرجيو نوي نوسيد (١٩٣١ ـ ٢٠٠٨)، انضم ريزفان إلى لجنة البحث الدولية لمشروع النشر Early Qur'ans وكذلك لدراسة عهد النبي محمد والخلافة الاموية.

ومن مجالات اهتمامه العلمي أيضاً: الخط العربي. ويعتبر ريزفان مديراً أو عضواً في هيئات تحرير العديد من المجلات المهتمة بالاستعراب، وساهم في عقد عدد من المؤتمرات العلمية حول مواضيع الاستعراب والاستشراق. ويشارك

في المشروع العلمي الدولي "Oxford Handbook of Qur'anic Studies". كما ألقى محاضرات في مواضيع الاستعراب في جامعة سان بطرسبورغ في كلية اللغات الشرقية وفي العديد من الجامعات الروسية والأجنبية. ولديه أكثر من (٢٥٠) بحثاً علمياً صدرت بعدة لغات بما فيها اللغة العربية.

۞ ۞ ۞

ثالثاً: سير ذاتية لشخصيات أدبية عربية مؤثِّرة في الاستعراب الروسي:

اعتمد الروس في بداية مرحلة مراحل الاستعراب على المستشرقين الألمان والأوروبيين للمساعدة في تدريس التاريخ والأدب واللغة العربية. ولكن منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ الروس بدعوة متخصصين عرب في اللغة العربية والثقافة العربية والإسلامية، ولذلك قدم إلى روسيا بدعوة رسمية من وزارة الخارجية الشيخ الأزهري محمد عياد الطنطاوي، حيث درّس في جامعة بطرسبورغ حتى وفاته، حيث دفن فيها. وكذلك جاء إلى روسيا كتاب وأدباء ومثقفون عرب مثل جرجس الدمشقي الذي ترجم مخطوطة رحلة البطريرك الأنطاكي مكاريوس من العربية (اللهجة الحلبية) إلى الروسية، وكذلك المفكر والأكاديمي بندلي الجوزي والمستعربة كلثوم عودة، التي تزوجت من ضابط روسي في الناصرة بفلسطين وربطت مصيرها بروسيا وساهمت في تعليم التاريخ واللغة العربية.

ومن المفيد بدايةً التعرف على الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية التي لعبت دوراً مهماً في العلاقات الروسية العربية من بداية القرن التاسع عشر.

الجمعية الأمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية:

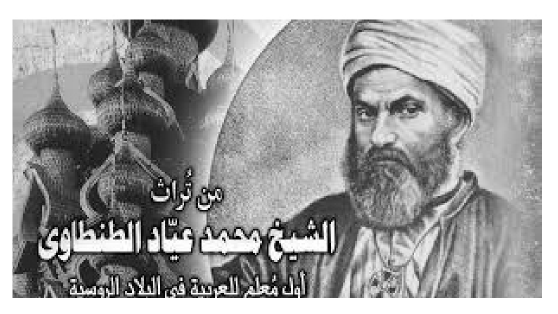
حصلت الجمعية على اعتراف من الإمبراطورية العثمانية في مناطق تواجد المسيحيين الأرثوذكس في فلسطين وسوريا. وأسس الإمبراطور ألكسندر بعد الانتصار على نابليون في عام (١٨١٨) في موسكو ممثلية القدس.

وفي (١٨٤٧) أرسل الإمبراطور نيكولاي بعثة دينية روسية إلى القدس، ترأسها الأسقف أوسبينسكي حتى عام (١٨٥٣). لكن حرب القرم عطلت عمل البعثة لفترة قصيرة. ثم قام الإمبراطور ألكسندر الثاني بتعيين قنصلاً له في

القدس لرعاية وحماية الحجاج الروس وأتباع الكنيسة الأرثوذكسية. وفي (١٨٥٧) جددت البعثة الدينية عملها.

واهتمت البعثة برئاسة الأسقف أوسبينسكي بالأمور الاجتماعية والتعليمية، ومساعدة الأهالي عن طريق فتح مدارس مجانية للفقراء وخاصة المسيحيين. وقام بافتتاح متحف للآثار. وقام الأسقف بتعليم أبناء الفقراء القراءة والكتابة، وكذلك بعض الحِرَف لعائلات الرهبان. واضطر لإنشاء مدرسة متنقلة على طريقة البدو الرحل باستخدام الخيام. وكان من الضروري إنشاء مطبعة للبطريركية في القدس تقوم بطباعة الكتب باللغتين العربية واليونانية.

١ ـ الشيخ الأزهري محمد عياد الطنطاوي (١٨١٠ ــ ١٨٦١):



أ ــ كراتشكوفسكي ومكانة الشيخ الطنطاوي:

يحتل العلامة الازهري الشيخ محمد عياد الطنطاوي [٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥] مكانة فريدة في علم الاستشراق الروسي ليس لكونه أفاد في نشر اللغة العربية في بلاد بعيدة عن مسقط رأسه في قرية بضواحي طنطا بمصر، بل لكونه رفع شعلة التنوير والثقافة في بلاده أولاً وفي روسيا ثانياً. وكما قالت الباحثة المصرية في الاستشراق الروسي الدكتورة مكارم الغمري: قد لا يعرف الكثيرون اسم الشيخ محمد عياد الطنطاوي، رغم أنه يحظى بمكانة كبيرة في دوائر الاستشراق الأوروبي والروسي بخاصة، نظرا للدور المهم الذي لعبه في إرساء حركة الاستشراق في روسيا، وفي وضع اللبنات المبكرة للحوار الثقافي العربي الروسي، وهو بشهادة كراتشكوفسكي «شخصية متفردة وغير متكررة في تاريخ الاستشراق الروسي والأدب العربي الحديث».

وقد ترك الطنطاوي للمكتبة الروسية حوالي ثلاثمائة مخطوطة، وتم الاحتفاظ بها في جامعة بطرسبورغ، جزء منها عبارة عن كتابات تخص الطنطاوي، والجزء الأخر عبارة عن مخطوطات اقتناها في فترة عمله في الأزهر. تتناول المخطوطات موضوعات في تاريخ الإسلام، والصوفية، والطب، والأخلاق، والفلسفة، والدين، واللغة العربية، والعروض، واللغة العامية.

ومازال عطاؤه حياً في الذاكرة الثقافية لروسيا، ولا أدل على ذلك من المؤتمر العلمي الدولي الذي نظمته جامعة سان بطرسبورغ احتفاءً بالمئوية الثانية لميلاد الشيخ الطنطاوي في الفترة من (٢ ـ ٣ نوفمبر٢٠١٠)، وقد صدر كتاب يضم ملخصات بحوث المؤتمر (٣٠١ صفحة) تحت عنوان: روسيا والعالم العربي.

ولكي نتعرف على سيرة حياته في تلك الفترة نعود إلى كتاب المستشرق الروسي الكبير إغناطيوس كراتشكوفسكي عن الطنطاوي «حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي»، قامت بترجمته عالمة عربية أخرى عاشت أغلب حياتها في روسيا هي السيدة كلثوم عودة ـ فاسيليفا (١٨٩٢ ـ ١٩٦٥). بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المقالات في المراجع والكتب المختلفة، التي تمكننا من رسم صورة حية لتلك المرحلة الغنية من حياة الشيخ العالم القادم من ضفاف النيل إلى ضفاف النيفا.

خلّف الشيخ مؤلفات في مجالات شتى في اللغة والأدب والتاريخ، ومن أشهرها كتابه «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا»، الذي وصف فيه رحلته إلى روسيا منذ أن خرج من القاهرة وسلك طريق الترعة المحمودية، ثم أبحر من الإسكندرية حتى تركيا، ومن تركيا إلى ميناء «أوديسا»، ومنه إلى «بطرسبورغ»، ثم فصّل القول عن تاريخ روسيا، ووصف معالمها وثقافتها وعاداتها، وأسهب عند الحديث عن قيصرها بطرس الأكبر، الذي تنسب إليه مدينة بطرسبورغ، التي تغير اسمها إلى «لينينغراد» في الحقبة الشيوعية، وعند سقوط الاتحاد



السوفيتي رجعت إلى اسمها القديم. وقد تلقى العلم على يديه مجموعة من كبار المستشرقين في الشرق والغرب.

وتحدث المستعرب كراتشكوفسكي في كتابه «مع المخطوطات العربية»[١] عن مسيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو في بطرسبورغ (١٩٣٠ ـ ١٩٦١) [٢].

وكتب كراتشكوفسكي بأنه منذ أكثر من مائة عام في (٢٢ آب ـ أغسطس ـ ١٨٤٠) ظهرت مقالة غير عادية تماماً في جريدة «أخبار سان بطرسبورغ» بدأت بعبارات رنانة بطريقة رومانتيكية عالية: «تسألني من هذا الرجل الوسيم في حلته الشرقية وعمامته البيضاء، ولحيته السوداء كالقطران، وعيونه الحية المتقدة شرراً، ووجهه المعبر الذكي المحترق لا بشمسنا الشمالية الباهتة. «لقد قابلته مرتين من قبل». يسير مختالاً على الجانب المشمس من شارع نيفسكي الرئيسي وكعضو دائم في نيفسكي الرئيسي في ذلك الهواء الجميل، سرعان ما تراه، ولا بد أنك تريد أن تعرف من هو». ويبين الكاتب أنه هو الشيخ محمد عياد الطنطاوي الذي رحل من «شاطئ النيل» ليشغل الكرسي الخالي للغة العربية في معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية. «الآن تستطيعون تماماً أن تتعلموا التحدث بالعربية دون أن تسافروا من بطرسبورغ». هكذا انتهت المقالة. وكان كاتبها عندئذ شاب اسمه سافيليف وهو تلميذ المستعرب سينكوفسكي، وأصبح فيما بعد عالماً معروفاً في الآثار والنقود القديمة.

وقد دفن الشيخ الطنطاوي في المقبرة «التتارية» بالقرب قرية فولكوفو عليه شاهدة حسنة مكتوب عليها بالعربية وبالروسية. والنص يقول الأستاذ بجامعة سان بطرسبورغ ومستشار الدولة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مات في (٢٧ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٨٦١) عن عمر يناهز الخمسين عاماً. هنا

---

(١) إ.كراتشكوفسكي. **مع المخطوطات العربية**. صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر. تعريب الدكتور محمد منير مرسي ـ الناشر دار النهضة العربية. ١٩٦٩.

انتهى طريق طويل وغير عادي مبتدئاً قبل نصف قرن في قرية صغيرة قريبة من طنطا. هناك في مصر.

ويصف كراتشكوفسكي الشيخ الطنطاوي بالزهرة النادرة، وهي تلك الشخصية التي تلألأت في روسيا القديمة! وهاهم المعاصرون يتحدثون عنها ـ عفو الخاطر ـ في هالة رومانتيكية. وقد نال وسام القديسة «أنّا» وكتب هو نفسه معلقاً على هذا في بعض أشعاره:

إنـي رأيـت عـجـبـاً فـي بـطـرسـبـورغ وأنـه

شيخ من المسلمين يضم في الصدر أنّا

على أنه سرعان ما غاب الشيخ الطنطاوي عن عيون إخوانه في وطنه، وحتى في نهاية العقد التاسع من القرن التاسع عشر لم يعرف الكثيرون منهم ما إذا كان حياً أم ميتاً.

ويقول كراتشكوفسكي: في مكتبة الجامعة عند تلك الخزائن من الخشب الفاتح، شعرت لأول مرة بالطنطاوي الحقيقي سواء كان في القاهرة أم سان بطرسبورغ. وفهمت من الأوراق التي كتبها بيده تلك المأساة الثقيلة التي أصابته في آخر أعوام حياته. ولعل هذه الأوراق هي وحدها التي تعرف أمر هذه الماساة.

ولم أدر منذ البداية كيف جذبتني غريزياً هذه الشخصية الفريدة في تاريخ مجالنا العلمي. وسرعان ما عجزت عن أن أعزل فكري.. واقتضى الأمر خمسة عشر عاماً من العمل حتى تجاسرت على تأليف كتاب صغير، ضمنته خلاصة معلومات هذه السنين، التي استطعت أن أعرفها عن الشيخ الطنطاوي: إن القصة قد تحكى بسرعة، أما تأليفها فعمل طويل.

وفي عام (١٩١٩) احتفلت جامعة سان بطرسبورغ بيوبيليها المئوي، وكان قد بُدئ في الاستعداد لهذا الاحتفال مبكراً، قبل الثورة. وفي عام (١٩١٦) كانت قد راودت الجامعة فكرة عن كتابة تاريخ الكراسي المختلفة فيها. وقد انفتحت لنا، نحن المستعربين، صورة عجيبة مشوقة. فأول أستاذ كان الفرنسي

دي مانج (١٨١٩ ــ ١٨٢٢)، والثاني هو البولوني سينكوفسكي (١٨٢٢ ــ ١٨٤٧) المعروف بلقب البارون برامبيوس، والثالث كان عربياً هو شيخنا الطنطاوي (١٨٤٧ ــ ١٨٦١). وإذا لم يذكر عن الأستاذ الأول أي شيء لأنه لم يترك أي أثر في مجال العلم سوى ما ينسب إليه على غير أساس من مأثرة تعليم الكاتب الروسي الكبير والدبلوماسي المعروف غريبايديف اللغة الفارسية. وإذا كانت توجد كتب كثيرة عن الأستاذ الثاني حقاً بوصفه كاتباً لا بوصفه مستعرباً، فقد وجدت فيما يتعلق بالشيخ الطنطاوي: أن المواد المطبوعة تنطوي على بعض الأخطاء الناتجة عن سوء الفهم، كما وجدت ببساطة غياب بعض المعلومات الهامة عنه. فكان لا بدَّ من بناء هذا كله من جديد. فتوجهت نحو الدرب المجرب: نحو المخطوطات.

ومن المعروف أن الشيخ الطنطاوي جمع بنفسه مجموعة من المخطوطات تقارب المائة والخمسين مجلداً، آلت كلها إلى مكتبة الجامعة، وبينها آثار أدبية ليست بالقليلة، وأن جزءاً منها داخل نطاق الاستخدام العلمي. فقد عثر كراتشكوفسكي، الذي كرس جهدا كبيراً للكتابة عن الشيخ الطنطاوي، في بعض المخطوطات على مؤلفات لم يرها أحد، بقلم الشيخ الطنطاوي نفسه، ومخطوطات لمؤلفين آخرين كان قد نسخها في شبابه. وجزء من المخطوطات جمعه في أيام الدراسة بالأزهر، وجزء يتضح من ملاحظاته عليه أنه قضى معه وقت فراغه غير الاختياري في الحجر الصحي الطويل في إزمير أو إسطنبول وقت رحلته إلى روسيا. ومن الملاحظات في الجزء الثالث نكتشف معاناة الطنطاوي، حيث كان يطير بأفكاره إلى وطنه من غربته البعيدة حيث أنهى حياته.

ويقول كراتشكوفسكي في عام (١٩٢٤) بدأ أبناء وطن الطنطاوي يتذكرونه عندما تيقظ اهتمامهم نحو الفترة القديمة من حياتهم. وبدأت تظهر منذ ذلك الوقت (١٩٢٤) إشارات عنه في أخبار المجمع العلمي العربي بدمشق وفي مجلات القاهرة. ووجد كراتشكوفسكي أن وطن الطنطاوي لا يملك إطلاقاً

ما كان الروس يملكونه من الموارد التي جمعت في جامعة سان بطرسبورغ. وأسهم كراتشكوفسكي بنصيبه في الصحافة العربية للعمل على إحياء نموذج إنساني لا تقل قرابته لنا عن قرابته للعرب. وهنا ربطه القدر من جديد ـ كما يقول ـ مع أحمد تيمور باشا العالم والمحب للكتب. وكان أفقه العلمي واسعاً. فلقد استطاع أن يفهم جيداً ايضاً الشاعر والفيلسوف الأعمى في القرن الحادي عشر أبا العلاء المعري، الذي انجذبنا إليه معاً. وبنفس هذا الفهم كان تيمور باشا يعرف أحد مواطني بلده في القرن التاسع عشر، الذي عاش ومات بين الروس هنا في الشمال. وقدَّر تيمور جهود كراتشكوفسكي، وبعد موته، عرف من ابنه أن صورة الطنطاوي التي أرسلها له كانت دائماً على منضدته. وابتدأت أوروبا أيضاً تهتم بالأستاذ البطرسبورغي الطريف. وفي هذا العام (١٩٢٤) نفسه كتب محرر الطبعة العالمية المشهورة لدائرة المعارف الإسلامية التي تجدد صدورها بعد الحرب العالمية الأولى لكراتشكوفسكي، يسأله أن يرسل له مقالة عن الطنطاوي. ويقول كراتشكوفسكي: «وإجمالاً لعمل استمر قرابة عشر سنوات، شعرت شعوراً جلياً بنداء داخلي يهيب بي بإصرار أن عليَّ أن أُؤلِّف كتاباً عن الطنطاوي، وكما لو كان الأمر مكافأة على هذا القرار، حمل إلى عام (١٩٢٤) اكتشافاً مفرحاً».

فعندما كان كراتشكوفسكي[١] ينظر عدداً من إحدى المجلات الاستشراقية خرج لتوِّه من المطبعة، عثر فيه على فهرس دوري للمخطوطات العربية في مكتبات إسطنبول، وكان ينشر مثل هذه الفهارس من وقت لآخر، أحد العلماء الألمان هو مستشرق ـ يصفه بالفاشل ـ لم يكن له مكان في ألمانيا فألقى مراسيه في إسطنبول على وظيفة معلم متواضع في مدرسة ثانوية. وبحماسه وعناده الكبير استطاع أن يجد وقتاً ليغوص في بحر كنوز

(١) إ.كراتشكوفسكي. **مع المخطوطات العربية. صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر.** تعريب الدكتور محمد منير مرسي ـ الناشر دار النهضة العربية. ١٩٦٩.



المخطوطات. ومن هناك جذبته جواهر كثيرة، ورأى كراتشكوفسكي في الفهرس فجأة أن الألماني قد ذكر مع الآثار القديمة في جامع رضا باشا «بروميلي حصار»، عنواناً حمل كراتشكوفسكي على أن ينسى كل ما خلاه. والعنوان يقول: «تحفة أولي الألباب في أخبار بلاد روسيا للشيخ محمد عياد الطنطاوي كتبه بخطه سنة (١٨٥٠م/١٢٦٦هـ). وأهداه إلى السلطان عبد المجيد». ولم يكن لديه أية معلومة عن هذا المؤلف من الناحية العلمية، ولم يكن يتصور أهمية هذا المخطوط إلا من قبيل التخمين. وكان أسرع ما ورد على خاطر كراتشكوفسكي هو أنه وصف جغرافي عادي. ولم يصدق تماماً أن المخطوط هو بخط الطنطاوي فعلاً. وخشي أن يكون ثمة شيء من سوء الفهم. لكن اسم الطنطاوي مذكور في العنوان.

ويتابع كراتشكوفسكي: «لم أعرف الهدوء ولا الراحة، وكان علي أن أنتظر مدة طويلة. وأخيراً في عام (١٩٢٧) سمحت لي العلاقات الدولية آنذاك أن أتسلم نسخة من المخطوط. وكان الحكم الذي خرجت به بناء على الخط الذي كُتب به هو أن المخطوط منقول أو منسوخ بواسطة تركي لا يحسن معرفة اللغة العربية ولم يكن ناجحاً دائماً في فهم الأصل، وبخاصة فيما يتعلق بالأسماء الروسية الصعبة أو المعقدة. لكن لم يبق أي شك في أن المخطوط يرجع إلى الشيخ الطنطاوي، وأخذت عينيَّ تتنقلان على الصفحات ولم أستطع أن أفارقها. شاعراً فوراً بأن هذا المخطوط هو أحسن مؤلفات الشيخ الطنطاوي. إلى جانب أنه قريب جداً لأنفسنا نحن الروس. فهو يعكس بروعة طبيعة الطنطاوي المتطلعة، واستجابته لكل مظاهر حياتنا الدقيقة، ومزاجه اللطيف الخير».

ولم يكن المخطوط إذاً وصفاً جغرافياً عادياً كما تخيله من العنوان، أو بمعنى أدق لم يكن المخطوط مجرد وصف جغرافي، ففيه وصف الشيخ الطنطاوي بالتفصيل رحلته من القاهرة إلى بطرسبورغ متذكراً كذلك رحلته إلى وطنه سنة (١٨٤٤). وتحدث بالتفصيل أيضاً عن انطباعاته عن روسيا والروس مدة العشرة أعوام الأولى من إقامته في روسيا. وتحدث عن أسفاره

في العطلات إلى بلاد بحر البلطيق وفنلندا. وقد شرح لأهل وطنه بالتفصيل تاريخ روسيا في العصر الحديث ورسم خريطة لمدينة بطرسبورغ في عصره. كل هذا بإشارات حية ناصعة، هي الآن بالنسبة لنا لا تقدر بثمن كما في السابق. ولقد كان كراتشكوفسكي في غاية السعادة لأن مخطوطاً آخر للطنطاوي أصبح معروفاً للعلم ولأهل عشيرته. وما أن انتهى من الدراسة الجيدة لنسخة مخطوط إسطنبول حتى وهبه القدر مفاجأة أخرى مفرحة.

ففي بداية خريف (١٩٢٨) دخل علي ذات مرة تلميذي الموهوب الناشئ المتخصص في الدراسات السامية، الذي انطفأ سراجه مبكراً إذ حملته معها سنة (١٩٤٢) القاسية. وكان دائماً هادئاً ثابت الطباع، وغالباً ما كان يزورني حاملاً مختلف الأسئلة العلمية. ولكن هذه المرة شعرت فوراً أنه لم يأت من أجل مسألة بسيطة. ووجدته يمد يده إليَّ في هدوء عادي بمخطوط غلافه من الورق المقوى العادي ثم قال موضحاً: «هاك، وجدت هذا عند بائع كتب قديمة في شارع ليتني ويبدو أنه يتعلق بالجغرافيا. فقد تجدون فيه شيئاً ممتعاً لكم». وما فتحت المخطوط حتى ذهلت. فلقد رأيت أمامي خط الطنطاوي في نهاية العقد الخامس من القرن التاسع عشر. وهو الخط المعروف لديَّ جيداً. ونظرت بانفعال في الصفحة الأخيرة منه فذهلت مرة أخرى: إن ما في يدي هو ذلك المخطوط الذي كتبه الطنطاوي بنفسه عن «وصف الروسيا». وهذا المخطوط الذي في يدي هو المسودة وبه تصحيحات وإضافات كثيرة جداً بخط المؤلف نفسه. وبالطبع فإن صديقي الشاب عرف جيداً أي كنز ثمين حمله إلي، لكنه لم يرد أن يحرم نفسه من الاستمتاع برؤية كيفية استجابتي إلى هذا المخطوط. وعندما تطلعت إلى الغلاف فهمت للتو كيف وقع المخطوط عند ذلك البائع للكتب القديمة. فعلى الغلاف مطبوع بالحروف اللاتينية I.N. (إ. ن.) وهو اختصار اسم ايريني نوفل وهو عربي من طرابلس، كان خليفة الطنطاوي في التدريس بالقسم التعليمي للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية. وفي بداية القرن العشرين ذهبت مكتبة نوفل أدراج الرياح بفضل أبنائه

الطائشين. وغالباً ما كان حطام هذه المكتبة ـ المأسوف عليها ـ يطفو في أوقات مختلفة على سطح بحر الكتب في بطرسبورغ ولينينغراد.

إن هذين المخطوطين المكتشفين ـ أحسن مؤلفات الطنطاوي ـ ليعطيان الآن إمكانيات كاملة لنشره وترجمته بطريقة جيدة. لكن هنا بدأ القدر قاسياً، فكلا تلميذيَّ اللذين أخذا على عاتقهما هذا العمل، أحدهما بعد الآخر ماتا مبكرين قبل أن يصل العمل إلى نهايته. وما يعرفه العرب والروس حتى الآن عن مخطوط «وصف روسيا» هو فقط من مقالات صغيرة ومن الملخص العربي.

وإذا كانت نهاية حياة الطنطاوي قد اتضحت لي في ختام دراستي له، فقد تم ذلك أيضاً بفضل المخطوطات. فلقد عرفت من وثائق رسمية أنه من (أيلول (سبتمبر) ١٨٥٥) ـ «عانى من شلل أصاب أطرافه السفلية» حسب تعبير اللغة الطبية الرسمية. أما ماذا عمل هو في السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياته فقد كان من الصعب تصوره.

وقد ساعدت المصادفة كراتشكوفسكي من جديد. فقد كان أحد العاملين في المكتبة شاباً ولكنه غير طموح بسبب تشبُّعه بروح المكتبة. وهناك على المنضدة لدى خزائن المخطوطات، حيث أنجز كراتشكوفسكي دراسته عن الشيخ الطنطاوي، حمل إليه الشاب كوماً من الأوراق الكبيرة المكتوبة التي ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر. وهي مملوءة تماماً بسطور عربية وروسية متداخلة مع بعضها. ولم تكن هذه الأوراق مسجلة في أي سجل. وكانت ملقاة في أسفل خزانة من خزائن المكتبة، حيث اكتشفها هذا الموظف ذو الروح الخيرة، والذي شعر بالغريزة أن لهذه الأوراق علاقة ما بالشيخ الطنطاوي.

لم أستطع في البداية فهم أي شيء. فكومة الأوراق تتضمن ما لا يقل عن مائة وخمسين ورقة ممتلئة كتلك، وكانت الأوراق تتضمن مجموعة أمثال باللهجة المصرية، ونماذج من التحايا والأغاني العامية ومواد مختلفة عن البلاغة والنحو والألفاظ العربية. لكن كان من الواضح أن كل هذا كان مكتوباً بعد أن أخذ «شلل رجليه» ينتشر إلى يديه. وكان من المؤلم للمرء أن يرى كيف أن

صاحب هذه اليد كان بالتدريج يتزايد صراعه في حربه مع الكتابة. فلم يطاوعه لا القلم ولا الريشة. وكانا يخرقان الورقة عند كل حركة في أثناء الكتابة. وكانت يده تحاول أن تحسن كتابة الحرف العربي أو الروسي وفجأة تنقبض يده مرتعشة فيجري منه القلم على ما يقرب من الصفحة كلها. ويقول كراتشكوفسكي كانت المادة كلها حقاً حية وممتعة. ولكن إذا كنت قد فهمت الصفحات الأولى بصعوبة، فإن فهم ما بعد ذلك أخذ يزداد سوءاً. فأحياناً كانت الحروف تلتحم معاً في صورة خط اختزالي أو ما يذكر بكتابة الأعمى الذي سلمت له في يده عصاً يغمسها في لون الصباغة ليكتب بها. وهكذا استمر الأمر على عشرات الأوراق. وهذه السطور توضح ببلاغة وبفظاعة أيضاً كيف أن الطنطاوي كان يحاول بإصرار أن يمسك بالسراب لأداء عمل عقلي لم تمكنه منه يده الهامدة، وهو الرجل ذو الطبيعة الحية التي لا تعرف التقهقر أو الاستسلام. ولو أنه وجد موضوع لرواية عن الطنطاوي في قصص المعاصرين، فإن هذه الأوراق تتحدث عن مأساة قاسية لانطفاء حياته.

وفي آخر فصول هذه المأساة ينسدل الستار على موت البطل محترقاً بنار شريرة من التسمم الدموي. وهكذا فتحت المخطوطات كل فصول مأساة تلك الحياة التي بدأت في قرية مصرية صغيرة، وتفتحت في المراكز العلمية العربية في طنطا والقاهرة، ثم عبرت إلى عاصمة روسيا سان بطرسبورغ وانتهت في قبر ذي شاهدة، هناك في مقبرة فولكوفو.

وصدر كتاب كراتشكوفسكي عن الشيخ الطنطاوي في بداية (١٩٣٠) ولم يعجب الكتاب الجميع لسبب ما، ولكن كراتشكوفسكي كان سعيداً لأن المستعربين والعرب وبخاصة أهل وطن الشيخ قد قدروه وتحدثوا عنه بكلمات حارة. ويضيف كراتشكوفسكي: لقد قاسيت كثيراً عندما كنت أؤلف هذا الكتاب. وحتى هذه اللحظة عندما أُسأَل عن أعمالي أعتبرها أثراً جديراً في العلم، فإنني أشير دائماً إلى أربعة كتب أولها عن شاعر دمشق المرح الذي كان منادياً في سوق الفواكه. وثانيها عن أهجية دقيقة للحكيم الأعمى الشاعر



والفليلسوف السوري. وثالثها عن بديع الشعر الذي ألفه أمير وشاعر وعالم لغوي رقيق كان لسوء حظه خليفة بغداد لمدة يوم واحد. وآخرها عن الشيخ المصري الأستاذ في بطرسبورغ. لكن يبدو لي أحياناً أنني أحب الكتاب الأخير وأفضله على الجميع. وغالباً ما كنت أفتحه لاتطلع إلى صورة ذلك الشخص الذي يدور حوله الحديث في الكتاب.

ب ـ حياة الطنطاوي ونشاطه العلمي والأدبي:

ولد الشيخ محمد بن عياد بن سعد بن سليمان الشافعي[١] سنه (١٨١٠م) في قرية «نجريد» من أعمال مركز «بسيون» بمحافظة الغربية، وينتمي أبوه إلى قرية «محلة مرحوم» بجوار مدينة طنطا، وكانت تسبقها في الشهرة قبل أن يأتي طنطا السيد أحمد البدوي، وكانت طنطا تدعى «طنتدتا». كان الأب يعمل ببيع القماش والصابون والبن، وعندما أتم السادسة من العمر تردد على الكتّاب في طنطا، وبعد أن أتم حفظ القرآن، أرسله والده إلى طنطا، حيث حفظ متوناً كثيرة جرياً على القول السائر «من حفظ المتون حاز الفنون»، منها: «متن المنهج في علم الفقه» و«ألفية ابن مالك»، ثم بدأ في دراسة الشروح والتعاليق على المتون التي حفظها على يدي الشيخ محمد الكومي، والشيخ محمد أبوالنجا، لكن أكثرهم تأثيراً في الطالب الوافد إلى طنطا كان شيخ الجامع الأحمدي الشيخ مصطفى القناوي، الذي أعطاه إجازة تدريس الحديث من الكتب الستة، إضافة إلى موطأ مالك. وفي سن الثالثة عشرة انتقل إلى القاهرة، حيث قام بالدراسة في الأزهر، وقرأ في رحابه على كبار علمائه، منهم: الشيخ حسن العطار (ت ١٨٣٥م)، والذي تولى مشيخة الأزهر فيما بعد، والشيخ محمد بن أحمد البيجوري (ت١٨٦٩م) وقد ولي المشيخة أيضا، والشيخ برهان الدين إبراهيم السقا (ت١٨٨٠م)، وقد تولى المشيخة بعد ذلك [٢٥].

(١) حسين الشافعي. **من تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي ـ أول معلم للعربية في البلاد الروسية.** دار «أنباء روسيا» في القاهرة. ٢٠١٣.



بعد أن انتهى من دراسته في الأزهر بدأ في تدريس تفسير القرآن والمنطق بالجامع الأزهر، ولكنه كان مولعاً بعلوم اللغة وآدابها، فبدأ يعطي دروساً في الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب، وبسبب هذا العشق صار لا يضاهيه أحد في هذا المضمار، ينقل الدكتور محمد عيسى صالحية في مقدمة تحقيقه لكتاب «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا» أن الطنطاوي «اتهم بترويج البدع، إذ انصرف إلى الشعر والأدب بدلاً من الانصراف إلى مباحث الفقه والحديث، حتى تمنى البعض موته حين أصيب بطاعون سنة (١٨٣٦م)، المرض الذي عاناه مدة عشرة أيام بلا نوم، وغاب عنه الإحساس والإدراك حتى سلّمه اللّه وانفتحت البثور ثم تعافى بعد أسبوعين.

كانت مشروعات «محمد علي» في مصر قد جذبت الكثير من الأجانب الذين عملوا في وظائف مختلفة، لكن الكثير منهم انخرط في سلك الاستشراق، على الرغم من أن بعضهم لم تكن ذلك من اهتماماته في بداية مقدمه لمصر. ولما اشتهر الطنطاوي كمعلم للغة العربية الفصحى وآدابها اجتذبته هذه البيئة الطارئة، فأثر فيها وتأثر بها؛ إذ إن رحيله إلى روسيا لم يكن إلا نتيجة مباشرة لتعرفه بالعلماء الأوروبيين الشبان.

وكان أول هؤلاء الفرنسي فرنيل Frenel صاحب «الرسائل في تاريخ العرب قبل الإسلام» الذي قدم إلى مصر عام (١٨٣١)، ودرس مع الطنطاوي سنتين، وأثمرت هذه الدراسة ترجمة فرنيل لشعر الشنفرى، وقد ظلت الرسائل متصلة بينهما حتى بعد رحيل الطنطاوي إلى روسيا، وقد أدت مدارسة الطنطاوي لفرنيل، إلى زيادة اطلاع الطنطاوي على اللغة العربية وآدابها، كما كان لفرنيل الفضل على الطنطاوي في تعلمه للغة الفرنسية.

أما الثاني، فكان الفرنسي Peron بيرون الذي كان طبيباً في مستشفى قصر العيني، والذي اشتهر في عالم الاستشراق فيما بعد، وقرأ معه الطنطاوي في كتاب الأغاني، وكتاب العقد الفريد، وقد أثمرت هذه المدارسة عن كتاب



بيرون حول «علم الخيل وأنسابها»، واستمرت تلك المدارسة حتى سافر الطنطاوي إلى روسيا.

وممن تعلم على يديه أيضاً الألماني فايل Weil الذي اشتهر فيما بعد كمؤرخ للخلافة، وكان مراسلاً لصحيفة ألمانية ومعلماً بسيطاً للغات الأجنبية في القاهرة، وقد قضى أربع سنوات بها ودرس على الشيخ الطنطاوي في نفس الوقت الذي درس فيه فرنيل، وقد أثمرت تلك المدارسة عن اشتغال فايل بتدريس الآداب الشرقية في جامعة هايدلبرج.

كما درّس الطنطاوي للألماني پرونر الذي عمل طبيباً أول الأمر في أبي زعبل، ثم انتقل إلى قصر العيني، ورافق الجيش المصري إلى الحجاز في حملته ضد الوهابيين. ولا يعرف من مؤلفاته في الاستشراق إلا القليل، غير أنه اقتنى مجموعة من المخطوطات العربية والفارسية والتركية تصل إلى (٥١) مخطوطة، أهداها فيما بعد إلى مكتبة ميونخ.

وكان من بين تلاميذه أيضاً من المستشرقين الشباب روسيان، هما «موخين» و«فرين»، وكانا صديقين تخرجا من مدرسة واحدة، وخلف أحدهما الآخر في القاهرة، أما موخين فقد تخرج في قسم التاريخ والآداب الشرقية بجامعة بطرسبورغ، وكان يعمل مترجماً في القنصلية العامة الروسية في مصر، وهناك تلقى دروساً على يد الطنطاوي في العربية، ودرس الشعر العربي، واقتنى مجموعة من المخطوطات، وأخرى من الآثار المصرية القديمة. وقد خلف فرين زميله موخين في القاهرة، وهو ابن جوزيف فرين مؤسس المتحف الآسيوي في بطرسبورغ، ورث عن أبيه حب الاستشراق، ومن ثَم قام هو الآخر بتزويد المتحف بمخطوطات ونقود قديمة جمعها خلال رحلة عمله، وقد تتلمذ فرين هو الآخر على يد الطنطاوي.

رحيله إلى روسيا:

كان لهذين التلميذين أثرهما في قرار الطنطاوي بالرحيل إلى روسيا، يقول الطنطاوي عن ذلك: «إن طلبهما كان أول دافع لسفري إلى روسيا»، وكان معلم

اللغة العربية بالقسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية الروسية قد ترك عمله، فكلف وزير الخارجية الروسي قنصله العام في الإسكندرية بالبحث عن معلم مناسب من علماء العرب، وقد وقع اختيار القنصل عليه، وقد حث محمد علي باشا والي مصر الطنطاوي على تعلم اللغة الروسية وإتقانها. وقد غادر الطنطاوي القاهرة عام (١٨٤٠)، وكان السفر عن طريق النيل إلى الإسكندرية، ومن هناك ركب الباخرة، وقد وصل إلى أوديسا على ساحل البحر الأسود يرافقه تلميذه السابق موخين، ومن هناك غادر إلى كييف، ثم واصل رحلته بعد ذلك ليصل إلى بطرسبورغ في ٢٩ يونيو من ذلك العام. كان رحيله إلى روسيا حدثاً كبيراً ليس في حياته فحسب، بل وفي الاستشراق الروسي أيضاً، حتى إن الصحافة الروسية أعارته انتباهاً كبيراً، وقد سبقه خبر وصوله إلى بطرسبورغ.

حياته في روسيا:

ابتدأ الطنطاوي عمله بإلقاء محاضراته في كلية اللغات الشرقية في أوائل أغسطس من ذلك العام، وظل يعمل في التدريس خمسة عشر عاماً، لم يغادر فيها روسيا منذ قدومه إليها إلا مرة واحدة عام (١٨٤٤)، زار خلالها القاهرة وطنطا واهتم بجمع المخطوطات الشرقية، وقد امتدت مدة إقامته سليماً معافى في روسيا عشر سنوات فقط، تخللتها حرب القرم التي قطعت صلته بمصر، وبعدها دخل في رحلة مرض، ظل يعاني منه وهو في عمله خمس سنوات، أقعده بعدها عن الحركة. وقد خلف الشيخ الطنطاوي في قسم اللغات الشرقية سلفه «ديمانج» الذي ولد عام (١٧٨٩)، وهو تلميذ «سلفستر دي ساسي» المستشرق الشهير، وكان أول أستاذ للغة العربية في دار المعلمين من عام (١٨١٦)، ثم في الجامعة من عام (١٨١٩)، أما الشيخ الطنطاوي فقد ظل يعمل بالتدريس بالقسم التعليمي خلفاً له، ثم عمل أستاذاً بالجامعة عام (١٨٤٧) بعد تقاعد سينكوفسكي.

جمع الطنطاوي في تدريسه بين الطرق العملية والنظرية، فمن جهة كان يدرّس قواعد اللغة، ويشرح أمثال لقمان، ويقرأ قطعاً من مؤلفات تاريخية، ومن



مقامات الحريري، كما كان يدرّس الترجمة من الروسية إلى العربية، والخطوط الشرقية، وقراءة المخطوطات، والمحادثة باللغة العربية، وزاد على ذلك عام (١٨٥٥) تدريس تاريخ العرب.

وقد نال الشيخ الطنطاوي عدداً من الألقاب والأوسمة، منها: وسام الإمبراطورة آنّا، وخاتم مرصّع بالجواهر من ولي العهد القيصري شكراً على جهوده في تزيين الغرفة التركية في قصر تسارسكي سيلو.

دام عمله في بطرسبورغ خمسة عشر عاماً (أي حتى عام ١٨٥٥)، نكب في صحته بعد افتتاح كلية اللغات الشرقية، وظلت الجامعة ترفض تعيين أحد بديلاً له رغم مرضه، إلى أن استعفى من الخدمة في (٣١) يناير عام (١٨٦١)، ثم ما لبث أن تُوفّي في (٢٩) أكتوبر من نفس العام.

كان مشغولاً بأتراح وطنه وتمنياته له بالرقي والتقدم، مثلما تمنى صديقه رفاعة الطهطاوي، الذي تعلم في باريس، ولاحظ الفروق الحضارية والبون الشاسع بين مصر والغرب، الذي وصفه في رحلته «تخليص الإبريز». كتب إلى صديقه رفاعه الطهطاوي هذه الرسالة: «أنا مشغوف بكيفية معيشة الأوروبيين وانبساطهم وحسن إدارتهم وتربيتهم، خصوصا ريفهم، وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار إلى ذلك مما شاهدتهم قبلي بمدة في باريز، إذ بطرسبورغ لا تنقص عن باريز في ذلك، بل تفضلها في ذلك كاتساع الطرق، وأما ما قبل البرد فلم يضرني جداً، إنما ألزمني ربط منديل في العنق ولبس فروة إذا خرجت، وأما في البيت فالمدافئ متينة معدة لإدفاء الأرض ولطالما أنشدت قرب النار:

النار فاكهة الشتاء فمن يرد

أكل الفواكه في الشتاء فيصطل

ج ـ الطنطاوي أديباً وشاعراً:

لم يُجمع شعره إلى الآن، ولم يدرس بما فيه الكفاية، ولم يتعرض له من درس أدبنا العربي في المراجع العديدة. وقد وجدت له قصائد في كتاب «أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»، وله نماذج في كتاب «حياة الشيخ محمد عياد

الطنطاوي»، وله نماذج في كتاب «أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث»، وله قصائد مخطوطة محفوظة بمكتبة لينغراد، ومنها شعر المديح، والرثاء.

د ـ مؤلفات الطنطاوي:

١) «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا» يعتبر أهم مؤلفاته، وهو يتكون من قسمين. الأول هو رواية الرحلة وأخبارها من القاهرة إلى سان بطرسبورغ (بتربورغ). أما القسم الثاني فمكرَّس لروسيا.

٢) «أحسن النخب في معرفة لسان العرب» كتب باللغة الفرنسية وهو كتاب أكسب الطنطاوي شهرة واسعة في كل أوروبا.

٣) ترجمة تاريخ روسيا الصغير لأوسترالوف.

٤) قاموس عربي فرنسي طبع في قازان سنة (١٨٤٩م).

٥) ترجمة الباب الأول من غُلستان لسعدي الشيرازي.

٦) مجموعة الحكايات وملاحظات في تاريخ الخلافة والشرق الإسلامي، وقواعد اللغة العربية (وهو مكتوب بالروسية، ومجموعة أمثال عربية مترجمة للروسية.

٧) ثلاث مقالات باللغه الفرنسية.

٨) له مجموعة من المصنفات الخاصة في العقائد، وفي قواعد اللغة، والبلاغة، والعروض والقوافي، إضافة إلى الجبر والميراث والحساب، وأسماء الناس والخيل الأصيلة، وتدبيج الشروح والحواشي على مصنفات غيره (كتبت في مصر).

هـ ـ مؤلفات عن الطنطاوي:

١) كتاب حياة الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، الذي كتبه أغناطيوس كرتشكوفسكي المنشور عام (١٩٢٩)، والذي ترجمته السيدة كلثوم عودة، ونشره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بمصر عام (١٩٦٤).

٢) بحث للدكتور جمال الدين الشيال، نشر بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية عام (١٩٤٤).

٣) بحث لمحمد عبد الغني حسن، نشر بمجلة الكاتب عام (١٩٤٦).

٤) مقال أحمد باشا تيمور، نشر سنة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. (دمشق). ـ مج ٤، ع ٩. ـ ص ص٣٨٧ ـ ٣٩١ ص بعنوان (الشيخ محمد عياد الطنطاوي).

٥) أحمد تيمور. أعلام النهضة.

٦) مقال للشيخ محب الدين الخطيب، نشره في مجلة الزهراء.

٧) كتاب الأعلام للزركلي (المجلد السادس ص ٣٢٠: محمد عياد الطنطاوي).

٨) كتاب «من تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي ـ أول معلم للعربية في البلاد الروسية» بقلم د. حسين الشافعي، دار «أنباء روسيا» في القاهرة. ٢٠١٣.

هكذا مضى الشيخ الطنطاوي غريباً في بلاد القياصرة، شيخاً أزهريّاً فريداً في حياته، قدَّم علمه لتلاميذه من بني وطنه ومن غيرهم محبّاً راضياً، مقدماً نموذجاً جديراً بالتأمل والدراسة في العلاقة مع الآخر. لقد كان بحق سفيراً فوق العادة للغة والثقافة العربية في روسيا، ونموذجاً مشرقاً للشيخ الأزهري المستنير الذي استطاع أن يقيم حواراً بنّاءً ومثمراً مع الآخر، ويمد جسور التواصل والفهم المتبادل بين الثقافتين العربية والروسية.

٢ ـ كلثوم عودة ـــ فاسيليفا، بروفيسورة من مدينة الناصرة:





تحتل كلثوم عودة ـ فاسيليفا (١٨٩٢ ـ ١٩٦٥) مكانة بارزة بين مؤسسي مدرسة الاستعراب الروسية[١]، ويعود اليها الفضل في تعريف الروس بقدر أكبر بالثقافة العربية، واقامة جسر حضاري بين روسيا والعالم العربي. وكان طريقها في درب البحث العلمي مليئاً بالأشواك، حيث ذاقت الأمرَّين بسبب زواجها من روسي أجنبي ولدخولها معترك الحياة مع زوجها الذي فقدته مبكراً في أصعب فترة من تاريخ روسيا، حين قامت الحرب العالمية الأولى. وقد عانت أيضاً خلال الحرب الأهلية بعد (١٩١٧)، وفترة الحكم الستاليني الدكتاتوري الذي زج بها في سجونه.

ولدت كلثوم في عائلة معروفة في الناصرة مدينة يسوع المسيح في (٢ ابريل/نيسان ١٨٩٢) في دار نصر عودة في حارة الروم[٢]. وتقول في مذكراتها «لقد استقبل ظهوري في هذا العالم بالدموع، والكل يعلم كيف تستقبل ولادة البنت عندنا نحن العرب، وخصوصاً إذا كانت هذه التعسة خامسة أخواتها، وفي عائلة لم يرزقها الله صبيًّا، وهذه الكراهيه رافقتني منذ صغري، فلم أذكر أن والدَيَّ عطفا عليَّ يوماً، وزاد في كراهيتهما لي زعمهما أني قبيحة الصورة، فنشأتُ قليلة الكلام كتومة أتجنب الناس، ولا همَّ لي سوى التعليم، ولم أذكر أحداً في بيتنا دعاني في صغري سوى «يا ست سكوت» أو يا «سلوله». وانكبابي على التعليم في بادئ الأمر نشأ من كثرة ما كنت أسمعه من أمي «مين ياخذك يا سلوله بتبقي كل عمرك عند امرأة أخوك خدامة؟!». وكان ثمة شبحٌ مهولٌ لهذا التهديد، أن عمتي لم تتزوج، وكانت عندنا في البيت بمثابة خادم. فهال عقلي الصغير هذا الأمر، وصرت أفكر كيف أتخلص من هذا المستقبل التعس، لم أر باباً إلّا بالعلم، ولم يكن سوى مهنة التعليم في ذلك الوقت تُباح للمرأة. وقد كانت العادة قبل الحرب أن من يكون أول تلميذ

---

(١) المجموعة الفلسطينية. أكاديمية العلوم الروسية. الإصدار ٢٥ (٨٨). مطبعة «ناووكا». لينينغراد. ١٩٧٤.

(٢) نبيل عودة. **كلثوم عودة نموذج يحتذى للمرأة العربية. صحيفة كل العرب. ٢٠٢٠.**



في المدارس الروسية الابتدائية يتعلم في القسم الداخلي مجاناً، وبعدها يحصل على رتبة معلم. فعكفت على العمل وبلغت مُرادي. والفضل في هذا لأبي، إذ إن والدتي المرحومة قاومت بكل ما لديها من وسائل دخولي المدرسة».

وكانت أمها تقول «العجيب في الأمر أن البنات اللواتي يذهبن إلى المدرسة للتعلم كن إما ذوات عاهات جسدية أو قبيحات، وبكلمات مختصرة، ممن لم يتقدم أحد للزواج منهن». وتضيف كلثوم عودة: التحقت بالمدرسة الروسية (السيمنار) في بيت جالا، وبعد التخرج منها عدت إلى مدينة الناصرة، حيث عملت معلمة في مدارس الجمعية الروسية (المكوسكوبية) في المدينة.

مارست نشاطاً أدبياً بنشر مقالات في مجلات عديدة منها «النفائس العصرية» في حيفا، و«الهلال» في القاهرة، و«الحسناء» في بيروت.

والتقت كلثوم في الناصرة آنذاك لأول مرة المستشرق الروسي الكبير إغناطيوس كراتشكوفسكي الذي زار فلسطين في فترة (١٩٠٨ ـ ١٩١٠) ولعب دوراً كبيراً في مسيرة حياتها لاحقاً. وقد أشار كراتشكوفسكي في كتابه **«مع المخطوطات العربية»** إلى لقائه معها، بينما كتبت عقيلته فيرا كراتشكوفسكايا تقول عن زيارة زوجها إلى الناصرة إلى أنه تعرف هناك إلى معلمتين فلسطينيتين شاركتا في جولات كراتشكوفسكي في المنطقة وإحداهما كلثوم عودة.

تزوجت عام (١٩١٣) من الطبيب الروسي إيفان فاسيلييف، الذي كان يعمل في مستشفى الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الروسية في الناصرة. علماً أن والد كلثوم عارض هذا الزواج لولا تدخُّل عمِّها نجيب عودة، الذي ذهب معها والدكتور إيفان إلى القدس، حيث تم تسجيل عقد قرانهما في الكنيسة الروسية في مسكوبية القدس.

وسافرت كلثوم وزوجها إلى روسيا الذي عمل في فترة الحرب العالمية الأولى في الجبهة، وتطوعت كلثوم نفسها كممرضة، وعندما قامت ثورة أكتوبر التحق زوجها بالجيش الأحمر، وفي عام (١٩١٩) أصيب بالتيفوئيد وتوفي تاركاً زوجته مع ثلاث بنات صغار بعد خمسة أعوام من الزواج. فعملت كلثوم فلاحة

في أوكرانيا من أجل إعالتهم. وبعد هذه الفترة بدأت بتدريس اللغة العربية في كلية اللغات الشرقية في سان بطرسبورغ، وحصلت على شهادة الدكتوراه في عام (١٩٢٨) عن رسالتها حول اللهجات العربية. وقدم كراتشكوفسكي مساعدة كبيرة لها في مسيرتها العلمية لاحقاً. ومارست كلثوم في هذه الفترة الترجمة من الروسية إلى العربية وبالعكس. فترجمت رواية الكاتب العراقي ذو النون أيوب «الأرض واليد والماء» إلى الروسية، وكتاب كراتشكوفسكي عن محمد عياد الطنطاوي إلى العربية.

زارت كلثوم الناصرة في عام (١٩٢٨) للقاء أهلها، وجابت فلسطين، والتقت في القدس المفتي أمين الحسيني، ولدى عودتها إلى موسكو مارست كلثوم التدريس في معهد الاستشراق، ثم انتقلت فيما بعد للعمل في معهد العلاقات الدولية وفي المدرسة الدبلوماسية العليا.

وكتبت المستشرقة ناتاليا لوتسكايا إحدى تلميذاتها عنها تقول: «لقد علمتنا كلثوم عودة الكثير والكثير، فقد غرست في قلوبنا حب الشرق وحب فلسطين. لقد غرست في قلوبنا محبة شعبكم الذي ناضل وما زال يناضل من أجل حريته واستقلاله. لقد تعلمنا الكثير من كلثوم التي كنت ترى دوماً في عينيها الشوق والحنين إلى الوطن..».

وكتب الشاعر توفيق زياد عنها بعد زيارته للاتحاد السوفيتي يقول: «إنها تواصل تدريس اللغة العربية وتعمل في جامعة لينينغراد. إن اسم كلثوم عودة معروف على أوسع نطاق في الأوساط السوفياتية ذات الصلة بالاستعراب والعمل الدبلوماسي والأدب العربي والبلاد العربية عموماً. إن أعداداً كبيرة من المستعربين قد درست اللغة العربية جيلاً بعد جيل على يديها».

وكتب بريماكوف عن دورها في تعليمه اللغة العربية ومساعدتها له في الحصول على زمالة الدراسات العليا بالرغم من وجود مصاعب لديه في تعلم اللغة العربية.

وعانت كلثوم كثيراً لدى إقامة دولة إسرائيل، ويقال أنها وجهت رسالة إلى



ستالين تحتج فيها على اعتراف الاتحاد السوفياتي بالدولة العبرية. وزُجَّ بها في السجن ولم ينقذها سوى تدخل كراتشكوفسكي وكبار العلماء الروس للدفاع عنها.

وكتبت كلثوم لاحقاً: هل كنت سعيدة في حياتي؟ نعم. إني وجدت في نفسي خصلتين هما من أهم العوامل في هناء عيشي: الإقدام على العمل مع الثبات فيه، والمحبة، محبة كل شيء، الناس والطبيعة والعمل. هذه الخصلة الثانية هي التي تساعدني دائما في أحرج المواقف في حياتي. إن تذليل المصاعب لبلوغ المراد هو أكبر عوامل السعادة.

فإذا اقترنت هذه بسعادة من يحيط بنا أيضاً، فهناك هناء العيش حقاً. قضيت خمس سنوات بين أولئك البنات اللواتي كنت أعلمهن. وقد أحببتهن حباً ساعدني على أن أعيش مع كل واحدة منهن بعيشتها الصغيرة، وأن أساعدهن على قدر طاقتي. وقد قابلنني بالمثل، فكنت دائما أرى وجوهاً باسمة ضاحكة، وكن يرافقنني في كثير من نزهاتي... وفي وقت فراغي كنت أزور أطراف المدينة، حيث يعيش الفلاحون، وأتفقد أطفالهم الصغار المهمَلين وقت الحصاد، وكان قلبي يتقطع ألماً عندما أرى تلك العيون الملتهبة بالرمد، فأغسلها بمحلول حامض البوريك، وبعد تنظيفها أنقط محلول الزنك عليها. أظن أن بعض الأطباء الذين لم يجعلهم الزمن آلهة بل ظلُّوا بشراً، يدركون تلك السعادة التي كنت أشعر بها. عندما كنت أرى بعد أيام تلك العيون سليمة صافية، وتلك الأيدي الصغيرة تطوق عنقي. هذا الشعور كثيراً ما كان ينسيني تعبي، عندما كنت في ساحة الحرب في البلقان وفي روسيا.

ألم أكن سعيدة لتعافي كل جندي، أو لتخفيف آلامه! ألم يرقص قلبي طرباً عندما كنت أزور المريض وأراه متجهاً إلى الصحة، وأرى عائلته سعيدة لشفائه؟ بلى إني كنت أحب الجميع، فأتألم لآلام كل فرد وأفرح لفرحه، ولهذا لم تشعر نفسي أنها غريبة، مع أن لي مدة طويلة في الغربة. والأمر الثاني، وأهميته لا تقل عن الأول وهو حسباني كل عمل شريفاً، فلست أخجل من أي عمل كان، ما دام غير ماسٍّ بشرفي ولا بشرف غيري.

آثارها العلمية:

ـ المنتخبات الأولية، لينينغراد (١٩٢٦).

ـ المنتخبات العصرية لدراسة الآداب العربية (١٨٨٠ ـ ١٩٢٥) مكون من جزأين: كتب مقدمة الجزء الثاني كراتشكوفسكي وهو عبارة عن معجم تفسيري.

ـ تصوير المرأة العربية في القصة (١٩٣٠).

ـ تعليم اللغة العربية (لينينغراد ١٩٣٦).

ـ مختارات في المراسلات الدبلوماسية.

ـ ذكرياتي عن العلاقة مع كراتشكوفسكي (الطريق ١٩٥١).

ـ نماذج من الكتابة العربية (١٩٥٥).

ـ ترجمة كتاب الشيخ محمد عياد الطنطاوي من تأليف كراتشكوفسكي.

ـ القاموس العربي (١٩٥٥).

ـ منتخبات للقراءة في البيت (١٩٥٦).

ـ محادثات بالروسية والعربية ج ١ (١٩٥٧).

ـ توفيق الحكيم (مجلة الأدب السوفيتي ١٩٥٧).

٣ ـ بندلي صليبا الجوزي:



ولد بندلي في القدس عام (١٨٧١)، وتلقى تعليمه الابتدائي في دير الإشارة اليوناني الأرثوذكسي، ثم تابع دراسته الثانوية في مدرسة كفتين قرب

طرابلس، ثم أرسل في بعثة دراسية إلى روسيا عام (١٨٩١)، مثلما أرسل بعده ميخائيل نعيمة وكلثوم عودة، حيث درس في البداية علوم اللاهوت في الأكاديمية الأرثوذكسية في موسكو لمدة ثلاث سنوات، انتقل بعدها إلى اكاديمية قازان عام (١٨٩٥)، وانصرف إلى الدراسات العربية والإسلامية واللغات السامية في موسكو ثم في قازان. وقد عين نائب أستاذ للغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة قازان سنة (١٨٩٦). ونال شهادة الماجستير من هذه الجامعة سنة (١٨٩٩). وكان موضوع رسالته «المعتزلة، البحث الكلامي التاريخي في الإسلام»[(١)].

سافر بندلي الجوزي سنة (١٩٠٠) إلى وطنه فلسطين، ولكنه اضطر إلى العودة إلى قازان بسبب مضايقات من السلطات العثمانية له. وعمل أستاذاً مساعداً لمادة الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة قازان بين سنتي (١٩١١ و١٩١٧). وانتقل بعد ذلك إلى كلية الآداب والتاريخ، وحاضر في تاريخ شعوب الشرق الأدنى حتى سنة (١٩٢٠). وفي تلك السنة دعي إلى تولي كرسي اللغة العربية وآدابها في جامعة باكو بآذربيجان، كما أسند إليه كرسي تاريخ الشرق الإسلامي. وقد أصبح بين سنتي (١٩٣٠ و١٩٣٣) رئيساً للقسم العربي من فرع أكاديمية العلوم في آذربيجان. وزار فلسطين وسورية والعراق ومصر وإيران ثلاث مرات لأغراض علمية.

كان بندلي الجوزي يتقن الكثير من اللغات القديمة والحديثة. وقد ألف

---

(١) **الموسوعة الفلسطينية ٢٠١٣:**

❖ من مقالة بعنوان: **بندلي الجوزي** ـ بقلم نصري صليبا الجوزي فلسطين الثورة ١٩٨٤/٢/١١ وقد أعيد نشره في جريدة الاتحاد ١٩٨٤/٣/٢.

❖ مقالة عن كتاب بعنوان **بندلي الجوزي** ـ بقلم جلال السيد. منشورات دار المبتدأ ـ بيروت (الحياة في ١٩٩٤/٥/٣١).

❖ بندلي الجوزي وكتابه **«من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام»** ـ (بقلم د.شوقي أبو خليل) ـ (صوت العرب العددان ٩/٨ آب/أيلول ١٩٩٠ ص ٤٨).

باللغتين العربية والروسية، وترجم عنهما وإليهما، كما نقل عن الألمانية بالاشتراك مع الدكتور قسطنطين زريق كتاب «أمراء غسان» تأليف المستشرق الألماني نولدكه (طبع سنة ١٩٣١). وبالإضافة إلى الكثير من المقالات العلمية في المجلات العربية طبع في القدس سنة (١٩٢٨) الجزء الأول من كتابه «من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام». وقد بحث فيه الحركات الاجتماعية حسب النظريات العلمية ـ الماركسية فنال بذلك شهرة واسعة.

توفي بندلي في مدينة باكو عام (١٩٤٢) تاركاً مؤلفات مطبوعة حوالي (١٥) كتاباً باللغتين العربية والروسية، منها:

١) اللغة الروسية للعرب ـ جزآن (قازان ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩).

٢) المعتزلة، البحث الكلامي التاريخي في الإسلام (قازان ١٨٩٩).

٣) «الأمومة عند العرب» ـ قيللن ـ ترجمة عن الألمانية ـ قازان ـ ١٩٠٢.

٤) تحفة العروس في لغة الروس (قازان ١٩٠٣).

٥) محمد المكي ومحمد المدني (قازان ١٩٠٣).

٦) الأمومة عند العرب (ترجمة عن ديكلف الهولندي) (قازان ١٩٠٣)

٧) تاريخ كنيسة أورشليم (قازان ١٩١٠)

٨) «المطابع الإسلامية في روسيا» ـ بطرسبرغ (لينينغراد) ـ ١٩١١.

٩) «أصل سكان سوريا وفلسطين المسيحيين» ـ ١٩١٧.

١٠) جبل لبنان، تاريخه وحالته الحاضرة (قازان ١٩١٤).

١١) البحث في القرآن (قازان ١٩١٤).

١٢) المسلمون في روسيا ومستقبلهم (قازان ١٩١٧).

١٣) كتاب فتوح البلدان للبلاذري(ترجمة) (باكو ١٩٢٧).

١٤) تاريخ اليعقوبي (ترجمة) (باكو ١٩٢٧).

١٥) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام (القدس ١٩٢٨).

١٦) الشؤون الإنجليزية المصرية (باكو ١٩٣٠).



١٧) «أمراء غسان من آل جفنة» ـ ثيودور نولدكة ـ ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق ـ بيروت ١٩٣٣.

١٨) تاريخ حياة الفارابي وتلخيص نظامه الفلسفي (باكو).

١٩) بندلي صليبا الجوزي ـ دراسات في اللغة العربية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، جمع وتقديم جلال السيد وناجي علوش ـ بيروت ـ ١٩٧٧.

٢٠) «علم الأصول في الإسلام» ـ بلا تاريخ.

٢١) «أصل الكتابة عند العرب» ـ بلا تاريخ.

٢٢) «رسالة في الطاعون ـ أعراضه والوقاية منه» ـ بلا تاريخ.

٢٣) «رحلة البطريرك مكاريوس ابن الزعيم إلى بلاد الكرج» ـ بلا تاريخ.

إن كثافة الإنتاج الفكري لهذا العالم البارز، تدفع إلى ضرورة ترجمة أعماله إلى اللغة العربية، لتعريف الأجيال الجديدة بمؤلفاته وأفكاره، خصوصاً وهو الكاتب الموسوعي الذي تنوعت نشاطاته فامتدت من الأدب إلى التاريخ فالاقتصاد واللغة وفقه اللغة واهتم بالجوانب الاجتماعية والفلسفية[١].

سيرة بندلي الجوزي:

ولد بندلي الجوزي في مدينة القدس[٢] في الثاني من شهر تموز عام (١٨٧١) لأبوين من الطبقة الفلسطينية العاملة. وقد توفيت والدته اثناء الوضع، وتوفي والده الذي كان يعمل نجاراً هو الآخر بينما كان بندلي في السادسة من عمره. لذلك فإن العائلة المؤلفة من أخواته الثلاث، وصليبا الذي يكبره سناً، قاموا بالعناية به وتنشئته.

---

(١) المراجع السابقة.

(٢) أوس داوود يعقوب. **المفكر المقدسي بندلي صليبا الجوزي (١٨٧١ ـ ١٩٤٢م) رائد البحث العلمي الاجتماعي والدراسات التراثية العربية ـ الإسلامية في فلسطين.** ٢٠١٧. Creative Palestinians مبدعون فلسطينيون.

ومما هو جدير بالذكر أن العائلات المقدسية، كانت تسكن داخل أسوار المدينة، في بيوت يجاور بعضها بعضاً، إضافة إلى أنها كانت تتعاون فيما بينها في السراء والضراء.

تقول أخته مريم[١] التي عاشت اكثر من مئة عام: «إن طفولة بندلي كانت هادئة على وجه العموم. ولكنه عندما أصبح قادراً على المشي، كان يحب اللعب والركض. وفي العاشرة أو أقل بقليل، كان يعتزل رفاقه، ويخرج إلى سطح الدار التي تطل على أسوار القدس القديمة، وينتحي ناحية قصية أو يستمتع بقراءة القصص التي كانت رائجة في تلك الأيام، كما كان يحب أن يسهر ليلاً ليتأمل ويفكر».

ليس من السهل، بعد مرور ما يزيد على مائة عام على ولادة المرحوم بندلي الجوزي الإلمام بكل شاردة وواردة عن طفولته وشبابه المبكر، لا سيما أن المصادر، أو جلَّها، بقيت في فلسطين، ولكنني بعد اتصالاتي المتكررة بعماتي الثلاث، وبأخي صليبا ـ ركن العائلة ـ والذي يبلغ الثالثة والثمانين من عمره، ومن خلال مراسلاتي المتواصلة مع ابنة بندلي الدكتورة أنستاسيا المقيمة في موسكو، والأستاذة في جامعتها، والمتخصصة في علم أحياء البحار. ومما وعته ذاكرتي أثناء زيارتي عمي بندلي للقدس عامي (١٩٢٨ و١٩٣٠) أحاول تقديم ما أستطيع تقديمه وأعطي صورة واضحة عن ذلك الرائد الفكري الذي نبّه الفلسطينيين إلى الأخطار المحدقة بهم، والمحاولات التي كانت تقوم بها الحكومة البريطانية من أجل تهويد فلسطين وطرد أهلها.

وقد استعنت ببعض المراجع الهامة، فيما يتعلق بالإرساليات الأجنبية، خصوصا اليونانية والروسية منها، نظراً لأن بندلي الجوزي تلقى علومه الابتدائية والثانوية في معهدين الأول يوناني والثاني روسي.

---

(١) بعض المعلومات عن حياة بندلي الجوزي اخذناها من مقالة لابن أخيه نصري صليبا الجوزي.

تلقى بندلي الجوزي علومه الابتدائية وقسما من الدروس الثانوية في دير «الإشارة الصليبي» المعروف «بدير المصلبة» الواقع في القسم الشرقي من القدس، وهو يوناني أرثوذكسي، وتابع دراسته في مدرسه «قفطين» في طرابلس الشام ـ لبنان. وتمكن من اللغة العربية وهو في السابعة عشرة من عمره.

وكان الطلاب المتفوقون الأذكياء والنوابغ يرسَلون إلى روسيا لإتمام دراستهم الجامعية، تقديراً لهم على اجتهادهم وطموحهم، وهكذا أرسل بندلي إلى روسيا عام (١٨٩١) لاستكمال علومه الدينية في الأكاديمية الدينية في موسكو، ولكن يبدو أنه عزف عن الموضوع. فكتب إلى والده يعلمه بالأمر، ويطلب موافقته وموافقة من بيدهم الحل والربط، على الانتقال إلى «أكاديمية قازان» عام (١٨٩٥) والتي حصل منها على الماجستير في اللغة العربية والدراسات الإسلامية عام (١٨٩٩). وكان موضوع أطروحته «المعتزلة».

عاد بندلي إلى مسقط رأسه في فلسطين عام (١٩٠٠) مصمماً على البقاء فيها، وعندما رأى الحالة المتردية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وما وصلت اليه من فقر وجهل وضغط على الحريات، أخذ ينبه الناس ويقول لهم: «أفيقوا من هذا السبات الذي تغطون فيه، ودافعوا عن حقوقكم المهضومة وحريتكم» مما حدا بالسطلة التركية الحاكمة، أن تجبره على مغادرة القدس الشريف والعودة إلى روسيا.

تزوج بندلي عام (١٩٠٣) من «ليودميلا زويفا» الروسية المولد، فأنجبت له سبعة أولاد، ثلاثةً ذكوراً وأربع بنات ظلوا يحتفظون بجنسيتهم الروسية، وقد اهتم بتربيتهم وتعليمهم، وقد احتلوا مراكز مرموقة في الجامعات السوفياتية.

في عام (١٩٠٩) عاد بندلي إلى الشرق الأدنى في بعثة علمية لمدة سنة كاملة، كان يشرف خلالها على رحلة الطلبة الروس إلى فلسطين حباً في الاطلاع على معالمها الأثرية، ورغبة في معرفة البلاد التي نشأ فيها أستاذهم، ولتعلم اللغة العربية، وعندما وصل إلى القدس، اغتنم شقيقه صليبا الفرصة، ورغب أن



يكون عراب ابنه نصري في المعمودية، بعد أن كان قد مضى على ولادته سنة، وقد أخذه والداه وعماته وأقاربه يفكرون في الاسم الذي سيطلقونه عليه.

«ماذا نسمي هذا الطفل؟» وأخذ كل واحد منهم يدلي بدلوه، ويقترح أسماء يونانية أو روسية كانت سائدة آنذاك. فانبرى بندلي وقال: «إلى متى نظل نسير في ركب الأجانب وعندنا أسماء عربية جميلة رنانة». وسماه نصري، وقد حدا بنصري إلى ذكر هذه الحادثة، الثورة التي كانت تتأجج في صدر عمه بندلي ضد العادات البالية ورغبته في التحرر من التبعية.

يقول نصري: سألني الكثيرون من الأصدقاء والكتاب والباحثين عن سبب تسمية عمي بـ «بندلي»؟ وما معنى هذا الاسم، وما مصدره؟ وهو الذي حرّر الفكر من أوهامه، وأتاح للناس أن تفكر تفكيراً علمياً صادقاً؟

إن بعض الدول الغربية، في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، قد تسللت إلى منطقة الشرق الأدنى، حفاظاً على الطوائف المسيحية ظاهراً، ومحاولة لاقتسام تركة «الرجل المريض» ـ أي الإمبراطورية العثمانية ـ باطناً، فأخذت فرنسا تفرض نفسها حامية للمسيحيين الكاثوليك واللاتين، بينما نصبت روسيا القيصرية نفسها حامية للمسيحيين الأرثوذكس، وراحت تبسط نفوذها وسيطرتها على لبنان وفلسطين».

وبواسطة المدارس والجمعيات الروسية والفرنسية والإنجليزية، والألمانية، والإيطالية، بتنا نتعرف على أسماء أجنبية غريبة مثل: بيير، جان كلود، فرنسوا، جوزفين..كما نقل الروس إلى المنطقة أسماء القديسين والقديسات مثل: قسطنطين، هيلانة، إسبر (أسبيريدون) صليبا، نقولا، بندلي مختصر بندلايمون...الخ وبندلايمون اسم قديس يوناني، بمعنى الرجل «الناصح» من فِعْل نَصَحَ، ينصح.

وفي رحلته إلى الشرق الأدنى هذه تعرّف بندلي إلى العديد من أدباء فلسطين أذكر منهم: إسعاف النشاشيبي، وجميل الخالدي ـ صاحب المخطوطات، وخليل السكاكيني.



كما تعرف إلى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي الذي وقف حياته على البحث والتدقيق في آدابنا العربية، وقد عرفه في بيروت سنة (١٩٠٩).

وفي السنة التي أقام معظمها في فلسطين، ورأى ما رأى من تأخر وجهل وظلم السلطات التركية والإقطاعيين الذين كانوا يسيرون في فلكهم، أخذ بندلي ينشر أفكاراً تحررية، ويهيب بالناس أن يكسروا القيود التي تكبلهم، ويثوروا ضد الظلم والقوى الرجعية الحاكمة.

وكانت رحلته الثانية عام (١٩٢٨)، بعد أن برّح به الحنين إلى مسقط رأسه في فلسطين، وإلى عائلة أخيه وأخواته وأصدقائه، فشد الرحال، وجاء إلى القدس ليقيم في بيت أخيه، والدي، وقد تم آنذاك طبع كتابه الذي أحدث صدى كبيراً، ولا يزال يعتبر مرجعاً صادقاً، وقد تم طبع الكتاب ما يزيد عن عشر طبعات، وأخرجه مؤخراً في عام (١٩٨٣) اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، الأمانة العامة في كل من بيروت ودمشق، والكتاب الذي أحدث هذا الدوي في الأوساط التحررية هو «من تاريخ الحركات الاجتماعية»، وهو الجزء الأول من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام.

كان قد وقف على طبع الكتاب عام (١٩٢٨) صديقه المربي الكبير المرحوم خليل السكاكيني، وقد صدر الكتاب عن مطبعة بيت المقدس ـ القدس، لصاحبيها إلياس وأندريا متحور. وأثناء إقامته في القدس، قام بندلي بنشاط واسع لتوعية الشعب العربي الفلسطيني على ما يحاك له في الخفاء، والمصير الذي ستؤول إليه فلسطين إن لم يفِق أبناؤها، ويعملوا على سد الثغرات الواسعة القائمة وقتئذ، ويهبوا من ذلك السبات العميق الذي كانوا يغطّون فيه.

وعندما كان يزوره زعماء فلسطين على اختلاف نزعاتهم السياسية، ويدور البحث في السياسة البريطانية ـ اليهودية، كان يقوم من مقعده ويتمشى في الغرفة جيئة وذهاباً، وهو يقول بصوت جهوري: «يا جماعة انسوا أحقادكم وأحزابكم واتحدوا، فالصراع مرير، والعدو واع ومنظم تدعمه السلطةالحاكمة».

وقد ذكر المرحوم محمد علي الطاهر، في جريدة «الشورى» التي كانت تصدر في القاهرة، في عددها الصادر في (٢٦ كانون الاول عام ١٩٢٨) ما يلي: «كتب الينا أن العلامة الفلسطيني، الأستاذ بندلي الجوزي قد وصل إلى باكو في روسيا، وأخذ يمارس أعماله التدريسية في جامعة باكو، يشتغل الأستاذ الآن بوضع كتابه الثاني (الحركات الفكرية السياسية في الإسلام) ليكون تتمة لكتابه القيم (في تاريخ الحركات الاجتماعية في الإسلام) الذي طبع في الصيف الماضي، وعلقت الصحيفة إنه ليعز على أبناء فلسطين وأبناء العربية جميعاً أن تتمكن العصابة الصهيونية في فلسطين من حرمان وطن الأستاذ ومسقط رأسه من الانتفاع بعلمه وفضله. لقد عاد الأستاذ إلى دار الغربة حزيناً كئيباً ولا شك، وكيف لا يكتئب ولا يحزن وهو يرى وطنه، وقد أصبح نهباً مقسماً بين أطماع فئة طرأت تحكم غير بلادها، وتتصرف في غير دارها.

وكان بندلي الجوزي قد قام بنشاط واسع ضد الانتداب البريطاني، مما اضطر السلطات المنتدبة إلى الطلب إليه أن يغادر فلسطين.. وواقع الأمر أن عوامل عديدة. حالت دون بقائه في القدس لتأدية رسالة التوعية، منها الانتداب البريطاني، وجل زعماء العرب الفلسطينيين، الذين كانوا يخافون على كراسيهم وسيطرتهم على الجماعات الساذجة التي تأتمر بأمرهم، ويسيرونها حسب أهوائهم وغاياتهم. كذلك لم يسلم من وشايات بعض المتزعمين والجهلة، الذين اعتبروا أفكاره التحررية الثورية بدعة من البدع، عليهم أن يحاربوها، أما الصهاينة المقيمون في فلسطين وفي خارجها فقد أدركوا الخطر بل الأخطار التي سوف تنجم عن وهج هذه الشعلة المتوقدة، والأفكار التحررية، فدسّوا عليه مع الداسّين لدى السلطات البريطانية صاحبة الحول والطول.

وحينما كان يجتمع بالوفود العربية التي كانت تأتي لزيارته والتسليم عليه، كان، رحمه الله، يخوض في تاريخ فلسطين، وشجاعة أبنائها ووقوفهم صفاً واحداً ضد أعداء البلاد والوطن، ثم يردف قائلا:«ليت العرب يعملون ويقللون من الثرثرة والكلام الفارغ، ويوحدون الجهود في سبيل الحفاظ على فلسطين».



ونستشهد بما كتبه الأستاذ محمد الأسعد عن دور الجوزي في وضع أسس الاستشراق، حيث سبق المفكر الفلسطيني أدوارد سعيد بخمسين عاماً[١]:

قبل أن يصدر إدوارد سعيد كتابه «الاستشراق»[٢] (١٩٧٨)، بنصف قرن تقريباً، صدر في القدس عن «مطبعة بيت المقدس» كتاب بندلي الجوزي «من الحركات الفكرية في الإسلام» (١٩٢٨) بالعربية، متضمناً في مقدمته المرتكزات الأساسية لنقد الاستشراق ذاتها التي ارتكزت عليها رؤية سعيد النقدية.

ومن الملاحظ أن لا أحد ممن ترجم أو راجع كتاب «الاستشراق» نوَّه ولو بإشارة عابرة إلى ريادة الجوزي في هذا الحقل استناداً إلى نظرة علمية مبكرة وضعت أساساً لنقد الاستشراق توسّع فيه سعيد لاحقاً، باستثناء حسين مروة ربما في مقدمته للطبعة الثانية من كتاب الجوزي (١٩٨١)، حيث أشار إلى كشف الجوزي «للأساس غير العلمي للمنهج البرجوازي الغربي، وفضحه لاستنتاجاته المعادية للعلم التي تبنى على ذلك الأساس نفسه، ولا سيما الاستنتاجات التي تؤدي مباشرة إلى الأخذ بالنزعة العنصرية في تصنيف شعوب البشرية وتمييز بعضها من بعض، لا بالخصائص التاريخية الواقعية، بل بالخصائص الفطرية الطبيعية، التي يزعمون أن الطبيعة اختصت بها بعض الشعوب بالخصائص العالية، في حين اختصت الطبيعة شعوباً أخرى بخصائص أدنى شأناً في سلم التطور الحضاري».

كما حذّر الجوزي من أخطار التعصّب القومي والديني، فأثار عام (١٩٢٩) مسائل حساسة حول التسامح والتعددية، وكتب: «الأمة العربية تتحفز اليوم للدخول في دور جديد من حياتها التاريخية الطويلة، نأمل أن تستعيد فيها وحدتها القومية المنشودة وتوحّد كلمتها المفقودة، التي فرقتها شتّى العوامل بين داخلية وخارجية، كسياسة أجدادها الاقتصادية الخرقاء، وغارات علوج

---

(١) بندلي الجوزي. **رائد نقد الاستشراق وتقديس الماضي معاً**.. العربي الجديد ـ ١٩ نوفمبر ٢٠١٦.

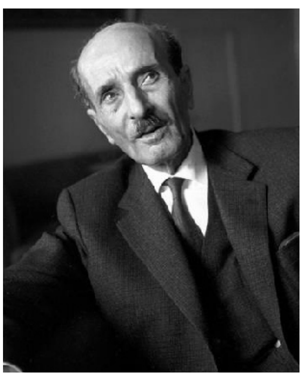
(٢) أدوارد سعيد. **الاستشراق**. **Orientalism**. 1978.

آسيا الوسطى ومنغوليا المتواصلة، وسموم التعصب الديني المبني على الجهل بحقيقة الدين ومطالبه، والعصبية القومية المتطرفة، والنزوع الدائم إلى نظام البداوة وعيشة القبائل المتأصلة في طباعهم أجيالاً، إلى غير ذلك من الأسباب التي لا يخلو منها تاريخ أمة عظيمة كان لها شأن خطير في تاريخ الإنسانية».

٤ ـ ميخائيل نعيمة:

ولد ميخائيل نعيمة في بسكنتا بلبنان عام (١٨٨٩). درس نعيمة في بولتافا في المدرسة الأرثوذكسية الروسية في الفترة (١٩٠٥ ـ ١٩١١)، ولكنه فصل منها لمشاركته في مظاهرة لطلبة السيمينار. وغادر روسيا إلى الولايات المتحدة عام (٢٠١١) ليستقر هناك حتى آخر حياته (١٩٨٨).

أ ـ ذكريات عن ميخائيل نعيمة [٢]:



كتب كراتشكوفسكي ذكرياته عن الكاتب اللبناني الكبير ميخائيل نعيمة[١] قائلاً: كنت خلال رحلتي التي استغرفت عامين في سوريا أحب التردد كثيراً على مدارس الجمعية الفلسطينية الأرثوذكسية الروسية... ومع أن معرفة اللغة الروسية كانت نادراً ما تجد الممارسة في مستقبل نشاط الخريجين إلا أنه كان يبقى لديهم من الثقافة والأدب الروسي أثر لا يمحى مدى الحياة... وعلى ذلك ظهر كثير من الكتاب العرب المعاصرين من الرعيل الأول لا كمترجمين من

---

(١) إ.كراتشكوفسكي. **مع المخطوطات العربية. صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر.** تعريب الدكتور محمد منير مرسي ـ الناشر دار النهضة العربية. ١٩٦٩.



الروسية فحسب بل ومؤلفين مبدعين بالعربية، قالوا كلماتهم لكل العالم العربي... وكان هؤلاء المعلمون (من المدارس الروسية) أكثر الجميع إصراراً على بقائي في سوريا شاعرين بظمئي الشديد إلى اللغة العربية والأدب العربي، وهو أمر كان من النادر أن يروه لدى الزائرين الأجانب. وبدأت أحياناً أنا أيضاً أفكر بجد في البقاء بسوريا.

كان كراتشكوفسكي وغيره من المستشرقين يتابعون كل جديد في الأدب العربي، وساعدته كثيراً الباحثة كلثوم عودة ـ فاسيليفا. ومع ذلك كانوا يجدون صعوبة في التعرف على الكتاب وسير حياتهم. يقول كراتشكوفسكي.. لقد أحزننا هذا بصفة خاصة عندما كان الأمر متعلقاً بأحد النقاد الناشئين الذين شعرنا ـ على الفور ـ بأن لديه جرأة وقوة كبيرة. وخشيت أن أستسلم لانطباعاتي الأولى عنه، إلا أنني شعرت بأن أفكاره تتضمن صدى أفكار النقاد الروس، التي لم تكن معروفة إلا قليلاً في الأدب العربي في ذلك الوقت. واشتدت انطباعاتي هذه عن هذا الناقد العربي الشاب عندما صدرت في عام (١٩٢٣) مجموعة مقالاته تحت عنوان ذي مغزى كبير هو «الغربال»، فإن مؤلفه لم يخش أن يغربل به ذوي المكانة المعترف بهم لدى الجميع. وفي «الغربال» أعيد طبع مقدمة مسرحية «الآباء والبنون» غير المعروفة لنا والتي كانت ترن في عنوانها من جديد نغمة توافق مع الأدب الروسي.

والمؤلف يسمى ميخائيل نعيمة ويشير اسمه إلى أنه مواطن من سوريا، وعاش على ما سمعت في أمريكا... واضطررنا لضم مقالته إلى كتاب القراءة الذي ظهر عام (١٩٢٨) بدون الإشارة إلى تاريخ ولادة الكاتب، خلافاً لأغلب الفصول الأخرى للكتاب. وبعد ذلك بعامين صدر كتاب إنجليزي مماثل لكتابنا عن رواد الأدب العربي المعاصر.

ولقد نفذ صبري عندما رأيت أن ما في هذا الكتاب عن نعيمة ليس إلا المعلومات الناقصة التي يحتويها كتابنا. وكتبت إلى نيويورك إلى إدارة تحرير إحدى الجرائد العربية طالباً منها إخباري بعنوان ميخائيل نعيمة إذا كان

معروفاً. وكانت دهشتي الكبرى عندما وصلني بسرعة جداً خطاب مكتوب باللغة الروسية الخالصة. وكان المرسل يعتذر عن كونه «قديم العقيدة» وأنه يكتب حسب قواعد الكتابة القديمة التي كانت موجودة في روسيا عندما غادرها عام (١٩١١). وكان مرسل الخطاب هو ميخائيل نعيمة الذي سبق له أن كان طالباً في مدرسة بولتافا الدينية ما بين عام (١٩٠٥) وعام (١٩١١).

وفي الحال انكشف لي ذلك الخريج من مدرسة الجمعية الفلسطينية الذي حدثني عنه المعلم العجوز على سطح منزله الصغير في بسكنتا. وفي خطاب نعيمة التالي كان تاريخ حياته مكتوباً بناء على طلبي وعرفت منه أن نعيمة يعيش في أمريكا منذ (كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩١١). وأوضح لي فيما أوضح دور الأدب الروسي في مؤلفاته، وهو ما كنت قد شعرت به من قبل. وذكر لي وكأنه يجيب على أفكاري:

«إن الموضوع الذي كان محبباً لي منذ أن كنت في الناصرة هو الأدب... وفي المدرسة الدينية غرقت في الأدب الروسي. وانفتح أمامي تماماً عالم جديد مملوء بالعجائب. ولقد قرأت بنهم، ولم أترك كاتباً روسياً أياً كان إلا وقرأته... وعندما غادرت روسيا صدمت بركود الأدب في كل العالم المتكلم بالعربية. وأدى هذا إلى انقباض نفسي وكان مؤلماً إلى اقصى الحدود للإنسان الذي تربى على الفن الرفيع لبوشكين وليرمونتوف وتورغينيف، وعلى «الضحكات عبر الدموع» لغوغول، وعلى واقعية تولستوي الجذابة، وعلى الأفكار الأدبية لبيلينسكي (ناقد أدبي). ومن هنا يمكنكم أن تفهموا بسهولة السبب في أن أول خبراتي الأدبية باللغة العربية كانت أساساً ذات طابع نقدي».

ب ـ ميخائيل نعيمة عن كراتشكوفسكي:

كتب نعيمة: «غنطوس الروسي إغناتي يوليفيتش كراتشكوفسكي اتصلت به منذ خمسة أعوام. وتلطف فأهدى إليَّ طائفة من مؤلفاته الروسية في نواحي مختلفة من نواحي الآداب العربية قديمها وحديثها. ولعله في طليعة المستشرقين الذين أعاروا آدابنا الحديثة الاهتمام الذي تستحقه».

... وأما مؤلفاته فكانت تحدثني عن طول باعه وطول أناته، وإخلاصه لنفسه ولموضوعه، وعظيم محبته للغة العربية وآدابها. ولكم سألت نفسي عن العوامل الخفية التي تدفعنا إلى هذا العمل أو ذاك، فتجعل رجلاً كالأستاذ كراتشكوفسكي يخرج عن نطاق بلاده بكل ما فيها من ميادين واسعة للبحث والعمل، وتحمله على درس لغة لا علاقة في الظاهر بينها وبين لغته، ثم تدفعه على تكريس حياته لتلك اللغة وآدابها وهو بعيد عن مواطنها!.

وقد كان بإمكانه لو هو شاء ــ وكان أقرب تناولا عليه ــ أن يكرس حياته للغة بلاده وآدابها. لكنه لم يشأ ولم يفعل. وفي ذاك وحده درس وعبرة!.

ويذكر نعيمة أن كراتشكوفسكي عمل (٢٠) عاماً في جمع المصادر والمواد لتحقيق مخطوطة «رسالة الملائكة» لأبي العلاء المعري.... كنت مذهولاً لا بسعة اطلاع صاحبها وجميل صبره ودقة تمحيصه. هو عمل شاق ليس يأتيه إلا من ملك ناصية موضوعه مثلما ملكها الأستاذ كراتشكوفسكي، وكان شغفاً بعمله مخلصاً لعلمه مثل شغفه وإخلاصه نفسه. وما الكتاب هذا غير أنموذج واحد من آثار الأستاذ الكثيرة.

ويقول نعيمة تعليقا على استخدام كراتشكوفسكي لاسمه بطريقة مصغرة «غنطوس الروسي»:

«ألا ألف أهلاً وسهلاً بك يا «غنطوس». كن منا وفينا نكن من الرابحين. ولا إخالك تكون من الخاسرين. لقد أحببناك كما أحببتنا. وها أنا واحد من أبناء العربية التي فتحت لها قلبك وفكرك أدعو لك بازدياد النشاط. وأحييك بإعجاب من عرف جمال روحك، وأحب لغة أجدادك كما أحببت لغة أجداده». (الخطاب بتاريخ أيار ــ مايو ــ ١٩٣٥).

ج ــ ذكريات ميخائيل نعيمة عن روسيا:

الروح الروسية تتطلع إلى السلام والحب والتسامح وعدم مقاومة الشرّ بالشرّ، والبحث عن الحياة في الموت، والنظام في الفوضى .(كريم راشد). رغم أنّ الأديب اللبناني الراحل ميخائيل نعيمة (١٩٨٨ ــ ١٩٨٩) كان يكتب،

يقرأ ويترجم، بالروسية، الإنجليزية والفرنسية، إلا أنّ إلمامه الواسع بالروسية بالغ الأثر في تشكيل وعيه الإنساني والأدبي، وهو ما يتبدى لنا واضحاً في قصصه، مسرحياته، مذكراته المنشورة وفي حواراته المنشورة أيضاً. فقارئ كتابات نعيمة يحسّ بهذا الأثر الروسي الذي لوّن كلّ الكلمات التي خطّها قلمه بذلك الإحساس العالي بإنسانية الإنسان العادي، المنكسر والمنتصر، البليد والطموح، الحالم والواقعي.. إلخ.. وهي الثنائيات التي تشكِّل الجوهر الأساس لعالم الكتّاب الروس: ليف تولستوي، تورغنيف، دوستويفسكي، ولكتاباتهم التي عرفها نعيمة عن قرب مذ درس اللغة الروسية في الناصرة، وتالياً في روسيا التي ظلت ذكرياتها تلحّ على باله حتى وهو يغمض عينيه عن /٩٩/ عاماً.

ربيع روسيا وفي كتابه «النور والديجور» الصادر في العام (١٩٤٨) كتب نعيمة عن روسيا: كلما ذكرتها فكما يذكر الولدُ البارُّ أباه أو أمه. لن أنسى بلاداً هي روسيا وشعباً هو الشعب الروسي. وفي قصيدة نظمها بالروسية بعنوان (النهر المتجمد) يقول: «سيأتي الربيع أيّها النهر وستتخلص من عقالك، من الجليد، أمّا أُمّتنا روسيا، فمتى تتخلص من جليده»؟.

ويكنّ نعيمة للشعب الروسي محبة عظيمة مرتبطة بذكرياته الروسية، فها هو يخطّ بقلمه انطباعاته عن المدرسة الروسية الجديدة، في بلدته بسكنتا، ما يلي: «ما كان لنا نحن الصغار أن نعرف من أين جاءتنا تلك النعمة وكيف. وكل ما عرفناه أنّ (المسكوب) قوم أشداء وكرماء يحكمهم قيصر تهتز لكلمته جميع ملوك الأرض. وإنّهم يقطنون بلاداً شاسعة وباردة في الشمال. وإنّهم روم مثلنا، ولذلك يعطفون علينا، ويحرصون على الدفاع عنّا وعن ديننا». وعن دراسته في دار المعلمين في الناصرة، وتالياً في روسيا، كتب قائلاً: «كان عالمي رحماً مغلقة بظلمات ضمن ظلمات، فأصبح سريراً صغيراً من خشب يغمره النور في النهار والظلام في الليل».

ويشكل نعيمة حالة خاصة بين الأدباء العرب، فهو يكاد يكون الوحيد الذي اطّلع مبكراً على الأدب الروسي إبّان دراسته في فلسطين، ثم الاطلاع من بعد



على الأدبين الإنجليزي والفرنسي والإفادة منهما. وبهذه الصفات يمكن اعتبار نعيمة أقرب الكتّاب العرب إلى أفكار تولستوي وسلوكياته. فهو قرأ مؤلفات تولستوي في المدرسة الروسية في الناصرة. وتابع قراءة مؤلفاته عندما استقر في روسيا للدراسة. ونقرأ في يومياته أنّه أنهى قراءة «الحرب والسلام». ويوافق تولستوي في رأيه حول نابليون بونابرت، لأنّه يكره الحرب وكلَّ من يشعلها.

ظلام العالم الروحي وتولستوي لنعيمة معلم ومرشد روحي: «أنا مدين لك بأفكار كثيرة، أنارت ما كان مظلماً في عالمي الروحي.. قد أصبحت معلمي ومرشدي من حيث لا تدري». ويكشف أنّه تعرّف، من خلال مؤلفات تولستوي، كيف ضحّى الشعب الروسي بدمه في سبيل الدفاع عن الوطن، وعرف الآلام التي تسببها الحرب، وعرف أنّ الروح الروسية تتطلع إلى السلام والحب والتسامح وعدم مقاومة الشر بالشر، والبحث عن الحياة في الموت، والنظام في الفوضى.

وفي كتابه «أبعد من موسكو ومن واشنطن» (١٩٥٧)، وهو كتاب ألّفه نعيمة على أثر زيارة لموسكو (١٩٥٦)، بدعوة من قبل اتحاد الكتّاب الروس، يُقدِّم نعيمة نظرة مختلفة عن تفكير ساسة موسكو وواشنطن آنذاك إزاء القضايا التي شغلت العالم حينها وقسمته إلى معسكرين. وفي هذا الكتاب عبر ميخائيل نعيمة عن محبته لروسيا والأدب الروسي. وخلال تلك الزيارة قصد مدرسته في بولتافا، حيث درس في مستهل سنوات شبابه، ويقول إنّ لحظة وصوله إلى روسيا كانت أسعد لحظات حياته. ولمناسبة انطلاق رائدة الفضاء فالنتينا تيريشكوفا في مركبتها إلى الفضاء الخارجي، كتب نعيمة مقالة عنوانها «فتاة وفتاة» ضمّها كتابه «هوامش». وعبّر عن سروره للحدث العظيم، وطالب المرأة العربية بالحصول على الحرية. وقارن بين المرأة العربية والمرأة الروسية، التي استطاعت أن تخرج إلى الفضاء الخارجي في حين ما زالت المرأة العربية في بعض المناطق تجد صعوبة في الخروج من بيتها.

٥ ـ مكي أحمد بن حسين المكي:

جاء إلى روسيا في منتصف القرن التاسع عشر. وللأسف لم نعثر على

معلومات تفصيلية عن السيد المكي سوى أنه قام بتدريس اللغة العربية في قازان، ومن ثم في بطرسبورغ، ولم يحدد البلد الذي قدم منه، وعلى الأغلب أنه من المملكة العربية السعودية. وقد ترك أثراً طيباً في تعليم اللغة العربية الفصحى للطلبة الروس، وكتب كتاباً مدرسياً يحمل عنوان: «المحادثة الروسية ـ العربية» وهذا كل ما نعرفه عنه [٢٦].

٦ ـ جرجس ابراهيم مرقص:

من مواليد دمشق عام (١٨٤٦). وهو عالم روسي من أصول سورية، وهو مستشرق وشخصية دينية وكاتب في الشؤون المسيحية (كان اسمه المستعار: الحاج الروسي) كان ثاني عربي يأتي للعمل في روسيا وترأس قسم في معهد لازاريف للغات الشرقية. وحصل على لقب بروفيسور.

ينتمي مرقص إلى عائلة مسيحية أرثوذكسية سورية، حيث كان أبوه إبراهيم قسيساً ومقرباً من بطريرك أنطاكية. حصل على تعليمه بداية في القسطنطينية في مدرسة فيرنير الدينية، ثم تابع في روسيا في الأكاديمية الأرثوذكسية في سان بطرسبورغ وفي كلية اللغات الشرقية في جامعة سان بطرسبورغ.

وفي يوليو (١٨٧١) حصل على الجنسية الروسية بعد أدائه القسم. وأصبح بروفيسوراً في قسم اللغة العربية في معهد لازاريف للغات الشرقية. وبسبب عدم معرفته للغات جديدة وعدم تمكنه من تقديم امتحانات الماجستير بقي في عمله الأولي (٣٠) سنة حتى التقاعد. ولكنه استمر بالعمل حتى عام (١٩٠٦) في أرشيف موسكو الرئيسي التابع لوزارة الخارجية الروسية. وقد صادق المستشرق روزين، وأبدع في تدريس اللغة العربية واللهجة الشامية (السورية).

كان من المتحمسين لحقوق المسيحيين في المشرق العربي، وكتب مقالات عديدة في هذا الاتجاه. واتخذ موقفا ليبرالياً عروبياً ضد هيمنة البطريركية اليونانية والكنيسة الروسية على الكنيسة في سوريا وفلسطين، على عكس موقف أبيه. وذلك بعد ان اتخذت الكنيسة البُلغارية موقفاً ضد البطريركية اليونانية. وكتب مقالة «رأي الأرثوذكس العرب في الخلاف اليوناني البُلغاري» ونشرها في



«النشرة الأرثوذكسية» (١٨٨٠). ونشر كتاب ضده بعنوان «أنصار الأرثوذكسية الجدد» (١٨٩٢). ودعا لانتخاب بطريرك لكنيسة أنطاكيا من أصول عربية.

شارك في المؤتمر العالمي الثالث للمستشرقين في بطرسبورغ، وألقى محاضرة بعنوان: «تأملات حول الحالة المعاصرة للتعليم الشعبي في سوريا». وأصبح مرقص عضواً حقيقياً في جمعية الآثار الروسية. وفي عام (١٩٠٦) غادر مرقص روسيا عائداً إلى وطنه سوريا، حيث وافته المنية بعد مرور خمس سنوات.

آثاره العلمية:

ـ أحوال المسيحيين في الشرق (١٨٧٧).

ـ ترجم من العربية إلى الروسية «معلقة امرؤ القيس» وكتب لها مقدمة مع شرح الكلمات الصعبة وكتب سيرة الشاعر امرؤ القيس (نشر في موسكو عام ١٨٨٢ وفي سان بطرسبورغ عام ١٨٨٥).

ـ فن الخطابة عند الخليفة علي.

ـ تأملات حول الحالة المعاصرة للتعليم الشعبي في سوريا.

ـ ترجم أيضاً كتاب «رحلة البطريرك الأنطاكي مكاريوس إلى روسيا في النصف الأول من القرن السابع عشر» من اللغة العربية (اللهجة الحلبية) إلى الروسية (قراءات جمعية موسكو في التاريخ والتراث الروسي القديم الأجزاء ١ ـ ٥ في ١٨٩٦ ـ ١٩٠٠).

ـ نشر دراسة عن «الأدب العربي الحديث» في المجلد الثاني من كتاب «التاريخ العام للأدب» لمؤلفيه كورش وكيربيتشينكوف) (١٨٨٧)

ـ «مستخلصات من القرآن الكريم والمراجع الإسلامية المعترف بها حول علاقة الإسلام بأتباع الديانات الأخرى» (١٨٧٧)

٧ ـ عبد الله قلزي (فيودور إيليا قلزي):

من مواليد حلب ١٨١٩. ينتمي إلى عائلة أرمنية كاثوليكية. انتقل إلى روسيا عام (١٨٣٧) وحسب المعطيات القليلة جداً عن حياته فإنه درّس اللغة العربية بداية في أوديسا. ثم من عام (١٨٥٦) بدأ تدريس اللغة العربية بشكل

تطوعي لطلبة كلية اللغات الشرقية بجامعة سان بطرسبورغ. وفي عام (١٨٥٩ تعين في الجامعة من خارج الملاك بمرتب قدره ٤٠٠ روبل.

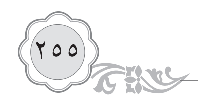
وفي (١٨٦٣) تم تعيينه مدرساً ثابتاً في الجامعة. ودرس اللهجة العربية السورية. وقام بترجمة بعض الأعمال النثرية إلى اللغة العربية وخاصة للكاتب الروسي كريلوف صاحب قصص الاطفال. «الغراب والثعلب»، «السنديان والحبل»، و«اليعسوب والنمل»، و«القط والطهي»، و«الديك وحبوب اللؤلؤ»، و«تشيز وحمامة» وغيرها. ثم تخلى عام (١٨٧١) عن الجنسية التركية ومنح الجنسية الروسية. وفي (فبراير/شباط ١٨٨١) تم إحالته إلى التقاعد، ولكنه استمر في التدريس حتى عام (١٨٨٢). وتباينت الأخبار حول تاريخ وفاته إما عام (١٨٨٦) أو (١٩١٢).

من مؤلفاته: المحادثات الروسية العربية الاجتماعية. أعد لطلبة الكلية الشرقية في جامعة سان بطرسبورغ (١٨٦٨)، وكتاب عن اللهجة السورية المستخدمة في المناطق التركية والإيرانية، وترجمات بعض الأشعار والحكايات الشعبية العربية للأطفال للكاتب الروسي كريلوف.

٨ ـ ميخائيل يوسف عطايا (١٨٥٢ ـ ١٩٢٤):

منذ ١٨٣٧ وميخائيل عطايا يساعد جرجي مرقص في تدريس اللغة العربية في معهد لازريف، وهو من أصل لبناني سوري، ولد في دمشق وترعرع في بيروت منفتحاً ومتأثراً بالثقافة الغربية الأوروبية. أصبح بديلاً لجورجي مرقص الذي رجع إلى دمشق.

ترك بعض الأعمال العلمية في مجال اللغة، ومنها «إرشادات عملية في تعليم اللغة العربية» ولقي كتابه انتشاراً واسعاً في قازان (١٨٨٤) وأعيد طبعه في موسكو عام (١٩٠٠ و١٩١٠) وفي العام (١٩٢٣) نشر كتاباً آخر تناول إرشادات عملية حول لغة المحادثة الشعبية العربية. وفي العام (١٩١٣) أعد قاموس عربي ـ روسي، وكان بالرغم من ضعفه من الناحية العلمية، إلا أنه كان من القواميس المفيدة جداً بالنسبة لعصره.



ومن آثاره العلمية: ترجمة كتاب كليلة ودمنة (١٨٨٩)، وكتاب دراسة اللغة العربية للروس (قازان ١٨٩٨)، ومنتخبات مدرسية من الأدب العربي (١٩١٦)، ومعجم عربي ـ روسي (١٩١٢)، وكتاب تعليم اللهجة السورية (موسكو ١٩٢٣).

٩ ـ فضل الله صروف:

من مواليد دمشق (١٨٢٦ ـ ١٩٠٣). عمل منذ عام (١٨٨٢) في جامعة سان بطرسبورغ. وكان لسنوات طويلة سكرتيراً لأسقف كنيسة أوسبينسكي.

١٠ ـ انطوان خشّاب:

من مواليد طرابلس بلبنان (١٨٧٤ ـ ١٩١٩). جاء بعد صروف ودرس حتى عام (١٩١٩. درّس اللغة العربية في جامعة بطرسبورغ (١٨٧٤ ـ ١٩١٩) وكان يساعده اللبنانيون: رزق الله حسون (١٨٢٥ ـ ١٨٨٠) ناقل قصص كريلوف إلى العربية، وفضل الله صروف (١٨٢٦ ـ ١٩٠٣)، وعبد الله قلزي (١٨١٩ ـ ١٩١٢) (أرمني من حلب)، وقد ألف كتاباً في «نماذج الكتابة العربية» (١٩٠٨)، وكذلك «قواعد اللغة العربية الفصحى» (١٩١٠).

١١ ـ سليم نوفل:

من مواليد لبنان (١٨٢٨ ـ ١٩٠٢). انتدب للتدريس في جامعة بطرسبورغ، حيث تعلم الروسية وتوظف في وزارة الخارجية الروسية، ثم تروس هو وأولاده وأحفاده، وله كتابات معادية للإسلام. ومن مؤلفاته: السيرة النبوية (بالفرنسية) والزواج في الإسلام ـ والملكية في الإسلام.

١٢ ـ توفيق جبران قزما:

من مواليد لبنان (١٨٨٢ ـ ١٩٥٨). انتدب لتدريس اللغة العربية في روسيا وتنقل بين جامعاتها، وعاون كريمسكي بعد الثورة في تعليم العربية في خاركوف.

ومن آثاره: نقد لما كتبه كريمسكي عن عربيٍّ أرخ لدخول الروس في النصرانية (١٩٢٧). ومصنف عن الأسس الأولية لقواعد اللغة العربية (١٩٢٨).

❁ ❁ ❁



رابعاً: المتحف الآسيوي الذي بات معهد المخطوطات الشرقية في سان بطرسبورغ:

برزت مع نهاية القرن السابع عشر ضرورة لمعرفة لغة وعادات بلدان المشرق المجاورة، ما دفع لتأسيس قاعدة مادية لإعداد متخصصين ومؤهلين للعمل في مجالات العلاقات مع بلدان المشرق. وبدأت تتبلور بالتدريج عملية جمع الكتب والمخطوطات باللغات الشرقية التي تتحدث عن عادات وثقافة شعوب المشرق. وقام بشراء الكتب والمخطوطات الشرقية الدبلوماسيون والتجار الروس، وكذلك قدمت كتب ومخطوطات شرقية على شكل هدايا لبلاط القيصر من قبل سفراء الدول الشرقية. وفي بداية القرن الثامن عشر نضجت فكرة تأسيس مكتبة خاصة بالكتب والمخطوطات الشرقية لتلبية احتياجات المختصين ومؤسسات الدولة المهتمة[١].

وأصبحت المجموعة الفنية لبطرس الأكبر (كونستكاميرا KYHCTKaMepa)[٢] منذ عام (١٧١٤) أول مكتبة حكومية في روسيا تجمعت فيها الكتب والمخطوطات باللغات الشرقية والمطبوعة بالطريقة الحجرية أم كيسلوغرافيا. وكما كتب بعد مائة سنة من ذلك التاريخ المستعرب المعروف الأكاديمي دورن بأن بطرس الأول أسس أكاديمية وأولى اهتماماً لدراسة اللغات الشرقية. وفي عهد القيصر بطرس الأول ـ باني روسيا الحديثة في عصره ـ بدأت لأول مرة عملية اقتناء مجموعات كاملة من المخطوطات باللغات الشرقية

(١) انظر موقع معهد المخطوطات الشرقية في سان بطرسبورغ http:// www.orientalstudies.ru/

(٢) Kunstkammer كلمة ألمانية تعني مجموعة فنية (art collection) لأن kunst = الفن بالألمانية، وأطلق الإسم على أول متحف بروسيا. انظر: Vladimir Romanovich Arsenyev, ‘‘Le musee d’Anthropologie et d’Ethnographie Pierre - le - Grand a Saint-Petersbourg’’, Cahiers d’Etudes Africaines, vol. 39 (1999): pp. 681-699.



مثل الصينية والمنغولية والتيبيتية...وكذلك الإسلامية. وخلال القرن الثامن عشر تواصلت عملية إثراء مكتبة البلاط القيصري بالمخطوطات الشرقية التي جلبها (في كثير من الأحيان بتوجيه من القيصر نفسه) الدبلوماسيون والتجار والبعثات الروسية في الخارج. وفي عام (١٧٢٤)، بعد أن دمجت مكتبة بطرس مع مكتبة أكاديمية العلوم الروسية، أصبحت الكتب المكتوبة باللغات الشرقية جزءاً من خزينة الكتب الشرقية في مكتبة أكاديمية العلوم.

وقد كانت نواة معهد الاستشراق هي المتحف الآسيوي، الذي تأسس ضمن أكاديمية العلوم في شهر نوفمبر من عام (١٨١٨). وقد خططت الأكاديمية لشراء مجموعة كبيرة من المخطوطات الإسلامية من الدبلوماسي الفرنسي ج. روسو الذي عمل قنصلاً لفرنسا في مدينتي حلب وطرابلس (وج. روسو هو أحد أقرباء الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو). وقد تم شراء مجموعة روسو على دفعتين: عام (١٨١٩ و١٨٢٥) مقابل (٥١) ألف فرنك تم شراء (٧٠٠) مخطوطة وكتاب.

وتعود إلى رئيس أكاديمية العلوم الروسية سيرغي أوفاروف فكرة تأسيس شعبة شرقية في إطار الأكاديمية، ما انعكس في رسالته التي تقدم بها إلى لجنة إدارة الأكاديمية في (١٥ (٢٧) نوفمبر ١٨١٨): «نظراً لوجود عدد لا بأس به من الكتب والمخطوطات الشرقية في المتحف الإمبراطوري لأكاديمية العلوم ولاقتراب وصول دفعة من المخطوطات من مرسيليا، التي تم شراؤها للأكاديمية بتوجيه من البلاط القيصري من السيد روسو والتي ستغني الخزينة المكتبية... فقد عرضتُ على وزير الشؤون الروحية والتربية والتعليم ضرورة إنشاء قسم خاص في مكتبة الأكاديمية لحفظ المخطوطات والكتب الشرقية وتجهيز مكان خاص لذلك. وذلك القسم الخاص سمي بالمتحف الآسيوي، والذي أعلن عن فتحه أمام جميع الزوار والراغبين في المعارف العلمية دون أية عواقب وشكليات». وبعد مرور سنة، أي في (نوفمبر ١٨١٩)، نشر أول مدير



للمتحف الآسيوي، وهو الأكاديمي خ. فرين، تقريراً عن عمل المتحف في صحيفة «فيدوموستي سان بطرسبورغ».

أما في عام (١٨٤٩)، فقد صدرت مجلة المتحف الآسيوي باللغة الفرنسية، وسميت «ميلناج أزياتيك» (ملاحظات آسيوية). وأصبح المتحف الآسيوي المركز الحكومي الوحيد لحفظ ودراسة المخطوطات الشرقية وشكل ضمانة للمحافظة عليها واستخدامها للأغراض العلمية والعملية.

وأصبح المتحف إلى جانب جامعة قازان المركز الاستشراقي الثاني في روسيا. وهكذا استمر الوضع حتى افتتاح كلية اللغات الشرقية في جامعة سان بطرسبورغ عام (١٨٥٥). اما المتحف الآسيوي فتابع وظيفته في خدمة العلم الاستشراقي الروسي والعالمي باعتباره مؤسسة متخصصة في هذا المجال. وقد كانت تلك المخطوطات في متناول العلماء والمستشرقين ليس في سان بطرسبورغ وحسب، وإنما أرسلت للعلماء في جميع أنحاء روسيا وحتى خارجها.

وهكذا فالمتحف جسّد مهمة تاريخية حضارية أوروآسيوية، وهي أن تكون روسيا جسراً بين الشرق والغرب. والدليل على ذلك هو عقد المؤتمر الدولي الثالث للمستشرقين عام (١٨٧٦) في سان بطرسبورغ بمشاركة من المتحف الآسيوي (المؤتمر الأول انعقد عام ١٨٧٣ في باريس والثاني عام (١٨٧٤ في لندن).

وقد تواردت الكتب على المتحف الآسيوي تباعاً حتى أصبح عام (١٩١٧) أحد أهم الخزائن المتخصصة في المخطوطات والكتب الشرقية النفيسة والنادرة ليكون مركزاً للكنوز الثقافية لشعوب الشرق على ضفاف النيفا.

وقد أشار تقرير حكومي في تقييمه لعمل أكاديمية العلوم الروسية في عشرينيات القرن العشرين بأن: «المتحف الآسيوي كان ومازال عملياً المركز الوحيد الاستشراقي في أكاديمية العلوم». وقد أكدت تجربة وزارة الخارجية السوفياتية والكومنتيرن في بلدان الشرق بأن الاستشراق الأكاديمي والجامعي ضرورة لا بد منها. وكانت هناك حاجة إلى الدراسات المعمقة الشاملة والقواعد والقواميس للغات الشرقية. وفي عام (١٩٢٩) صدر إعلان عن

«مهمات علم الاستشراق» والذي تم التأكيد فيه على ضرورة «الدراسة الشاملة والمعمقة لبلدان الشرق». ولذلك تم تأسيس معهد للأبحاث العلمية في مجال الاستشراق، حيث يستطيع الباحثون فيه الحصول على معلومات كاملة عن تلك المواضيع، بالاستفادة من الخزينة المليئة بالوثائق والمخطوطات الشرقية المتوفرة في المتحف الآسيوي. وفي عام (١٩٢٩) انتخب في عضوية أكاديمية العلوم الروسية مجموعة من المستشرقين، مثل المتخصص في الشؤون الصينية ف.الكسييف، والمتخصص في الشؤون المنغولية ب.فلاديميروف، والمتخصص في شؤون القوقاز ي.أروبيلي، والمتخصص في شؤون الشرق القديم ف.ستروفه. وأنشئ قسم العلوم الاجتماعية في الأكاديمية، ضم مجموعة الاستشراق، وبالتالي فقد ألحق المتحف الآسيوي كلياً بما يحتويه من المخطوطات والكتب وكذلك المتخصصين بمعهد الاستشراق.

وقد خسر المعهد العديد من باحثيه في الحرب الوطنية العظمى وأثناء حصار لينينغراد. وفي عام (١٩٤٣) قامت مجموعة من باحثي المعهد التي هاجرت إلى موسكو بتشكيل مجموعة المعهد الموسكوفية.

تركت التغيرات الكبيرة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بصماتها على سياسات الدول، وأبرزت الحاجة إلى تأمين الدعم العلمي الجديد للسياسة السوفياتية في بلدان الشرق. ولذلك قررت أكاديمية العلوم الروسية في (١ يونيو ١٩٥٠) نقل معهد الاستشراق من لينينغراد إلى موسكو لتأمين الإشراف المباشر عليه من قبل الأكاديمية، أما خزينة الكتب فبقيت في لينينغراد.

في عام (١٩٥١) وبعد النظر في وضع قسم المخطوطات الشرقية قررت لجنة خاصة ما يلي: «إن خزينة المخطوطات التابعة لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية تمثل ثروة وطنية حقيقية، وتعتبر إحدى أضخم المجموعات الشرقية من المخطوطات في العالم، وقد تكون الأولى من حجمها ونوعها».

وفي عام (١٩٥٦) تحوّل قسم المخطوطات الشرقية قي لينينغراد إلى فرع



لينينغراد لمعهد الاستشراق، وعُيِّن على رأسه الأكاديمي ي. أوربيلي. وأصبح أكبر إنجاز للمعهد هو الانتهاء من تصنيف وفهرسة جميع المخطوطات الشرقية في مكتبة المعهد.

وقد حددت أكاديمية العلوم بتوقيع من الأكاديمي الرياضي الكبير م.كيلديش مهمات فرع معهد الاستشراق في لينينغراد كما يلي: «القيام بتوصيف وإصدار علمي للآثار المكتوبة لشعوب الشرق. ودراسة قضايا ضمور المجتمعات الطبقية، وخصائص تطور وتحول التشكيلات الاجتماعية في الشرق، وكذلك تاريخ ولغات شعوب الشرق، وسمات تطور ثقافات تلك الشعوب، وتاريخ فكرها الاجتماعي».

والآن يقوم الباحثون في المعهد بإجراء بحوث شاملة في الشرق القديم والقروسطي: التاريخ وعلم اللغات والديانات والفلسفة والقانون والبحث في المخطوطات النادرة القديمة والكتب المطبوعة قديماً (بينما يركز الباحثون في معهد الاستشراق في موسكو بشكل أساسي على الواقع المعاصر لبلدان وشعوب آسيا وأفريقيا الشمالية ومنطقة المحيط الهادي).

وعند الحديث عن معهد الاستشراق فرع لينينغراد، لا يمكن لنا إلا أن نذكر العمل الموسوعي للباحث والمستعرب المعروف أوليغ بولشاكوف «تاريخ الخلافة»، والذي يقع في (٣) مجلدات، وكذلك كتاب «الإسلام في نطاق الإمبراطورية الروسية السابقة» للباحث والمستعرب س. برزوروف، وكذلك فهرس المخطوطات المسيحية العربية (ف. بولوسين).

وتقدر كمية المخطوطات في خزينة مكتبة معهد المخطوطات الشرقية في سان بطرسبورغ بحوالي (١٠٠) ألف عنوان. وتصنف خزينة المخطوطات في معهد سان بطرسبورغ للمخطوطات الشرقية بأنها واحدة من (٢ ـ ٣) من أضخم مراكز المخطوطات الشرقية في العالم. ففيها مخطوطات بحوالي (٦٥) لغة حية وميتة، وأهمها: الإثيوبية والعربية والأرمنية والجورجية والعبرية والهندية والصينية والمنقوشات الخشبية والكورية والتيبيتية والسنسكريتية والسغدية والتركية والأويغورية واليابانية والمنغولية والطاجيكية والفارسية والكردية



والمنجورية وغيرها من المكتب المطبوعة بالمطابع الحجرية[١].

❁ ❁ ❁

خامساً: معهد لازاريف للغات الشرقية في موسكو[٢]:

من المراكز الاستشراقية المهمة في تاريخ روسيا نذكر معهد اللغات الشرقية في موسكو، الذي يحمل اسم لازاريف نسبة لعائلة لازاريف الأرمنية، التي أسست المعهد في يونيو/حزيران (١٨١٥) في العهد القيصري.

وكانت عائلة لازاريف من أغنى العائلات في روسيا، حيث كانت تمتلك مصانع في منطقة الأورال الروسية، وهي من قام ببناء المعهد وتأسيسه وتوفير الدراسة المجانية للطلبة. وأولى المعهد في برامجه الدراسية بالإضافة إلى الثقافات واللغات الشرقية الاطلاع على الثقافتين الروسية والأوروبية.

ومن دواعي تأسيس المعهد في مدينة موسكو بالذات من قبل عائلة أرمنية، هو:

١ ـ وجود جالية أرمنية كبيرة في موسكو.

٢ ـ وجود الجامعة الوحيدة في روسيا القيصرية في موسكو.

علماً أن أرمينيا لم تكن جزءاً من روسيا في ذلك الوقت. وقد أصبح المعهد مرجعية لتعليم الأرمن، وحظي بدعم الكنيسة الأرمنية.

جسّد هذا المعهد التفاعل الحي بين الثقافات الروسية والشرقية لشعوب القوقاز، وكان مركزاً لتعليم اللغات الشرقية[٣] والاشعاع الفكري وقدم خدمات

---

(١) انظر موقع معهد المخطوطات الشرقية في سان بطرسبورغ. http:// www.orientalstudies.ru/

(٢) **صفحات من تاريخ الدراسات الشرقية في موسكو ـ** معهد لازاريف. معهد الدراسات الشرقية ـ معهد موسكو للعلاقات الدولية (مغيمو).إصدار جامعة مغيمو. اسبيكت بريس. موسكو. ٢٠١٥.

(3) Worrell, William H.,"An Account of Schools for Living Oriental Languages Established in Europe", Journal of the American Oriental Society, vol. 39 (1919): pp. 189-195.



كبيرة في تعليم اللغات الشرقية وخاصة التركية والفارسية المهمة لروسيا القيصرية التي كانت تخوض صراعات مع الإمبراطورية العثمانية.

وقد أشرفت الإمبراطورة يكاتيرينا الثانية على المعهد والإمبراطور بافل الأول. أما الإمبراطور ألكسندر الأول فقد منح المعهد اعترافاً وتصنيفاً من الدرجة الأولى، حيث أعفاه من الضرائب. دعم تطوير المعهد شخصيات عسكرية كبيرة مثل الجنرال غ.بوتيومكين وأ.سوفوروف وغيرهم.

واستورد المعهد في عام (١٨٢٩) مطبعة تطبع الكتب بثلاث عشرة لغة أوروبية وشرقية (الروسية ـ الأرمنية ـ اليونانية ـ الفرنسية ـ اللاتينية ـ الألمانية ـ الإنجليزية ـ الإيطالية ـ المجرية ـ الصربية ـ الجيورجية ـ التركية ـ الفارسية). ومن أهم ما أصدره المعهد الأعمال الكاملة للكاتب الروسي المعروف فيودور دوستويفسكي عام (١٨٦٠. كما أصدر المعهد معاجم في اللغات وكتباً مدرسية وكتباً في التاريخ والأدب.

وتخرج من المعهد شخصيات شغلت مراكز حكومية مهمة مثل وزير التعليم ي. ديليانوف، ووزير الداخلية م.لوريس ـ ميليكوف، وسفير روسيا في تركيا ي. زينوفييف، وعلماء كبار مثل الأكاديمي ف. ليدين، والأكاديمي ر. أفاناسيف.

وتخرج من المعهد أيضاً بطريرك روسيا الكسي الأول. كما درس في المعهد ل. تولستوي وا. تورغينيف وغيرهم من الكتاب والشعراء.

وزار مكتبة المعهد (التي احتوت على ٤٠ الف كتاب منها ١٢ الف عنوان يخص الشرق)، كتاب كبار مثل أ.بوشكين ون. غوغول وب. فيازيمسكي وأ.غريبايدوف وي. ايفازوفسكي، واكتسب المعهد سمعة علمية وثقافية مهمة في تاريخ روسيا.

وعمل في معهد لازاريف للغات الشرقية بعد قيام ثورة اكتوبر (١٩١٧) عدد من المستعربين والشخصيات العلمية المرموقة الذين رحبوا بالثورة مثل: كريمسكي، ومار وبارتولد، وأوربيلي، وغوردليفسكي، وعطايا، وأولدينبورغ وغيرهم.

واعتبر المعهد المرجع العلمي الوحيد في مجال الاستشراق في موسكو.



ولذلك تم بحث مصير هذا المعهد بعد الثورة. وتم تشكيل لجنة من كبار الأكاديميين ليقدموا مقترحات حول مصير هذا المعهد، الذي اكتسب سمعة علمية وتربوية هائلة، وقدم خدمات جلى للسلطة الروسية بإعداد كوادر من المستشرقين. وكان التوجه بتأسيس معهد أو كلية شرقية تهتم بالأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية المعاصرة لدول الشرق بالإضافة إلى التاريخ الحديث والمعاصر لتلك الدول، وكذلك إعداد مختصين في الاستشراق بإمكانهم العمل في مؤسسات الدولة وخاصة وزارة الخارجية. ولكن الحرب الأهلية من (١٩١٧ وحتى ١٩٢٢) أعاقت عمل المعهد ومتابعة الدراسة فيه.

وفي عام (١٩٢٠) تم تأسيس معهد جديد للدراسات الشرقية، سمّي المعهد المركزي للغات الشرقية الحية، وعين مديره ميخائيل يوسف عطايا وهو أستاذ اللغة العربية في المعهد من أصول سورية، بموازاة استمرار معهد لازاريف بمتابعة عمله إلى أن تاسست أرمينيا السوفيتية فأغلق المعهد في أكتوبر (١٩٢١) بقرار من السلطة السوفياتية، كون المعهد كان، قبل كل شيء مؤسسة تعليمية موجهة للأرمن واللغة الأرمنية للجالية الأرمنية المقيمة في روسيا. وعملياً تم وضع معهد لازاريف ببنائه وكوادره تحت تصرف المعهد المركزي للغات الشرقية الحية.

وقد عمل في المعهد مستعربون كبار مثل م.عطايا وخ. بارانوف ـ مؤلف القاموس الروسي العربي المعروف، وم. غفاروف.

وفي اكتوبر (١٩٢١) اتخذت السلطة السوفيتية قراراً بتجميع كل المعاهد والمراكز الاستشراقية في موسكو في معهد واحد يحمل اسم معهد موسكو للدراسات الشرقية. وقد تم وضع مهمات علمية وأكاديمية للمعهد، واشترط لقبول الطلبة فقط لمن يحمل شهادة جامعية ويكون عضواً في الحزب الشيوعي.

وفي عام (١٩٥٤) تم ضم معهد موسكو للدراسات الشرقية إلى معهد موسكو للعلاقات الدولية (مغيمو)، الذي يخرج مختصين مؤهلين للعمل الدبلوماسي.





الفَصْلُ الرَّابِعُ

تاريخ الاستعراب العلمي في روسيا

أولاً: مدرسة الاستعراب العلمي في روسيا:

تتميز المرحلة الأولى من دراسة العلم العربي في روسيا بالبحوث في مجال الاستعراب بالمعنى الضيق للكلمة: دراسة اللغة والأعمال الأدبية والدينية. واختتمت هذه المرحلة في أواسط القرن (١٩م) بنشوء مدرسة الاستعراب الروسية، والتي حظيت بتقدير عالٍ من المستعربين في العالم بأجمعه.

أما دراسة المؤلفات العلمية العربية في الرياضيات والفلك والميكانيكا، فتعود إلى مرحلة متأخرة نسبياً وقد بلغت مستوى متقدماً من التطور في النصف الثاني من القرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين.

وكانت أول مخطوطة عربية رياضية كتب عنها في مجلة رياضيات روسية في عام (١٨٦٥) اسمها: مجموعة أبحاث الرياضيات (مات زبورنيك، Mathematical Collection) وهي من مجلات الرياضيات الكبرى في العالم. وكان ذلك العدد الأول منها وهي مجلة جمعية علماء الرياضيات في موسكو، التي تأسست في تلك السنة. وأعضاء هذه الجمعية كبار علماء الرياضيات الروس مثل العالم تشيبيشيف Chebeshev، وله اكتشافات هامة في معظم فروع الرياضيات. وقد نشرت مقالة في ذلك العدد من المجلة بعنوان «**كتاب التلخيص لعالم الهندسة العربي ابن البنا**»[(١)]. وكان نشرها بناء على طلب من

(١) حول مخطوطة عالم الهندسة العربي ابن البناء. Matematicheski sbornik. Moscow. 1867. V. 2. No 1. Part 2. Pp. 27-43.

=

تشيبيشيف نفسه الذي أوصى بأهمية العلوم العربية وضرورة دراستها ونشرها حتى في مجلات وزارة التربية والتعليم. وهذه الحادثة تدل على الاهتمام الكبير والمبكر والفهم العميق من قبل أعظم علماء الرياضيات في روسيا منذ منتصف القرن (١٩م) لدور وقيمة العلوم العربية وخاصة الرياضيات.

وقد قام المستشرق الشهير ن.ف. خانيكوف (١٨٢٢ ـ ١٨٧٨) بدور هام ومتميز في تطوير الاستعراب الروسي، وهو مؤلف كتاب «وصف إمارة بخارى» و«نبذة عن الأجناس في بلاد الفرس»، وكان قد عمل قنصلاً روسياً لفترة طويلة في مدينة تبريز الإيرانية. كما بذل خانيكوف جهوداً ضخمة لإغناء مجموعات المكتبة العامة في بطرسبورغ والتي أهداها مجموعاته الخاصة. ومن ضمنها مخطوطة «كتاب ميزان الحكمة» للخازني القرن (١٢م)، والتي قام خانيكوف بوصفها لأول مرة ونشر أجزاء منها وترجمة مقاطعها إلى الإنجليزية عام (١٨٥٩).

وعند البحث في تاريخ دراسة العلوم العربية في روسيا، نلاحظ أن البداية كانت على أيدي مستعربين أتقنوا اللغة العربية، ولكنهم غير مختصين بالعلوم الدقيقة كالرياضيات وغيرها، مما أدى إلى التركيز على العلوم الإنسانية (الأدب والشعر العربي والجغرافيا والإسلاميات) من القرن العاشر حتى أواسط القرن العشرين.

ومن أبرز هؤلاء المستعربين الأكاديمي كراتشكوفسكي، الذي أسهم في نشر اللغة والثقافة العربيتين في روسيا، كما قام ببحوث نقدية قيمة في الأدب

= وهي ترجمة عن مخطوطة ابن البناء من اللغة الفرنسية تعود لمؤرخ العلوم: أ.مار. Marre A. Le Talkhis dIbn a-Banna. Atti dellAcad. Pontif. de nuovi Lincei. 1865. Vol. 17. P.1-25.. ومخطوطة ابن البناء. **تلخيص أعمال الحساب**، موجودة في المكتبة العلمية لكلية اللغات الشرقية بجامعة سان بطرسبورغ الحكومية في قسم المخطوطات العربية تحت رقم ٢٣/٧٥٧.



والشعر العربي يرجع إليها الباحثون الروس والعرب في دراساتهم. وقد درس مؤلفات عشرات الأدباء والشعراء العرب وله بحوث ممتازة حول أبي العلاء المعري. كما زار سوريا ومصر ولبنان وكانت تربطه صداقات حميمة مع الأدباء العرب، ومنهم ميخائيل نعيمة الذي درس في مدرسة روسية في سوريا ثم تابع دراسته في روسيا واستقر أخيراً في أمريكا.

وقد ألف كراتشكوفسكي أعمالاً أدبية وتاريخية في الاستعراب خلدت اسمه كأعظم المستعربين في روسيا والعالم.

ومن مؤلفاته نذكر: مع المخطوطات العربية، نبذة في تاريخ الاستعراب الروسي، وتاريخ الأدب الجغرافي العربي وغيرها الكثير.

وقد كانت بداية مدرسة الاستعراب العلمي في روسيا على يد أدولف يوشكيفيتش[(١)] من خلال عمله الرائع: **الجبر عند عمر الخيام**[(٢)] [٢٦].

ونورد بعض المقتطفات من مقالة يوشكيفيتش عن الجبر عند الخيام:

«وصلنا أحد أهم مؤلفات الخيام وهو مخطوطة «مقالات في الجبر والمقابلة» الذي صدر عام (١٠٦٩ ــ ١٠٧٤)، وشملت المخطوطة كل ما عرفه وقدمه العرب في هذا المجال. باستثناء الحلول التقريبية للمعادلات العددية. وتتألف المخطوطة من (٥) فصول (يذكرها يوشكيفيتش بالتفصيل) ويتابع: في المقدمة يعرض الخيام مفهومه عن الجبر ويقول: «إن أحد المعاني التعليمية المحتاج إليها في جزء الحكمة المعروف بالرياضي هو صناعة الجبر والمقابلة

---

(1) Adolf P. Youschkevitch, Les mathématiques arabes (VIIIe-XVe siècles). Traduction de M. Cazenave et K. Jaouiche; préface de René Taton (Paris: Librairie philosophique J. Vrin, 1976).

(٢) أ.يوشكيفيتش. **الجبر عند عمر الخيام.** أبحاث معهد تاريخ العلوم الطبيعية. أكاديمية العلوم الروسية. المجلد ٢. ١٩٤٨. ص٤٩٩ ــ ٥٣٤.

وانظر كذلك: أ.يوشكيفيتش. ب.روزنفيلد. **مخطوطة عمر الخيام في الجبر.** مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ١٩٦٣ المجلد. ١٥. ص ٤٤٥ ــ ٤٧٢.



الموضوعة لاستخراج المجهولات العددية والمساحية». ويتم إيجاد المجاهيل بواسطة تشكيل معادلات وحلها أي المساواة بين مجاميع قوى لمجاهيل ومعها توجد المعاملات العددية المعلومة. وهذه نظرية رياضية كاملة لها موضوعها الخاص ـ المجهول في المعادلات الجبرية.

ويتابع يوشكيفيتش بأن الخيام يقوم بشكل واضح وناجح بتطوير الفكرة الأصيلة والعميقة والمهمة لمفهوم الجبر عند العرب: فالعلم القديم لم يبرز نظرية المعادلات كمادة مستقلة. الجبر عند الخيام ليس فقط مجال خاص ومهم في الرياضيات ولكنه طريقة لحل المسائل العددية والهندسية. فنظرية المعادلات هي وسيلة لدراسة المسائل الهندسية. وفي هذا الاطار فإن تحويل المسائل الهندسية إلى معادلات هو جانب آخر مهم وأصيل في العلم العربي، الذي منح الجبر قيمة علمية جديدة، وربطت بطريقة جديدة بين الجبر والهندسة.

ووفق المهمة الثنائية للجبر وموضوعه، فالمجهول يمكن أن يكون إما مقداراً متقطعاً أي عدد صحيح أو مقداراً مستمراً هندسياً ذي بعد أو بعدين أو ثلاثة على أقصى حد. وفي هذا المفهوم المزدوج لموضوع الجبر انعكس بقوة تأثير الرياضيات الكلاسيكية للقدماء على الخيام. ولذلك تعامل الخيام فقط مع العدد الصحيح والموجب. ولا ينفي الخيام ضرورة معرفة إيجاد المجهول عددياً إذا كان موجوداً كعدد صحيح ويركز على أهمية إيجاد البرهان العددي. علماً أنه لم يورد حلاً كاملاً لبعض المعادلات التكعيبية بالرغم من أن جذورها كلها كانت موجبة.

ولكن البرهان الهندسي يبقى هو الأهم، أي استخدام القطعة المستقيمة الضرورية لحل المسألة بشكل عام إذا كان المجهول مقداراً غير قابل للقياس (اللامنطق). والبرهان العددي لحل المعادلة كما سنرى يكرر خطوات إنشاءات هندسية ويضيف شروط العدد الصحيح في الحل. والانشاءات الهندسية كانت ضرورية أيضاً لأن الخيام لم يجد قواعد للحل العددي للمعادلات التكعيبية.

وبالنتيجة يضع في أساس نظرية المعادلات إيجاد الجذور من خلال تقاطع



المنحنيات وهنا يظهر مرة أخرى تأثير العلم الكلاسيكي الهيليني. وهذا التأثير انعكس في عدم استخدام الخيام للرموز الجبرية. وسيراً على تقاليد القدماء، فإن الخيام يتقبل وجود (٣) قوى متتالية من الواحد حتى (٣) للمجهول. أما القوة الأعلى فيجب فهمها فقط ـ كما قال الخيام ـ بطريقة مجازية.

وفي تلك المقدمة يوضح الخيام بأن الهدف من مقالته هو تحويل الإنشاءات الهندسية للمعادلات التكعيبية إلى منظومة وتصنيف كافة أنواعها (يوشكيفيتش يقول: برأينا كان الخيام يريد ان يحصل على المعادلات القانونية) والبحث عن الحالات التي نصادفها في كل نوع. وهنا يعرض الخيام تاريخ المسألة بطريقته الخاصة أول رسالة للخيام في الجبر كرست للبحث عن حل لمسألة تقسيم ربع القوس بحيث نحصل على تناسب معين بلغة الزوايا: ١/ جب ه = تجب ه/(١ ـ تجب ه)، حيث ه زاوية مركزية، ثم يحولها الخيام إلى معادلة جبرية تحتوي المجهول x: $x^3 + 200x = 20\ x^2 + 2000$.

وقال الخيام: لا يمكن حل هذه المسألة بمساعدة الهندسة المستوية لوجود مكعب في المعادلة، وإنما نحتاج لاستخدام القطوع المخروطية.(مخطوطة الجبر للخيام). ويعلق يوشكيفيتش بقوله: هذه أول مرة في تاريخ الرياضيات نجد ذكراً للمعادلة من الدرجة الثالثة، والتي لا تقبل الحل في الجذور التربيعية أي بواسطة المسطرة والمنقلة. وبالرغم من أن العالم الفرنسي ر. ديكارت ذكر ذلك في عام (١٦٣٧)، لكن الحل جاء بعد مائتي عام في (١٨٣٧) من قبل العالم الفرنسي ب. فينتسيل.

ويورد الخيام (٢٥) صنفاً من المعادلات الخطية والتربيعية والتكعيبية. منها ١٤ صنفاً معادلة تكعيبية لا يمكن تحويلها إلى معادلة تربيعية أو خطية بالقسمة على x او x^2. ولحل معادلة تكعيبية يقول الخيام إنه لم يعثر على أي ذكر لها قبله، يستخدم الطرق الهندسية وهي تقاطع الدائرة والقطع الزائد المتساوي الساقين. وقد تعامل الخيام مع الجذور الموجبة فقط واستخدم الربع الاول من الدائرة حيث الزاوية أقل من ٩٠ درجة.

وتجدر الإشارة إلى أن الحديث عن الاستعراب والتواصل الثقافي بين العرب والروس موضوع واسع وطويل، وله مراحل تاريخية تمتد لعدة قرون، أردنا أن نلقي نظرة عامة أولية على جزء منها. ويحتاج لدراسات وأبحاث وهو غني بالحقائق التي تؤكد الدور الكبير للعلماء الروس في دراسة ونشر الثقافة والعلوم العربية في روسيا، وكذلك عن التأثير الهائل للثقافة العربية والإسلامية في الأدب الروسي منذ مئات السنين وحتى الآن. ومن أبرز العلماء الروس المستعربين نذكر حسب التسلسل الزمني:

خ. فرين، ب. دورن، ي. غوتفالد، أ.بولديريف، و. سينكوفسكي، كاظم بيك، ف. روزن، ف. بارتولد، أ.كراتشكوفسكي، ت. شوموفسكي، أ.يوشكيفيتش، أ.كريمسكي، ب. روزنفيلد، غ.ماتفييفسكايا، غ.مامدبيلي، غ.جلالوف، م.ميدفوي، أ.كوبيسوف، م.روجانسكايا وغيرهم الكثير.

وأخيراً أود أن أدعو جميع الباحثين والقائمين على شؤون التراث العربي والإسلامي أن يولوا اهتماماً جدياً بهذا الكنز من المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبات روسيا والجمهوريات السوفياتية سابقاً، وأن يساعدوا على دراستها وتحقيقها.

ولم تقتصر دراسة المؤلفات الجغرافية العربية في الاتحاد السوفياتي على المخطوطات التي تضمنت معلومات عن بلاد الروس وجمهوريات آسيا الوسطى. فقد قام، بناء على مبادرة من الأكاديمي كراتشكوفسكي، تلميذه ت. شوموفسكي بدراسة ونشر ثلاث كتب في الملاحة البحرية عام (١٩٥٧) لأحمد بن ماجد مرشد البِحار لفاسكو دي غاما، والتي عثر على مخطوطاتها النادرة في لينينغراد.

ويمكننا إيجاز ما ورد عن نشاط العلماء الروس في دراسة العلم العربي حتى أواسط القرن العشرين بالقول: إن توجههم الأساسي تركز على دراسة المؤلفات الجغرافية والتاريخية للعلماء العرب. وقد غابت الأعمال المكرسة لدراسة مؤلفات الرياضيات والفيزياء والفلك[(١)].

(1) Irina Lyuter, The Development of the Soviet School of the History of Arabic Mathematical Science: From the 1940s through the 1960s



وهناك استثناء وهو عمل ب.ن. دورن في دراسة الإسطرلابات المحفوظة في المتاحف الروسية، وكذلك نشر ووصف ن. خانيكوف «**كتاب ميزان الحكمة**» للخازني، وعمل ف. بارتولد عن أولغ بك، وعمل م.ماسون عن «مرصد أولغ بك» (١٩٤١)، والتي وصف فيها المرصد وآلاته بالتفصيل. ويعطي تقييم للمدرسة الفلكية السمرقندية، وجزء من «**المؤلفات الجغرافية العربية**» لكراتشكوفسكي المكرس لأزياج ومؤلفات في الجغرافيا الرياضية.

١ ـ مرحلة مؤرخ الرياضيات يوشكيفيتش:

كانت البداية الحقيقية لدراسة المؤلفات ذات المحتوى الفيزيائي والرياضي في روسيا مترافقة مع العمل على إصدار المؤلفات المنفردة والمجموعات الكاملة لأبرز العلماء العرب، وذلك في أواسط القرن العشرين. وتميزت هذه الفترة الجديدة من الاستعراب الروسي بأن انضم إلى فريق الباحثين في العلوم العربية ليس المستعربون وحسب بل المختصون في مجال العلوم الأساسية: الرياضيات، الفيزياء، الفلك، الفلسفة. وكان العمل قد بدأ سوية في ثلاثة مراكز في روسيا:

أولاً: في موسكو تحت إشراف ومشاركة أ.ب. يوشكيفتش، الذي يعود إليه أول بحث في تاريخ الرياضيات العربية في الإتحاد السوفياتي، وقد أعجب به إ.كراتشكوفسكي. ونشر هذا العمل عام (١٩٤٨)، وكان «**الجبر عند عمر الخيام**» ـ وهو بحث معمق عن رسالة الخيام الجبرية والتي وضعت نقطة البداية لسلسلة كاملة من الأبحاث في تاريخ المخطوطات الرياضية للعلماء العرب والمسلمين في القرون الوسطى.

أما المركز الثاني لتلك الأبحاث فهو باكو، حيث ظهرت فيها، مع نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، سلسلة أعمال غ.مامدبيلي باللغتين الروسية والآذرية المكرسة لأعمال نصير الدين الطوسي ودوره في تطوير الرياضيات والفلك.

وثالث هذه المراكز هو طشقند، وفيها كتب غ.جلالوف مجموعة من



الأعمال عن الإبداع العلمي للبيروني وعن نشاط مرصد سمرقند ونتائج ممثلي مدرستها العلمية.

وفي عام (١٩٥٠) ظهر كتاب ت. كاري ـ نيازوف «المدرسة الفلكية لأولغ بك»[1] الذي احتوى على تحليل دقيق لزيج أولغ بك وعن العاملين معه (على أساس المخطوطات المحفوظة في طشقند) مما سمح برصد مسار تشكل هذه المدرسة. وقدمت في ذلك الكتاب لوحة عامة عن إنجازات العلم في آسيا الوسطى حتى القرن (١٥م).

لقد أصبحت الأعمال المذكورة للعلماء السوفييت في المراكز العلمية الثلاثة، بداية لدراسة وأبحاث مكثفة للمخطوطات العربية في الرياضيات والفيزياء، المحفوظة في المكتبات والخزائن والمؤسسات العلمية في روسيا، مما أدى في النتيجة إلى ولادة مدرسة علمية سوفيتية في مجال تاريخ العلوم الرياضية والفيزيائية في المشرق القروسطي. وقد انخرط في هذا العمل بعد يوشكيفتش ومامدبيلي وكاري ـ نيازوف ومجموعة من الباحثين كمترجمين وشارحين مثل ب. روزنفيلد (١٩٥٢)، م.ميدفوي (١٩٥٨)، غ.ماتفيسكايا (١٩٦٢) وم. روجانسكايا (١٩٦٦)، وكذلك فصيل كامل من مؤرخي الرياضيات والفلك الذين كان معظمهم تلاميذ لروزنفيلد وماتفيفسكايا.

وتنتشر الآن العديد من المكتبات في روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى، والتي تضم في خزائنها مجموعات غنية وقيمة من المخطوطات العربية والفارسية والتركية. ومن أكبر المراكز: معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية ـ فرع لينينغراد ـ (المتحف الآسيوي سابقاً)، ومعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الأوزبكية (طشقند)، ومكتبة لينين الحكومية (موسكو) ومكتبة سلطيكوف شيدرين العامة (لينينغراد)، ومعهد المخطوطات

---

(1) T. Kary-Niyazov, Astronomicheskaia shkola Ulugbeka. 1950. Moskva and Leningrad: Izdatel’stvo AN SSSR.

الجيورجي (أكاديمية العلوم الجيورجية ـ تبليسي)، ومركز المخطوطات القديمة ماتانديرن (يرفان)، ومركز المخطوطات الجمهوري (باكو)، ومعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الطاجيكية (دوشنبيه)، ومكتبة الفردوسي الحكومية (دوشنبيه)، ومكتبات جامعات لينينغراد وقازان.

وقد عثر على بعض المخطوطات الهامة بالنسبة لتاريخ العلوم في مكتبات صغيرة تقع في مناطق بعيدة. ونذكر مثالاً على ذلك المخطوطة المحتوية على جزء كبير من مؤلفات ابن الهيثم (وبعضها نادر) التي وجدت في مكتبة محافظة كويبيشف (حاليا سمارا). وقد صنفت تلك المخطوطات المذكورة في مراكز لينينغراد في فهارس منذ القرن (١٩م). وتم توسيعها إلى حد كبير فيما بعد. وعدا ذلك تم إصدار مجلدات من «فهرس المخطوطات الشرقية» في طشقند، وكذلك نشرت فهارس بيبليوغرافية في تبليسي ودوشنبيه.

وفي عام (١٩٦٦) ظهر فهرس موجز بأهم المخطوطات في الفيزياء والرياضيات باللغتين العربية والفارسية المحفوظة في الاتحاد السوفياتي.

وظهر كذلك كتاب ماتفيفسكايا وروزنفلد «**علماء الرياضيات والفلك وأعمالهم في البلاد الإسلامية في القرون الوسطى**» (ق ٨ ـ ١٧م)[١] الذي يحتوي على معلومات غنية عن عدد كبير من المخطوطات بما فيها المحفوظة في الإتحاد السوفياتي (صدرت مؤخراً طبعة جديدة من تلك الموسوعة باسم روزنفلد وكمال الدين إحسان أوغلو باللغة الإنجليزية في إسطنبول ٢٠٠٤)[٢].

---

(1) Matvievskaia, G. P., and Rozenfel'd, B. A. (1983) Matematiki i astronomy musul'manskogo Srendevekov'ia i ikh trudy (VIII-XVII vv.). V 3 kn. Moskva: Nauka.

(2) Boris A. Rosenfeld and Ekmeleddin?hsano?lu, Mathematicians, astronomers and other scholars of Islamic civilization and their works (7th-19th c.). Istanbul:? IRCICA, 2003.

٢ ـ أهم نتائج مدرسة تاريخ العلوم العربية في روسيا:

سنعرض أهم النتائج الأساسية لأبحاث العلماء السوفييت في دراسة المخطوطات العلمية العربية منذ عام (١٩٥٠).

تجرى أبحاث على نطاق واسع في تاريخ الرياضيات العربية (نقصد بالرياضيات العربية كل ما نشر من أبحاث رياضية باللغة العربية في الشرق الأوسط وإيران وآسيا الوسطى وما وراء القوقاز والمغرب العربي).

درست أعمال العديد من علماء الرياضيات والفلك بدءاً من الخوارزمي، ومروراً بعلماء كبار مثل أبناء بني موسى، وثابت بن قرة، وأبو كامل، وإبراهيم بن سنان، وأبو الوفاء، والكرجي، وابن الهيثم، والفارابي، والبيروني، وعمر الخيام، ونصير الدين الطوسي، وغيرهم، انتهاءً بممثلي مدرسة سمرقند الكبار: الكاشي، الرومي، أولغ بك، القوشجي.

وظهرت مجموعة كبيرة من الترجمات [٢٦]. ورأت النور لأول مرة كثير من المخطوطات العربية في ترجمات روسية أو شروحات بعد أن طواها النسيان لمئات من السنين، كل ذلك أدى لإثراء معارفنا عن الرياضيات العربية ودور شعوب آسيا الوسطى فيها، وساعد في نهاية الخمسينات وبداية الستينات في إجراء تعميم للمواد المدروسة، وانعكس ذلك قي سلسلة مقالات ليوشكيفتش (١٩٥١، ١٩٥٨، ١٩٥٩) في كتابه «**تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى**» (١٩٦١)، وكذلك في العمل المشترك ليوشكيفتش وروزنفلد «**الرياضيات في بلاد المشرق في القرون الوسطى**» (١٩٦٠) [٢٦، ٢٧].

ومن النتائج البحثية المهمة في هذا المجال: قام يوشكيفتش باسترجاع محتويات المخطوطة الحسابية للخوارزمي، والذي كان محفوظاً جزئياً في الترجمة اللاتينية من القرن (١٢م). وقام ميدوفوي بدراسة طرق الحسابات العملية باستخدام الكسور العادية الواردة عند أبي الوفاء وكذلك كتاب النسوي (١٩٦٣).

وتمت دراسة نظرية النسبة المركبة عند ثابت بن قرة، وتطور مفهوم العدد الحقيقي الموجب أثناء دراسة مخطوطات الخيام. وقد عرضت نظرية



النسبة والدراسات المتراكمة حول مفهوم العدد، بشكل شامل في كتاب ماتفييفسكايا (١٩٦٧)[١]. وأولت في بحوثها اهتماماً خاصاً لدراسة حسبنة نظرية إقليدس للجذور التربيعية في أعمال العلماء العرب القرن (٩ ـ ١٣م). وخاصة في أعمال البغدادي (ق ١٠ ـ ١١م) الذي كان سابقاً لديكارت.

ودرس الباحثون الروس موضوع ظهور مبرهنة ثنائي الحد في الأدبيات العربية عند الطوسي، والكاشي، وغيرهم وطرق استخراج الجذور بأسس صحيحة موجبة (يوشكيفنتش، روزنفلد، أحمدوف). وسمحت أبحاث رشدي راشد (باريس) بدراسة هذه المسألة في مراحلها المبكرة.

أما النظرية الهندسية للمعادلات التكعيبية عند الخيام فدرست من قبل يوشكيفيتش وروزنفلد وكذلك الإنشاءات الهندسية لأبو الوفاء والفارابي.

وقام العلماء السوفييت بإعداد أبحاث معمقة وشاملة عن تطور نظرية المتوازيات (المسلمة الخامسة لاقليدس) والتي تجلت في محاولات إثبات مسلمة إقليدس أو استبدالها بإقتراح (بفرضية) أكثر وضوحاً وذلك في مخطوطات ثابت بن قرة، وابن الهيثم، وعمر الخيام، والطوسي، وغيرهم (يوشكيفيتش وروزنفلد، مامدبلي وغيرهم).

كما اكتشفت منذ فترة مناقشات هامة للخطوط المتوازية مرتبطة بالمصادرة الخامسة، في كتاب «القانون المسعودي» للبيروني (ب. بولغاكوف. أ.أحمدوف). وقد أثبتت هذه الأبحاث بأن علماء الرياضيات العرب سبقوا علماء القرن ١٨م في بعض الأفكار والطرق الأساسية. وأولى العلماء السوفييت اهتماماً خاصاً لمسائل تاريخ المثلثات المستوية والكروية، والتي كانت ضرورية لعرض الأزياج.

أما دراسة «مخطوطة الرباعي التام» للطوسي، والمؤلف المجهول الذي يسبقه زمنياً رسالة في تعريف الوتر في الدائرة، وفصول من «القانون المسعودي» حول

---

(١) غاليناماتفييفسكايا. **دراسات حول العدد في الشرق القروسطي**. دار فان. طشقند. ١٩٦٧.



حساب المثلثات للبيروني، و«المجسطي» للفارابي، والمخطوطات المثلثية للكاشي والرومي، فقد سمحت بتفسير بعض مسائل الجمع وتاريخ حساب المثلثات (وخاصة مبرهنة الجيوب وجيوب التمام وطرق تعريف الدوال المثلثية)، وكذلك طرق حساب المقادير المثلثية، وتشكيل الجداول في المشرق القروسطي (يوشكيفيتش، روزنفلد، روجانسكايا وغيرهم)، وتقترن بالأعمال المنجزة في تاريخ حساب المثلثات، وسلسلة من البحوث المتعلقة بظهور مفهوم الإرتباط الدالي وخواصه العامة، وكذلك طرق دراستها (روزنفلد، روجانسكايا وغيرهم)[١].

كما حظيت باهتمام خاص دراسة أفكار وطرق اللامتناهيات في الصغر في الرياضيات العربية. فدرست مخطوطات ثابت بن قرة وابن سنان حول تربيع القطع المكافئ، وتكعيب المجسم المكافئ كما درست مخطوطات ابن الهيثم حول قياس حجم الكرة والأشكال المنتظمة، وأفكار الطوسي في اللامتناهيات في الصغر التي طورت أسلوب أرخميدس في طرق اللامتناهيات في الصغر (روزنفلد، قبيسوف،جمال الدباغ وغيرهم). بالإضافة لذلك فقد لوحظت في الرياضيات العربية اتجاهات أخرى لتطوير طرق اللامتناهيات في الصغر المرتبطة بدراسة خواص الارتباطات الدالية (ابن قرة، البيروني)، والتي استخدمت بنجاح في دراسة مسائل الميكانيك السماوي في ذلك الوقت.

٣ ـ دراسة الفلك والطب والفلسفة والميكانيكا العربية:

حظي علم الفلك العربي بإهتمام كبير من مؤرخي العلوم الروس. وترتبط المرحلة الجديدة من البحوث في تاريخ الفلك بدراسة وإصدار المؤلفات الفلكية لكبار العلماء العرب: البيروني، والفارابي، والخوارزمي، والفرغاني، والطوسي، والشيرازي، وابن عراق، وغيرهم. وساهمت تلك البحوث بكتابة تاريخ الفلك الكروي والجغرافيا الرياضية في المشرق القروسطي، سواء منها المسائل

---

(١) مريم روجانسكايا. **العلاقات الدالية عند البيروني**. أطروحة الدكتوراه في تاريخ العلوم. معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. أكاديمية العلوم الروسية. موسكو. ١٩٦٧.

الخاصة (تاريخ ظهور مبرهنات وطرق خاصة مثل إسقاط الكرة على المستوى)، أو المسائل العامة لحساب الإحداثيات ووسائط (بارامترات) حركة الأجسام السماوية المرتبطة بتاريخ الطرق الرياضية المستخدمة في الفلك. ودرست أيضاً فهارس (دلائل) النجوم للبيروني والخيام، ومسائل التعاقب الزمني وتاريخ التقويم (مامدبيلي، روزنفلد، روجانسكايا، بولغاكوف، أحمدوف، سيرغييفا، ماتفيفسكايا، وغيرهم).

أما تاريخ الآلات الفلكية، فقد أولي اهتمام جيد (بولغاكوف، روزنفلد)، وخاصة الإسطرلابات ونظرياتها الرياضية (أ.طاغي ـ زادة). وكرست سلسلة من البحوث لمسائل الميكانيك والفيزياء والكيمياء والطب وفلسفة الطبيعة ومسائل فلسفية بحتة عن العلم العربي. وفي (١٩٦٢) قام المستشرق السوفيتي المشهور أ.بيلينتسكي، وعالم فيزياء البلوريات والمختص في علم المعادن غ.ليملين، بإجراء بحث رائع في «علم المعادن» عند البيروني وكتابه عن الأوزان النوعية، وبذلك فقد وضعا الأساس لسلسلة كاملة من البحوث في هذا الاتجاه.

ولقد درست مسائل السكون (ابن سينا، ابن قرة)، ومسائل الميكانيك بشكل عام في المشرق القروسطي (أحادوف م.وت. ستلروف وغيرهم)، وأنجزت م.روجانسكايا في عام (١٩٧٦) أول دراسة شاملة في هذا المجال (روجانسكايا) [٤١]، حيث درست أحد الأعمال الأساسية وهو «كتاب ميزان الحكمة» للخازني[١]، وكرست روجانسكايا جل دراستها للمسألة الأساسية في علم الحركة في المشرق القروسطي ـ النموذج الحركي الهندسي لحركة الأجسام السماوية، مثل طريقة بطلميوس وطرق البطلميوسيين الجدد.

وأجريت في الإتحاد السوفياتي أبحاث عن أعمال الرازي، و«القانون في الطب» لابن سينا، و«علم الصيدلة» للبيروني. واهتم العلماء بالمراسلات العلمية بين البيروني وابن سينا حول مؤلف أرسطو الذي نشره يو. زفادوفسكي. ودرست

---

(١) عبد الرحمن الخازني. **ميزان الحكمة.** م.روجانسكايا. ناوكا. موسكو. ١٩٩١.



المؤلفات الفلسفية للفارابي، وابن سينا، والخيام، وابن رشد، وتصنيف العلوم عند الفارابي وابن سينا. كما ظهرت أعمال فيها تعميم في تاريخ الفلسفة في آسيا الوسطى. وكتبت السير العلمية لكل من البيروني (بولغاكوف، روزنفلد، روجانسكايا، سوكولوفسكايا)، والخيام (روزنفيلد، يوشكيفتش)، والفارابي (قوبيسوف) وغيرهم.

وبذلت جهود ضخمة في الاتحاد السوفياتي لنشر أعمال كبار العلماء العرب، ففي (١٩٥٤ ـ ١٩٦٠) أصدر معهد الاستشراق في طشقند «قانون الطب» لابن سينا في خمسة مجلدات[١]. أما في عام (١٩٥٧ ـ ١٩٧٦) صدرت سبعة مجلدات «الأعمال المختارة» للبيروني[٢]: «تعاقب الزمن»، «الهند»، «جيوديزيا»، «علم الصيدلة»، «القانون المسعودي في جزأين»، و«علم النجوم»، وكان ذلك بناء على مبادرة من المؤرخ الكبير وعالم الآثار في آسيا الوسطى س. تولستوف. وقام بترجمة «تعاقب الزمن» المستعرب السوفيتي الكبير م.أ.سالييه، وهو نفسه الذي ترجم قصص «ألف ليلة وليلة».

أما مترجم «جيوديزيا» وأحد مترجمي «القانون المسعودي» فهو تلميذ كراتشكوفسكي المستعرب السوفيتي الشهير بولغاكوف الذي أصدر لأول مرة النص الكامل «للجيوديزيا» باللغة العربية. وفي موسكو نشر «علم المعادن» ورسالة في الوتر للبيروني. وصدرت في طشقند المراسلات العلمية بين البيروني وابن سينا، وكذلك «المخطوطات الجبرية» للخوارزمي، و«كتاب الأسرار» للرازي. أما في باكو فقد نشر المخطوط المثلثي للطوسي.

وقام معهد الفلسفة والقانون التابع لأكاديمية العلوم الكازاخية (ألما ـ آتا) بنشر خمسة مجلدات من مؤلفات الفارابي[٣]: المخطوطات الفلسفية والرياضية

---

(١) ابن سينا. **القانون في الطب** في خمس مجلدات. معهد الاستشراق في طشقند. اكاديمية العلوم في اوربكستان. ١٩٥٤ ــ ١٩٦٠.

(٢) البيروني. **القانون المسعودي**. دار لادومير. ١٩٩٥. موسكو

(٣) الفارابي. **الرسائل في العلوم الطبيعية**. أكاديمية العلوم في كازاخستان. ١٩٨٧. دار ناوكا. =



والإجتماعية وفي الأخلاق ومخطوطاته في المنطق وشروحاته حول «المجسطي» لبطليموس. وطبعت في موسكو «رسائل الخيام»، ومخطوطات الكاشي الرياضية، وعدد من مخطوطات ابن قرة وابن الهيثم والطوسي وأولغ بك، وصدرت مؤلفات ابن قرة عام (١٩٨٤)، وكتاب ميزان الحكمة «للخازني» مع تعليقات مفصلة عام (١٩٨٣) وصدرت مخطوطات للبيروني و«المناظر» لابن الهيثم وغيرهم.

أعطي في فترة العهد السوفياتي اهتمام واسع لإعداد المختصين الشباب في مجال الاستعراب في موسكو وفي مدن أخرى من الاتحاد السوفياتي معظمهم في موسكو وآسيا الوسطى والقوقاز. أما الآن فتعاني مدرسة الاستعراب العلمي في روسيا من صعوبات وعقبات كثيرة، يأتي في مقدمتها شح المخصصات المالية للبحث العلمي، وعدم تشجيع الجهات العليا المسؤولة لهذه الأبحاث لأسباب مختلفة لا يمكننا التوقف عندها في هذا البحث.

ولا يمكنني أخيراً إلا أن أضيف أن من واجبنا كعرب ومسلمين أن نمد يد التعاون والدعم المادي والمعنوي لهؤلاء العلماء الروس، الذين ربطوا حياتهم ومصيرهم وقضوا أجمل سنوات عمرهم مع المخطوطات العربية، سواء بالقيام بترجمتها أو دراستها ونشرها، وقد قالوا كلمة منصفة وعادلة بحق تراثنا، وكل ذلك يستحق منا كل الاحترام والتقدير لهم.

❁ ❁ ❁

ثانياً: إسهام المستعربين الروس في دراسة المخطوطات العلمية العربية:

كما ذكرنا أعلاه فإن دراسة المخطوطات العلمية العربية في روسيا بدأت في اواسط القرن الماضي وذلك مع نشر أول دراسة معمقة لِـ يوشكيفيتش [٢٨] عن الجبر عند عمر الخيام (١٩٤٨). ومن المعروف بأنه تأسست مدرسة كاملة سوفياتية لدراسة تاريخ الرياضيات العربية والإسلامية توزعت فروعها في مدينة

= وكذلك: الرسائل الرياضية للفارابي. تحت إشراف إ. قبيسوف أكاديمية العلوم في كازاخستان. دار «ناوكا»، ألما ـ أتا، ١٩٧٢



موسكو ولينينغراد (سان بطرسبورغ حالياً) وقازان وطشقند وباكو وألما ـ أتا ودوشنبيه وغيرها. وعمل العشرات من العلماء السوفيات المختصين في اللغات والعلوم الدقيقة على ترجمة مخطوطات عربية نادرة، محفوظة في مكتبات تلك المدن، في الرياضيات والفيزياء والطب والفلك والهندسة والصيدلة وغيرها.

وقد تم التركيز في روسيا على دراسة الرياضيات في المشرق العربي، مع اهتمام ضعيف برياضيات المغرب العربي والأندلس لأسباب تتعلق قبل كل شيء بندرة المخطوطات المغاربية والأندلسية في المكتبات الروسية. ومن جانب آخر كان هناك احتكاك بين المستعربين الروس وزملائهم في المشرق العربي.

أما دراسة الرياضيات في المغرب العربي والأندلس، فقد بدأت لأول مرة في روسيا عام (٢٠٠٢) من قبل كاتب هذه السطور بالاشتراك مع الباحثة الروسية مريم روجانسكايا. ويرجع ذلك إلى العثور على مخطوطة في مكتبة معهد المخطوطات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية ومخطوطة أخرى في المكتبة العلمية لكلية اللغات الشرقية في جامعة سان بطرسبورغ وهما: «تلخيص أعمال الحساب» لابن البنا المراكشي، و«كشف الأسرار عن علم حروف الغبار» للقلصادي. وتمت ترجمة مخطوطة ابن البنا بكاملها إلى الروسية مع التعليق التاريخي والرياضي حول محتوياتها، وكذلك أنجزت ونشرت في مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية بموسكو، ترجمات من العربية إلى الروسية مع دراسات تاريخية ورياضية لأجزاء من مخطوطات الحصار وابن غازي الفاسي والقلصادي ويعيش الأموي وابن الهائم وابن الياسمين وغيرهم [انظر المراجع ٢٧ ـ ٣٠].

وتدل دراسات الباحثين الروس حول تاريخ الرياضيات العربية، على غزارتها وعمقها. وهي تعكس المقاربة الموضوعية للإسهام العربي والإسلامي في تطوير العلوم وتأثيره في نهضة العلوم في أوروبا. وللأسف فهذه الأبحاث العلمية والنتائج القيمة التي توصل إليها هؤلاء المستعربون الروس، ما تزال معظمها مجهولة بالنسبة للقارئ العربي وحتى الأوروبي.

وقد قام المستعربون الروس بإجراء بحوث موسعة وعميقة لأعمال العشرات من العلماء العرب والمسلمين في الرياضيات والميكانيكا والفلك مثل الخوارزمي والبيروني وثابت بن قرة وابن سينا وعمرالخيام وعبد الرحمن الخازني ونصير الدين الطوسي وأبي كامل المصري وأبي الوفاء البوزجاني وجمشيد الكاشي وبهاء الدين العاملي وابن عراق وابن البغدادي وعبد الرحمن الصوفي وكوشيار بن لبان الجيلاني وغيرهم الكثير. ومن أبرز المستعربين الروس الذين تركوا بصمات في دراسة تاريخ الرياضيات العربية نذكر: أ.يوشكيفيتش، وب. روزنفلد، وغ. ماتفييفسكايا، وم. روجانسكايا، وغ. مامدبيلي، وغ. جلالوف، وم. ميدفوي، وبولغاكوف، وأحمدوف، وغيرهم.

وفي فصول سابقة سلطنا الضوء على بعض الصفحات المشرقة من تاريخ الاستعراب في روسيا. أما في هذا الفصل سنركز على المسيرة العلمية الحافلة للمستعربة الروسية الشهيرة غالينا ماتفييفسكايا (مواليد ١٩٣٠) كأنموذج ساطع على دور المستعربين الروس في إحياء التراث العلمي العربي والإسلامي في القرون الوسطى.

فقد أمضت ماتفييفسكايا ثلاثين عاماً في ترجمة ودراسة المخطوطات العلمية العربية والإسلامية ونشرت مئات الدراسات والبحوث العلمية المعمقة. ونذكر من أعمالها: تاريخ دراسة المقالة العاشرة لإقليدس[(١)] و«دراسات حول العدد في المشرق الإسلامي في القرون الوسطى»، وموسوعة «علماء الرياضيات والفلك المسلمين وأعمالهم في القرون ٨ ـ ١٧» (٣ أجزاء). ولها دراسات عن الخوارزمي والبيروني والفارابي وابن لبان وابن عراق ونصير الدين الطوسي وابن البغدادي وابن قرة وابن سينا والصوفي والقزويني وأبي عبد الله الخوارزمي (صاحب مفتاح العلوم) والعاملي وغيرهم [٢٦ ـ ٣٣].

(١) المقالة العاشرة من **كتاب أصول الهندسة** هي أعظم ماكتبه إقليدس ويعتبرها الباحثون أكثر أعماله اكتمالاً وشمولاً لموضوع المقادير الصماء وتصنيفها وهي أكبر مقالاته وأصعبها على الفهم.



إن هذه العالمة الروسية الجليلة، التي تركت بصمات واضحة في دراسة المخطوطات الرياضية والفلكية العربية، تتميز بالتواضع الشديد كعالمة كبيرة، أعتبر أننا كعرب ومسلمين مدينون لها. وليس صدفة أنها كثيراً ما تستشهد بعبارات العالم المسلم الكبير محمد بن موسى الخوارزمي في مقدمة كتابه الشهير: «كتاب الجبر والمقابلة»، حيث قال:

«ولم تزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب، مما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة، نظراً لمن بعدهم واحتساباً للأجر، بقدر الطاقة ورجاءَ أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره وذكره ويبقى لهم من لسان الصدق ما يصغُر في جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة ويحملونه على أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه. إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجاً قبله، فورّثه من بعده؛ وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ما كان مستغلقاً، فأوضح طريقه وسهّل مسلكه وقرّب مأخذه؛ وإما رجل وجد في بعض الكتب خللاً فلمّ شعَثَه وأقام أوده وأحسن الظن بصاحبه غير زادٍ عليه ولا مفتخرٍ بذلك من فعل نفسه»[(١)].

وتقول ماتفييفسكايا في مقدمة كتابها عن دور العلماء العرب والمسلمين في التقدم العلمي البشري [٣٤ ـ ٣٦]: بدأت، مع تزايد الاهتمام بالمخطوطات العربية ودراسة محتوياتها منذ أواسط القرن التاسع عشر، تتغير الفكرة الخاطئة التي تفيد أن فضل علماء المشرق يقتصر على حفظ التراث اليوناني والهندي ونقله إلى أوروبا. فقد تبين أن علماء الإسلام قدموا إسهامات

---

(١) كتاب الجبر والمقابلة لمحمد بن موسى الخوارزمي. من كتاب للدكتور رشدي راشد حول الخوارزمي:

Roshdi Rashed, Al-Khwarizmi: Le commencement de l’algèbre (Paris: Hermann, 2007).

الترجمة العربية: **الخوارزمي: رياضيات الخوارزمي، تأسيس علم الجبر** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠).



واكتشافات علمية ونظريات جديدة. وهناك نتائج علمية عميقة تركت أعظم الأثر في أعمال علماء أوروبا في القرون (١٣ ـ ١٦م).

لقد قدم العلماء العرب ـ كما تؤكد ماتفييفسكايا ـ أجوبة على أسئلة العصر، وبلوروا علوماً رياضية جديدة ومستقلة مثل الجبر وحساب المثلثات المستوية والكروية والطرق الحسابية والهندسة القياسية. ويجدر الذكر هنا أن البروفيسور رشدي راشد انتقد مفهوم نقل العلوم ويقول: ينبغي الحديث هنا عن امتداد وتوسع للرياضيات اليونانية وليس عن مجرد نقلها إلى العربية وعن تشكل علم الجبر بوصفه اختصاصاً مستقلاً بذاته داخل علم الرياضيات.

وتتابع ماتفييفسكايا: يمكن الوصول إلى هذا الاستنتاج (حول دور العلماء العرب) على أساس دراسات قام بها روزنفيلد ب. ويوشكيفيتش أ.حول نظرية الخطوط المتوازية في المشرق القروسطي [٣٧]. وتورد ماتفييفسكايا مثالاً آخر وهو نظريات العلماء العرب حول العدد، والذي قامت بدراسته بالتفصيل.

١ ـ دراسات ماتفييفسكايا حول تطور مفهوم العدد:

كان موضوع رسالتها للدكتوراه في العلوم الرياضية بعنوان: «دراسات حول العدد في المشرق القروسطي»[(١)]. وقد نشرت ماتفييفسكايا تلك الرسالة في كتاب خاص بنفس العنوان. ويعتبر هذا الكتاب عملاً موسوعياً ضخماً يلقي الضوء بالتفصيل على التطور التاريخي لمفهوم العدد والمقدار منذ القدم وخاصة عند العلماء العرب والمسلمين.

وركزت المستعربة ماتفييفسكايا بشكل خاص على الجبر الهندسي اليوناني، ومفهوم العدد الأصم عند إقليدس. وقامت بترجمة أهم المخطوطات العربية إلى الروسية، والتي كرست لشرح المقالة العاشرة من «الأصول» لإقليدس حول الكميات الصماء. ومن تلك المخطوطات: مخطوطة المهاني (ق ٩) «تفسير

---

(١) غ.ماتفييفسكايا. **دراسات حول العدد في الشرق القروسطي**. دار فان. طشقند. ١٩٦٧.



المقالة العاشرة من كتاب إقليدس»، والخازني (ق ١٠) «شرح المقالة العاشرة من كتاب إقليدس»، وابن البغدادي (ق ١٠) رسالة ابن البغدادي في «المقادير المشتركة والمتباينة» وهي شرح للمقالة العاشرة من «الأصول» لإقليدس، والهاشمي (ق ١٠). ودرست مخطوطات ابن الهيثم (ق ١٠ ـ ١١)، ويوحنا ابن حارث بن البطريق القس (ق ١٠)، ونصير الدين الطوسي (ق ١٣)، والنيريزي (ق ٩ ـ ١٠) وغيرهم.

ثم عرضت تطور الرياضيات في البلاد الإسلامية، وقسمت الحساب إلى حساب نظري وحساب عملي. وتتحدث عن الجبر والخوارزمي. ثم تنتقل إلى مفهوم العدد الأصم (اللانسبي) عند إقليدس، ودور العلماء العرب في تطوير تلك العلوم الرياضية وخاصة تطور مفهوم العدد. كما تطرقت ماتفييفسكايا إلى نظرية النسب وتوسيع مفهوم العدد واختتمت كتابها بالحديث عن تأثير العلوم العربية في النهضة الأوروبية.

بالرغم من أن نيقوماخوس فصل مفهوم العدد عن الهندسة، وأن ديوفنطس قام بحل المعادلات السيالة (غير المحددة) في مجموعة الأعداد النسبية، إلا أنهما لم يتوصلا إلى ما توصل إليه العلماء العرب والمسلمين وهو مفهوم العدد الحقيقي.

وللعدد، كما هو معروف، قصة تاريخية طويلة. وساهم العرب بقسط كبير في بلورة مفهوم العدد الحقيقي متقدمين بذلك على علماء اليونان، الذين نظروا إلى العدد على أنه عدد طبيعي، وتعاملوا مع المقدار الهندسي وليس مع العدد الذي اعتبروه مفهوماً مجرداً عن الهندسة.

وقد درست الباحثة الروسية، بشكل دقيق، مفهوم العدد وتطوره لدى العلماء العرب والمسلمين، وأشارت إلى أن الجبر أصبح لأول مرة علماً مستقلاً طبقت طرقه لحل عدد كبير من المسائل النظرية والتطبيقية. علماً أن الجبر اليوناني اصطدم بصعوبة كبيرة، لأنه تقيد بالربط بين مفهوم العدد والمقدار الهندسي. وقد حاول ديوفنطس تحرير الجبر من الهندسة، ويبدو

ـ حسب ماتفيفسكايا ـ أنه اعتمد على التقاليد البابلية الحسابية الجبرية القديمة. كما لوحظ اتجاه حسبنة الجبر في تطوير الرياضيات الهندسية. ومن جهة أخرى تقدمت الرياضيات الهندية خطوة إلى الأمام مقارنة بجبر ديوفنطس، لأن الهنود أجروا عمليات ليس فقط على الأعداد النسبية وإنما اللانسبية أيضاً. ولكن الهنود لم ينظروا إلى الطبيعة الحسابية للكميات الصماء، واستخدموا العدد السالب في حل المعادلات التربيعية. وربما تأثر الهنود بالرياضيات الصينية التي استخدمت العدد السالب (نقصان). وتوصل الهنود إلى قواعد العمليات الحسابية على الأعداد الموجبة والسالبة (سموها دَيْن) واكتشفوا قيمتي الجذر التربيعي، وقطعوا شوطاً في الترميز الجبري.

وقد اعتمد رياضيو البلدان الإسلامية في القرون الوسطى على التراث الهندي واليوناني، وطوروا ـ برأي ماتفيفسكايا ـ الرياضيات البابلية القديمة(١). فإبان القرن التاسع للميلاد لم يكتف العلماء العرب بالمعرفة الواسعة للرياضيات اليونانية، بل تجاوزوها إلى تكوين معرفة بحثية، ولهذا تميزت معرفتهم بطابعي النقد والإبداع [٣٨ ـ ٤٠]. فالعرب لم يجعلوا الجبر علماً رياضياً مستقلاً وحسب، بل طوروه بدرجة كبيرة. وتؤكد ماتفيفسكايا على أن العرب لم ينظروا إلى الجبر كعلم لحل المسائل وإنما لتدريب العقل. وترى أن العلماء المسلمين في مؤلفاتهم قاموا بحسبنة الجبر. وهذا ما توصل إليه راشد وكتب عنه بالتفصيل في كتابه الشهير: «تاريخ الرياضيات العربية بين الحساب والجبر» [٣٨].

ومن جهة أخرى استخدم العرب الهندسة لحل المعادلات الجبرية (بتأثير الجبر الهندسي اليوناني). ونظرية حل المعادلات التكعيبية باستخدام القطوع المخروطية. وتعود هذه النظرية إلى الخيام وكذلك لابن الهيثم والخازن. وبذلك حل العرب ـ كما ترى ماتفيفسكايا ـ مسائل كان قد طرحها أرخميدس في كتابه عن «الكرة والأسطوانة».

---

(١) غ.ماتفيفسكايا. **الرياضيات في الشرق القروسطي**. دار فان. طشقند. ١٩٧٨.



وتوصل العلماء العرب والمسلمين إلى مفهوم الحل العددي التقريبي للمعادلات الجبرية. فمثلاً قام البيروني بحل المعادلة التكعيبية: $x^3 = 1 + 3x$ في النظام الستيني والتي نتجت عن مسألة إنشاء مضلع منتظم ذي عشرة أضلاع. كما أعطى الكاشي طريقة عبقرية تعتمد على الاستكمال الخطي لحل المعادلة التكعيبية: $x^3 + Q = px$ وهي طريقة متطورة لا تقل دقة عن الطرق التي ظهرت في أوروبا بعد فييت الفرنسي.

وعن الجبر، تضيف المستعربة الروسية قائلة: تقدم العرب على اليونان في الجبر وتطبيقاته كثيراً، لأنهم لم ينظروا إلى الجبر كهندسة وإنما كنظرية عددية. وبرز هذا الاتجاه بشكل واضح في شروحات العلماء العرب للمقالة العاشرة من «الأصول» لإقليدس. وتؤكد الباحثة على أن العلماء العرب هم أول من توصل إلى الترميز الجبري بشكل واضح انتقلت بعض مؤثراته إلى أوروبا وما زالت حتى الآن كرمز الجذر التربيعي $\sqrt{\ }$ الذي يعتبر حرف الجيم (أول حرف في كلمة الجذر) ولكنه مقلوب. وقد استخدم القلصادي (ق ١٥) رموزاً جبرية للمجهول (ش من كلمة شيء) ولمربع العدد (م من كلمة مال) والمساواة (ل من كلمة يعدل) والجذر التربيعي(جـ من كلمة جذر). بينما استخدم ابن حمزة المغربي (ق ١٦) مجموعة أشمل وأكمل للرموز الجبرية. لكن الباحث محمد أبلاغ[١] يشير إلى أن ابن الياسمين (ق. ١٢) استخدم الرموز الجبرية قبل القلصادي بعدة قرون. وهذا ليس بغريب لأن القلصادي كان قد اطلع على هذه الرموز عند ابن الياسمين في شرح أرجوزة ابن الياسمين.

وفي هذا الإطار نورد تحليل د. رشدي راشد[٢] حول دور العلماء العرب والمسلمين [٤٠]، حيث يقول:

---

(١) محمد أبلاغ. **الرياضيات في الأندلس ما بين ق ٣ و٩ هـ (١٠ و١٥م)**. ندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات. القسم الثالث ـ الحضارة والعمارة والفنون. مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة. الأعمال المحكمة. الرياض. ص ٢٣ ـ ٥٥. ١٩٩٦.

(٢) رشدي راشد. **الاتجاهات العلمية في الإسلام**. مجلة التسامح. العدد ٢٠. ٢٠٠٧



«فيما بين القرنين الثامن والرابع عشر الميلاديين اكتمل عقد البحث العلمي بشخصيات علمية بارزة كالخوارزمي أول من كتب في علم الجبر، وابن الهيثم الذي ندين له بأول ثورة علمية في مجال المناظر خصوصاً والفيزياء على وجه العموم، وعمر الخيام الذي وضع أسس فرع جديد في علم الرياضيات وهو الهندسة الجبرية. غير أنه وعلى الرغم من عظمة هؤلاء وزخم وثراء عطائهم، فإن البحث العلمي لم يتخذ طابعاً فردياً فحسب، بل قامت به هيئات منظمة من العلماء مثلت مجموعات بحث تنتمي إلى مدارس قائمة. ولنضرب مثالاً هنا عدّاً لا حصراً من أواسط القرن التاسع الميلادي بالآثار العلمية لمجموعة بني موسى في الرياضيات والفلك والميكانيكا. أو من القرن الثالث عشر بمدرسة مراغة بمراصدها وفئات باحثيها في علم الفلك» [٤٠].

وقد كانت العلوم في الإسلام مكوناً رئيسياً من مكونات العلوم الكلاسيكية، والتي تميزت بملمحين هما:

أولاً: عقلانية جديدة جبرية (نسبة للجبر الرياضي) وتحليلية.

ثانياً: التوجه العلمي الجديد نحو التجربة بوصفها أساس الاستدلال في علم الفيزياء ومقوماً من مقومات النقد في البحث العلمي [٤٠].

ويظهر ذلك عند الفارابي في كتابه «إحصاء العلوم» وعند ابن سينا في كتابه «أجزاء العلوم الفلسفية» وفي «كتاب الشفاء».

وتتابع ماتفييفسكايا: «التزم علماء هذه المرحلة بالنظرة القديمة حول مفهوم العدد والمقدار، وهم يدركون الفرق الجوهري بين هذين المفهومين. وبالتدريج انمحت الفوارق بين المفهومين. ففي البداية عمم مفهوم العدد على الكسور (العادية) ثم على النسب المتجانسة (المشتركة والمتباينة)». وهذه طريقة جديدة ـ حسب رأي الباحثة ـ في العلم الرياضي، حيث استخدم الجبر والحساب العملي على نفس المستوى. وبعد ذلك أصبح العلماء العرب اثناء حلهم للمسائل التطبيقية يتعاملون مع النسبة كعدد نسبي (الكسور) وكعدد أصم



(الجذور)[(١)] كما أن عملية الفصل بين الهندسة (علم المقادير المستمرة أو المتصلة) والحساب (علم المتقطعات) شكلت عقبة منطقية كبيرة أمام تطور الرياضيات اليونانية التي أصابها الضمور والانحسار. والمخرج كما هو معروف جاء على يد العلماء العرب بالجمع والدمج بين مفهوم العدد (الطبيعي والنسبي) والمقدار (الأصم) للوصول إلى مفهوم أعم وأشمل، وهو العدد الحقيقي الموجب. إلا أن صياغة مفهوم العدد الحقيقي بمعناه الرياضي الدقيق فهي مسألة معقدة عمل عليها العلماء حتى القرن التاسع عشر للميلاد. ومن خلال الاطلاع على بعض المخطوطات العربية في الحساب، نجد أن العلماء العرب توصلوا إلى تطوير نوعي وجوهري لنظرية الأعداد مقارنة باليونان، فقد تمت حسْبَنَة النظرية الهندسية للمقادير الصماء، فأصبحوا يتعاملون معها كأعداد مستقلة عن المفاهيم الهندسية.

ويكفي أن نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الرياضي والفلكي والفيلسوف والشاعر عمر الخيام (ق ١١ ـ ١٢م) الذي درس كمية النسبة وتعامل معها كعدد إما صحيح أو كسري أو أصم وهذا تطوير للرياضيات اليونانية، ويقول الخيام إن دراسة الصلة بين مفهومي النسبة والعدد هي دراسة ذات طبيعة فلسفية، ويؤكد الخيام على الفصل بين نظرية العدد والهندسة، ويذهب إلى أبعد من ذلك فيقول بأنه «يجب عدم اعتبار المقدار خطاً أو سطحاً أو جسماً بل يجب اعتباره مجرداً من هذه الأشياء الملموسة، أن يتم

---

(١) إن اكتشاف المقادير الصماء جعل الفيثاغوريين، الذين رأوا في العدد مجموعة واحدات (١، ١+ ...،١)، يعترفون بالفرق الجوهري بين العدد والمقدار. ومن أجل التخلص من هذا الأشكال نشأت النظرية العامة لنسبة المقادير (التي كانت تلعب دور العدد الحقيقي) مقابل نظرية النسبة للأعداد الصحيحة (الكسور) ونشأ الجبر الهندسي كأداة فعالة مستخدمة في المقادير المُنْطَقة والصماء. ونذكر هنا أن الهنود بعكس اليونان تعاملوا مع المقادير الصم بحرية أكبر، أي كأعداد، لكنهم لم يبرهنوا على صحة عملياتهم بشكل منطقي [٥١].



تصوره كعدد». ويتوصل الخيام إلى دراسة نظرية معمقة لمفهوم العدد غير المُنْطَق بالإضافة لتقديمه فهمه لوضع العدد غير المُنْطَق ككائن رياضي قائم بذاته. وفي ذلك يتجلى التحول الهائل في مفهوم العدد مما أدى لتطوير الحساب والجبر عند العرب والذي أدى بدوره إلى تسريع مهمة العلماء الأوربيين في هذا الإطار [٤١ ـ ٤٢].

أما عن سبب خلط إقليدس بين صناعة (علم) العدد والهندسة، فيقول الخيام في مقالته الثالثة «في تأليف النسبة وتحقيقه»: فإن ذلك يعود «لأمرين[١] أحدهما ليكون كتابه [الأصول] مشتملاً على أكثر قوانين علم الرياضيات ـ ونعم ما رأى هذا ـ **والثاني** أنه محتاج إلى علم العدد في المقالة العاشرة، ولم يرد أن تكون براهين كتابه محتاجة إلى شيء خارج عن كتابه من علم الرياضيات؛ إلا أنه كان من الواجب أن يقدم العدديات على الهندسيات كما هما عند الوجود والعقل. ولكن البراهين العددية أصعب إدراكاً من البراهين الهندسية» [٤١ ـ ٤٢].

ويقول ابن البغدادي[٢] في هذا الإطار: «فأما من خدم صناعة العدد وحدها، فإنه مع شدة حاجته إلى النظر في هذه المقالة [العاشرة] بما يقوده إلى البرهان عليها وإن كانت له طرق من الاعتقاد يرد بها فرع الشيء إلى أصله ومتشابهه إلى حقيقته، لأن فرض العدد وتوابعه أسهل على النفس من فرض القدر [المقدار] ولواحقه»، أي أنه يفضل التعامل مع العدد على المقدار [٤٢].

وبعد اطلاعها على المخطوطات العربية في مجال العدد، توصلت ماتفييفسكايا إلى استنتاجات مهمة حول تطور مفهوم العدد أهمها:

١ ـ لقد انتبه العلماء العرب إلى الصلة الوثيقة بين تصنيف المقادير

---

(١) رشدي راشد ووهاب زادة بيجان. **رياضيات عمر الخيام**. سلسلة تاريخ العلوم عند العرب (٧). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ٢٠٠٥.

(٢) محمود الحمزة. **رسالة ابن البغدادي «المقادير المشتركة والمتباينة»**. بحث ألقي في مؤتمر المخطوطات الشارحة. مكتبة الاسكندرية. ٧ ـ ٩ مارس. ٢٠٠٦.



الصماء في المقالة العاشرة وبين المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية والرابعة وإيجاد جذورها.

٢ ـ وضع بعض علماء الرياضيات العرب مسألة التأسيس النظري للعمليات الحسابية على الجذور التكعيبية كنوع من الأعداد الصماء.

٣ ـ إن أعمال الكرجي المتميزة مثلاً كتابه «البديع في الحساب» تضمنت تطويراً جوهرياً لدراسة ليس الجذور االتربيعية والعمليات عليها وحسب، بل الجذور من أي مرتبة، والعبارات المكونة منها (مثل ثنائي الحد). وقد كتب ب.لوكي: لَوْ كان هناك مواصلين حقيقيين لبحوث الكرجي لتوصلوا إلى استبدال الجذور التربيعية في الطرف الأيمن من العلاقة المعروفة

$$\sqrt{a \quad b} \quad \sqrt{\frac{a \quad \sqrt{a^2 \quad b^2}}{2}} \quad \sqrt{\frac{a \quad \sqrt{a \quad b^2}}{2}}$$

إلى جذور تكعيبية لحصلوا على علاقة كوردانو. وهذه الملاحظة يمكن توضيحها من عبارة ثنائي الحد التي بإيجاد جذرها يمكن الوصول إلى حل المعادلة التكعيبية.

ونضيف هنا بأن بعض المؤلفات الجبرية تعاملت مع الجذور التربيعية باعتبارها عدداً بدون دراسة طبيعته. ومن يقرأ المقالة العاشرة لإقليدس يجد أنها تؤسس للرياضيات على أساس هندسي. ولكن عند ترجمة هذه النظريات والتعاريف إلى اللغة الجبرية المعاصرة، فإن الأمر يختلف تماماً وتزول الصعوبات في فهم الطبيعة العددية للمقادير الصماء. وهذا بالضبط ما فعله العلماء العرب، حيث قاموا بحسبنة النظرية الإقليدية للمقادير التربيعية الصماء (الجذور التربيعية)، وهذه الخطوة لا يمكن وصف أهميتها ودورها في دفع الرياضيات إلى الأمام وخاصة في مجال نظرية العدد ومفهوم العدد الحقيقي [٤٢]. وتعتبر أفكار العلماء العرب حول حساب القطع المستقيمة، والتي مهدت لظهور مفهوم العدد الحقيقي، مقدمة لظهور الأفكار الرياضية عند ديكارت.



٢ ـ **بعض الأعمال الرياضية الأخرى للباحثة ماتفييفسكايا**(١):

١) **دراسات في المثلثات الكروية** من خلال ترجمة وشرح مخطوطة أبي نصر بن عراق (ق ١٠) «إصلاح كتاب منالاوس في الأشكال الكرية». طشقند. ١٩٨٣.

٢) كتاب حول مخطوطة بهاء الدين العاملي (ق ١٦ ـ ١٧) «خلاصة أعمال الحساب». ترجمة وتعليق رياضي وتاريخي. نشر في طشقند. ١٩٩٢. وتقول في خاتمة الكتاب: إن مؤلفات العاملي وتلامذته مثل محمد نجم الدين اليزدي تؤكد بأن الأعمال الإبداعية الأصيلة للعلماء العرب والمسلمين لم تتوقف، كما يقول البعض، في القرن الخامس عشر مع مدرسة أولغ بك في سمرقند، وإنما استمرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

٣) كتاب عن حياة وأعمال عالم الفلك عبد الرحمن الصوفي (ق ١٠). موسكو. ١٩٩٩. وركزت بشكل خاص على مخطوطة الصوفي: «كتاب صور الكواكب الثابتة» و«رسالة الإسطرلاب»(٢).

٤) «كتاب أولغ بك». موسكو. ١٩٩٧. وفيه تتحدث عن حياة أولغ بك (ق ١٤ ـ ١٥) ونشاطه العلمي الكبير. فقد كان حاكماً لسمرقند وعالماً كبيراً وهو حفيد تيمورلنك. وفي عهد أولغ بك تشكلت في سمرقند مدرسة فلكية علمية كاملة تبحث في الرياضيات والفلك في القرن الخامس عشر. وهو الذي أمر ببناء مرصد سمرقند، وكان لأولغ بك إسهامات علمية مثل مشاركته في كتابة «زيج أولغ بك» إلى جانب كبار علماء عصره أمثال: الكاشي، والقوشجي، وقاضي زاده الرومي، ومريم شلبي، ونظام الدين البرجندي. أما مكان مرصد سمرقند فقد اكتشف بعد أربعة قرون من إنشائه(٣).

---

(١) حياة غ.ماتفيفسكايا وأعمالها العلمية. جامعة أورينبورغ الحكومية التربوية. ٢٠٠٥.

(٢) غ.ماتفيفسكايا. **عبد الرحمن الصوفي ودوره في تاريخ علم الفلك**. ١٩٨٣.

(٣) م.الحمزة. **أوليغ بيك ومدرسة سمرقند العلمية القرن (١٥م)**. المؤتمر الدولي الثامن لتاريخ العلوم العربية حول «المدرسة في الحضارة العربية الإسلامية» نظمته الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم في المركز الجغرافي الملكي الأردني ـ عمان. ٢٤ ـ ٢٦ آذار، ٢٠١٥.



٥) كتاب: «**حول تاريخ الرياضيات في آسيا الوسطى**». نشر في طشقند. ١٩٦٢.

٦) كتاب: «**لمحة من تاريخ حساب المثلثات**». نشر في طشقند. ١٩٩٠. وفيه تتحدث ماتفييفسكايا عن تطور المثلثات المستوية والكروية في اليونان والهند والعالم الإسلامي. وبعد دراسة مفصلة لحساب المثلثات، توصلت الباحثة إلى استنتاج مفاده أن العرب والمسلمين هم من جعل حساب المثلثات علماً رياضياً مستقلاً عن الفلك. وتذكر بدور ابن عراق والبيروني والطوسي.

٧) موسوعة «علماء الرياضيات والفلك في العالم الإسلامي في القرون الوسطى ومؤلفاتهم» (ق ٨ ـ ١٧) [٤٣].

تعد هذه الموسوعة من أهم أعمال ماتفييفسكايا وقد ضمتها خلاصة أبحاثها في تاريخ الرياضيات العربية التي قامت بها على مدى عشرات السنين، وقد أعدت هذا المؤلف الضخم بالتعاون مع المستعرب الروسي ـ الأمريكي المعروف ب. روزنفلد[١]. وتتكون الموسوعة من ٣ أجزاء.

يضم **الجزء الأول** تعريفاً مفصلاً بالعلوم الرياضية العربية مثل الترقيم والحساب وجمع المتسلسلات والمعادلات الجبرية واستخراج الجذور والهندسة وحساب المثلثات والطرق التفاضلية والتكاملية. وكذلك عن العلوم الطبيعية: الفلك والآلات الفلكية والجغرافيا والميكانيكا والبصريات وغيرها. وتطرق إلى مسائل فلسفة الرياضيات والعلوم الطبيعية عند العرب والمسلمين.

---

(١) بوريس روزنفلد (١٩١٧ ـ ٢٠٠٨) ـ رياضي ومؤرخ رياضيات من روسيا له عدد كبير من البحوث في تاريخ الرياضيات العربية والإسلامية. هاجر عام ١٩٩٠ إلى الولايات المتحدة، حيث عمل في جامعة بنسلفانيا حتى مماته. وقد أصدر ترجمة تلك الموسوعة إلى الإنجليزية مع بعض التعديلات بالاشتراك مع مؤرخ الرياضيات التركي إكمال الدين إحسان أوغلو (اسطنبول ٢٠٠٣). ولكنه لم يذكر اسم غالينا ماتفييفسكايا في الترجمة الإنجليزية مما أثار ردة فعل سلبية كبيرة لديها حيال تصرف روزنفلد غير الأمين وغير الوفي (وهذا ما عبرت عنه غالينا ماتفييفسكايا، بغضب شديد، أثناء أحد لقاءاتنا في موسكو) [٤٤].

أما **الجزء الثاني** من الموسوعة وهو الأهم من بين الأجزاء الثلاثة، حيث يقدم هذا الجزء تعريفاً بحياة ومؤلفات أكثر من ألف عالم رياضيات وفلك عربي ومسلم عاشوا بين القرنين الثامن والسابع عشر. وقد أشار المؤلفان في هذه الموسوعة بأن مؤرخ العلوم سوتر ن. عرض لحياة وأعمال حوالي (٥٠٠) عالم عربي ومسلم، وأرادا أن يوسعا هذه الموسوعة لتشمل ألف عالم. ومع ذلك فالموسوعة قدمت خدمات لا توصف للباحثين في تاريخ الرياضيات والفلك العربية، المستخدمين للغة الروسية، وما زالت حتى الآن.

وكرس **الجزء الثالث** من الموسوعة للتعريف بعلماء لم تعرف تواريخ حياتهم، وبمخطوطات مجهولة المؤلف، وكذلك فهارس رتبت حسب أسماء العلماء وأخرى حسب عناوين المؤلفات.

٣ ـ العلماء العرب أم العلماء المسلمون؟

تناقش ماتفييفسكايا مصطلح «الرياضيات العربية»، فتشير إلى أن هذا المصطلح ليس دقيقاً؛ لأنه من الأصح أن نطلق اسم رياضيات أو ثقافة شعوب آسيا الوسطى. وبما أن الكتاب منشور في العهد الشيوعي السوفياتي فإن ماتفييفسكايا تبتعد عن وصف الرياضيات بالإسلامية وتركز على الرياضيات في آسيا الوسطى، سيما وأنها عملت في مدينة طشقند وكانت متزوجة من عالم أوزبيكي.

وقد تطرق المستعربون الروس أمثال أ.يوشكيفيتش إلى «مصطلح الرياضيات العربية» وكان يفضل تسمية تلك الرياضيات «برياضيات الشعوب الناطقة بالعربية». وفي كتابه عن تاريخ الرياضيات في العصور الوسطى[١] يستخدم مصطلح الرياضيات في بلاد الإسلام.

بينما استخدم كراتشكوفسكي (ت ١٩٥١)، وهو شيخ المستعربين الروس، مصطلح الاستعراب في روسيا واعتبر العلوم عربية. وألف كتباً قيمة في هذه

---

(١) أ.يوشكيفيتش. **تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى**. دار المؤلفات الفيزيائية والرياضية. موسكو.١٩٦١.

المواضيع مثل: «نبذة من تاريخ الاستعراب في روسيا»، و«مع المخطوطات العربية»، و«تاريخ الأدب الجغرافي العربي».

وقد تميز في أواسط القرن الماضي مؤرخ الرياضيات الروسي المعروف يوشكيفيتش (ت ١٩٩٣) بنظرته الموضوعية تجاه العلوم العربية والإسلامية، حيث أكد على أن الثقافة العربية والإسلامية جزء أساسي وحتمي من الثقافة العالمية. وأن العلماء العرب لم ينقلوا العلوم القديمة من يونانية وهندية وغيرها ويحافظوا عليها من الضياع وحسب، بل أنهم أبدعوا نظريات جديدة. وقد قام يوشكيفيتش نفسه بدراسات قيمة في تاريخ الرياضيات العربية والإسلامية لاقت شهرة ورواجاً في العالم(١).

وتورد ماتفييفسكايا في أحد مؤلفاتها أسماء أهم المراجع التي تطرقت إلى تاريخ الرياضيات في آسيا الوسطى. وهي من جهة تؤكد على أن الرياضيات ليست عربية، وإنما هي رياضيات شعوب آسيا الوسطى منطلقة من الناحية الجغرافية، ومن جهة أخرى تنتقد العلماء الذين لم ينصفوا العرب والمسلمين ولم يقدروا دورهم في تطوير العلوم.

مثلاً تنتقد إي. إيلغود الذي اعتبر العلم فارسياً وليس عربياً. وتعترف بأن معظم المؤرخين يستخدمون مصطلح العلم العربي أو الرياضيات العربية أو الثقافة العربية مثل: ر. لانداو، وج. لو بون، وأ.مييله، وج. ريسلير، وغ. فاتساري، ون. سوتر. أما ف. كاجوري ـ برأي ماتفييفسكايا ـ فلم يعط الرياضيات العربية حقها وقلل غ.تسيتين من أهمية الرياضيات العربية.

ومن الملاحظ أن معظم مؤرخي الرياضيات العربية في روسيا يربطون الرياضيات بكلمة الإسلام أكثر من كلمة العربية. فمثلاً يوشكيفيتش كرس

(1) Studies in history of mathematics dedicated to A. P. Youschkevitch, edited by Eberhard Knobloch, Jean Mawhin and Serguei S. Demidov (Turnhout: Brepols, 2002).

فصلاً مهماً من كتابه «تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى» للرياضيات في بلاد الإسلام[١]. وكذلك سميت موسوعة ماتفييفسكايا وروزنفلد «علماء الرياضيات والفلك... في بلاد الإسلام». بينما في الغرب يستخدمون كلمة رياضيات عربية أكثر من رياضيات إسلامية. وقد تكون لهذه الاختيارات خلفيات ثقافية وسياسية وإيديولوجية، إلا أن الجميع يقصدون بالنتيجة نفس المجال العلمي وهو الرياضيات المكتوبة باللغة العربية.

وأشارت ماتفييفسكايا[٢] في معرض حديثها عن تأثير العلماء العرب في تطور الرياضيات في أوروبا إلى أن الترجمة من اللغة العربية إلى اللاتينية لعبت دوراً مهماً في تطور العلم في أوروبا وخاصة الرياضيات. فقد ازدهرت المدارس العلمية في الأندلس في القرن العاشر مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة وأصبحت مراكز ثقافية وعلمية كبيرة بعد فتح المسلمين لها. وتوافد إلى الأندلس علماء من كل أنحاء أوروبا وبدأ عصر الترجمة إلى اللاتينية (ق ١٢). وهنا لعبت التجارة دوراً مهماً بين الشرق وأوروبا وخاصة عبر صقلية وبيزنطة. وساهمت الحملات الصليبية دوراً في التواصل الثقافي والعلمي بين العرب والمسلمين وبين أوروبا.

٤ ـ مخطوطات نادرة لابن الهيثم عثر عليها في جامع مدينة كويبيشف الروسية[٣]:

تقع مدينة كويبيشف الروسية على ضفاف نهر الفولغا العظيم الذي يشكل

---

(1) Youschkevitch, Adolf P. (1976). Les mathématiques arabes: VIIIe-XVe siècles. translated by M. Cazenave and K. Jaouiche. Paris: Vrin.

(٢) غ.ماتفييفسكايا. دراسات حول العدد في الشرق القروسطي. دار فان. طشقند. ١٩٦٧.

(٣) مجموعة المخطوطات التي عثر عليها في مدينة كويبيشيف (الروسية ونقلت إلى مكتبة معهد المخطوطات الشرقية في لينينغراد سان بطرسبورغ) مخطوطات ابن الهيثم التي عثر عليها في كويبيشيف ونقلت إلى مكتبة لينيغراد تحت رقم =



شريان الحياة، وهو مرتبط بتاريخ روسيا عبر القرون. وكويبيشف الآن تسمى مدينة سمارا كما كانت قبل الحقبة السوفياتية. ولا تبعد كثيراً عن مدينة قازان ـ عاصمة جمهورية تتارستان. ومعروف أن الفاتحين المسلمين قد دخلوا البلاد الروسية عبر بوابتها ـ مدينة دربند الداغستانية ـ التي سماها العرب مدينة الأبواب منذ أكثر من ألف سنة. وكذلك زيارة أحمد بن فضلان في تلك الفترة لهذه المنطقة بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى إمارة البُلغار بطلب من حاكمها المسلم لكي يعلمهم الإسلام.

كما أن القيصر بطرس الأول في بداية القرن الثامن عشر زار حوض الفولغا وبالتحديد الآثار الباقية من إمارة البُلغار المسلمة. وشاهد آثار كتابات باللغة العربية فطلب ترجمتها، وكانت عبارة عن آيات قرآنية فأمر بتعليم اللغة العربية في الجامعات الروسية ووجّه بترجمة القرآن الكريم.

منطقة حوض الفولغا شاهدة على حضارة عربية إسلامية غابرة وقازان، التي عمرها أكثر من ألف سنة، كانت أول مركز لدراسة العلوم والثقافة العربية

= B1030 درس أغلبها الدكتور رشدي راشد وأورد قائمة بكافة مخطوطات ابن الهيثم في سلسلة كتب عن ابن الهيثم نشرت بالفرنسية وترجمت إلى العربية ونشرت عام ٢٠١١ تحت عنوان: الرياضيات التحليلية بين القرن الثالث والقرن الخامس للهجرة في ٥ أجزاء. الحسن بن الهيثم. مركز دراسات الوحدة العربية ومدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. سلسلة تاريخ العلوم عند العرب. بيروت. ٢٠١١. والمخطوطات هي: في الأشكال الهلالية ـ ج٢، في حل شكوك حركة الالتفاف، في حركة القمر، في اختلاف منظر القمر، في استخراج سمت القبلة، في مسألة هندسية. ج ٤، في مسألة التلاقي، في مساحة الكرة، في قسمة المقدارين المختلفين المذكورين في الشكل الأول من المقالة العاشرة من كتاب إقليدس ـ ج٢، في صورة الكسوف، في أصول المساحة B2139/2؛ في استخراج ضلع المكعب ـ ج٢، في أضواء الكواكب، في هيئة حركات كل واحد من الكواكب السبعة ـ ج٥، في كيفية الأظلال ـ ج٢، في المعلومات. ـ ج٤، في التحليل والتركيب ـ ج٤.



والإسلامية في روسيا، ثم انتقل هذا المركز الاستشراقي إلى سان بطرسبورغ. لكن قازان استعادت بعد فترة دورها في مجال الدراسات الشرقية.

وحسب أوامر القيصر الروسي بطرس الأول إلى الدبلوماسيين والتجار والرحالة الروس الذين زاروا الشرق العربي والإسلامي بضرورة اقتناء المخطوطات العربية والإسلامية سواء بشرائها من الناس أو الأسواق أو من المكتبات وتقديمها هدية للمكتبات الحكومية في روسيا.

وهكذا تكونت مجموعات عديدة من المقتنيات لمخطوطات نادرة بعضها يعود إلى أشخاص مثل خانيكوف. وفي كل الأحوال انتقل معظم هذه المجموعات النادرة والقيمة لمكتبات بطرسبورغ وهي مكتبة معهد المخطوطات الشرقية (معهد الاستشراق سابقاً) التابع لأكاديمية العلوم الروسية ومكتبة كلية اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ والمكتبة الوطنية الروسية في بطرسبورغ.

إن روسيا تمتلك كنوزاً من التراث العربي والإسلامي، وهي تحافظ عليه، لا بل قام العلماء الروس منذ ثلاثمائة سنة بدراسة هذه المخطوطات ونشر محتوياتها. وهذه خدمة عظيمة في مجال إحياء التراث العربي والإسلامي.

وقد عثر على هذه المجموعة الأثرية والنادرة من المخطوطات سنة (١٩٧٣) في مكتبة صغيرة في إحدى المقاطعات الروسية البعيدة عن موسكو وهي كويبيشف (سمارا حالياً) الواقعة على ضفاف نهر الفولغا، حيث تقع أيضاً مدينة قازان أقدم مدينة إسلامية في روسيا.

وهذه المجموعة من المخطوطات العربية النادرة هي الوحيدة في تلك المكتبة. ولم يتمكنوا من التعرف على المخطوطة. فاتصلوا بمعهد الاستشراق في لينينغراد (حالياً سان بطرسبورغ) وأخبروهم بأمر المخطوطة. وقد تواصلت مديرة مكتبة المعهد بالمستعرب بوريس روزنفيلد من معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا في موسكو وحدثته عن المخطوطة العربية المكتشفة حديثاً في حينها. وقام روزنفيلد بالسفر إلى كويبيشف للتعرف على المخطوطة ففهم أنها نادرة وقيمة. ثم نقلوا المخطوطة إلى مكتبة معهد الاستتشراق في لينينغراد.



وقد حضر البروفيسور رشدي راشد من باريس في أواخر الثمانينات حسبما علمت وحصل بمساعدة م.روجانسكايا على صورة لمجموعة المخطوطات المذكورة من معهد الاستشراق المذكور. وقام راشد بدراستها كاملة أو بشكل جزئي ونشر بحوثاً عنها، وخاصة فيما يتعلق بابن الهيثم ومخطوطاته المكتشفة لأول مرة. وفيما يتعلق بمصدر هذه المخطوطات وطريقة وصولها إلى تلك المكتبة الريفية الصغيرة والحفاظ عليها بحالة جيدة فهناك رؤى مختلفة، حيث يعتقد ب. روزنفلد أنها وصلت للمكتبة من إحدى المساجد التترية في منطقة كويبيشف. ولكننا نعتقد أنها قد تكون من مقتنيات شخصية لأحد المهتمين بالمخطوطات النادرة من منطقة كويبيشف، لأن هذه المنطقة هي منطقة انتشار الإسلام، وكانت تمثل مركزاً ثقافياً إسلامياً كبيراً في القرون الوسطى. وبما أنها تحمل خاتم المكتبة الإمبراطورية الروسية في سان بطرسبورغ فهذا يعني أنها كانت في سان بطرسبورغ ثم انتقلت إلى قازان مثلاً ومنها وصلت إلى مدينة سمارا (كويبيشف). وقد تكون من مقتنيات إحدى المدارس الدينية في تلك المنطقة.

ومن المتوقع ايضاً أن تكون المجموعة من مقتنيات الكاتب والمؤرخ الروسي المعروف ف. تاتيشيف الذي كانت لديه أراضي ومزارع في تلك المنطقة. وهو من المثقفين الروس التنويريين. سيما وأن مكتبته الكبيرة احتوت على كتب ومخطوطات نادرة مختلفة بما فيها العربية. وربما انتقلت إلى كويبيشف في القرن الثالث عشر.

وصف مجموعة المخطوطات(١):

تقع المجموعة في (٤٦٥) ورقة من القطع الكبير، وهي مغلفة بغلاف من الجلد الأحمر الجيد وورقها سميك، ولا نعلم تاريخ كتابة هذه المجموعة. وتتكون

(١) رشدي راشد، **الرياضيات التحليلية بين القرن الثالث والخامس للهجرة** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، الجزء الرابع، ص٧٢ ـ ٧٥.



المجموعة من (١٦) مخطوطة مستقلة لعلماء مختلفين كلها في الرياضيات والفيزياء والفلك، ومعظمها من أعمال الحسن ابن الهيثم الرياضية والفلكية. وهناك مخطوطة جديدة لابن الهيثم اكتشفت لأول مرة هي مقالة «هيئة حركات كل واحد من الكواكب السبعة»[(١)]، وتعدّ من أهم مؤلفاته العلمية.

❁ ❁ ❁

ثالثاً: موسوعات روسية لدراسة المخطوطات العربية:

قدم المستعربون الروس دراسات معمقة في تاريخ العلوم العربية التي ازدهرت في الفترة من القرن الثامن وحتى القرن السابع عشر للميلاد. ولم يكتفوا بكتابة البحوث المنفردة والمتخصصة في موضوع معين، بل ساهموا بتعميم نتائج بحوثهم وبحوث علماء آخرين وكتبوا مؤلفات لها طابع الموسوعية. وتلك الأعمال الموسوعية التعميمية كثيرة مثل كتب غالينا ماتفييفسكايا «دراسات في العدد في الشرق الأوسط والأدنى القروسطي»، و«دراسات في المثلثات الكروية»، و«حول تاريخ الرياضيات في آسيا الوسطى»، و«لمحة من تاريخ حساب المثلثات»، وموسوعة «علماء الرياضيات والفلك في العالم الإسلامي في القرون الوسطى ومؤلفاتهم» (ق ٨ ـ ١٧). وكذلك مؤلفات أدولف يوشكيفيتش (ت ١٩٩٣) «نظرية الخطوط المتوازية» بالاشتراك مع بوريس روزنفلد، و«تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى»، و«تاريخ الرياضيات من العصور القديمة وحتى ثلاثينات القرن العشرين»، وأعمال بوريس روزنفلد «عن عمر الخيام» بالاشتراك مع يوشكيفيتش، وترجمة كتاب «أبو الريحان البيروني»، وترجمة «القانون المسعودي»، و«تاريخ الهندسة اللاإقليدية». وأصدر روزنفلد مع

---

(١) ابن الهيثم، «في هيئة حركات كل واحد من الكواكب السبعة»، في: رشدي راشد، **الرياضيات التحليلية بين القرن الثالث والخامس للهجرة**؛ الجزء الخامس: **الحسن بن الهيثم، علم الهيئة، الهندسة الكروية، حساب المثلثات** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١)، ص٢٨٣ ـ ٤٥٩.



إحسان أوغلو موسوعة باللغة الإنجليزية: "Mathematicians, astronomers and other scholars of Islamic civilization and their works (7th - 19th c.)". وعمل مريم روجانسكايا «الميكانيكا في الشرق القروسطي».

١ ـ المدرسة السوفياتية في تاريخ الرياضيات:

كانت موسكو هي مركز ولادة هذه المدرسة بالرغم من وجود مراكز علمية مماثلة أخرى في لينينغراد وكييف. وفي موسكو عمل أهم سيمينار في تاريخ الرياضيات في الاتحاد السوفياتي. كما صدرت في موسكو مجلة «أبحاث في تاريخ الرياضيات».

أصبح أدولف يوشكيفيتش (ت ١٩٩٣) الرائد والملهم والمنظم البارع لمدرسة تاريخ الرياضيات ونال اعترافاً وتقديراً ليس في روسيا فحسب وإنما في العالم. كان ينظر بعيداً إلى المستقبل، ولذلك وضع هدفاً استراتيجياً وهو تأسيس قاعدة للبحوث العلمية في مجال تاريخ الرياضيات.

في عام (١٩٤٤) بدأ يوشكيفيتش رسمياً كأحد المشرفين على سيمينار في تاريخ الرياضيات في جامعة موسكو الحكومية. وتحول هذا السيمينار بجهود يوشكيفيتش واهتمامه الهائل به، إلى مدرسة للطلاب ومركز تناقش فيه أهم المسائل التي تهم مؤرخي الرياضيات وتتخذ فيها القرارات. وبدعوة من يوشكيفيتش شارك في السيمينار علماء كبار مثل ديودون وتاتون وغيرهما.

ولا يفوتنا أن نذكر أن بداية عمل يوشكيفيتش في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا تعود إلى عام (١٩٤٥). وفي عام (١٩٦٨) تبلورت حول يوشكيفيتش مجموعة من الباحثين في تاريخ الرياضيات وفي مقدمتهم المتخصص الكبير في الهندسة ب. روزنفلد ومايستروف وميدفيديف وبيريوزكينا وبابلاوسكاس وفولودارسكي وروجانسكايا. وفي السبعينات انضم إليهم سلافوتين وديميدوف[١]

(١) سيرغي ديميدوف رئيس الاكاديمية الدولية لتاريخ الرياضيات، وهو بروفيسور في الرياضيات في جامعة موسكو الحكومية ويعتبر من أبرز المختصين بتاريخ =



وتوكاريفا. وفي التسعينات التحق بهم زايتسف ولوتر، ولاحقا انضممت إلى أسرة قسم تاريخ الرياضيات من عام (٢٠٠٢ وحتى ٢٠١٦).

انتخب يوشكيفيتش رئيساً للأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم في الفترة (١٩٦٥ ـ ١٩٨٦) واكتسب شهرة علمية دولية. كما حاز على جوائز علمية هامة كميدالية سارتون وربطته علاقات صداقة علمية مع كبار مؤرخي الرياضيات في أوروبا مثل بيرمان وفينتر من ألمانيا، زوبوف وتاتون وراشد من فرنسا. وقد انتخب عضواً في أكاديميات علمية في ألمانيا وإسبانيا وغيرهما.

ويمكن تلخيص اتجاهات بحوث يوشكيفيتش الأساسية في الآتي:

ـ تاريخ أسس التحليل الرياضي.

ـ تاريخ الرياضيات في روسيا.

ـ تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى وخاصة الرياضيات العربية.

ـ دراسة مؤلفات أويلر.

وسنركز في بحثنا هذا على **مساهماته القيمة في تاريخ الرياضيات العربية:**

باكورة أعمال يوشكيفيتش وأول بحث علمي في روسيا عن تاريخ الرياضيات العربية كان بحثه الموسوم: «الجبر عند عمر الخيام» الذي كتبه قبيل الحرب العالمية الثانية، لكنه رأى النور فقط في عام ١٩٤٨. وفي حينها رحب المستعرب إ. كراتشكوفسكي (ت ١٩٥١) بهذا البحث واقترح على يوشكيفيتش أن يتعلم اللغة العربية ويتابع هكذا أبحاث. وقد كان كراتشكوفسكي

= الرياضيات في روسيا والعالم. كان رئيس قسم تاريخ الرياضيات، ثم رئيس كلية تاريخ العلوم الرياضية والفيزيائية في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية، ولكنه اضطر لترك المعهد نتيجة تدهور الأوضاع فيه والضغوطات التي تمارس ضد الباحثين في تاريخ العلوم وتم فصل بعضهم لأسباب قيل إنها مادية، وهناك أسباب أخرى مثل وضعي عندما تم إجباري على الاستقالة عام ٢٠١٦ بعد أن عملت مدة ١٥ عاما في المعهد، والأسباب كانت سياسية كوني معارض لنظام الأسد.



من محبي الثقافة العربية والإسلامية وأشار ليوشكيفيتش على كنوز العلوم العربية والإسلامية المحفوظة في مكتبات روسيا. لم يتعلم يوشكيفيتش العربية إلا قليلاً لكنه أسس مدرسة لدراسة الرياضيات العربية وهذا جهد عظيم فتح الطريق على مصراعيه للاستعراب العلمي الروسي. وكان عالم الهندسة المعروف ب. روزنفلد أول من انخرط في عام (١٩٥١) في هذه المدرسة وقدم فيما بعد إسهاماً عظيماً في مجال دراسة العلوم العربية.

أما في طشقند في عام (١٩٥٩) فقد بدأت غ.ماتفييفسكايا بدراسة الرياضيات العربية وقدمت للمكتبة العلمية مئات البحوث القيمة في تاريخ الرياضيات العربية ومن أهم أعمالها كتاب «دراسات في العدد في الشرق الأوسط والأدنى القروسطي» الذي صدر عام (١٩٦٢). كما قدمت م.روجانسكايا أبحاثاً هامة في تاريخ الميكانيكا العربية. وكل هؤلاء الباحثين بالإضافة لغيرهم عملوا تحت الإشراف المباشر أو غير المباشر ليوشكيفيتش.

ومن أهم أعمال يوشكيفيتش: «نظرية الخطوط المتوازية» بالاشتراك مع روزنفلد والتي ترجمت إلى العربية من قبل سامي شلهوب من معهد التراث العلمي العربي في حلب عام (١٩٨٩).

أما كتابه «تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى» الذي صدر عام (١٩٦١) والذي ترجم إلى (٦) لغات، فهو من أهم أعماله. وهذا الكتاب القيم يحتوي على فصل عن الرياضيات في البلاد الإسلامية. ويحتوي الكتاب على ٤ فصول في تاريخ الرياضيات: في الصين والهند والبلاد الإسلامية وأوروبا القروسطية. ونشير هنا إلى أن بحوثه حول الرياضيات الصينية فتحت عيون الباحثين في العالم على دور علماء الصين في تطور الرياضيات، وأثرهم في الحضارة الإنسانية، وبذلك كانت له الريادة في هذا المجال.

كما أشاد مؤرخ العلوم المصري ـ الفرنسي البروفيسور رشدي راشد بتميز أبحاث يوشكيفيتش ومكانتها القيمة عن الرياضيات العربية[1]. ويقول مؤرخ

(١) من الأحاديث الشخصية مع البروفيسور رشدي راشد.



العلوم التركي ـ الألماني البروفيسور فؤاد سيزغين في موسوعته الشهيرة «تاريخ التراث العربي»[١] عن يوشكيفيتش: يجب أن نبرز بشكل خاص الإنجاز الهائل الذي قدمه يوشكيفيتش في الفصل الثالث من كتابه «تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى» عن الرياضيات العربية. ومما يؤكد أهمية هذا العمل ذكره المتكرر في الأبحاث في كل العالم كمصدر هام في تاريخ الرياضيات العربية.

أما فصله عن الرياضيات الإسلامية المتضمن في هذا الكتاب (مكون من ١٤٦ صفحة) فقد ترجم في السبعينات مع التعديلات إلى اللغة الفرنسية[٢] والألمانية ولاقى ترحيباً وتقديراً كبيرين في الأوساط العلمية في العالم.

٢ ـ كتاب يوشكيفيتش عن الرياضيات في البلاد الإسلامية[٣] [٤٥]:

١) مقدمة تضمنت معلومات تاريخية عن تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وعن تطور علم الرياضيات أيضاً في الدول العربية والإسلامية في القرون الوسطى. وتحدثت عن أوضاع علماء الرياضيات في تلك الفترة ومعاناتهم نتيجة الصراعات على السلطة بين القوى المختلفة. وتوقفت عند التطور الواسع والعميق للرياضيات في مشرق العالم الإسلامي ومغربه بما فيه الأندلس. ويشير يوشكيفيتش في المقدمة إلى أن مصطلح الرياضيات العربية أو الإسلامية له نواقص. فالنظريات الرياضية هي نتيجة لعبقرية علماء من مختلف القوميات والديانات لكنهم كتبوا باللغة العربية وعاشوا وعملوا في ظل الدولة العربية الإسلامية. وهذا ما يبرر التسميات المختلفة.

٢) انتشار نظام الترقيم العشري الموضعي (المنازل).

٣) الكسور.

---

(١) فؤاد سيزغين. **تاريخ التراث العربي**. جامعة الإمام محمد بن سعود. ٢٠١٥.

(2) Adolf P. Youschkevich.Les Mathématiques Arabes (VIIIe -XV siecles), Vrin, Paris, 1976.

(٣) أ.يوشكيفيتش. **تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى**. موسكو. ١٩٦٣.



٤) مخطوطة الجبر للخوارزمي.

٥) القاعدة الثلاثية.

٦) قاعدة الخطأين.

٧) الهندسة في أعمال الخوارزمي.

٨) المخطوطات الجبرية لأبي كامل والكرجي.

٩) مسائل نظرية الأعداد.

١٠) تطور نظام الترقيم الموضعي ـ الكسور العشرية.

١١) استخراج الجذور وصيغة ثنائي حد نيوتن.

١٢) الأعداد اللانسبية (غير القياسية أو الصماء) ونظرية النسب.

١٣) المسائل الهندسية والمعادلات التكعيبية.

١٤) النظرية الهندسية للمعادلات التكعيبية لعمر الخيام.

١٥) الترميز الجبري للقلصادي.

١٦) مسائل الهندسة ـ أبو الوفاء.

١٧) نظرية المتوازيات.

١٨) القطوع المخروطية ـ استخدام التقريب إلى مكعبات في حساب الحجوم (دراسة اللامتناهيات في الصغر).

١٩) تطور علم المثلثات.

٢٠) علم المثلثات الكروي.

٢١) رسالة الرباعي التام لنصير الدين الطوسي.

٢٢) الجداول المثلثية.

٢٣) قياس محيط الدائرة لغياث الدين الكاشي.

٢٤) الحل الجبري لمعادلة تثليث الزاوية.

٢٥) تأثير الرياضيات العربية على العلوم في أوروبا الغربية.



ومن قراءة الكتاب نلاحظ ما يلي:

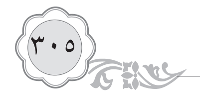
ـ يحتوي الكتاب على مقولة هامة طرحها يوشكيفيتش، ومفادها أن رياضيات القرون الوسطى ومنها العربية تعتبر جزءاً أساسياً وجوهرياً في تطور الرياضيات العالمية، وبذلك فقد أنصف يوشكيفيتش الرياضيات العربية وأعطاها حقها من حيث هي رياضيات إبداعية وفيها نظريات جديدة، وأن العرب لم يكونوا مجرد مترجمين ونقلة للعلوم القديمة، بل أنهم أصحاب علوم جديدة، وأن العلوم العربية شكلت أساساً للنهضة الأوروبية.

ـ توصل يوشكيفيتش إلى استنتاجات مهمة بعد دراسته لتاريخ الرياضيات في الفترة من القرن الثالث حتى القرن السادس عشر في بلاد الشرق: في الصين والهند واليونان والعالم الإسلامي وأوروبا. حيث أكد على وحدة هذه الرياضيات في المواضيع التي طرقت، وتشابه الأساليب الرياضية بالرغم من تنوع الأماكن الجغرافية. ويوضح يوشكيفيتش أسباب تلك الظاهرة بالتشابه في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في بلدان الشرق وبالترابط الوثيق والتداخل بين بلدان الشرق في مختلف المجالات.

ـ أثبت يوشكيفيتش أن رياضيات الشرق في القرون الوسطى تتميز بأصالتها ومستواها العالي وأكد على الأهمية الخاصة لذلك في تطور العلوم بشكل عام. وفي عام (١٩٦٦) قدم لمؤتمر الرياضيات الدولي المنعقد في موسكو بحثاً بعنوان «أبحاث في تاريخ الرياضيات في بلدان الشرق في القرون الوسطى: نتائج وآفاق».

ـ يتضح من تصفح مفردات الكتاب الاختيار الموفق للنقاط الرئيسة التي تحدث عنها يوشكيفيتش وهي نقاط جوهرية تمثل مراحل أساسية في تطور الرياضيات العربية. والمعلومات التي يعرضها المؤلف عيمقة وذكية جداً وشاملة. ولهذا السبب يستشهد معظم الباحثين بكتاب يوشكيفيتش لما فيه من إضاءات متميزة لمراحل تطور الرياضيات وأهم أعمال العلماء العرب.

ـ الاستنتاجات الهامة والجديدة فيما يتعلق بتطور الرياضيات ودور العلماء العرب بدقة في ذلك.



ـ استخدامه لكمٍ هائلٍ من المراجع العلمية في موضوع الكتاب. ومما ساعده في ذلك معرفته الواسعة للغات الأوروبية كالفرنسية والألمانية وغيرهما.

ـ ومن الملاحظات النقدية أن الكتاب مر على إصداره أكثر من سبعين سنة، فأصبحت بعض المعلومات قديمة. نشرت أبحاث حديثة قدمها الدكتور رشدي راشد وتلامذته حول الكسور العشرية [٣٩]، تثبت أن السموأل المغربي (ق ١٢) هو من أدخلها وليس الكاشي (ق ١٦). وكذلك حول الرموز الجبرية هناك أبحاث لمحمد إبلاغ (المغرب) وأحمد جبار[1] (الجزائر) تشير إلى أن ابن الياسمين (ق ١٢) هو أول من استخدمها وليس القلصادي من (ق ١٦).

ـ يمكن الاستدلال على أهمية الكتاب الكبيرة من خلال اعتماد معظم الباحثين في مختلف دول العالم على هذا الكتاب كمرجع أساسي في تاريخ العلوم العربية في القرون الوسطى. ويجدر الذكر بأن الترجمة الفرنسية كتب مقدمتها مؤرخ العلوم الفرنسي الشهير رينيه تاتون وصدرت تحت عنوان: **الرياضيات العربية (القرن ٨ ـ ١٥م)**[2].

أما العالمة غالينا ماتفييفسكايا فأمضت ثلاثين عاماً في ترجمة ودراسة المخطوطات العلمية العربية والإسلامية ونشرت مئات الدراسات والبحوث العلمية المعمقة. ونذكر من أعمالها: «تاريخ دراسة المقالة العاشرة لإقليدس»، و«دراسات حول العدد في المشرق الإسلامي في القرون الوسطى»، وموسوعة «علماء الرياضيات والفلك المسلمين وأعمالهم في القرون ٨ ـ ١٧» (٣ أجزاء). ولها دراسات عن الخوارزمي والبيروني والفارابي وابن لبان وابن عراق

(1) A. Djebbar. ''Les mathématiques arabes et leur environnement'', Actes de l' Université d'été du Mans sur l'histoire des mathématiques (6-13 Juillet 1984), Commission Inter-IREM d'épistémologie (édit.), La Ferté Bernard, Bellanger & fils éditeur, 1986, pp. 36-70.

(2) Adolf P. Youschkevich.Les Mathématiques Arabes (VIIIe -XV siecles), Vrin, Paris, 1976.

ونصير الدين الطوسي وابن البغدادي وابن قرة وابن سينا والصوفي والقزويني وأبي عبد الله الخوارزمي (صاحب مفتاح العلوم) والعاملي وغيرهم.

٣ ـ موسوعة «علماء الرياضيات والفلك في العالم الإسلامي القروسطي ومؤلفاتهم» (ق ٨ ـ ١٧):

صدرت الطبعة الروسية عام (١٩٨٣) في موسكو [٤٣]. أما ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية [٤٤] فقد تمت بتصرف من قبل روزنفلد وإحسان أوغلو[(١)] دون أن يذكر اسم ماتفييفسكايا فيها.

وتعد هذه الموسوعة من أهم أعمال ماتفييفسكايا. وقد ضمنتها خلاصة أبحاثها في تاريخ الرياضيات العربية التي قامت بها على مدى عشرات السنين، وقد أعدت هذا المؤلف الضخم بالتعاون مع المستعرب الروسي ـ الأمريكي المعروف ب. روزنفلد. وتتكون الموسوعة من ٣ أجزاء.

الجزء الأول من الموسوعة مكون من ٤٧٩ صفحة. شارك في كتابته يوشكيفيتش وروزنفلد.

وفي مقدمة المجلد الأول ورد ما يلي: يهدف هذا الكتاب إلى تقديم معلومات مفصلة عن المراجع والمؤلفات المعروفة حتى وقتنا لعلماء الرياضيات والفلك في منطقة شاسعة ممتدة من آسيا الوسطى وأذربيجان وشمال القوقاز وإيران وأفغانستان وتركيا وشمال الهند والبلدان العربية في آسيا المتقدمة وشمال أفريقيا وشبه جزيرة البيرينيه في الفترة من القرن (٧ وحتى ١٧ ميلادي). وقد ارتبطت تلك البلدان في الفترة المذكورة (شمال القوقاز وتركيا وشمال الهند فقط في القرون الأخيرة) بديانة مشتركة هي الإسلام ولغة علمية واحدة هي العربية. وقد تشبعت العلوم في هذه البلدان بعلوم الحضارات الغابرة والعلوم القديمة وعلوم الفترة الهيلينستية وعلوم الهند. كما ارتبطت بعلوم الصين وأوروبا الغربية. وقد

(1) B.Rozenfeld, E.Ihsanoglu, Mathematicians, Astronomers & other Scholars of Islamic Civilization and their works (7th-19th c.), IRCICA, Istanbul. (2003).



جمعت علوم المسلمين القروسطية بشكل رائع، انطلاقاً من العلوم السابقة لهم، بين العلوم التطبيقية للشرق القديم وبين العلوم النظرية لليونان. وعلى يد العرب تم وضع أسس علوم رياضية جديدة كالجبر وحساب المثلثات وتطورت بشكل جوهري الطرق الحسابية والإنشاءات الهندسية. وبشكل مواز للرياضيات تم تطوير علوم الفلك والجغرافيا الرياضية والميكانيكا والبصريات ونظرية الموسيقا.

ويشير المؤلفان إلى ضرورة الأعمال الموسوعية التي تعمم نتائج البحث في تاريخ العلوم العربية. وأول من عرضها من المستعربين كان غ.سوتر «علماء الرياضيات والفلك العرب ومؤلفاتهم» التي صدرت عام (١٩٠٠) وصدرت ملحقات وإضافات لها عام (١٩٠٢) من قبل سوتر وكذلك عام (١٩٢٥) من قبل أ.رينو. وهناك عمل ضخم هو «تاريخ الأدب العربي» لكارل بروكلمان الذي صدر في (١٨٩٨ ـ ١٩٠٢). و«مقدمة في تاريخ العلم» لجورج سارتون نشرها في الفترة (١٩٢٧ ـ ١٩٤٨). وموسوعة «تاريخ التراث العربي» لفؤاد سيزغين الذي صدر المجلد الأول منها عام (١٩٦٧)، وكرس المجلد الخامس منها لتاريخ الرياضيات العربية وصدر عام (١٩٧٤).

وتضمن لمحات تاريخية عن فروع الرياضيات العربية مثل الترقيم والحساب وجمع المتسلسلات والمعادلات الجبرية الخطية والتربيعية ومن الدرجات الأعلى واستخراج الجذور ونظرية الأعداد والإنشاءات الهندسية والبراهين الهندسية ونظرية الخطوط المتوازية والتحويلات الهندسية وحساب المثلثات والطرق التفاضلية والتكاملية. وكذلك عن العلوم الطبيعية: الفلك والآلات الفلكية والجغرافيا والميكانيكا والبصريات ونظرية الموسيقى وغيرها. وتطرق إلى فلسفة الرياضيات والعلوم الطبيعية عند العرب والمسلمين.

كما عرضت في هذا الجزء معلومات قيمة عن الموسوعات العربية وفلسفة الرياضيات والعلوم الطبيعية وكذلك مسائل التأريخ. ثم يورد الكتاب قائمة بأهم المصطلحات العلمية العربية وترجماتها إلى اللغة الروسية. ويسرد المؤلفان قائمة بأهم المكتبات العالمية التي تحتوي على المخطوطات العلمية العربية



والإسلامية من ٤٣ دولة ومدينة أجنبية وعربية. ونجد في هذا الجزء عرضاً لمجموعات المخطوطات المصورة في (٧) دول. ويُختتم الجزء بعرض أعمال علماء من القرون الوسطى وباحثين معاصرين في تاريخ العلوم العربية والإسلامية وعددهم حوالي (١٥٠٠).

أما **الجزء الثاني من الموسوعة** (يقع في ٦٥٠ صفحة) وهو الأهم من بين الأجزاء الثلاثة، حيث يعرّف هذا الجزء بحياة ومؤلفات أكثر من ألف عالم رياضيات وفلك عربي ومسلم عاشوا بين القرنين الثامن والسابع عشر. وقد أشار المؤلفان في هذه الموسوعة بأن مؤرخ العلوم سوتر عرض لحياة وأعمال حوالي ٥٠٠ عالم عربي ومسلم، وأرادا أن يوسعا هذه الموسوعة لتشمل ألف عالم. فقدمت الموسوعة خدمات لا توصف للباحثين في تاريخ الرياضيات والفلك العربي، المستخدمين للغة الروسية، وما زالت حتى الآن.

وفي هذا الجزء يعطي المؤلفان لمحة عن حياة كل عالم وعن مؤلفاته بلغته الأم وعن ترجماتها إلى اللغات الأخرى والدراسات التي أجريت حولها. وعرضت محتويات أهم المخطوطات.

وكرس **الجزء الثالث من الموسوعة** (٣٧٢ صفحة) للتعريف بعلماء لم تعرف تواريخ حياتهم، وبمخطوطات مجهولة المؤلف، وكذلك فهارس رتبت حسب أسماء العلماء وأخرى حسب عناوين المؤلفات.

ومن دراسة الموسوعة يتضح ما يلي:

ـ يحتوي الجزء الأول على مقالة تمهيدية مطولة (حوالي ١٠٠ صفحة) اشترك في كتابتها ماتفييفسكايا ويوشكيفيتش وروزنفلد. وهذه المقالة فيها عرض رائع ومكثف لأهم الإسهامات العلمية العربية في الرياضيات والفلك وغيرها وهي تصلح أن تكون كتاباً مستقلاً عن تاريخ العلوم العربية.

ـ اعتمدت الموسوعة على عدد هائل من المخطوطات المترجمة من قبل المؤلفين ودراساتهم أو دراسات باحثين آخرين من روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقاً بالإضافة إلى دراسات باحثين من دول آخرى.



ـ استفاد المؤلفان من الظروف الممتازة للبحث العلمي المتوفرة آنذاك في الحقبة السوفياتية. فالجمهوريات الإسلامية المليئة مكتباتها بالمخطوطات العربية كانت ضمن الاتحاد السوفياتي وكان الحصول على المخطوطة أمر سهل. وكان هناك العديد من الباحثين الذين يتقنون العربية في آسيا الوسطى.

ـ كان اطلاع الباحثين السوفيات على المكتبات العالمية وعلى البحوث الأجنبية محدوداً، ما أثر على اكتمال الموسوعة ودقتها. حيث أن عملية السفر من وإلى الاتحاد السوفياتي كانت معقدة جداً. وكذلك المراسلات تخضع لرقابة صارمة. بالإضافة إلى ضعف إلمام المؤلفين باللغة العربية.

ـ وردت بعض الأخطاء في الموسوعة تتعلق بتحديد الاسم الصحيح لمؤلف المخطوطة أو مكان تواجدها أو ترجمة اسم المخطوطة إلى اللغة الروسية.

ـ تمكن الباحثون من الاستفادة من مساعدة العديد من الباحثين العرب والأجانب العاملين في تاريخ العلوم وحصلوا على فهارس بالمخطوطات المتوفرة في عشرات البلدان.

ـ كانت الموسوعة وستبقى مرجعاً مهماً وأساسياً لأي باحث في المخطوطات العربية في روسيا والجمهوريات السوفياتية السابقة بغض النظر عن أية ملاحظات.

وأخيراً لا بد من التعبير عن تقدير جهود الباحثين الروس على اهتمامهم بالعلوم العربية ودراستها بعمق والتعامل مع إسهامات العلماء العرب والمسلمين بإنصاف وموضوعية. وخاصة لأن المستعربين الروس أكدوا على موقفهم في إبراز الجهد القيم للعلماء العرب [٤٣] وتأثيرهم في تقدم الحضارة الإنسانية بشكل عام والأوروبية منها بوجه خاص.

وأدعو الجهات المسؤولة والمهتمة بإحياء التراث العلمي العربي والإسلامي، أن تهتم بذلك الكنز من البحوث والدراسات التي قام بها المستعربون السوفيات في الكشف عن مكنونات العشرات من المخطوطات العربية في الرياضيات والفيزياء والفلك وغيرها. وعلينا ترجمة أهم البحوث إلى العربية لتكون في متناول الباحثين

الشباب. وهذا المشروع يحتاج لجهود جماعية كأن يتبناها مركز علمي عربي مهتم بالتراث بعد رصد المبالغ المالية اللازمة للمترجمين والناشرين.

۞ ۞ ۞

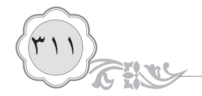
رابعاً: أشهر مؤرخي الرياضيات العربية في روسيا:

١ ـ أدولف يوشكيفيتش ـ أول مؤرخ للرياضيات العربية في روسيا (١٩٠٦ ـ ١٩٩٣):



تمتد العلاقات الثقافية والروحية بين روسيا والعرب إلى مئات السنين. ومعروفة أسماء العشرات من أبرز المستشرقين والمستعربين الروس الذين درسوا الثقافة العربية والإسلامية والمسيحية وأحبوها ونشروها بين المثقفين الروس [١٥ ـ ١٦].

وبالرغم من أن الاهتمام بتاريخ الرياضيات في أوساط علماء الرياضيات الروس برز بوضوح في الثمانينات من القرن التاسع عشر للميلاد إلا أن التطور الواسع والحقيقي للدراسات في تاريخ الرياضيات مقترن مع بداية العهد السوفياتي. فقد انطلقت الأبحاث العلمية لفهم التغيرات الاجتماعية. وكذلك تركزت جهود العلماء تحت تأثير إيديولوجي على تطوير العلوم المختلفة وخاصة النظرية منها وفي مقدمتها الرياضيات. وقاد ذلك إلى الاهتمام بتاريخ تلك العلوم وفلسفتها. ولعب التطور الهائل العميق والواسع للعلوم الرياضية في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين إلى تشكيل أحد أبرز المراكز العلمية في العالم وهو **المدرسة السوفياتية في الرياضيات** [٤٣].



أما مدرسة تاريخ الرياضيات السوفياتية، فقد نشأت في رحاب جامعة موسكو الحكومية. وبالذات في كلية العلوم الرياضية والفيزيائية ـ قسم الرياضيات في أواسط العشرينات. ففي هذه الفترة بدأت ص. يانسكايا (١٨٩٦ ـ ١٩٦٦) وم. فيغودسكي (١٨٩٨ ـ ١٩٦٥) نشاطاً كبيراً في إحياء الدراسات في تاريخ الرياضيات والتي انقطعت بعد وفاة مؤرخ الرياضيات المعروف ف. بوبينين (ق١٩ ـ ٢٠). وبداية نظمت يانسكايا في ١٩٢٥ حلقة بحثية (سيمينار) في تاريخ الرياضيات والفيزياء وفلسفتهما. أما فيغودسكي فقد دافع في جامعة موسكو عن أول رسالة دكتوراه في تاريخ الرياضيات في الحقبة السوفياتية وعنوانها: «أفلاطون الرياضي»، وبدأ بإلقاء محاضرات في تاريخ الرياضيات في أوائل الثلاثينات من القرن العشرين.

ولم يكن تأسيس المدرسة السوفياتية لتاريخ الرياضيات صدفة. فقد جاءت على خلفية الأزمة العميقة التي تعرضت لها أسس الرياضيات في عشرينات القرن العشرين. ومعروف أن هذه الأزمة التي هزت أسس الرياضيات تولدت في أحشاء نظرية المجموعات والدوال الحقيقية في بدايات القرن العشرين. وقد تميزت أيضاً تلك المرحلة بصراع قوي بين الاتجاهات المنطقية عند برتراند راسل والطريقة الشكلية عند هيلبرت والطريقة الحدسية عند براور ـ فيل. وفي روسيا برز ن. لوزين (١٨٨٣ ـ١٩٥٠) في ريادة التيار المحدث لطريقة التفكير الرياضي وفلسفة الرياضيات.

في نهاية العشرينات برزت شخصية يوشكيفيتش (١٩٠٦ ـ ١٩٩٣) في طليعة الباحثين في تاريخ الرياضيات في موسكو. كان يوشكيفيتش عالماً ملماً بكافة جوانب تاريخ الرياضيات. حصل على نتائج علمية أصيلة في تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى وخاصة في الرياضيات العربية، وفي تاريخ أسس التحليل الرياضي، وفي تاريخ الرياضيات في روسيا، وفي دراسة أعمال ديكارت ونيوتن وليبنيتز وأويلر وأوستراغرادسكي.



وقد لعبت شخصية أبيه ـ الفيلسوف والرياضي والكاتب الروسي المعروف ب. يوشكيفيتش الذي أحب تاريخ وفلسفة العلوم، دوراً مهماً في حياته.

أ ـ لمحة عن السيرة الشخصية ليوشكيفيتش:

كان يحلم في صغره أن يصبح فيلسوفاً، لكن والده وكان متخصصاً في الرياضيات قال له: «إن الفيلسوف الذي يجهل الرياضيات فهو يجهل الفيزياء وبالتالي فهو لا يعرف العلوم الأساسية، وهو ليس بفيلسوف» [٤٦ ـ ٤٩]. إذاً لمعرفة الفلسفة لا بد من الرياضيات (وهذا الرأي قاله علماء كثر ومنهم الكندي الذي قال إن الفلسفة لا تنال إلا بالرياضيات وقبله أفلاطون في أكاديميته الشهيرة). وهكذا انتسب يوشكيفيتش إلى كلية الفيزياء والرياضيات في جامعة موسكو الحكومية سنة (١٩٢٣).

درس يوشكيفيتش في الجامعة في فترة التطور العاصف للبحوث الرياضية وخاصة في مدرسة إيغوروف ـ لوزين في نظرية المجموعات والتحليل الحقيقي. وليس صدفة اهتمامه بأسس الرياضيات حيث كان يميل إلى النظرية الحدسية لبراور (ق ١٩ ـ ٢٠) وقام بترجمة أعمال فيل (ق ١٩ ـ ٢٠) في الفلسفة. تخرج من الجامعة في عام ١٩٢٩. وكان خلالها يشارك في سيمينار تاريخ الرياضيات الذي يشرف عليه كل من يانسكايا وفيغودسكي. وفيما بعد أصبح يوشكيفيتش أحد المشرفين الأساسيين على أعمال ذلك السيمينار.

أول عمل علمي له كان مكرساً لأسس التحليل الرياضي وهو عن ميتافيزياء حساب اللامتناهيات في الصغر لكارنو (ق ١٧ ـ ١٨)، ثم تابع نشاطه في دراسة أعمال الرياضيين الكلاسيكيين كتحليل اللامتناهيات في الصغر للوبيتال (ق ١٧ ـ ١٨)، وهندسة ديكارت (ق ١٧ ـ ١٨)، والحساب الشامل لنيوتن (ق ١٧ ـ ١٨) وغيرها. وكتب عشرات المقالات العلمية عن علماء الرياضيات للموسوعة السوفياتية الكبيرة.

كان يحب العمل ويعشق العلم. حياته منظمة. أحب الأدب الروسي وخاصة الشعر وكذلك الموسيقى والرسم. شعراؤه المحببين كانوا بوشكين وغوته.



ب ـ يوشكيفيتش ونشوء المدرسة السوفياتية في تاريخ الرياضيات(١):

كانت موسكو هي مركز ولادة هذه المدرسة. وفي موسكو عمل أهم سيمينار في تاريخ الرياضيات في الاتحاد السوفياتي. كما صدرت في موسكو مجلة «أبحاث في تاريخ الرياضيات». وأصبح يوشكيفيتش الرائد والملهم والمنظم البارع لمدرسة تاريخ الرياضيات، ونال اعترافاً وتقديراً ليس في روسيا فحسب وإنما في العالم.

وسنركز هنا على **مساهماته القيمة في تاريخ الرياضيات العربية:**

باكورة أعمال يوشكيفيتش وأول بحث علمي في روسيا عن تاريخ الرياضيات العربية كان بحثه الموسوم: «الجبر عند عمر الخيام» الذي كتبه قبيل الحرب العالمية الثانية، لكنه رأى النور فقط في عام (١٩٤٨). وفي حينها رحب المستعرب الأكاديمي إ. كراتشكوفسكي بهذا البحث واقترح على يوشكيفيتش أن يتعلم اللغة العربية ويتابع هكذا أبحاث. لم يتعلم يوشكيفيتش العربية إلا قليلاً، لكنه أسس مدرسة لدراسة الرياضيات العربية، وهذا جهد عظيم فتح الطريق على مصراعيه للاستعراب العلمي الروسي.

ومن أهم أعمال يوشكيفيتش «نظرية الخطوط المتوازية» بالاشتراك مع روزنفلد(٢).

أما كتابه «تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى» الذي صدر عام ١٩٦١ والذي ترجم إلى ٦ لغات، فهو من أهم أعماله. وهذا الكتاب القيم يحتوي على فصل عن الرياضيات في البلاد الإسلامية. ويحتوي الكتاب على ٤ فصول في تاريخ الرياضيات: في الصين والهند والبلاد الإسلامية وأوروبا القروسطية.

---

(١) انظر أعلاه محتويات كتاب يوشكيفيتش عن الرياضيات في البلاد الإسلامية.

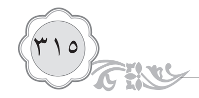
(٢) روزنفلد بوريس، يوشكيفيتش أدولف. **نظرية الخطوط المتوازية في المصادر العربية.** ترجمة سامي شلهوب وكمال عبد الرحمن. معهد التراث العلمي العربي. جامعة حلب. ١٩٨٩.

ج ـ أعمال أخرى ليوشكيفيتش:

بالإضافة إلى مؤلفاته الكثيرة عن الرياضيات العربية وتحليلاته الغنية للدراسات التاريخية قدم أبحاثاً معمقة عن الجبر عند الخيام وكذلك القسم الحسابي والجبري عند الخوارزمي وعن مفتاح الحساب للكاشي وأعمال ثابت بن قرة والرسائل الهندسية لنصير الدين الطوسي وأبي الوفاء البوذجاني وغيرهم.

وقام بتعميم نتائج الدراسات في **تاريخ الرياضيات من العصور القديمة وحتى ثلاثينات القرن العشرين**. ومن أجل تنفيذ هذه المهمة اختار مجموعة من الباحثين المعروفين كروزنفيلد وباشماكوفا. وتم نشر ثلاثة مجلدات في هذا الموضوع. ففي عام (١٩٧٠) طبع مجلدان: شمل الأول الفترة من العصور القديمة وحتى بداية العصر الحديث (بداية القرن السابع عشر)، أما الثاني فكرس للقرن السابع عشر. وأخيراً ظهر الجزء الثالث الذي غطى القرن الثامن عشر.

وقد حدد يوشكيفيتش الغاية الأساسية من المجلد الأول بالكلمات التالية: كرس هذا الجزء من الكتاب لعرض تاريخ تطور الرياضيات كعلم واحد متكامل. ولذلك احتل تاريخ المفاهيم الأساسية في الرياضيات وطرقها وخوارزمياتها وترابطها الداخلي وتطورها عبر الزمن. وقد أخضعت لهذا الهدف جميع جوانب التطور التاريخي. كما أن هذا المجلد حسب رأي يوشكيفيتش ينسجم ويخضع مع توجهات المدرسة السوفياتية في تاريخ الرياضيات وهي عرض الرياضيات في تطورها المستمر وديناميتها وتقدم طرق البحث في العلاقات الكمية والأشكال الفراغية للعالم الواقعي، وليس هذا فحسب بل التعامل مع الرياضيات كظاهرة اجتماعية. فالأفكار والتراكيب الرياضية تتطور وتعمم وهذا هو التطور الداخلي للرياضيات. لكن هذا التطور يحدث في شروط معينة وعلى أساس من النشاط العملي للناس. إذاً فهو مرتبط بالباحثين وعقليتهم وفلسفتهم وحتى أحياناً أخلاقياتهم. وسعى المؤلفون تحت الإشراف المباشر ليوشكيفيتش إلى النظر بروح جديدة إلى منجزات الرياضيات التي عادة ما تؤثر في الأبحاث المعاصرة، وأحياناً توصلوا إلى استنتاجات جديدة في تاريخ الرياضيات.



وتجدر الإشارة إلى الاستفادة الواسعة في إعداد هذه المجلدات من آخر المكتشفات في تاريخ الرياضيات لكبار الباحثين في ذلك الوقت: ك.فوغل، وو.نيغيباور، وب.فاندر فاردن، وإ. كينيدي، وم.فيجودسكي، وب.روزنفلد، وإ.باشماكوفا، وأ.يوشكيفيتش، وغ.ماتفييفسكايا، وم.روجانسكايا وغيرهم الكثير. كما شارك في كتابة هذه المجلدات كبار علماء الرياضيات الروس: أ.كولموغوروف، وأ.غيلفوند، وب.غنيدينكه. وأعقب تلك المجلدات عمل ضخم جديد «رياضيات القرن التاسع عشر» شارك في كتابته كبار الرياضيين الروس.

ولم يتمكن يوشكيفيتش من تنفيذ خطته التالية التي وضعها في بداية الثمانينات لكتابة تاريخ رياضيات القرن العشرين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية بسبب رحيل كولموغوروف عام (١٩٨٧) ورحيل يوشكيفيتش عام (١٩٩٣). إضافة إلى انهيار الاتحاد السوفياتي عام (١٩٩١). واتسمت هذه المرحلة بتدهور أوضاع العلم والعلماء الروس بشكل مخيف. فقد سرّع ذلك في وفاة عدد كبير من مؤرخي الرياضيات الكبار في السن لأنهم لم يستطيعوا تحمل قسوة الزمن في فترة البيريسترويكا في التسعينات. وبرزت مشكلة لم يعرفها المجتمع السوفياتي من قبل وهي ندرة الكوادر الشابة التي تبحث في تاريخ الرياضيات وحتى في العلوم المختلفة. وبالرغم من هذه الظروف الصعبة التي ذكرناها لم تنقطع البحوث في تاريخ رياضيات القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

وكان ليوشكيفيتش الفضل الأكبر في الإشراف المباشر على جميع أعداد مجلة قسم تاريخ الرياضيات في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية واسمها «أبحاث في تاريخ الرياضيات». هذه المجلة التي كانت تعد مجلة كل مؤرخي الرياضيات في الاتحاد السوفياتي وفي روسيا ولها مكانة عالمية مرموقة وهي تصدر باللغة الروسية وتقدم ملخصات البحوث باللغة الإنجليزية (رئيس تحريرها البروفيسور سيرغي ديميدوف). وللأسف فقد توقفت المجلة عن الصدور بسبب الاوضاع المتردية في المعهد ومغادرة كل

المختصين بتاريخ الرياضيات (بما فيها الرياضيات العربية) للمعهد بدءا من عام (٢٠١٦).

كما أشرف يوشكيفيتش على نشاط قسم تاريخ الرياضيات في الاتحاد الوطني السوفياتي لتاريخ العلوم والتكنولوجيا وفلسفتها، وكان قد لعب دوراً حاسماً في تأسيس ذلك الاتحاد عام (١٩٥٦).

أما المؤتمرات العلمية المتعددة المحلية منها والدولية، فكانت تقام بتوجيه وإدارة يوشكيفيتش. وهو الذي اقترح إقامة مدارس تاريخ الرياضيات وهي عبارة عن لقاءات لمدة اسبوع في مكان هادئ في الضواحي يستطيع الباحثون فيه أن يناقشوا كل ما يريدونه في تاريخ الرياضيات وبنفس الوقت توجد برامج للعلماء للراحة في أرياف روسيا الجميلة.

وكان متابعاً لكل جديد في أوروبا في تاريخ الرياضيات ويحرص على إخبار المشاركين في السيمينارات العلمية بنبذات عن هذه الكتب والأبحاث الجديدة.

د ـ من مراسلات يوشكيفيتش مع فوغل (ألمانيا):

صدرت مراسلاته مع المؤرخ الألماني المعروف ك. فوغل[(١)] في كتاب باللغة الروسية والألمانية عام (١٩٩٧) [٥٠]. وقد وردت في هذه المراسلات لقطات مهمة حول الرياضيات العربية.

ففي الصفحة (٤٥) من الكتاب يشير يوشكيفيتش إلى أن الرياضيات العربية لها طابع حسابي خوارزمياتي. وفي الصفحة (٥٥) يلاحظ يوشكيفيتش أن تعميم مفهوم العدد ورد عند العلماء العرب كالخيام قبل ليوناردو البيزي.

في الصفحة (٦٦) يؤكد يوشكيفيتش على أنه بالرغم من أن العرب كانوا

---

(١) يوشكيفيتش أدولف وفوغل ك. **تاريخ الرياضيات بلا حدود.** تحت إشراف م.روجانسكايا. معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. أكاديمية العلوم الروسية. موسكو. ١٩٩٧.



تلامذة اليونانيين القدماء إلا أنهم ـ أي العرب ـ أسسوا علماً مختلفاً من حيث الجوهر عن العلم الكلاسيكي.

كما يتساءل يوشكيفيتش في الصفحة (٦٨) عن العلاقة التاريخية في مجال العلم بين العرب والصينيين والخوارزميين. ويضيف أن المعلومات شحيحة في هذا المضمار.

هـ ـ يوشكيفيتش المربي والمعلم:

يعتبر يوشكيفيتش شيخ المؤرخين للرياضيات في الاتحاد السوفياتي منذ أواسط القرن العشرين وكل الباحثين في هذا المجال هم تلامذته إما بشكل مباشر أو غير مباشر. وفي كل الأحوال فهو مؤسس مدرسة تاريخ الرياضيات في روسيا ومن ضمنها الرياضيات العربية. فعلى بحوثه وكتبه تربت أجيال من الباحثين الذين أصبحوا ذوي شهرة عالمية.

كان شديد الاهتمام بطلبته الشباب وتمتع بقدرة عجيبة على اكتشاف مواهب الباحثين وتوجيههم في الاتجاه المناسب لقدراتهم. وبنفس الوقت كان صارماً وموضوعياً في تقييم أعمال تلامذته ولا يحب مجاملتهم على حساب العلم. وكان يميز بين العلاقات الشخصية والعلاقات العلمية ويشجع الطلاب على تعلم اللغات الأجنبية.

إن الباحثين العرب والأوروبيين يعرفون لقليل عن شخصية يوشكيفيتش العلمية ونشاطاته الأكاديمية ومسيرة حياته المليئة بالإبداعات والعطاءات. وترى معظم الباحثين في تاريخ الرياضيات يستشهدون بكتاب يوشكيفيتش عن الرياضيات في البلاد الإسلامية لكن مؤلفاته العلمية وتعد بالمئات غنية بشكل لا يوصف بالمعلومات القيمة والآراء العميقة والاستنتاجات المبرهنة.

إن يوشكيفيتش [٥١ ـ ٥٢] هو واحد من أعظم مؤرخي الرياضيات في العالم وبالرغم من أنه لم يكن يعرف اللغة العربية ولا الصينية مثلاً إلا أنه كتب عن الرياضيات العربية والصينية أبحاثاً ليس لها مثيل.

وأخيراً أرى من واجبنا عرباً ومسلمين أن نحيي ذكرى هذا العالم الجليل

الذي ساهم بإحياء التراث العلمي العربي والعالمي، بأن نقيم مؤتمراً مخصصاً لمسيرته العلمية ولشخصيته الفذة كعالم وإنسان وكأول مؤرخ للرياضيات العربية في روسيا.



٢ ـ بوريس روزنفيلد (١٩١٧ ـ ٢٠٠٨):



بوريس روزنفيلد، من مواليد سان بطرسبورغ سنة (١٩١٧)، تخرج من معهد موسكو للطاقة ودرس بشكل مواز وتخرج من كلية الرياضيات والميكانيك في جامعة موسكو الحكومية. عاش سنوات عمره الأخيرة في الولايات المتحدة (١٩٩٠ ـ ٢٠٠٨) ويعتبر أحد أكثر مؤرخي الرياضيات العربية غزارة في الإنتاج والعطاء العلمي في القرن العشرين (له أكثر من ٤٥٠ بحث علمي). أشرف على أبحاث حوالي (٨٢) دكتور في الرياضيات و٨ دكتوراه في العلوم حصلوا على لقب بروفيسور.

حصل على الدكتوراه عام (١٩٤٢) بتخصص «هندسة متنوعات الكرة»، وفي (١٩٤٧) دافع عن رسالة دكتوراه في العلوم الرياضية بتخصص «نظرية عائلات الفضاءات الجزئية». وطور أفكار العالم الفرنسي هنري كارتان الذي التقى به في موسكو عام (١٩٤٥). ثم عمل أستاذاً في قسم الرياضيات العالية في جامعة موسكو للعلوم التقنية خلال الفترة (١٩٤٣ ـ ١٩٥٥). وخلال عمله في جامعة باكو باذربيجان (١٩٥٠ ـ ١٩٥٥) بدأ أبحاثه في تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى. وترجم عدداً كبيراً من المخطوطات العربية مثل: الطوسي والخيام والكاشي والخوارزمي وثابت بن قره وابن الهيثم والبيروني وأوليغ بيك.



من (١٩٤٥) وحتى (١٩٩٠) عمل كبير باحثين علميين في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم والتكنولوجيا في موسكو. وألف كتباً مع الباحث يوشكيفيتش وأصدر مجموعة مهمة من المراجع في تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى منها: كتاب في (٣) مجلدات بعنوان «**تاريخ الرياضيات من العصور القديمة وحتى بداية القرن التاسع عشر**» (١٩٧٠ ـ ١٩٧٢) وكذلك في تاريخ الهندسة (بالتعاون مع لابتيف في كتاب «**رياضيات القرن التاسع عشر. الهندسة. الدوال التحليلية**». تحت إشراف كولموغوروف ويوشكيفيتش (١٩٨١). وفي عام (١٩٩٠) هاجر إلى الولايات المتحدة الامريكية وعمل في الفترة (١٩٩٠ ـ ١٩٩٥) بروفيسوراً في جامعة ولاية بنسلفانيا والقى محاضرات في هندسة زمرلي وتاريخ الرياضيات.

وهو عالم رياضيات له أبحاث قيمة في الهندسة عموماً والهندسة اللاإقليدية بشكل خاص. وكان عضواً في الأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم. وكانت بداية أعماله في تاريخ الرياضيات العربية حول مخطوطة نصير الدين الطوسي في برهان المسلمة الخامسة لإقليدس عندما كان أستاذاً للهندسة في جامعة باكو الحكومية في أذربيجان (١٩٥٥). ونشر بالتعاون مع يوشكيفيتش ترجمة ودراسة لثلاث مخطوطات لعمر الخيام (١٩٤٨)، وفي عام (١٩٥٤ نشرت مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات (موسكو) ترجمة روزنفلد لمخطوطة جمشيد الكاشي «**مفتاح الحساب**»[(١)] مع تعليق مفصل أنجزه بالتعاون مع يوشكيفيتش. ونشر عام (١٩٥٦) كتاباً بعنوان «شرح هندسة لوباتشيفسكي». ولا يمكن حصر أعماله في هذا الملخص ولكن نشير إلى أهم أعماله في تاريخ الرياضيات العربية: ترجمة مخطوطة ابن الهيثم مع التعليق (١٩٥٨)، والطوسي وأولغ بك (١٩٦٠)، ثابت بن قرة (١٩٦١، ١٩٦٣)، البيروني (١٩٦٣).

---

(١) جمشيد غياث الدين الكاشي. **مفتاح الحساب ومخطوطة حول الدائرة**. ترجمة روزنفيلد. التعليق العلمي ليوشكيفيتش وروزنفيلد. الدار الحكومية للمؤلفات التقنية النظرية. موسكو. ١٩٥٦.

كما درس مخطوطات الفارابي والفرغاني والفزاري ومحمد بن الحسين والخوارزمي والنسوي والنيريزي والرازي والروداني والرومي والسلار والسموأل والسيجزي وابن سينا.

وقد نشر كتاباً مهماً بالاشتراك مع يوشكيفتش حول «**نظرية الخطوط المتوازية في المشرق في القرون الوسطى ٩ ـ ١٤**»[١] (ترجم عام (١٩٨٣) في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب إلى العربية والى عدة لغات أخرى). ولكن أكبر عمل نفذه روزنفلد بالتعاون مع مؤرخة العلوم الروسية المعروفة غالينا ماتفييفسكايا، هو **موسوعة علماء الرياضيات والفلك المسلمين ومؤلفاتهم في القرون ٨ ـ ١٧** (موسكو ١٩٨٣).

كما أصدر ترجمة تلك الموسوعة إلى الإنجليزية مع بعض التعديلات بالاشتراك مع مؤرخ الرياضيات التركي إكمال الدين إحسان أوغلو (إسطنبول ٢٠٠٣)، ولكنه لم يذكر اسم الباحثة ماتفييفسكايا في الترجمة الإنجليزية مما أثار ردة فعل سلبية كبيرة لديها تجاه هذا التصرف غير الأمين وغير الوفي (وهذا ما عبرت عنه غالينا ماتفييفسكايا، بغضب شديد، أثناء لقائنا في موسكو منذ سنوات). وقد كتب مقالات عديدة للقواميس والموسوعات العالمية مثل معجم التراجم العلمية (نيويورك، تحت إشراف ش. غيليسبي) وغيرها[٢].

ويمكن تلخيص الاتجاهات البحثية الأساسية في نتاجه العلمي كما يلي:

١) الهندسة (اللاإقليدية ومتعددة الأبعاد والإسقاطية).

---

(١) ب.روزنفلد، أ.يوشكيفيتش. **نظرية الخطوط المتوازية في المصادر العربية**. ترجمة سامي شلهوب وكمال عبد الرحمن. معهد التراث العلمي العربي. جامعة حلب. ١٩٨٩.

(2) S. Demidov, M. Rozhanskaya, A. Volodarsky, ‘‘In Memriam: Prof. Boris A. Rosenfeeld (30th August 1917-5th April 2008), Suhayl. International Journal for the History of the Exact and Natural Sciences in Islamic Civilisation (Barcelona), Vol. 7, p. 165-74. Online at: https://raco.cat/index.php/Suhayl/article/view/199952.



٢) تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى وخاصة في المشرق العربي والإسلامي.

٣) ترجمة ودراسة عشرات المخطوطات العربية في الرياضيات والفلك.

٤) مؤلفاته في تاريخ الفلك والذي يتعلق بالجغرافيا الوصفية والميكانيكا وعلم المعادن وغيرها.

٥) مؤلفاته في تراجم العلماء العرب والمسلمين وغيرهم.

٣ ـ غالينا ماتفييفسكايا (١٩٣٠):



من مواليد (١٣ يوليو ١٩٣٠) في مدينة دنيبروبيتروفسك في روسيا. أنهت عام (١٩٥٤) كلية الرياضيات والميكانيك في جامعة لينينغراد بتخصص«رياضيات». وحصلت عام (١٩٥٩) على شهادة دكتوراه (ph.d.) في تاريخ الرياضيات من معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية ـ فرع لينينغراد (المشرف العلمي: الرياضي المعروف الأكاديمي سميرنوف ف.) وموضوع رسالة الدكتوراه: «المخطوطات غير المنشورة لليوناردو أويلر في نظرية الأعداد». ثم عملت باحثة علمية في نفس المعهد. أما في عام (١٩٥٩ ـ ١٩٦٠) فأصبحت باحثة علمية في معهد رومانوفسكي للرياضيات التابع لأكاديمية العلوم في طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان السوفياتية. ونالت عام (١٩٦٨) درجة علمية «دكتوراه في العلوم الرياضية والفيزيائية» (doctor of sciences) وموضوع الرسالة: «دراسات حول العدد في المشرق القروسطي».

في عام (١٩٧٤) نالت جائزة البيروني الحكومية في مجال العلوم



والتكنولوجيا في جمهورية أوزبكستان. وحصلت عام (١٩٨٠) على لقب الشرف «الشخصية المتميزة في مجال العلم في جمهورية أوزبكستان». ثم عملت في عام (١٩٨٠ ـ ١٩٨٥) رئيسة لقسم الجبر والتحليل الرياضي في معهد رومانوفسكي للرياضيات التابع لأكاديمية العلوم الأوزبكية. وفي عام (١٩٨٥ ـ ١٩٩١) كانت باحثة علمية رئيسية في قسم الجبر والتحليل الرياضي في نفس المعهد[١]. وهي عضوة في الأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم. وعضوة أكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان.

بدأت دراسة تاريخ الرياضيات العربية في طشقند وذلك بتعلم اللغة العربية[٢]. وألفت كتاب: «حول تاريخ الرياضيات في آسيا الوسطى في القرون ٩ ـ ١٥». وتمركز

---

(١) بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ١٩٩١، عادت ماتفييفسكايا إلى روسيا من طشقند ـ عاصمة جمهورية أوزبكستان السوفيتية، حيث كانت تعيش مع زوجها عالم الفيزيولوجيا المعروف كريم رحيموف، الذي تعرفت عليه في لينينغراد في مرحلة دراسة الدكتوراه. وقد حدثتني خلال زيارتي لها في مدينة أورينبورغ في ٦/١٥/ ٢٠١٩ عن قصة عجيبة بأنه عندما انهار الاتحاد السوفياتي كانت تعيش في طشقند مع زوجها العالم الأوزبيكي، وطلبت منها السلطات الأوزبيكية مغادرة أوزبكستان لأنها لا تمتلك الإقامة الدائمة في أوزبكستان. وعندما جاءت إلى روسيا قالوا لها انتِ لستِ مواطنة روسية، ويجب عليكِ إثبات أنك عشت في روسيا ٥ سنوات متواصلة. تصوروا كم أساؤوا لهذه العالمة. قالت لي بحزن إنها كانت بلا وطن ولا جنسية وبقوا يستدعونها إلى المؤسسات الحكومية سنة كاملة وهي أستاذة في الجامعة وعضو أكاديمية العلوم الأوزبيكية وعضو الأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم، حتى قدمت لهم شهادة التفوق في المدرسة الثانوية وأثبتت أنها درست في أورينبورغ (في مرحلة الطفولة) لمدة تزيد عن ٥ سنوات، عندها وافقت موظفة قسم الجوازات مبدية انزعاجها على اضطرارها لقبول أوراق ماتفييفسكايا للحصول على الجنسية الروسية. طبعا هذا من نتائج انهيار الاتحاد السوفيتي وتدهور سمعة العلماء ومكانتهم.

(٢) حدثتني بالتفصيل خلال زيارتي لها كيف تعلمت اللغة العربية وبدأت بقراءة مخطوطات الرياضيات والفلك، وكانت تشعر بسعادة ليس لها حدود، لأنها كانت =



عمل ماتفييفسكايا منذ هذه الفترة على دراسة المخطوطات العربية الرياضية والفلكية وتوصيفها وترجمتها وتحليلها العلمي.

في عام (١٩٦٧) صدر لها كتاب «دراسة نظريات العدد في الشرق الأدنى والأوسط في القرون الوسطى». والذي اعتمد على الترجمات التي انجزتها بنفسها للشروحات العربية للمقالة العاشرة لأوقليدس، وفي عام (١٩٧١) صدر لها كتاب «تطور النظريات حول العدد في أوروبا حتى القرن ١٧» معتمدة على ترجمات المصادر اللاتينية الأصلية التي أعدتها بنفسها.

وقد كتبت في مقدمة هذا الكتاب[١]: عند دراسة تاريخ الرياضيات يجب التوقف عند موضوع ترجمة ونقل المعارف العلمية المتراكمة من الشرق الأوسط في القرون الوسطى إلى أوروبا، حيث استوعبها العلماء الأوروبيون وقدموا نظرياتهم الخاصة... ويمكن الحديث عن مرحلتين في التطور مفهوم العدد عند الأوروبيين.

الأولى استمرت حتى القرن (١٥)، حيث استوعبوا ما كتبه العلماء العرب والمسلمين عن مفهوم العدد.

والمرحلة الثانية تشمل القرن (١٦) في عصر النهضة الأوروبية والتي شهدت تطوراً هائلاً في المعارف والعلوم وخاصة الرياضيات والتي وضعت أساساً للاكتشافات العظيمة في القرن (١٧م).

وقد لعبت الترجمات العلمية من العربية واليونانية إلى اللاتينية في

= تكتشف مضامين تلك المخطوطات لأول مرة في التاريخ وتنشرها للعالم. وقالت لي: اليوم ذكرتني بأجمل أيام حياتي، عندما كنت أدرس مخطوطات الرياضيات العربية الصعبة، حيث الكلمات بدون نقاط وكان علي أن أكتشف موضع النقاط. وقالت كم تعذبت حتى اكتشفت كلمة «النسبة» التي تعتبر في غاية الأهمية لتعريف «العدد» الذي كرست له رسالة دكتوراه كاملة لتنال لقب بروفيسورة، حيث درست بشكل دقيق مفهوم العدد وتطويره من العلماء العرب والمسلمين، وأشارت إلى أن الجبر أصبح لأول مرة علماً مستقلاً طُبقت طرقه لحل عدد كبير من المسائل النظرية والتطبيقية.

(١) غ.ماتفييفسكايا. **تطور النظريات حول العدد في أوروبا حتى القرن ١٧م**. أكاديمية العلوم في أوزبكستان. دار «فان» طشقند. ١٩٧١.



(القرون ١١ ـ ١٢) دوراً حاسماً في التطور اللاحق للرياضيات الأوروبية. وتعرف العلماء الأوروبيون على علوم الحضارة اليونانية والعربية في مختلف المجالات. ومنها الرياضيات بفروعها المعروفة حينذاك: الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات. وتتحدث ماتفييفسكايا عن طرق انتقال العلوم العربية واليونانية مثل الطب والفلسفة والرياضيات بدءاً من القرن العاشر للميلاد عبر الأندلس (إسبانيا) وصقلية وكذلك من خلال بيزنطة وذلك إلى جزيرة البيريه. وأولت اهتماماً خاصّاً للمراكز العلمية العربية في الأندلس مثل قرطبة وطليطلة وغرناطة وإشبيلية التي على أساسها قامت المدارس العلمية في دول أوروبا. كما تطرقت إلى ذكر أهم المترجمين الأوروبيين الناقلين إلى اللاتينية أهم المؤلفات العربية واليونانية من اللغة العربية.

وقد أشارت ماتفييفسكايا[١] إلى ظاهرة الترجمات غير الدقيقة إلى اللاتينية بسبب ضعف معرفة بعض المترجمين الأوروبيين للغة العربية، مما خلق انطباعا لدى البعض بأن الترجمات العربية فيها أخطاء. والحقيقة غير ذلك. وتعرض العالم الروسية بالتفصيل كيف استفاد العلماء الأوروبيون واقتبسوا من مؤلفات العلماء العرب والمسلمين مثل الخوارزمي والكرجي وأبو كامل وغيرهم. وذكرت إنشاء الجامعات الأوروبية في باريس وبولونيا وأكسفورد بالاعتماد على خبرة المدارس العلمية العربية في الأندلس وبغداد والقاهرة ودمشق.

وفي كتابها أكدت ماتفييفسكا على خطأ الاعتقاد بأن الرياضيات العربية كانت تهتم فقط بالمسائل العلمية والحياتية مثل الحسابات وطرق حل المسائل في الجبر، بل الحقيقة أن العلماء العرب والمسلمين قدموا أفكاراً ونظرياتٍ خاصة بهم في غاية الأهمية استخدمت في تطوير مفهوم العدد ليقترب من مفهوم العدد الحقيقي في شكله المعاصر.

وفي السنوات اللاحقة قامت ماتفييفسكايا، بالاعتماد على المخطوطات

---

(١) المرجع السابق.



العربية، بنشر سلسلة كبيرة من الأبحاث العلمية في تاريخ الجبر والعدد والمثلثات الكروية والمثلثات والفلك في العالم الإسلامي.

ومن الأعمال ذات الطابع المرجعي: ترجمة «رسالة عن المقادير غير القابلة للمقارنة بالقياس» لابن البغدادي (ق. ١٠ ـ ١١) من العربية إلى الروسية مع الشرح والتعليق. كما نشرت في (١٩٩٠) بحثاً حول تكون أسس رياضيات المقادير المتغيرة في الشرق الإسلامي: «دراسات في تاريخ حساب المثلثات».

واحتلت حيزاً هاماً في أبحاثها وكتبها مؤلفات العلماء العرب والمسلمين البارزين من القرون الوسطى مثل: الخوارزمي، الفارابي، عبد الرحمن الصوفي، ابن سينا، أبو الريحان البيروني، ابن عراق، نصير الدين الطوسي، أولغ بك وغيرهم.

وأولت ماتفييفسكايا اهتماماً خاصاً لإعداد الفهارس والبيبليوغرافيا العلمية، وقد انعكست نتائجها في عشرات المقالات والكتب، ومنها الصادرة عام (١٩٨٣) في ثلاث مجلدات «علماء الرياضيات والفلك المسلمين في القرون الوسطى وأعمالهم (ق ٨ ـ ١٧م)» بالاشتراك مع ب. روزنفيلد.

بالإضافة إلى الرياضيات الإسلامية اهتمت ماتفييفسكايا بمسائل تاريخ الرياضيات في أوروبا في القرون الوسطى وفي فترات متأخرة. ودرست مسألة انتقال التراث الرياضي العربي والإسلامي إلى أوروبا[(١)] وقدمت دراسات حول تواصل الأفكار العلمية وعن الترجمات اللاتينية القروسطية لـكتاب «الأصول» لإقليدس في طبعاته العربية وغيره. وقد أعدت كتباً مهمة عن علماء رياضيات مشهورين مثل: رينيه ديكارت، راموس، ألبريخت ديور. علماً أنها بدأت حياتها العلمية بدراسة أعمال أويلر الرياضية وعادت الآن من جديد لمتابعة تلك البحوث.

شاركت ماتفييفسكايا بأبحاث قيمة في مؤتمرات علمية في روسيا وخارجها

---

(١) غ.ماتفييفسكايا. **تطور نظرية العدد في أوروبا حتى القرن ١٧ م**. طشقند. دار «فان»، ١٩٧١



ومنها: المؤتمرين العالميين الثالث عشر والسادس عشر في تاريخ العلوم (موسكو ١٩٧١، بوخارست ١٩٨١) وفي مؤتمرات تاريخ العلوم العربية (حلب ١٩٧٩، باريس ١٩٨٩) وفي الندوات العلمية العالمية في تاريخ الرياضيات (أوبرفالفاخ ١٩٨٧، ١٩٩٢). وعملت في الاتحاد الوطني لمؤرخي العلوم والتكنولوجيا في أوزبكستان كسكرتيرة ثم نائبة للرئيس. وهي مسؤولة التحرير في عدد من المجلات العلمية العالمية وكتبت عشرات التقييمات العلمية لأبحاث ورسائل دكتوراه في مجال تاريخ العلوم(١).

حصلت عام (١٩٧٤) على جائزة البيروني الحكومية في جمهورية أوزبكستان، وفي (١٩٨٠) على لقب الجدارة: «شخصية متميزة في مجال العلم في أوزبكستان». ولها مئات البحوث العلمية والمؤلفات في تاريخ الرياضيات العربية والأوربية. وكتب عن حياتها وأبحاثها العلمية أكثر من عشرين مقالة في أكبر المجلات العلمية في روسيا.

عملت لأكثر من (٣٠) سنة مع المخطوطات الرياضيات العربية ولكنها، للأسف، توقفت منذ أكثر من (١٠) سنوات بسبب ظروف ذاتية وموضوعية منها انهيار الإتحاد السوفياتي واضطرارها لمغادرة أوزبكستان بعد وفاة زوجها الأوزبيكي. وكانت تعمل أستاذة في كلية العلوم بجامعة أورينبورغ الحكومية الواقعة في منطقة الأورال الروسية، وتشرف على عدد من طلبة الدكتوراه في تاريخ الرياضيات. وهي الآن على التقاعد ولكنها مازالت تكنّ كل المودة والاحترام للثقافة والعلوم العربية والإسلامية.

وأولت ماتفييفسكايا اهتماماً خاصاً لدعم أبحاث الباحثين الشباب، وقد تخرج تحت إشرافها عدد كبير من الباحثين ومنهم: أ.أحمدوف: **مسائل تأسيس الهندسة في الشرق القروسطي عام** (١٩٧٠). ج. تلاشيف: **معطيات جديدة عن**

(١) حياة غالينا ماتفيفسكايا. جامعة أورينبورغ الحكومية التربوية. ٢٠٠٥. أورينبورغ. روسيا.

تاريخ الرياضيات في آسيا الوسطى في القرون ١٣ ـ ١٥ عام (١٩٧٣). م.أبراروفا: **من تاريخ تدريس الرياضيات في بخارى عام (١٩٧٨).** ج. عبادوف: **الرياضيات في الموسوعات العربية القروسطية من القرن ١٠ ـ ١٧ عام (١٩٨٦).** ي. محمدييف: **بهاء الدين العاملي والأعمال الرياضية في آسيا الوسطى في القرن ١٦ ـ ١٩ عام (١٩٨٩).** س. رمضانوفا: **الطرق القروسطية للتعريفات الفلكية للإحداثيات الجغرافية في بلدان الشرق الأدنى والأوسط القروسطي عام (١٩٩٠).** غ.يوسوبوفا: **الهندسة الكروية في الشرق القروسطي.**

٤ ـ مريم روجانسكايا (١٩٢٨ ـ ٢٠١٤):



هذه الصورة في شمال حلب ـ سوريا ـ ٢٠٠٦

من مواليد (١٩٢٨) في موسكو. أنهت المدرسة الثانوية عام (١٩٤٥) وحازت على الميدالية الذهبية. وحصلت على مؤهلين جامعيين من جامعة موسكو الحكومية: من كلية التاريخ عام (١٩٥٠) بتخصص علم الآثار والأجناس، ومن كلية الرياضيات والميكانيكا عام (١٩٥٨). أما الدافع لحصولها على تخصص ثان فهو أنها لم تستطع الحصول على عمل كمدرّسة لمادة التاريخ، لأسباب سياسية في فترة حكم ستالين، لذلك توجهت نحو تخصص علمي بعيد عن التاريخ والسياسة.

وتعتبر روجانسكايا نفسها محظوظة، لأنها التقت بعالم الآثار السوفياتي المعروف سيرغي تولستوف ـ عضو أكاديمية العلوم الروسية، الذي كان مكلفاً من الحكومة السوفياتية بترأس البعثة الأثرية للتنقيب عن الآثار في آسيا



الوسطى وشمال القوقاز بما فيها منطقة خوارزم ذات الحضارة العريقة. ولذلك اختارت روجانسكايا التنقيب عن الآثار بإشراف تولستوف كطريق إلى المستقبل.

ولم يتحقق حلمها حتى تغيرت الأوضاع في الاتحاد السوفياتي، حيث نصحها تولستوف في بداية الستينيات بدراسة تاريخ العلوم العربية والإسلامية (الرياضيات والميكانيكا والفلك في القرون الوسطى). وبدأت بدراسة أعمال العالم الموسوعي أبو الريحان البيروني[١]، وخاصة كتابه «**القانون المسعودي**» في الفلك.

ولهذا الغرض بدأت روجانسكايا بحضور سيمينار (حلقة بحث) في تاريخ الرياضيات والميكانيكا في كلية الرياضيات والميكانيكا بجامعة موسكو الحكومية. ذلك السيمينار الذي تأسس في الثلاثينيات من القرن العشرين تحت إشراف يوشكيفيتش.

وهكذا بدأت بدراسة تاريخ الرياضيات العربية. وهذا أمر لا يمكن وصفه بالسهل. فلكي تدرس الرياضيات العربية عليك كما يقول الرياضيون أن تحقق الشرط اللازم والكافي، وهو أن تعرف المادة العلمية بشكل ممتاز، إلى جانب ضرورة معرفة اللغة التي كتبت بها المخطوطة، سيما وأن المخطوطات قيد الدراسة تعود إلى فترة العصور الوسيطة أي منذ عدة قرون. بالإضافة إلى ذلك لا بد من معرفة الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية، التي ظهرت فيها تلك الأعمال العلمية العربية من العصور الوسيطة. لأن ذلك سيمكن المؤرخ من إعطاء تقييم موضوعي لذلك العمل، وتحديد مكانته وأهميته العلمية في تاريخ العلم وتطوره.

وهكذا فإن دراسة المخطوطات العربية والإسلامية[٢] ذات الموضوعات

---

(١) أبو الريحان البيروني. **القانون المسعودي**. ترجمة وتعليق. **المجلد ٥. من المؤلفات الكاملة في ٧ أجزاء**. طشقند ١٩٧٣.

(٢) **في ذكرى رحيل مريم روجانسكايا**. مجلة مسائل تاريخ العلوم والتقنيات. موسكو. العدد ٣١. مارس ٢٠١٥

الرياضية والفيزيائية التي كتبت في العصور الوسيطة بدأت النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أوروبا الغربية على أيدي علماء مستعربين مثل: ف. ويبكة، وإ. ويديمان، وغ. سوتر وغيرهم. وفي أواسط القرن العشرين ظهرت مدرسة كاملة من المستعربين الروس المتخصصين في تاريخ الرياضيات العربية وفي مقدمتهم أدولف يوشكيفيتش ومعه بوريس روزنفيلد.

وقد أثبتت بحوث هؤلاء العلماء بأن المؤلفات الرياضية العربية كانت حصيلة جهود علمية أصيلة قام بها العلماء العرب والمسلمين، فنجحوا ليس فقط في الحفاظ على التراث الرياضي اليوناني الغني، وإنما قدموا نظرياتهم العلمية الجديدة، ووضعوا أسساً لعلوم جديدة واتجاهات علمية لم يعهدها اليونان. ثم نقل ذلك التراث المكتوب باللغة العربية إلى أوروبا عن طريق الترجمة، وبالتالي ساهم العرب في خلق الأساس العلمي للنهضة الأوروبية ولنشوء العلم الكلاسيكي الأوروبي.

في بداية الستينيات من القرن الماضي بدأت روجانسكايا نشاطها العلمي في مجال تاريخ الرياضيات والميكانيكا العربية التي تعود لمرحلة القرون الوسطى المزدهرة في العالم الإسلامي. لقد أمضت أكثر من (٤٠) عاماً في البحث في دراسة العلوم العربية ونشرت في هذه المواضيع أكثر من (٣٠٠) بحث علمي والعديد من الكتب العلمية.

كانت بداية عملي العلمي ـ تقول روجانسكايا ـ ترجمة كتاب «القانون المسعودي» لأبي الريحان البيروني إلى اللغة الروسية بالتعاون مع ب. روزنفيلد وب. بولغاكوف وكذلك «كتاب التفهيم في بدايات علم النجوم» (صدرت أعمال البيروني في ستة مجلدات).

وقد تابعت أعمالها العلمية في عدة اتجاهات:

أولها أعمال ذات طابع علمي عام. وهنا ساهمت في إعداد كتب ومراجع علمية في تاريخ الميكانيكا بالتعاون مع مجموعات من الباحثين. ومنها كتاب «**تاريخ الميكانيكا من العصور القديمة وحتى بداية القرن الثامن عشر**»، وكذلك



«**تاريخ الميكانيكا خلال ٦٠ عاماً**»، كما أعدت فصلاً كبيراً عن «**الميكانيكا منذ القدم وحتى الآن**» بالتعاون مع العالم السوفياتي أ.غريغوريان، وأخيراً نشرت كتاباً كاملاً عن «**الميكانيكا في المشرق في العصور الوسيطة**» (١٩٧٦).

ومن أبرز المحطات في حياتها العلمية: ترجمة كتاب أحد أعظم علماء الرياضيات والميكانيكا والفلك العرب وهو عبد الرحمن الخازني (ق ١٢م) ـ تلميذ عمر الخيام، ويدعى الكتاب «**كتاب ميزان الحكمة**»، وهو كتاب مرجعي مهم يشمل تاريخ الميكانيكا في عهد اليونان وفي المرحلة العربية والإسلامية، علماً أن الخازني خصص جزءاً من كتابه للميكانيكا النظرية (نظريات مركز الثقل والنماذج الهندسية والكينيماتيكية لقانون التوزين وغيرها). وقد عرض في هذا الكتاب نظريات وتاريخ تعريف الوزن النوعي بدءاً من تجارب أرخميدس وحتى أعمال من سبقوه من العلماء المسلمين. ومن ميزات «كتاب ميزان الحكمة» وأهميته بالنسبة لتاريخ العلم أنه احتوى على ترجمات وتحرير وشرح لمخطوطات أو جزء من مخطوطات لم تصل إلينا في صورتها الأصلية. مثل مؤلفات أرخميدس وأرسطو والبيروني وابن سينا وعمر الخيام، ما يسمح بتركيب صورة أكثر كمالاً حول تطور العلم في الفترة الإسلامية في العصور الوسيطة.

ومن المفاجآت اللطيفة: أن مخطوطة «كتاب ميزان الحكمة» عثر عليها في مكتبة في سان بطرسبورغ. فقامت روجانسكايا بترجمة المخطوطة إلى الروسية والتعليق عليها ونشرها عام (١٩٨٣). وهذه الترجمة هي الأولى من نوعها لتلك المخطوطة إلى لغة أوروبية. ومن خلال دراسة "ميزان الحكمة" تم التوصل إلى إعادة بناء مخطوطة الأوزان النوعية للبيروني، وكذلك استنتاج التطور التاريخي لمسألة الأوزان، والتي يعود تاريخها إلى القرون الغابرة، والتي أعطى حلها الكامل ل. أويلر في القرن الثامن عشر.

كما قدمت روجانسكايا بالتعاون مع غ.ماتفيفسكايا وغ. كورتيك بتحرير ومراجعة وشرح ترجمة كتاب "المجسطي" لبطلميوس من اليونانية إلى الروسية، وهو من أهم الكتب اليونانية في علم الفلك. أما ترجمة "المجسطي"، فقد



أنجزها العالم الروسي المعروف ي. فيسيلوفسكي في ثلاثينيات القرن الماضي، ولم يستطع نشرها في حينها، ولكنه نشر عام (١٩٩٨) في موسكو.

ويجدر الذكر بأن تلك الترجمة للمجسطي سميت بطلميوس العربي، ولعبت دوراً جوهرياً انطلق منه الفلكيون العرب لوضع نماذجهم عن حركة الأجسام السماوية، وشكل قاعدة انطلاق لوضع طرق حسابية جديدة في علم الفلك، وبالتالي امتد هذا التأثير ليسرع بظهور عصر النهضة الأوروبية، أو ما يسمى «بالثورة العلمية» في الفترة XVI ـ XVII.

وقد شاركت روجانسكايا في تأليف موسوعة تاريخ العلوم العربية، التي صدرت (عام ١٩٨٤) باللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية، تحت إشراف البروفيسور الدكتور رشدي راشد، حيث كتبت موضوعاً عن تاريخ الميكانيكا في المشرق الإسلامي في العصور الوسيطة، وشاركت أيضاً في موسوعات أخرى صدرت في إيطاليا (عام ٢٠٠٢)، وهي مشاركة دائمة بأبحاث علمية في مجلات تصدر في أنجلترا وفرنسا وإيطاليا وسوريا (حلب) ومصر (الإسكندرية). كما كتبت مقالات عن العديد من العلماء العرب مثل: البتاني وابن البنا(١) والكرجي وقسطا بن لوقا، خصيصاً لموسوعات صدرت في إيطاليا وغيرها.

---

(١) م.الحمزة، م.روجانسكايا. **حول تاريخ دراسة مخطوطة ابن البنا المراكشي**. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٣. العدد ٨ (٤٣) ص٣٠٣ ـ ٣١٧.

م.الحمزة، م.روجانسكايا. **ابن البنا المراكشي ومخطوطته: تلخيص أعمال الحساب**. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٥. العدد ٩ (٤٤) ص٣٣٠ ـ ٣٤٧.

م.الحمزة. م.روجانسكايا. **مخطوطة تلخيص أعمال الحساب لابن البنا المراكشي**. ترجمة إلى الروسية ودراسة تاريخية ورياضية. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٥. العدد ٩ (٤٤). ص٣٤٧ ـ ٣٧٥.

م.الحمزة، م.روجانسكايا. **حول مخطوطة الحصّار في الحساب**. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٦. العدد ١١ (٤٦). ص١٩٦ ـ ٢١٦.



وهناك اتجاه آخر في المؤلفات العلمية التاريخية في روسيا وهو المتعلق بحياة العلماء من خلال سلسلة حياة مشاهير العلماء (والمقصود هنا قبل كل شيء علماء الرياضيات والفيزياء والعلوم الدقيقة الأخرى). وكان من نصيب روجانسكايا أن تكتب عن الحياة العلمية للبيروني والخازني ولها أعمال أخرى في هذا الإطار. وقد ساهمت بصفة مسؤولة التحرير لعدة كتب أخرى عن حياة الخوارزمي والفرغاني وابن قرة والصوفي ونصير الدين الطوسي وغيرهم.

ومتابعة لهذا الشكل من النشاط قامت روجانسكايا بإعداد كتاب عن المراسلات العلمية لاثنين من أكبر مؤرخي الرياضيات في القرن العشرين وهما الروسي أ.يوشكيفيتش والألماني ك.فوغل، وذلك بالاشتراك مع بروفيسور من جامعة ميونخن، حيث ترجما رسائل يوشكيفيتش من الروسية إلى الألمانية ورسائل فوغل من الألمانية إلى الروسية. ومن الطريف أن العالمين يوشكيفيتش وفوغل كانا يتراسلان كل بلغته الوطنية ويفهمان على بعضهما البعض. ولا تقل أهمية المقالة التي نشرتها روجانسكايا عن أعمال يوشكيفيتش العلمية في مجال تاريخ الرياضيات العربية في العصور الوسيطة.

وفي الفترة الأخيرة تركز اهتمام روجانسكايا العلمي في ثلاثة اتجاهات:

أولت اهتماماً لمسألة انتقال المعارف العلمية خاصة في الرياضيات والفلك من اليونان إلى العرب وتواصلاً إلى أوروبا الغربية. فمن المعروف أن العديد من المخطوطات الهندية واليونانية القيمة وصلت إلى الباحثين في السنوات الأخيرة في ترجماتها العربية فقط. علماً أن تلك المخطوطات مرت بعدة مراحل بداية من الترجمة ثم التحرير والإصلاح فالشرح. والشرح هو أهم مرحلة في عمل العلماء العرب، لأنهم وضعوا كل أفكارهم ونظرياتهم الجديدة من خلال الشرح. اي أن الشرح بالضرورة يتضمن موقف العالم ورؤيته للموضوع وقد يتفق مع المؤلف الأصلي وقد يتعارض معه. وفي كل الأحوال فالشرح والتعليق يتضمنان معلومات جديدة مهمة لم تكن موجودة في المخطوطة الأصلية. ومن هنا يمكننا فهم التسميات التي أطلقت على الترجمات



العربية للمؤلفات اليونانية المتضمنة شروحات، مثل «إقليدس العربي» و«أرخميدس العربي» و«بطلميوس العربي».

ومن المعروف أن الشروحات والدراسات التي قام بها بعض العلماء المسلمين حول كتاب «الأصول» لإقليدس شكلت أساساً لابتكار نظريات جديدة عرفت بالهندسة اللاإقليدية (وقد كتب المستعرب المعروف كاظم بيك بأنه ترجم في جامعة قازان كتاب نصير الدين الطوسي حول مسلمة الخطوط المتوازية لإقليدس إلى الروسية بطلب من العالم الروسي الكبير نيكولاي لوباتشيفسكي صاحب الهندسة اللاإقليدية ١٨٢٨).

كما أن الشروحات العربية لأعمال أرخميدس أصبحت منطلقاً لبناء التحليل الرياضي المعاصر ومبادئ حساب التفاضل والتكامل، أما شرح أعمال بطلميوس فجاءت في أساس نظريات جديدة في الفلك.

وتشير روجانسكايا إلى الدور الكبير للمدارس العلمية العربية في إنجاز الترجمات وكتابة المؤلفات العلمية على شكل شروحات وغيرها. ومن تلك المدارس: بيت الحكمة في بغداد (ق ٩م)، حيث عمل فيها أعظم العلماء العرب والمسلمين مثل ثابت بن قرة والفارابي والخوارزمي، وأكاديمية المأمون في غورغينج التي أسسها المأمون شاه خوارزم (ق ١٠ ـ ١١) ومن أبرز من عمل فيها العالم الكبير أبو نصر بن عراق والعلماء الموسوعيين أبو الريحان البيروني وأبو علي ابن سينا، وكذلك مدرسة عمر الخيام في نيسابور (خراسان، ق ١٢م)، ومدرسة مراغة التي أسسها وأشرف عليها العالم المعروف نصير الدين الطوسي (مراغة، إيران، ق ١٣م)[١]، ومدرسة سمرقند

(١) تأسس مرصد مراغة الفلكي في النصف الثاني من القرن ١٣م في مدينة مراغة بالإقليم الأذربيجاني في إيران المعاصرة تحت إدارة عالم الرياضيات والفلك نصير الدين الطوسي. واستمرت مدرسة مراغة حتى أواسط القرن ١٤م. وقد احتوت على عدد كبير من الأدوات المستخدمة في الأبحاث الفلكية ومكتبة ضمت حوالي ٤٠٠ ألف مخطوطة. وكان أولوغ بيك ـ حفيد تيمور لينك هو المشرف عليها.



لأوليغ بيك[١] (ق ١٥م) وغيرها.

أما انتقال العلوم العربية إلى أوروبا، فقد بدأ بشكل واسع في المراكز الأوروبية التي تخصصت بالترجمة في إسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا وجنوب ألمانيا وحتى إيرلندا، حيث بدأت حملة ترجمة عالمية من اللغة العربية إلى اللاتينية في الفترة من القرن (١١ وحتى ١٤ للميلاد). ووصلتهم العديد من تلك الترجمات مثل ترجمة الخوارزمي وابن سينا وابن رشد والبترجي وغيرهم الكثير. وبذلك تعرف الأوروبيون ليس فقط على التقاليد العلمية العربية وإنما على التراث اليوناني الغني الذي ضاع بعضه باللغة الأم، ولكن جزءاً منه حفظ باللغة العربية مثل أعمال أبولونيوس حول المخروطات وغيرها. ومن جهة أخرى ضاعت بعض المؤلفات العربية القيمة مثل أعمال الخوارزمي (الحساب للخوارزمي)، ولكنها وصلتنا بترجماتها العديدة إلى اللغة اللاتينية، وإن كانت قد تعرضت لتعديلات وتشويهات في بعض الأحيان.

وفي هذا الإطار فإن الحيز الأكبر في أعمال روجانسكايا ارتبط بالبحث عن المخطوطات الجديدة في مكتبات روسيا والمكتبات العالمية لترجمتها ودراستها بشكل علمي وتاريخي.

وروجانسكايا عضو في اللجنة الدولية لفهرسة المخطوطات العلمية العربية. وقد بحثت في تاريخ المخطوطات العربية في مكتبات سان بطرسبورغ وطشقند وقازان، وشاركت في إعداد كتاب عن حياة نصير الدين الطوسي.

وفي السنوات العشرة الأخيرة عملت روجانسكايا بالتعاون الوثيق مع مؤلف هذا الكتاب (في قسم تاريخ الرياضيات في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا في موسكو، وهو سوري الأصل) في مجال تاريخ الرياضيات في المغرب العربي والأندلس في القرون الوسطى. فقد تم العثور على مخطوطات لابن البنا المراكشي (**تلخيص أعمال الحساب**)، وللقلصادي[٢] (كشف أسرار علم حروف

---

(١) غ.ماتفيفسكايا، ز.سوكولوفا. **أولوغ بيك**. موسكو. ناوكا. ١٩٩٧.

(٢) م.الحمزة، م.روجانسكايا. **حول مخطوطة القلصادي «كشف الأسرار عن علم حروف** =



الغبار) في مكتبات معهد المخطوطات الشرقية ومكتبة كليات اللغات الشرقية في سان بطرسبورغ، حيث انجزا ترجمات تلك المخطوطات وأجريا دراسات رياضية وتاريخية موسعة حولها تم نشرها في مجلة «دراسات في تاريخ الرياضيات» والتي تصدر في المعهد نفسه.

هذه الأبحاث مازالت حديثة العهد، ولكنها أعطت نتائج مهمة تتعلق بتطور تاريخ الجبر وحل المعادلات الخطية والتربيعية وارتباط ذلك بالتطبيقات الميكانيكية. وكذلك بتاريخ تطور طريقة حساب الخطأين أو قاعدة كفات الميزان، وبالتالي تم التوصل إلى معرفة تاريخ مسألة التوزين.



= **الغبار**». مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا في موسكو. العدد ١٢(٤٧). ٢٠٠٧. ص٢١٥ ـ ٢٣٧.



الفَصْلُ الخَامِسُ

خزائن المخطوطات العربية في روسيا والجمهوريات السوفياتية السابقة

تحتوي المكتبات الكبرى في روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة على كنوز من المخطوطات العلمية العربية والإسلامية باللغات العربية والفارسية والتركية وغيرها. وهذه المخطوطات التي نتحدث عنها تنتمي إلى مجموعة علوم الرياضيات (الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات) والفيزياء والفلك والميكانيكا والصيدلة والطب وتعود إلى العصر الذهبي الإسلامي (فترة القرون المتوسطة من القرن السابع وحتى القرن السابع عشر للميلاد)[(١)].

وقد كانت الكتابة عن هذه المكتبات العلمية الكبرى وكنوزها النفيسة عملية متاحة أيام الاتحاد السوفياتي. ولكن للأسف فقد تعقدت الأمور كثيراً بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وانفصال جمهورياته وتحولها إلى دول مستقلة تحكم بينها القوانين الدولية في السفر والتنقل وفي تعامل الباحثين مع المكتبات العلمية وإمكانية الحصول على نسخ من المخطوطات لدراستها ونشرها. ومن هنا فإن إمكانية التعريف بتلك المكتبات لم يعد أمراً يسيراً. ومع ذلك سنحاول إلقاء نظرة على أشهر المكتبات التي تحفظ فيها مخطوطات علمية عربية وإسلامية نادرة.

---

(١) م.روجانسكايا، غ.ماتفييفسكايا، أي. لوتر. **نصير الدين الطوسي ومؤلفاته الرياضية والفلكية في مكتبات جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقاً**. موسكو. دار «فوستوتشنايا ليتيراتورا». أكاديمية العلوم الروسية. ١٩٩٩. ص ٩ ــ ٣٢.

ويمكن الحديث عن أهم خمس عشرة مكتبة وهي:

١) المكتبة الحكومية الروسية (مكتبة لينين سابقاً).

٢) المكتبة الوطنية الروسية (سان بطرسبورغ).

٣) مكتبة معهد المخطوطات الشرقية (معهد الاستشراق سابقاً) التابع لأكاديمية العلوم الروسية (فرع سان بطرسبورغ).

٤) القسم الشرقي للمكتبة العلمية لجامعة سان بطرسبورغ.

٥) مكتبة لوباتشيفسكي العلمية في جامعة قازان الحكومية (القسم العربي).

٦) مكتبة البيروني لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان (طشقند).

٧) مكتبة جامعة طشقند الحكومية في جمهورية أوزبكستان.

٨) مكتبة معهد المخطوطات القديمة (ماتينا داران) في جمهورية أرمينيا (يريفان).

٩) مكتبة معهد مخطوطات أكاديمية العلوم الجورجية (تبيليسي).

١٠) الخزينة الجمهورية للمخطوطات في أكاديمية العلوم الأذربيجانية (باكو).

١١) مكتبة الجامعة الحكومية لجمهورية أذربيجان (باكو).

١٢) مكتبة أكاديمية العلوم في جمهورية طاجكستان (دوشنبيه).

١٣) مكتبة معهد اللغة والأدب في أكاديمية العلوم في جمهورية طاجكستان (دوشنبيه).

١٤) مكتبة الفردوسي الحكومية في جمهورية طاجكستان (دوشنبيه).

١٥) مكتبة معهد اللغة والأدب في اكاديمية العلوم في جمهورية تركمنستان (عشق أباد).

ومن المعروف أن هناك عشرات المكتبات في داغستان والمناطق الإسلامية الروسية الأخرى بالإضافة إلى المقتنيات الخاصة من المخطوطات النادرة الموجودة بحوزة عائلات وأشخاص يتناقلونها عبر القرون من جيل إلى جيل.

وتعد مكتبة معهد الاستشراق في طشقند من أغنى خزائن المخطوطات العربية والفارسية (حوالي ٨ آلاف مجلد من المخطوطات العربية، و٦ آلاف مجلد من المخطوطات الفارسية). وكذلك مكتبة معهد المخطوطات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية ـ فرع سان بطرسبورغ (حوالي ٥ آلاف مجلد من المخطوطات العربية، و٦ آلاف من المخطوطات الفارسية). ونذكر أيضاً مكتبة لوباتشيفسكي العلمية في جامعة قازان (حوالي ٣ آلاف مجلد من المخطوطات العربية). والمكتبة الوطنية الروسية (سان بطرسبورغ) تحتوي على (٣) آلاف مجلد من المخطوطات العربية، و(١٠٠) مجلد من المخطوطات الفارسية. والقسم الشرقي من مكتبة جامعة سان بطرسبورغ (حوالي ٩٠٠ مجلد من المخطوطات العربية، و٦٠٠ مجلد من المخطوطات الفارسية). بينما يوجد في قسم المخطوطات في المكتبة الحكومية الروسية حوالي (٩) مخطوطات فقط. ومعظم تلك المخطوطات في الرياضيات والفيزياء والفلك.

ونظراً لصعوبة القيام، حالياً، بوصف كامل لتاريخ إنشاء جميع الخزائن ومراكز حفظ المخطوطات العربية والفارسية المذكورة أعلاه، فإننا نكتفي بعرض تاريخ إنشاء خمس مكتبات فقط وهي الأضخم، علماً أن أكثرها أهمية وقيمة مكتبات سان بطرسبورغ وطشقند وقازان.

إن تاريخ تأسيس هذه المجامع العلمية متنوع ويصل إلى حد المأساوية أحياناً. كما أنه مليء بالتعقيدات والمغامرات أحياناً أخرى. وهذا بحد ذاته يمكن أن يشكل موضوعاً خاصاً للبحث.

١ ـ مجموعة المخطوطات الشرقية في معهد المخطوطات الشرقية فرع سان بطرسبورغ:

تشكل المخطوطات العربية والفارسية في معهد المخطوطات الشرقية في سان بطرسبورغ المجموعة الأكبر والأهم في مجموعات مخطوطات المعهد. وقد اكتسبت هذه المجموعة شهرة عالمية واسعة. وعلى أساسها تم التعرف على

الآثار العلمية القيمة للمراجع العربية والفارسية. ومن ضمنها بحوث رصينة في التاريخ السياسي والثقافي لشعوب الشرق في القرون المتوسطة[١].

وقد ارتبط تأسيس هذه الخزينة المخطوطاتية بنشوء المعهد الآسيوي لأكاديمية العلوم في سان بطرسبورغ عام (١٨١٨) (تحول عام (١٩٣٠) إلى معهد الاستشراق، ثم تغير اسمه قبل سنوات إلى معهد المخطوطات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية). وتبلورت المجموعة على أساس مجموعات المخطوطات الكثيرة التي كانت حينئذ بحاجة إلى دراسة وتحقيق.

فبعد تأسيس المتحف الآسيوي في سان بطرسبورغ بدأت تنهال إليه المخطوطات التي وقعت بين أيدي المستشرقين والدبلوماسيين وهواة جمع المخطوطات والموظفين والمدنيين والرحالة والحجاج إلى الاراضي المقدسة في فلسطين والعسكريين الروس. كما نشأت في سان بطرسبورغ إلى جانب خزينة المتحف الآسيوي ثلاثة مراكز أخرى لحفظ المخطوطات العربية والفارسية وهي المكتبة الوطنية الروسية والقسم الشرقي للمكتبة العلمية للجامعة ومكتبة الإدارة التعليمية في وزارة الخارجية.

وكان أول رصيد عربي بخاصة وإسلامي بعامة في المتحف الآسيوي مجموعتان اقتنتهما الحكومة الروسية عامي (١٨١٩ و١٨٢٥) من الدبلوماسي الفرنسي ج. ل. روسو (ت ١٨٣١) الذي عمل حينها قنصلاً عاماً لفرنسا في بغداد وقبلها في حلب وطرابلس.

وقد عرض روسو في البداية الجزء الأول من مجموعته (٥٠٠ مخطوطة أكثر من نصفها عربية) على الحكومة الفرنسية لكنها لم تشترِها لصعوبات

---

(١) ف.بيليابيف. **المخطوطات العربية في مجموعة المتحف الآسيوي في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية**. منشورات معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية. الإصدار ٢. لينينغراد. ١٩٣٢.



مالية ناشئة عن إعادة الترميم وعندها باعها إلى روسيا. أما الجزء الثاني من مجموعته ويضم حوالي (٢٠٠) مخطوطة عربية.

وقد أشار الأكاديمي كراتشكوفسكي(١) [٥٣] إلى أن هاتين المجموعتين، المقتنيتين بمحض الصدفة السعيدة واللتين شملتا على سلسلة كاملة من المخطوطات النفيسة والنادرة، أصبحتا أساساً مهماً لمجموعة المتحف الآسيوي(٢).

وبدأت الأبحاث الفعلية الجادة ليس فقط لمخطوطات روسو، وإنما للمخطوطات العربية والفارسية الأخرى في المتحف الآسيوي عند خ. فرين (ت ١٨٥١) والذي أصبح مديره. فقام فرين مباشرة بلفت انتباه المجتمع الروسي إلى أهمية هذه المجموعات بنشره مقالات عامة مبسطة عنها في صحافة سان بطرسبورغ اضحت تقارير مميزة عن هذه الخزينة الفعلية الأولى للمخطوطات الشرقية في روسيا.

في عام (١٨١٩)، وهو نفس عام اقتناء المخطوطات الأولى من روسو، قام فرين بإعداد عرض موجز عنها ونشره في صحيفة «فيدوموستي سان بطرسبورغ». وفي عام (١٨٢٦) تم في نفس الصحيفة نشر مقالة عن مجموعة روسو الثانية. وفي عام (١٨٤٦) قام ب. دورن (ت ١٨٨١)(٣) بإعادة نشر العرض الذي أنجزه فرين وذلك في كتاب مكرس للمتحف الآسيوي(٤)(٥) [٥٤ ـ ٥٦].

(١) ف.بيلياييف. **المخطوطات العربية في مجموعة معهد الاستشراق.** أوراق علمية لمعهد الاستشراق. موسكو ـ لينينغراد. المجلد .٦. ١٩٥٣.

(٢) أغناطيوس كراتشكوفسكي. **مؤلفات مختارة** (١٩٥٥ ـ ١٩٦٠). المجلدات ١ ـ ٦. موسكو ـ لينينغراد.

(3) Dorn B..Das Asiatische museum der Kaiserlichen der Wissenschaften zu St. Petersburg. St. Petersburg.1846

(٤) ف.بيلياييف. **المخطوطات العربية في مجموعة معهد الاستشراق. أوراق علمية لمعهد الاستشراق.** موسكو ـ لينينغراد. المجلد ٦. ١٩٥٣.

(٥) ف.بيلياييف، ب.بولغاكوف. **المخطوطات العربية في جامعة لينينغراد الحكومية.** ذكرى الأكاديمي كراتشكوفسكي. لينينغراد. ١٩٥٨.

قدّر فرين الأهمية الكبيرة لمجموعات المتحف الآسيوي بالنسبة للأبحاث العلمية المثمرة للمستشرقين الروس. وبرزت أهمية إنشاء الفهارس العلمية لتلك المخطوطات والتي لم يكن معظمها قد نشر بعد. وقام فرين بشكل منتظم بإلقاء مداخلات في اجتماعات أكاديمية العلوم الروسية حول المخطوطات الجديدة التي ترد إلى المتحف الآسيوي. وكانت مشاركاته عبارة عن تقارير علمية متميزة. كما أنه أدرج عادة طيبة وهي استخدام الصحافة لتعريف المجتمع سنوياً بالمخطوطات الجديدة سواء بطريقة علمية بحتة أم بطريقة مبسطة.

وبفضل مبادرات فرين وجهوده الحثيثة تحول المتحف الآسيوي بالتدريج إلى مركز تتوارد إليه المخطوطات منفردة ومجموعات كاملة من كل أنحاء روسيا. وكان بعضها على شكل هدايا من قبل المستشرقين والدبلوماسيين والموظفين الروس المرتبطين بالمشرق بحكم عملهم ونشاطاتهم، وانتقلت للمتحف ورثة بعضها من قبل عائلات المقتنين بعد وفاتهم. وكانت مجموعة فرين من أولى المجموعات الواردة إلى المتحف بعد مجموعة روسو. وكذلك الأديب والمستشرق الروسي المعروف من النصف الأول للقرن التاسع عشر و.سينكوفسكي (ت ١٨٥٨) ـ بارون بامبيوس الشهير.

كما حصل المتحف على مخطوطات أخرى مهداة من المستشرق وعالم الأجناس المعروف ن. خانيكوف.

وبعد فرين وصل إلى إدارة المتحف المستشرق المعروف والمتخصص بالثقافة الفارسية ب. دورن وهو مؤلف الكتاب المذكور أعلاه عن تاريخ المتحف الآسيوي في الفترة من (١٨١٩ حتى ١٨٤٤) والذي أهداه لفرين. واستمر دورن بدوره بإغناء مكتبة المتحف بمخطوطات إضافية ودراسة مجموعاته ونشر مقالات إخبارية عن المخطوطات الجديدة.

واتسمت السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر بنشاط مكثف للمستشرق والمستعرب الروسي الكبير ف. روزن (ت ١٩٠٨)، الذي اعتبر من

أولى واجباته إعداد توصيف علمي للمخطوطات العربية المحفوظة في سان بطرسبورغ كاستمرار لجهود فرين ودورن المبذولة في هذا الإطار.

وقد أنجز فرين فهرساً لمحتويات مكتبة الإدارة التعليمية في وزارة الخارجية، ثم بدأ بإنشاء فهرس منتظم للمخطوطات العربية في المتحف الآسيوي. ولكن هذا العمل توقف للأسف لعدم موافقة أكاديمية العلوم عليه. وإلى جانب الفهرس العام قام روزن بتوصيف ونشر بعض المخطوطات العربية المنفردة من مجموعة المتحف. كما قام بالتعاون مع ف. غيرغاس البروفيسور في جامعة سان بطرسبورغ بنشر «**مختارات عربية**» (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦)، والتي اعتمدا في كتابتها على المخطوطات. وفي عام (١٨٩٠) أصبح مدير المتحف الآسيوي ك. زاليمان (ت ١٩١٦)، وبقي في منصبه حتى وافته المنية وهو منهمك في عمله في تصنيف وتسجيل المخطوطات الإسلامية الجديدة. وسيراً على تقاليد سابقيه أولى زاليمان اهتماماً خاصاً بحفظ ودراسة المخطوطات وإثراء المتحف بمخطوطات جديدة، وخاصة من آسيا الوسطى التي سافر إليها مرتين من أجل المخطوطات. فبعد رحلته إلى سمرقند عام (١٨٩٧) جلب للمتحف (٩٦) مخطوطة وفي الرحلة الثانية عام (١٩٠٨) أحضر عدد من المخطوطات الأخرى.

وقد عمل زاليمان بنشاط على إعداد فهرس بالمخطوطات الإسلامية، وذلك بنشره المنتظم (خاصة في «أخبار أكاديمية العلوم الروسية») لمداخلات تتحدث عن الإضافات الجديدة في مكتبة المتحف. إلا أن ذلك العمل الذي بدأه روزن وواصله زاليمان في إعداد الفهرس لم يكتمل. وجاء المستعرب اللامع والأكاديمي أغناطيوس كراتشكوفسكي (ت ١٩٥١) ليتابع العمل في هذا الفهرس. وقد ساعده بنشاط في توصيفه مجموعات المتحف الآسيوي المستشرق والمؤرخ البارز ف. بارتولد (ت ١٩٣٠). وإليهما تعود سلسلة كاملة من الدراسات الوصفية لمخطوطات منفردة. أما كراتشكوفسكي فقام بتوصيف مجموعات جديدة بكاملها.

اتسمت فترة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بنشاط في العمل مع المخطوطات العربية والفارسية الموجودة في المتحف وكذلك حصل المتحف على إضافات جديدة من المخطوطات النادرة.

وقد سلمت إلى المتحف في عهد زاليمان مخطوطات تعود إلى روزن بعد وفاته. كما توسعت مكتبة المتحف بمقتنيات جديدة تم شراؤها من تجار بخارى وسلسلة كاملة من المخطوطات التي جلبها موظفون وأشخاص فرادى.

أما في عام (١٩٠٩)، فقد حصل المتحف على مجموعة كبيرة تقدر بحوالي (١٢٧) مخطوطة من القنصل العام الروسي ن. بتروفسكي (١٩٠٨) في كاشغار (شرقي تركمنستان). وقام ل. بوغدانوف بتزويد المتحف بمجموعة فيها العديد من المخطوطات النفيسة وخاصة الفارسية (من طهران). وتحتوي هذه المجموعة على مخطوطة لا تقدر بثمن من حيث قيمتها العلمية وهي «**التأريخ**» للبيروني التي اقتنيت عام (١٩١٢) ونشرت[١] عام (١٩٥٧) [٥٧] (انظر أيضاً [٥٨ ـ ٥٩]).

أما الأعوام (١٩١٥ ـ ١٩١٧)، فقد أصبحت بحق متميزة في تاريخ توسع الرصيد الإسلامي من المخطوطات[٢]، الذي تضاعف في تلك الفترة (من ٢٥١٥ إلى ٥٣١٥ مجلد). ومن أهم الكتب الجديدة: مجموعات بخارى وفان. ولقد أنشئت مجموعة بخارى نتيجة رحلتين قام بهما ف. إيفانوف المستشرق والمتخصص في الشؤون الإيرانية إلى بخارى في صيف وخريف (١٩١٥)، حيث تم اقتناء المخطوطات في الأسواق وعند التجار المحليين وفي مكتبات الأوقاف والمدارس الدينية. وتمكن إيفانوف من جمع كمية كبيرة من المخطوطات العربية والفارسية والتركية. بما فيها (١٠٥٧) مجلد يحتوي على (١١٥٧)

---

(١) أو. فرولوفا، ت. ديرياغينا. **المخطوطات العربية في القسم الشرقي في المكتبة العلمية لجامعة سان بطرسبورغ**. فهرس مختصر.١٩٩٦. سان بطرسبورغ.

(٢) بوريس روزنفلد. **المخطوطات العربية والفارسية في العلوم الفيزيائية والرياضية في مكتبات الاتحاد السوفياتي**. الجزء ١. موسكو. ١٩٦٦.

عنوان. وأجرى إيفانوف بنفسه توصيفاً أولياً للمجموعة وساعده في ذلك زاليمان. بينما تابع كراتشكوفسكي ذلك العمل بدءاً من عام (١٩١٧). وأكمل ف. بيليابيف فهرسة المخطوطات العربية، وأنجز إيفانوف بشكل كامل توصيف الجزء الفارسي من المخطوطات في عام (١٩١٥ ـ) وهو عام الحصول على تلك المجموعة [٦٦ ـ ٦٧].

اما الحدث الهائل الآخر في تاريخ المتحف الآسيوي، فكان اقتناؤه لمجموعة فان عام (١٩١٦)، حيث تم تجميع عدد كبير من المخطوطات الفارسية والعربية خلال الحرب العالمية الأولى على الجبهة القوقازية في منطقة جزيرة فان وإرزروم وغيرها من المناطق المنكوبة بنتيجة الحرب. ويعود الفضل في ذلك إلى س.ف. تير أفيتسيان خازن المخطوطات الشهير في متحف القوقاز، والذي عمل وفق توجيهات أكاديمية العلوم وبمساندتها. وتم إنقاذ (١٢٣٩) مجلد من المخطوطات خلال نصف سنة (١٩١٦ ـ ١٩١٧) وأرسلت إلى المتحف الآسيوي. وكان فيها (١٠٠٠) مخطوطة عربية. وقام كراتشكوفسكي بتوصيف الجزء العربي من مجموعة فان، أما المستعرب أ.روماسكيفيتش، فقد أعد فهرس الجزء الفارسي من المخطوطات.

وبدأت بعد عام (١٩١٧) في تاريخ المتحف الآسيوي فترة جديدة في غاية الأهمية. فقد تم رفد المتحف في أوائل سنوات الثورة، بجهود من مختلف أجهزة الحكومة السوفياتية، بسلسلة كاملة من المجموعات سواء من الأفراد أو من المؤسسات الحكومية. واثنتان منهما الأكثر أهمية من الناحية العلمية وهما: المجموعة التي تم الحصول عليها عام (١٩١٩) من القصر الشتوي، وفيها (٤٢) مجلد من المخطوطات العربية، ومجموعة الإدارة التعليمية في وزارة الخارجية، الواردة إلى المتحف عام (١٩٢١) والمكونة من (٢٥٠) مخطوطة. وفي أساس مجموعة القصر الشتوي مخطوطات مسيحية بالدرجة الأولى، أهديت إلى القيصر نيكولاي الثاني عام (١٩١٣) (لقاء مبلغ معين) من قبل

بطريرك أنطاكية غريغوري الرابع والتي كانت صعبة المنال قبل الثورة. وقام كراتشكوفسكي(١) بوصفها [٥٧].

أما مجموعة الإدارة التعليمية في وزارة الخارجية، فقد تكونت مباشرة بعد تأسيس هذه الإدارة عام (١٨٢٣). وشكلت نواتها مخطوطات من مجموعات هواة جمع الكتب المعروفين: الدبلوماسي أ.إيتالينسكي (١١٦ مجلد). وفيما بعد رفدت المكتبة بمخطوطات أهداها مدرسو وخريجو الإدارة التعليمية. أما الرصيد الفارسي في المتحف الآسيوي، فقد حصل خلال الفترة (١٩١٩ ــ ١٩٢٠) على مجموعة غنية (مجموعة ف. جوكوفسكي، ف. ويلياminوف ــ زيرنزف، أ.بولوفتسوف، أ.سيميونوف وغيرهم).

أما العشر سنوات التي سبقت الحرب الوطنية العظمى(٢)، أي منذ عام (١٩٣٠)، فقد تميزت باقتناء واسع للمخطوطات من تتارستان وباشكيريا وكازاخستان وأذربيجان وداغستان وحوض الفولغا الأدنى. وتم الحصول على جزء من تلك المخطوطات عن طريق بعثات التنقيب عن الآثار والباقي هدية أو شراء (مثلاً المواطن ي. بيكتشنتييف من أوفا، ومن مواطني باكو أ.تاماييف وي. ماميدوف، ومن مواطن أستراخان س. عليموف).

وحتى في فترة الحرب، في عام (١٩٤٤)، حصل معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية أثناء وجوده في طشقند (هكذا أصبح أسم المتحف الآسيوي منذ عام (١٩٣٠) على مجموعة كبيرة ونادرة مكونة من (١٦) مجلد، نقلت لاحقاً إلى لينينغراد عام (١٩٤٧).

وتستمر المخطوطات الفارسية والعربية في الانضمام إلى رصيد المعهد حتى الآن، وإن بكميات أقل من السابق، وذلك إما بطريقة الشراء أو على شكل

---

(١) أغناطيوس كراتشكوفسكي. **مؤلفات مختارة.** (١٩٥٥ ــ ١٩٦٠). المجلدات ١ ــ ٦. موسكو ــ لينينغراد.

(٢) هكذا يسمي الروس الحرب العالمية الثانية، باعتبارهم أكثر من قدم ضحايا والجيش السوفيتي انتصر على النازية الألمانية وحرر أوروبا الشرقية منها.

هدايا فردية. وانعكس تاريخ تكون رصيد تلك المخطوطات في مقالات وأبحاث دورن وزاليمان وكراتشكوفسكي وإيفانوف الذين تحدثنا عنهم أعلاه. وكذلك في الأعمال الأخيرة لبيليايف [٥٥ ـ ٥٦] وأنس خالدوف [٥٨].

وحالياً يشكل الرصيد الإسلامي (من مخطوطات عربية وفارسية) الجزء الأهم من الرصيد الكلي للمخطوطات الشرقية في معهد الاستشراق ـ فرع لينينغراد. وهو أكثر من (١٠٠٠) مخطوطة عربية و(٥٠٠) فارسية. وقد تم إعداد فهارس كاملة بتلك المخطوطات.

٢ ـ مجموعة المخطوطات الشرقية في المكتبة الوطنية الروسية(١):

تأتي المكتبة الوطنية الروسية في سان بطرسبورغ في المرتبة الثانية من حيث الأهمية برصيدها من المخطوطات العربية والفارسية. وأساس ذلك المخزون (١٠٠) مخطوط شرقي من مجموعة ب. دوبروفسكي ـ مقتني المخطوطات الشهير وخازن قسم المخطوطات «خزينة المخطوطات».

وصل في عام (١٨١٤) عدد المخطوطات العربية في الخزينة إلى (٤٢) مخطوطة والفارسية إلى (٢٩). ثم تواردت المخطوطات في السنوات اللاحقة على دفعات مستمرة. وكما هو الحال بالنسبة للمتحف الآسيوي فقد حصلت المكتبة على تلك المخطوطات إما كهدية أو عن طريق الشراء من قبل المستشرقين المعروفين والدبلوماسيين الروس والموظفين العاملين في بلاد الشرق. وبناء على طلب المكتبة فقد تم شراء المخطوطات من الرحالة إلى بلاد المشرق: سواء المختصين منهم أم الهواة غير الخبيرين. وبالإضافة إلى ذلك استقبلت المكتبة مخطوطات فردية ومجموعات كاملة من المؤسسات والأفراد للحفظ. ولعبت دوراً كبيراً في إغناء المكتبة بالمخطوطات العربية

---

(١) كانت في العهد السوفياتي تسمى مكتبة لينين المركزية وهي أكبر مكتبة في الاتحاد السوفيتي وموجودة في موسكو. وهي غنية بالكتب والمراجع العلمية والأدبية المعاصرة ولكن المخطوطات العربية فيها قليلة.

والفارسية، مثل المتحف الآسيوي، تلك المجموعات الضخمة من المخطوطات الوافدة للمكتبة. وفي عام (١٨٥٩) وصلت إلى المكتبة مجموعة المبعوث الروسي إلى طهران د. دولغوروكي (٩٩) مخطوطة معظمها باللغة الفارسية).

والاقتناء المهم الثاني للمكتبة، هو مجموعة المستشرق والدبلوماسي الروسي المعروف ن. خانيكوف (ت ١٨٧٦) الذي ترأس القنصلية الروسية لمدة طويلة في تبريز. ووصلت مجموعته إلى المكتبة عام (١٨٦٤). كما حصلت المكتبة في نفس العام على مجموعة قيمة جداً من المخطوطات العربية المكتوبة بالخط الكوفي (مقتطفات من القرآن الكريم) تم اقتناؤها في مصر. وقد اشترتها المكتبة من ورثة المستعرب الفرنسي المعروف ج. مارسيل. وفي عام (١٨٦٨) حصلت المكتبة أيضاً على (٢٧) مخطوطة فارسية من ن. سيميونوفيتش المبعوث السابق في طهران.

وأرسلت في الأعوام (١٨٧١ ـ ١٨٧٦) للمكتبة ثلاث مجموعات كبيرة من المخطوطات المكتوبة باللغات العربية والفارسية والطاجيكية والأوزبيكية القديمة من قبل الجنرال الروسي والمحافظ ك. كاوفمان (ت ١٨٨٢) المعروف في آسيا الوسطى. أما في الأعوام (١٨٧٥، ١٨٧٩ و١٨٩٨)، فقد أثري رصيد المكتبة الشرقي بثلاث مجموعات أخرى وردت إلى المكتبة من قبل ف. سميرنوف الذي اقتناها بشكل أساسي من أسواق الكتب في القسطنطينية.

وفي عام (١٩١٣) نقلت من القصر الشتوي إلى المكتبة مجموعة ذات قيمة أدبية رفيعة من الإنتاج الشعري لمؤلفين فرس وطاجيك كانت قد أهديت للقيصر نيكولاي الثاني كهدية من أمير بخارى.

وبعد الثورة حصلت المكتبة على عدة مجموعات نادرة من حيث قيمتها العلمية. وفي عام (١٩١٩) وردت إلى المكتبة مجموعة يو. دانزاس المكونة من (٤٢) مخطوطة. وفي عام (١٩٣٩) تزودت المكتبة بمجموعتين من المخطوطات العربية من مواطن باكو، الذي ورد ذكره أعلاه، أ.تامايف. ثم استمر تدفق المخطوطات إلى المكتبة حتى وقت قريب.



وتضم المكتبة بالإضافة إلى المخطوطات العربية والفارسية عدداً من المخطوطات العربية ـ العبرية والعبرية، التي تشكل ما يقارب (١٢) ألف مخطوطة ومقتطف من المخطوطات. وتوجد كذلك مخطوطات مترجمة من العربية إلى العبرية ومخطوطات عربية مكتوبة بالحروف العبرية. ويتكون هذا الرصيد من مجموعتين وردتا إلى المكتبة في عامي (١٨٦٢ و١٨٧٦) من العالم والرحالة الكارايمي المعروف أ.فيركوفيتش وكذلك المخطوطات المهداة للمكتبة عام (١٨٩٩) من رئيس البعثة الروسية في القدس ـ الأرشمندريت أ.كابوستين.

والآن يصل عدد المخطوطات في خزينة المكتبة إلى (٨٠٠) مخطوطة عربية (بما فيها مجلدات تحتوي على عدة مؤلفات ومخطوطات نادرة ورسائل قيمة جداً). وحوالي ألف مخطوطة فارسية ـ طاجيكية تنتمي إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر (وخاصة الآثار الأدبية من الفترة الكلاسيكية). وتتميز المخطوطات الفارسية الطاجيكية بأنها مكتوبة بخط جميل رائع من قبل رسامين وخطاطين بارعين في فن الكتابة واللوحات الصغيرة (المنمنمات).

وتعود أقدم مخطوطات الرصيد إلى القرن التاسع للميلاد [٦٠ ـ ٦١] بصورة موازية لتكوين ونمو الرصيد بدأ العمل في دراسة وتوصيف وإعداد الفهارس(١). وقام بهذا العمل المستشرقون العاملون في المكتبة بالإضافة إلى المختصين المدعوين من المتحف الآسيوي ومن جامعة سان بطرسبورغ.

وأول من شرع في هذا العمل هو ب. دورن الأكاديمي المعروف الذي عمل في المتحف الآسيوي، والذي ترأس قسم اللغات الشرقية واللاهوتيات في المكتبة. فقد أصدر دورن عام (١٨٥٢) معتمداً على أعمال فرين وغيره في المخطوطات، فهرساً لجميع المخطوطات الشرقية المحفوظة في المكتبة حتى ذلك الحين [٦١].

---

(١) أو. فرولوفا وت.ديرياغينا. **المخطوطات العربية في القسم الشرقي في المكتبة العلمية لجامعة سان بطرسبورغ**. فهرس مختصر. سان بطرسبورغ. ١٩٩٦.

ولم تمتلك في ذلك الحين على مثل هذا الوصف الدقيق لمجموعات المخطوطات الشرقية أي مكتبة روسية أو أجنبية. أما دورن، فقد استمر بعمله ليصدر عام (١٨٦٥) فهرساً بمجموعة خانيكوف [٦١] ومجموعات أخرى من المكتبة(١) وقام أ.غاركافي المختص بالعبرية بفهرسة الجزء العربي من مجموعة فيركوفيتش.

وقد احتوى الرصيد الشرقي للمكتبة في تلك الفترة على عدة مجموعات من المخطوطات العربية والفارسية في الرياضيات والفلك. وسنتوقف عندها لاحقاً. وهي مجموعة دورن (أي المجموعة المحفوظة في المكتبة حتى عام (١٨٥١) وهو بداية عمله في إعداد فهرس عام للمخطوطات الشرقية) ومجموعة خانيكوف ومجموعة فيركوفيتش، وكذلك سلسلات كاملة من المجموعات العربية والفارسية الجديدة (أي مجموعة المخطوطات الواردة بعد المجموعات السابقة). وإلى الآن لم ينشأ فهرس شامل للمخطوطات العربية والفارسية في المكتبة.

وقد تحدث الأكاديمي كراتشكوفسكي(٢) بصورة معبرة عن أهمية قسم المخطوطات في المكتبة بالنسبة للاستعراب والاستشراق بشكل عام، حيث قال: «كان قسم المخطوطات وسيبقى دوماً بالنسبة لنا ـ معشر المستشرقين ـ مدرسة نادرة. فقد كنا ندخل المكتبة بورع ونحن طلاب في ريعان الشباب. وهنا أنجزنا أولى أعمالنا العلمية. وبعد مضي عشرات السنين، حيث دب الشيب في رؤوسنا وتقدمنا بالسن، استمرينا بالحضور إلى هنا للدراسة مع طلابنا، وقمنا بتوجيه طلاب طلابنا إلى هنا». [٦٢ ـ ٦٥].

---

(١) م.إيدياتولين. **المخطوطات العربية في الفلك والرياضيات في خزائن مكتبة لوباتشيفسكي العلمية**. تحت إشراف روزنفلد ب.قازان. منشورات جامعة قازان. ١٩٨٧.

(٢) إ.كراتشكوفسكي. **مؤلفات مختارة (١٩٥٥ ـ ١٩٦٠)**. المجلدات ١ ـ ٦. موسكو ـ لينينغراد.

٣ ـ مجموعة القسم الشرقي في المكتبة العلمية في جامعة سان بطرسبورغ:

تأسس القسم الشرقي في المكتبة العلمية لجامعة سان بطرسبورغ عام (١٨١٩). وشمل رصيده حينئذ على عدة مخطوطات وكتب باللغات الشرقية والغربية كانت قد أهديت للجامعة من قبل دار بيتروف للتحف. وبدأ توسيع الرصيد مع مطلع هذا العام. وكانت الإضافات محدودة في البداية. وزودت المكتبة في الأعوام (١٨١٩ وحتى ١٨٤٥) من المؤسسات المختلفة ومن أشخاص منفردين، بحوالي (٣٥) مخطوطة باللغتين العربية والتركية من بينها (٤) مخطوطات عربية فقط لكنها في غاية الأهمية من أجل التدريس. أما الرصيد الأساسي للمخطوطات العربية والفارسية فبدأ بالتشكل مع افتتاح وبداية نشاط كلية اللغات للجامعة في الفترة (١٨٤٥ ـ ١٨٥٥).

ويرتبط تاريخ النمو الفعلي لرصيد القسم الشرقي مع تطور الاستشراق في روسيا وإعداد الستشرقين ـ المتخصصين. وقد كان وسيبقى المستوى الرفيع من الإعداد هو الصفة المميزة لخريجي الكلية. وقد ساعد في ذلك إلزام الطلاب منذ السنة الأولى على العمل مع المخطوطات. ومع افتتاح كلية اللغات الشرقية قدمت للقسم الشرقي في المكتبة مجموعات كبيرة من المخطوطات والمراجع الدراسية في مجال الاستشراق، من جامعة قازان التي كانت في تلك الفترة أكبر مركز جامعي لتعليم اللغات الشرقية ومن مدرسة قازان الثانوية ومن معهد اللغات الشرقية في مدرسة ريشيليف في أوديسا. وشكلت تلك المخطوطات أساس القسمين العربي والفارسي من خزينة المكتبة.

واستمر فيما بعد إثراء المكتبة بمشاركة فعالة من كبار العلماء المستشرقين الروس. وكانت أولى هذه الإضافات الكبيرة من مجموعات المخطوطات التي تعود إلى أساتذة الكلية: أ.كاظم بيك (ت ١٨٧٠)، والشيخ محمد الطنطاوي (ت ١٨٦١)، وف. غيرغاس (ت ١٨٨٧)، وب. ليرخا (١٨٨٤)، ومخطوطات أخرى من الرصيد التي تدفقت باستمرار.

ويصل عدد المخطوطات العربية حالياً إلى (٨٠٠) مخطوطة في خزائن القسم الشرقي، والمخطوطات الفارسية ـ الطاجيكية تبلغ حوالي (٦٠٠) مخطوطة (ومن ضمنها عدد من المخطوطات النادرة جداً). وقد احتوت المجموعة العربية مخطوطات كثيرة في الشعر والنثر الأدبي والتاريخ وعلم اللغة والجغرافيا والعلوم الطبيعية (بما فيها مخطوطات في الرياضيات والفلك والميكانيكا).

اما المخطوطات الفارسية الطاجيكية، فمعظمها رسائل في الأدب والفلسفة والدين. وتوجد ضمنها مخطوطات في الرياضيات والفلك.

ويحتوي رصيد المكتبة الشرقي على أعمال الفارابي (ق ٩ ـ ١٠م) الفلسفية، وابن سينا (ق ١٠ ـ ١١م) ومجموعة أعماله في الطب، وكذلك المؤلفات الرياضية والفلكية للبيروني (ق ١٠ ـ ١١م)، والطوسي (ق ١٣م)، والشيرازي (ق ١٣ ـ ١٤م)، والرسالة التاريخية لابن الأثير (ق ١٢ ـ ١٣م)، ومعجم التراجم لابن خلكان (ق ١٣م). ويحتوي هذا الرصيد على مخطوطة للمصحف الشريف بغلاف جلدي خاص وبحجم صغير (بقياس علبة الكبريت) نسخ من قبل أفضل الخطاطين في ذلك العصر في مدينة شيراز عام (١٦٠١ ـ ١٦٠٢) خصيصاً للشاه عباس الأول.

ومن الإضافات القيمة والكبيرة نسبياً التي رفدت بها خزينة المكتبة في كلية اللغات الشرقية بعد تأسيسها، تأتي مجموعة المستعرب اللامع والمتخصص في الشؤون الإيرانية والتركية والضليع في قضايا الإسلام والشريعة الإسلامية البروفيسور أ.كاظم بيك الذي انتقل إلى سان بطرسبورغ من جامعة قازان وأصبح أول عميد للكلية. وقام بتدريس اللغات العربية والفارسية والتركية كما عمل سابقاً في قازان.

ومن المعروف أن ليون تولستوي عندما كان طالباً في جامعة قازان درس اللغات العربية والتركية لمدة سنتين تحت إشراف كاظم بيك. وقد أهدى كاظم بيك معظم مجموعته لجامعة سان بطرسبورغ بمجرد قدومه من قازان. وفي



عام (١٨٧١) حصلت الجامعة على مجموعة جديدة على دفعة جديدة من المخطوطات التي بحوزته. وبلغ عددها في المكتبة حوالي (٣٠٠) عنوان. وبالإضافة إلى المخطوطات الدينية، التي شكلت الجزء الأكبر من مجموعة كاظم بيك، فقد شملت تلك المخطوطات على رسائل في مواضيع مختلفة في الأدب والتاريخ والفولكلور الشعبي والعلوم الطبيعية.

والمجموعة الضخمة الأخرى في رصيد المكتبة والتي بلغت حوالي (٣٠٠) مخطوطة، فتعود إلى البروفيسور في الكلية ـ الشيخ محمد الطنطاوي ـ وهو مصري الجنسية. لقد قام المستعرب الكبير كراتشكوفسكي [٦٠] بتقديم وصف لحياة وأعمال الشيخ الطنطاوي(١) في كتابه المذكور. وكان الطنطاوي عالماً واسع المعرفة والاهتمامات العلمية، وهذا ما انعكس في مجموعته. ومن ضمن مخطوطات مجموعة الطنطاوي مؤلفات نادرة في اللهجة المصرية ومنها قاموس اللهجة المصرية في القرن السابع عشر والتي قام كراتشكوفسكي بدراستها أيضاً بالاشتراك مع البروفيسور في الكلية بيليلاييف (ت ١٩٧٦). واحتوت المجموعة على مختارات من المؤلفات الصوفية والفلسفية والدينية الأخرى التي تمت دراسة جزء منها من قبل بروفيسور الجامعة أ.ي.شميدت (ت ١٩٣٩) وو. ب.فرولوفا. واحتوت مجموعة الطنطاوي على مؤلفاه الخاصة: اشعاره الشعبية والمرثيات والقصائد التي كتبها لعائلة القيصر رومانوف.

وتحتوي مجموعة البروفيسور أ.و.موخلينسكي (ت ١٨٧٧) على مخطوطات قيمة جداً. ومنها آثار نادرة في الأدب الديني كتبت بحروف عربية باللغة البيلاروسية ـ البولندية وتنتمي إلى التتار الليتوانيين الذين يقطنون في منطقة حدود بيلاروسيا ـ ليتوانيا ـ بولندا. ويمكن القول أن لهذه المخطوطات، المحفوظة في مكتبة الكلية، قيمة خاصة وكبيرة بالنسبة للعلم لأن معظم

---

(١) أغناطيوس كراتشكوفسكي. **مؤلفات مختارة.** (١٩٥٥ ـ ١٩٦٠). المجلدات ١ ـ ٦. موسكو ـ لينينغراد.

المخطوطات المماثلة اتلفت خلال الحرب العالمية الثانية. وأضخم مجموعة من المخطوطات تم القضاء عليها أثناء قصف وارسو. أما صاحب هذه المجموعة، فقد أعدم من قبل النازيين الألمان [٦٠]. كما ساهم كبار العلماء في اقتناء ودراسة مخطوطات مكتبة كلية اللغات الشرقية.

فقد قام المستشرق الروسي المعروف البروفيسور أ.أ.روماسكيفيتش (ت ١٩٤٢) بإهداء مجموعة من المخطوطات. وهي تحتوي على مخطوطات نادرة ونفيسة في الكيمياء والفلك والطب والفلسفة [٦٠]. وكان قد عمل بنفسه كثيراً في دراسة المخطوطات التي احتوتها مجموعته.

وكان للمستعرب الروسي الكبير الأكاديمي أ.يو. كراتشكوفسكي مشاركة كبيرة في جمع المخطوطات للمكتبة، حيث أحضر عام (١٩١١)، بعد عودته من مهمة علمية في سورية، هدية للمطتبة وهي عبارة عن (١٠) مخطوطات عربية ومعظمها دواوين شعر قام فيما بعد بدراستها ونشرها.

وقام كراتشكوفسكي[١] بتوصيف مجموعات أخرى من مخطوطات المكتبة ومنها مجموعة غيرغاس [٦٠]. وقدم كراتشكوفسكي إسهاماً متميزاً في دراسة المخطوطات العربية ليس فقط من المجموعات العامة وإنما (كما ذكرنا أعلاه) من مجموعات المؤسسات العلمية وغير العلمية الأخرى. وقد تحدث عن أبحاثه هذه في كتابه الرائع «مع المخطوطات العربية»، الذي أعيد طباعته عدة مرات في روسيا وخارجها (كما أنه ترجم إلى العربية) [٦٠].

وعلى العموم، فإن القسم الشرقي يحتوي على ٤٠ مجموعة مخطوطات عربية مكونة من مجموعات علماء وشخصيات سياسية واجتماعية وأفراد عاديين كانت قد أهديت إلى مكتبة الجامعة، ومن ضمنها تلك التي قدمها

---

(١) اغناطيوس كراتشكوفسكي. **مؤلفات مختارة.** (١٩٥٥ ــ ١٩٦٠). المجلدات ١ ــ ٦. موسكو ــ لينينغراد.



أستاذ جامعة قازان ف. ف.ديتيل (ت ١٨٤٨)، وكذلك المخطوطات التي جلبها أستاذ اللغات الشرقية ي. ن.بيريوزين (ت ١٨٩٦) من آسيا الوسطى وداغستان وأهداها للمكتبة، بالإضافة للأساتذة المستشرقين م.ت. نافروتسكي ون.ي. فيسيلوفسكي وي.ف. بوميلوفسكي وي.ف. غوتفالد والنبيل ب.ك. سوختيلين ووزير الخارجية الفرنسي ل. غامبيت والمدرسين والمهندسين والتجار والطلاب. وقدمت معظمها كهدية للمكتبة من قبل ورثة هذه المجموعات.

واليوم تضم المجموعة العربية في القسم الشرقي حوالي (٩٠٠) مجلد من المخطوطات (١٠٤٠ كتاب) في جميع مجالات المعرفة: الدين والفقه الإسلامي والفلسفة والمنطق والأدب والحغرافيا والعلوم الطبيعية والرياضيات والفلك وغيرها.

وشكلت تلك المجموعات العربية من القسم الشرقي في المكتبة مرجعاً مهماً للعديد من العلماء والمستشرقين والمستعربين مثل ف. غ.تيزينهاوزن (ت ١٩٠٢) وب. غ.بولغاكوف (ت ١٩٩٣). وقد عمل مع تلك المخطوطات العربية مؤلف فهرس المخطوطات العربية في فرع سان بطرسبورغ لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية أنس ب. خالدوف وبروفيسور الجامعة و. ب. فرولوفا وغيرهم الكثير.

أما فهرسة مجموعة المخطوطات العربية في القسم الشرقي، فقد بدأت منذ زمن بعيد، حيث عمل في هذا الاتجاه عدة أجيال من العلماء. وكان فهرس المخطوطات العربية والفارسية في الجامعة قد أعد في وقت مبكر من قبل ك.غ. زاليمان وف.ر. روزن [٥٧]. أما بولغاكوف وبيليايييف، فقد قدما في عملهما المشترك وصفاً قيماً للمخطوطات العربية الجديدة [٥٦]. وأخيراً نشر عام ١٩٩٦ فهرس المخطوطات العربية في القسم الشرقي، الذي أعدته فرولوفا وت.ت. ديرياغينا [٥٧]. لكن توصيف المجموعة المعاصرة من المخطوطات الفارسية فينتظر الباحثين.

٤ ـ مجموعة المخطوطات الشرقية في المكتبة العلمية لجامعة قازان[١] (مكتبة لوباتشيفسكي):

كانت جامعة قازان [٦٤] في النصف الأول من القرن التاسع عشر إحدى أهم المراكز وأكبرها للاستشراق الروسي والتعليم الجامعي للغات الشرقية. وكانت الكلية الشرقية في الجامعة مكونة من أقسام للغات العربية والفارسية والتركية ـ التتارية والصينية والأرمنية والسنسكريتية. وفي عام (١٨٣٣) تأسس أول قسم في أوروبا وهو قسم اللغة المنغولية وعلومها. ومع بدايات نشاط الكلية الشرقية في جامعة قازان بدأ يتبلور رصيد المخطوطات والكتب باللغات الشرقية. وقد ورد في مقدمة الفهرس الأول للمخطوطات العربية لجامعة قازان (١٨٥٥) بأن من قام بوضع أسس مجموعة المخطوطات الإسلامية هما غوتفالد (ت ١٨٩٧) البروفيسور في اللغتين العربية والفارسية وهو من قام بإعداد الفهرس والمسؤول عن مكتبة الجامعة ـ والبروفيسور في الطب إيردمان الذي أهدى المكتبة عام (١٨١٥) مخطوطة فارسية وأخرى تركية كان قد جلبهما اثناء رحلته إلى محافظات استراخان وساراتوف. وكان لوباتشيفسكي[٢] (ت ١٨٥٦) من المؤسسين لخزينة المخطوطات الشرقية في الجامعة، حيث كان

---

(١) أ.كريمولين. **الخزائن الشرقية في مكتبة جامعة أوليانوف (لينين) الحكومية في قازان**. خزائن المخطوطات الشرقية في مكتبات الاتحاد السوفياتي. موسكو. ١٩٦٣.

(٢) نيكولاي لوباتشيفسكي (ت١٨٥٦) من أعظم علماء الرياضيات في روسيا والعالم. فقد كان أول من اكتشف هندسة لاإقليدية، قبل ريمان الألماني وبولياي المجري وغاوص الألماني. وقد سميت هندسته بالهندسة الزائدية لأنه اعتبر المستوي عبارة عن سطح فازة (جرة) وبالتالي فالخطوط المستقيمة حسب نظرية لوباتشيفسكي هي قطوع زائدة. وقد فرض بأنه لا يوجد مستقيمات متوازية أبداً في هندسته. وأثبت أن مجموع زوايا المثلث الزائدي أقل من ١٨٠ درجة. وللأسف فقد قوبلت نظريته بالرفض من قبل المجتمع العلمي حينئذ. ولكن بعد وفاته تم الاعتراف بالقيمة العلمية التاريخية لنظريته التي أحدثت ثورة علمية في الهندسة والرياضيات وفي الفيزياء أيضاً.



مسؤولاً عن مكتبة جامعة قازان في الفترة من (١٨٢٥ وحتى ١٨٣٥). وحسب تقديره فإن معظم المخطوطات التي وصل عددها إلى (١١٩) في المكتبة عام (١٨٢٧) لم تكن ذات أهمية كبيرة. ولكن بعضها كان ذو قيمة علمية نادرة جداً. وتلك كانت المخطوطات العربية في الطب والفلسفة لابن سينا، والمخطوطة الفارسية «شاه نعمة» للفردوسي، والمخطوطة العربية من عام (١٤٩٣) وهي «كتاب العوامل» في القواعد لعبد القاهر الجرجاني (ق١١م).

وقد تغيرت القيمة العلمية والتاريخية للرصيد الاستشراقي بعد أن أدخل لوباتشيفسكي عملية تنظيم المخطوطات الشرقية وانتقائها حسب محتوياتها.

وهكذا اقتنت المكتبة حسب توجيهاته في عامي (١٨٣١ ـ ١٨٣٢) مجموعة "Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland" (London) والمخطوطات من القاموس الفارسي لمحمد حسين التبريزي (ق ١٧م) وعنوانه «برهان القاطع»، والأثر الأدبي النفيس في اللغتين العربية والفارسية «كليلة ودمنة»، ومجموعة المجلدات في التاريخ العام للمؤرخ الإيراني محمد بن خاوند شاه ميرخوند (ق ١٥) **«تاريخ روضة الصفا»**.

وقد تواردت المخطوطات الشرقية إلى المكتبة إما نتيجة الشراء أو على شكل هدايا. وبذلت جهود في هذا الاتجاه بين سكان محافظة قازان وشرقي روسيا وفي بلدان المشرق القريبة. وكانت أولى المخطوطات تلك التي أهداها التاجر القازاني سليمان بورنايف.

أما البروفيسور في اللغة المنغولية و.م. كوفاليفسكي (ت ١٨٧٨)، والذي أصبح فيما بعد رئيساً لجامعة قازان، فقد جلب من رحلته في ما وراء البايكال ومنغوليا والصين، مجموعة قيمة من المخطوطات والكتب باللغات المنغولية والتيبتية والمنشورية والصينية بحيث بلغ عددها (١٨٩) مؤلفاً تقع في (١٨٤٣) مجلداً.

وقد كتب لوباتشيفسكي في تقريره عن أمور المكتبة في عام (١٨٣٤):



«هذه المجموعة التي تضع مكتبتنا في مرتبة أعلى من أي مكتبة في أوروبا، ستلقي ضوءاً جديداً على تاريخ وشرائع ومعتقدات الشرق» [٦٤].

وقد أهدى أستاذ الجامعة ف. فاسيلييف (ت ١٩٠٠) للمكتبة مجموعة من المخطوطات والمطبوعات التي جلبها من الصين (٨٤٩) عنوان تقع في (٢٧٣٧ مجلداً و١٤٤٧) دفتراً) باللغات التيبتية والصينية والمنشورية والسنسكريتية وغيرها.

كما حصلت المكتبة[١] على العديد من الكتب والمخطوطات من البروفيسور في اللغة الصينية د. سيفيلوف، وأستاذ الجامعة ي. فويتسخوفسكي الذي عمل في الصين مدة طويلة.

واقتنت مكتبة الجامعة مجموعة كبيرة من الكتب والمخطوطات باللغة العربية والفارسية والأرمنية وغيرها بفضل ي.. بيريوزن المختص باللغة التركية، والبروفيسور في كلية اللغات الشرقية في جامعة سان بطرسبورغ. وقد جلب تلك المخطوطات من رحلته إلى إيران وسورية ومصر وآسيا الوسطى. وهناك مخطوطات أخرى أهداها بيريوزن مع أستاذ الجامعة ف. ديتيل للمكتبة بعد عودتهما من رحلة في آسيا الوسطى وداغستان في عامي (١٨٤٣ و١٨٤٧).

ومن بين تلك المخطوطات عثر على مخطوطة نادرة في الرياضيات لعلماء عرب من بغداد في القرن التاسع وهم الأخوة بنو موسى، وفيها دراسة وشرح للجزأين الثالث والرابع من «القطوع المخروطية» لأبولونيوس (ق ٣ ـ ٢ ق. م.) والتي ترجمها العالم الموسوعي الكبير ثابت بن قرة (ق ٩م). وتوجد خمس نسخ من هذه المخطوطة الرياضية الهامة في مشهد وإسطنبول وأوكسفورد، علماً أن ثلاث منها فقط كاملة. وقد حصلت جامعة سان بطرسبورغ على

---

(١) م.إيدياتولين. **المخطوطات العربية في الفلك والرياضيات في خزائن مكتبة لوباتشيفسكي العلمية**. تحت إشراف روزنفلد ب.قازان. منشورات جامعة قازان. ١٩٨٧.



نسخة من هذه المخطوطة. وبعد وفاة ديتيل قام أقرباؤه بإهداء مجموعته الشخصية من المخطوطات الشرقية للجامعة.

وحظيت المكتبة بنصيب من المخطوطات النادرة باللغات العربية والفارسية والتركية من قبل خان القبيلة الداخلية جنغير بوكييف عام (١٨٣٩) وكذلك في عامي (١٨٤٤ ـ ١٨٤٥).

وشكلت جزءاً مهماً من رصيد المخطوطات مجموعة عددها (٢٠٣) من المخطوطات النفيسة باللغة العربية والفارسية والتركية التي قدمها للجامعة «بطريرك الاستشراق الروسي» كاظم بيك.

كما أهدى أستاذ الجامعة إبراهيم خالفين بعض المخطوطات باللغات العربية والفارسية والجاغاتية (الأوزبيكية القديمة) إلى جامعة سان بطرسبورغ.

في عام (١٨٥٥) تم نقل القسم الشرقي لجامعة قازان إلى جامعة سان بطرسبورغ التي أنشئت فيها كلية اللغات الشرقية، وعلى أثرها توقف تدريس هذه اللغات في جامعة قازان (تم السماح بتدريس اللغة العربية والتركية والتتارية من جديد فقط عام ١٨٦١).

ولذلك فقد انتقل إلى بطرسبورغ العديد من المستشرقين مثل: ف. فاسيلييف، ي. بيريوزن، أ.كاظم بيك، أ.بوبوف وغيرهم. كما نقلت إلى جامعة سان بطرسبورغ مجموعة كبيرة من المخطوطات باللغات الصينية والمنجورية والمنغولية والسنسكريتية والأرمنية. أما المخطوطات باللغات التركية ـ التتارية والعربية والفارسية، فقد بقيت معظمها في قازان. وحتى بعد ذلك استمر إغناء رصيد المخطوطات الشرقية في جامعة قازان.

فقد أهدى بروفيسور جامعة قازان ي. غوتفالد للمكتبة عام (١٨٩٧) أكثر من (٦) آلاف مخطوطة وكتاب في مواضيع الدراسات الشرقية. ومن ضمنها كانت بعض المخطوطات الأصلية باللغتين العربية والفارسية. وقام مدرس اللغات العربية والتركية ـ التتارية البروفيسور ن. كاتانوف (ت ١٩٢٢) [٦٤] بتوصيف رصيد المخطوطات والكتب الشرقية من مؤلفات غوتفالد نفسه. وقد

جمع كاتانوف بنفسه مجموعة كبيرة من المخطوطات والكتب الشرقية تحولت فيما بعد إلى مكتبة الجامعة.

وهكذا استمر اقتناء المخطوطات والكتب الشرقية في جامعة قازان حتى بعد عام (١٩١٧). وخاصة من المجموعات الخاصة وكذلك بعد اندماج المكتبة الجمهورية الشرقية لتتارستان ومكتبة متحف قازان وجمعية التنقيب عن الآثار والتاريخ والأجناس. كما تم جمع مخطوطات شرقية لمكتبة الجامعة من قبل المشاركين في فترة الخطة الخمسية الأولى في البعثات التنقيبية عن الآثار في تتارستان وبشكيريا والأورال وسيبيريا.

وتجدر الإشارة إلى الهدية (٩٠٠ مخطوطة) المقدمة من قبل المستشرق وجامع الكتب القازاني حليم جان بارودي المعروف بترحاله في بلدان الشرق.

ويصل حالياً عدد المخطوطات الشرقية في خزينة المكتبة إلى (١٠) آلاف مخطوطة. منها (٣٥٠٠) مخطوطة باللغة العربية، و(١٧٠٠) بالتركية، ومن ضمنها مخطوطات باللغات الأويغورية والجاغاتية، أما البقية فهي باللغة الفارسية إلى جانب عدد من المخطوطات باللغة الأرمنية والمنغولية والتبيتية وغيرها (أي بحوالي ١٨ لغة).

والرصيد المخطوطي شامل بمحتوياته. فهناك تمثيل واسع لكتب الأدب والرياضيات والفلك والطب والقانون والفلسفة والتاريخ والشعر وعلم اللغة (اللسانيات) والعلوم الطبيعية.

وأقدم مخطوطة باللغة العربية محفوظة في خزينة المكتبة هي قاموس اللغة العربية «لغة صحيح البخاري» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ق ٧م) المنسوخة عام (١٠٨٥).

ومن المخطوطات العربية ذات الأهمية الخاصة نذكر المخطوطات الطبية والفلسفية لابن سينا المكتوبة بخط يده وكذلك تعليق وشرح نصير الدين الطوسي على مؤلف ابن سينا «شرح الإشارات». وتحفظ في المكتبة مخطوطة نادرة جداً (يوجد منها نسختان فقط) للفيلسوف العربي الشهرستاني (ق ١١ ـ ١٢م)، وهو



«كتاب المناظرات» الذي يتضمن مساجلات بين المؤلف وابن سينا في المسائل الفلسفية.

وتوجد مخطوطات منسوخة وأخرى بخط اليد من ضمن المخطوطات العربية. وبعضها، برأي كراتشكوفسكي، فريدة من نوعها. مثل مؤلف قسطا بن لوقا (ق ٩ ـ ١٠م) الفلسفي «كتاب الفصل بين الروح والجسد»، ورسالة في القواعد لأحمد بن فارس الرضي القزويني (ق ١٠ ـ ١١م) «أخلاق النبي»، ومؤلف في لعبة الشطرنج للغوي الراغب الأصفهاني (ق ١١ ـ ١٢م) [٦٢ ـ ٦٤]

٥ ـ مجموعة معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان [٦٥ ـ ٦٦]:

تعد خزينة المخطوطات الشرقية في معهد البيروني للاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الأوزبيكية من أكبر وأغنى خزائن المخطوطات الشرقية في العالم[(١)].

وكانت بداية تشكل هذه المجموعة مرتبطة بافتتاح المكتبة العامة التركستانية ومتحف طشقند في مدينة طشقند عام (١٨٧٠). أما سبب كونها المجموعة الأولى من المخطوطات والكتب الشرقية في المكتبة فيعود إلى عام (١٨٩٠). وساهم في تشكيلها خريج كلية اللغات الشرقية في جامعة سان بطرسبورغ أ.كون الذي عمل في تركستان منذ عام (١٨٦٨)، ون.بانتوسوف الذي أنهى تلك الكلية ودرس علم الأجناس واللغة والتاريخ والآثار في آسيا الوسطى وكازاخستان، ود. غرامينيتسكي الذي أصبح فيما بعد قاضي في مقاطعة طشقند وتلميذ روزن، ي.كال (ت ١٨٩١) الذي جمع بين العمل الإداري في طشقند وبين الأبحاث العلمية[(٢)].

(١) غالينا ماتفييفسكايا. **مخطوطات الرياضيات والفلك في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الأوزبيكية السوفياتية**. تحت إشراف سراج الدينوف س.ح. ـ من تاريخ العلوم الدقيقة في الشرق الأوسط والأدنى القروسطي. طشقند. ١٩٧٢.

(٢) س.عظيم جانوف ود. فورونوفسكي. **مجموعة المخطوطات الشرقية لأكاديمية العلوم** =

وقد توسعت خزينة المخطوطات في المكتبة بشكل بطيء نسبياً حتى ثورة أوكتوبر عام (١٩١٧). وبالرغم من الكمية الكبيرة من المخطوطات والكتب الشرقية المعروضة آنذاك للبيع، إلا أن المخصصات المالية للمكتبة لم تكن تكفي لتوسيع الرصيد. ولاحقاً تنامى رصيد المكتبة ببطء بفضل المشتريات الرخيصة التي تمت بالصدفة أو من المخطوطات المهداة أحياناً.

وأعدَّ كال أول فهرس «**المخطوطات العربية والفارسية والتركية في المكتبة العامة التركستانية**» ونشره عام (١٨٨٩) في طشقند. وقد احتوى الفهرس على توصيف لــ ٨٧ مجلد، منها ٧٨ مؤلف فارسي (طاجيكي)، و(١٩) عربي، و(٢٩) تركي (أوزبيكي)، ومعظمها في تاريخ آسيا الوسطى والهند وإيران.

وقد تجددت عملية توسيع رصيد المخطوطات في المكتبة في نهاية التسعينيات مع بداية نشاط الرابطة التركستانية لهواة التنقيب عن الآثار. وقد تأسست الرابطة المذكورة عام (١٨٩٥) بمبادرة من الباحث المعروف في الإسلاميات ومؤسس ومحرر أول جريدة باللغة الأوزبيكية في تركستان وهو ن. أوستراوموف (فيما بعد نائب رئيس الرابطة) والمستشرق الروسي الكبير ف. بارتولد (كان حينها عالماً شاباً).

وفي عام (١٨٩٨) بتوصية من أوستراموف، تحولت المكتبة الشخصية لقائد انتفاضة أنديجان محمد علي صابروف التي صادرتها الحكومة القيصرية والتي ضمت (١٩٤) مخطوطة إلى المكتبة العامة التركستانية. وبناء على توصية من بارتولد، الذي قام بمهمات علمية عديدة إلى تركستان بهدف التعرف على خزائن المخطوطات، فقد حصلت المكتبة العامة عام (١٩٠٢) على بعض المخطوطات من المجموعات الخاصة مثل مجموعة الجنرال جورا بيك (ت ١٩٠٦) وقاضي محي الدين. وفي عام (١٩٠٧) قام ن. بتروفسكي، وهو

= **الأوزبيكية السوفياتية**. خزائن المخطوطات الشرقية في مكتبات الاتحاد السوفياتي. موسكو. ١٩٦٣.

عضو شرف في رابطة تركستان لهواة التنقيب عن الآثار، بإهداء الرابطة مجموعة استثنائية ونادرة من المخطوطات التركية «رسالة».

وقام أ.سيميونوف (ت ١٩٥٨) عام (١٩١٢) بإعداد «قائمة بالمخطوطات الشرقية في المكتبة العامة التركستانية» التي كملت فهرس كاتل، ولكنه للأسف لم ينشر. وكان قد تضمن توصيفاً لـ (٢٣١) مخطوطة وردت إلى المكتبة بعد عام (١٨٩٨). وبعض مخطوطات الرصيد تم توصيفها في التقارير المنشورة لبارتولد عن مهماته العلمية إلى تركستان.

وبعد أحداث أوكتوبر (١٩١٧) برزت أمام أكاديمية العلوم الروسية مسألة الحفاظ على التراث الثقافي لآسيا الوسطى. وفي بداية العشرينيات قام بارتولد بزيارة بخارى بصفته عضواً للجنة المشتركة لحماية المخطوطات في بخارى بعد خلع الأمير، وذلك بالاشتراك مع ف. فياتكين (ت ١٩٣٢) المؤرخ والباحث المعروف في الآثار والخبير بآثار سمرقند القديمة، قاما بإعداد برنامج لحفظ الآثار الثقافية بما فيها المخطوطات. وقد حظي البرنامج بتأييد واسع من أهالي بخارى وطشقند. وبالرغم من الصعوبات الكبيرة في تلك السنوات فقد تم، بدعم من حكومة تركستان، اتخاذ عدة إجراءات حاسمة من أجل توحيد خزائن المخطوطات وتأمين حفظها.

وتأسس في المكتبة قسم للاستشراق ترأسه المتخصص في القضايا التركية أ.غاريتسكي. وتطورت عملية اقتناء المكتبة للمخطوطات في الثلاثينيات. حيث شهدت تلك الفترة زيادة في الدعم المالي من قبل الحكومة للمكتبة العامة الحكومية فظهرت إمكانية لشراء مزيد من المخطوطات والكتب الشرقية سواء من الأفراد او كمجموعات كاملة مكونة من عشرات المجلدات. وبذلك تزايدت، بوتيرة عالية، أرصدة المخطوطات في المكتبة.

وهكذا تم الحصول في عام (١٩٣٣) على مجموعة مخطوطات فياتكين (ت ١٩٣٢)، ونقلت من سمرقند إلى طشقند، وتضمنت مخطوطات وفصول معظمها ذات محتوى تاريخي وصوفي (منها ٢٧٢ مؤلف منفرد).



وفي الخامس والعشرين من نيسان ـ أبريل (١٩٣٣) صدر قرار مجلس نواب الشعب في جمهورية أوزبكستان السوفياتية «حول توحيد خزائن المخطوطات في الجمهورية». وعلى أساس ذلك القرار أُعلِنَت المكتبة العامة الحكومية في طشقند مركزاً رئيساً لحفظ المخطوطات في جمهورية أوزبكستان السوفياتية وأصبحت المخطوطات تتوارد إلى قسم الاستشراق من كل أنحاء أوزبكستان.

وقد نقلت إلى المكتبة من بخارى مجموعة الشيخ محمد بارس (ت ١٤١٩)، وهو الذي أسس في القرن الخامس عشر مكتبة عامة في بخارى الأوزبيكية. أما بعض مخطوطات هذه المجموعة فكان قد أحضرها معه الشيخ بارس بعد رحلته إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

كما حصلت المكتبة عام (١٩٣٤) على مجموعات شخصية من أ.رحمانوف وهي مكونة من (١٤٨) مجلداً، وكذلك من أ.فيترات وهي مؤلفة من (١٥٠) مجلداً، ومن خ. ظافروف مؤلفة من (٤٠) مجلداً، وتمثل مخطوطات مجموعة فيترات أهمية خاصة بمحتوياتها القيمة وفائدتها الكبيرة لدراسة تاريخ آسيا الوسطى. وتتميز في هذه المجموعة مخطوطة نفيسة تسمى «قائمة نعمان غاني» ليوسف خاص حاجب بالاساغوني (ق ١١م) «كوتادغو بيليغ» (باللغة الأوزبيكية). وعثر في مجموعة ظافروف على مخطوطة ذات أهمية خاصة في دراسة تاريخ الصوفية في آسيا الوسطى «مراسلات إشان الأورغوتي» لمحي الدين خوجة.

وفي عام (١٩٣٦) تمكن قسم الاستشراق من اقتناء مجموعة ذات قيمة استثنائية من ورثة جامع الكتب البخاري شريف جان محمود ضياء وهو آخر قاضي من رتبة رئيس القضاة في بخارى. والمجموعة مكونة من (٣٠٠) مجلد من المخطوطات. وتتضمن المجموعة مخطوط رائع «**تذكرة الشعراء**» لدولة شاه السمرقندي ومخطوطة نادرة «**خمسي**» للأمير خسرو دهلوي (ق ١٣ ـ ١٤م). وقد خط الشاعر شمس الدين محمد حافظ (ق ١٤م) بيده القصائد الثانية والثالثة والرابعة من تلك المجموعة الشعرية.

وبتوجيه من وزارة التربية في جمهورية أوزبكستان، تم في عام (١٩٣٨)



تزويد المكتبة العامة الحكومية بجزء من كتب ومخطوطات المكتبة المركزية في بخارى، والتي كانت قد أحضرت إلى سمرقند في نهاية العشرينيات مع مجموعة بخارية أخرى ووزعت على متحف سمرقند وجامعة أوزبكستان الحكومية ومؤسسات أخرى.

وفي نفس العام تم اقتناء مجموعة خاصة فريدة تعود إلى الطبيب السمرقندي البروفيسور غ.سيميونوف (حوالي ١٣٠ كتاب). ومن أهمها نذكر قصائد لجامي (ق ١٥م)، ورائعة الفردوسي «**شاه نعمة**» التي شكلت بمجملها الرصيد الذهبي للمكتبة.

وبهدف دراسة وتوصيف المخطوطات والكتب الشرقية في قسم الاستشراق من المكتبة العامة دعي أخصائيون ذوي خبرة عالية ومستشرقون بارزون مثل: عضو أكاديمية العلوم السوفياتية أ.شميدت، والبروفيسور أ.سيميونوف، والمختص في الشؤون الإيرانية أ.مولتشانوف، والخبير المخضرم في مخطوطات آسيا الوسطى ي. عادلوف، والخبير المشهور في الخطوط الشرقية أ.مرادوف وغيرهم.

وبقرار من الحكومة السوفياتية تأسست في عام (١٩٤٣) أكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان السوفياتية. وفي ذلك الوقت تم فصل قسم الاستشراق من المكتبة العامة الحكومية بناء على قرار حكومي وتحول إلى معهد لدراسة المخطوطات الشرقية وفيما بعد إلى معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الأوزبيكية (الآن اسمه الرسمي معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان) ونقلت إليه مجموعات المخطوطات من المكتبة الأساسية لأكاديمية العلوم الأوزبيكية وبقايا مكتبة الخانات الخيفيين وبعض مؤسسات الدينية. ومنذ عام (١٩٤٣) عين العضو المراسل في أكاديمية العلوم الأوزبيكية أ.سيميونوف مديراً لمعهد دراسة المخطوطات الشرقية.

وفي سنوات الحرب القاسية تم ترحيل معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية (مقره لينينغراد) إلى طشقند. وانخرط المستشرقون

القادمون من لينينغراد في عمل مشترك مع زملائهم من طشقند في عملية مسح وتوصيف للمخطوطات الشرقية.

وقد ساهم بنشاط في هذا العمل إلى جانب أ.سيميونوف وأ.شميدت كل من المستعربين ف. بيلياييف، وي. بيتغر (ت ١٩٥٦)، وي. سميرنوفا (ت ١٩٨٢)، والمختصين في الشؤون التركية أ.كونونوف وأ.تفيريتينوف (ت ١٩٧٣)، والمتخصصة في القضايا الدراسات السامية ك. ستاركوفا، والمتخصص في القضايا الهندية أ.غولدبيرغ (ت١٩٦١) وغيرهم من المستشرقين اللينينغراديين.

ويجب ألا ننسى الخبراء المحليين الضليعين في اللغات الشرقية مثل: أ.عبد الرحمانوف، وأ.رسولوف، وس. ميرزاييف، وب. زهيدجانوف وغيرهم.

وقد قام في المعهد مستشرقون روس معروفون مثل ي. بيرتيلس (ت ١٩٥٧)، وي. بيتروشيفسكي (ت ١٩٧٧) بالعمل على إعداد مواد لقاموس عن سير الشعراء والكتاب والعلماء ورجال الدولة في آسيا الوسطى حتى القرن التاسع عشر. وبنتيجة هذا العمل العلمي المنجز تم توصيف أكثر من (٤٠٠٠) مخطوطة. واستمر العمل على توصيف المخطوطات حتى بعد رحيل المستشرقين اللينينغراديين عام (١٩٤٥). كما استمر تزويد المكتبة بالمخطوطات. وقامت البعثة الخيفينية عام (١٩٤٦) بإحضار (٨٠٠) مخطوطة ومطبوعة مكتوبة في مطبعة حجرية.

وفي عام (١٩٥٠) تم تحويل معهد دراسة المخطوطات الشرقية إلى معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان السوفياتية، والذي ضم مجموعة من المخطوطات الشرقية والوثائق التاريخية. وترأست المعهد المؤرخة س. عظيمجانوفا.

وخصصت الحكومة السوفياتية مبالغ خاصة لتوسيع أرصدة المعهد. مثلاً في عام (١٩٥٠) تم اقتناء حوالي (٤٠٠) مخطوطة ووثيقة من ضمنها المخطوط القديم «**كتاب السندباد**» لمحمد السمرقندي (بداية القرن ١٢م) الذي يعود إلى عام (١٢٨٦). أما في عام (١٩٥٤) فقد نظمت أول بعثة



مهمتها اقتناء المخطوطات التي بحوزة الأفراد، وتمكنت من الحصول على (١٤٠) مخطوطة و(٣٤) كتاب مطبوع و(٧) وثائق.

وفي الوقت الحالي فإن مجموعة المخطوطات الشرقية التابعة لأكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان تضم حوالي (١٦) ألف مجلد من المخطوطات والتي تعادل (٤٥) ألف مؤلف. والمحتويات الرئيسية لخزينة المكتبة هي:

مؤلفات باللغة العربية (٤٨٪)، وباللغة الفارسية ـ الطاجيكية (٤٠٪) وباللغة الأوزبيكية (١٠٪) والبقية (٢٪) بالأذربيجانية والتركية والتركستانية وباللغات الأخرى (وهذه قائمة لا تشمل رصيد آسيا الوسطى ورصيد الإصدارات الشرقية المطبوعة بما فيها المطبوعة حجرياً والتي تحتوي على مخطوطات نادرة ونفيسة).

كما تم توصيف الجزء الأكبر من مخطوطات المجموعة في الفهرس المصنف حسب المواضيع الذي بدأ إصداره منذ عام (١٩٥٢) تحت إشراف وبمشاركة أ.سيميونوف. وقد صدر من هذا الفهرس حتى الآن (١٣) مجلداً.

٦ ـ مخطوطات العلوم الرياضية والفيزيائية:

قام بوريس روزنفيلد عام (١٩٦٦) بإصدار أول قائمة بالمخطوطات الرياضية والفيزيائية في أكبر المكتبات السوفياتية [٥٩، ٦٦]. وتعد خزائن سان بطرسبورغ وطشقند وقازان الأغنى بمخطوطاتها في العلوم الرياضية والفيزيائية[١].

فتضم مجموعة معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية (٢٠٨) مؤلف باللغة العربية في علوم الرياضيات والفلك والتنجيم وتصميم الآلات الفلكية.

وتقارب هذا العدد كمية المخطوطات في المكتبة الوطنية الروسية. وتوجد

---

(١) غ.ماتفييفسكايا. **مخطوطات الرياضيات والفلك في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الأوزبيكية السوفياتية**. تحت إشراف سراج الدينوف س.ح. ـ من تاريخ العلوم الدقيقة في الشرق الأوسط والأدنى القروسطي. طشقند. ١٩٧٢.



حوالي (٤٠) مخطوطة في رصيد القسم الشرقي من مكتبة جامعة سان بطرسبورغ. ولا يقل عن ذلك عدد المخطوطات المكتوبة باللغة الفارسية.

ومن ضمن مخطوطات معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية في سان بطرسبورغ توجد مؤلفات لأعظم العلماء العرب والمسلمين من القرون الوسطى مثل: شرح كتاب «**الأصول**» لإقليدس وضعه عالم الرياضيات والفلك والميكانيكا الكبير ثابت بن قرة (ق م)، و«**كتاب النجوم الثابتة**» للفلكي الشهير عبد الرحمن الصوفي (ق ١٠م)، و«**الكافي في الحساب**» للرياضي الكبير فخر الدين الكرجي (ق ١١م)، و«**الفوائد الرائعة للقواعد الرياضية**» لعماد الدين البغدادي (ق ١٣م)، و**الرسائل الرياضية والفلكية** لنصير الدين الطوسي (ق ١٣م)، و**زيج أوليغ بك** (ق ١٥م)، وأعمال ممثلين آخرين لمدرسة سمرقند العلمية: قاضي زاده الرومي (ق ١٤ ـ ١٥م)، وعلاء الدين قوشجي (ق ١٥م).

وتمثل مخطوطات المكتبة الوطنية الروسية في سان بطرسبورغ أهمية خاصة من وجهة نظر تاريخ الرياضيات والفلك والفيزياء، وخاصة منها مجموعات دورن وفيركوفيتش وخانيكوف. وفي مجموعة خانيكوف توجد المخطوطة الشهيرة رقم (١١٧) «**كتاب ميزان الحكمة**» لعبد الرحمن الخازني (ق ١٢م)، والذي يمثل بحق موسوعة شاملة لعلم السكون في القرون الوسطى. وكذلك المجموعة رقم (١٤٤) التي تحتوي بشكل أساسي على مؤلفات نصير الدين الطوسي.

وتمتلك رسائل المجموعة التي تسمى «السلسلة الجديدة» قيمة كبيرة بالنسبة لتاريخ العلوم الدقيقة، خاصة وأنها تحتوي على آخر المقتنيات من المخطوطات، ومنها ما يعرف بـ «لقطة كويبشيف»[١] وهي مجموعة من

---

(١) قام الدكتور رشدي راشد بدراسة مخطوطات ابن الهيثم التي عثر عليها في كويبيشيف ونقلت إلى مكتبة لينيغراد تحت رقم B1030 ونشرها في سلسلة كتب بعنوان: **الرياضيات التحليلية بين القرنين الثالث والقرن الخامس للهجرة** (٥ مجلدات). مركز دراسات الوحدة العربية ومدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. سلسلة تاريخ العلوم =

المخطوطات النادرة لأعظم علماء الرياضيات من (القرون ١٠ ــ ١٥م): أبو علي ابن الهيثم (ق ١٠ ــ ١١م)، وأبو الريحان البيروني، وغياث الدين جمشيد الكاشي (ق ١٤ ــ ١٥م)، التي عثر عليها في مكتبة في منطقة سمارا الروسية.

ولا تقل أهمية وقيمة المخطوطات الرياضية والفيزيائية المحفوظة في القسم الشرقي لمكتبة الجامعة. ومن ضمنها مؤلفات ابن سينا، ورسائل في الحساب والهندسة، وتحقيق بني موسى «للقطوع المخروطية» لأبولونيوس، وتعليق على «الأصول» لإقليدس، والمخطوطة الشهيرة عن العمليات الحسابية «جامع الحساب بالتخت والتراب» للطوسي، و«الرسالة الشمسية في الحساب» لنظام الدين النيسابوري (ق ١٣ ــ ١٤م). وتحتوي المكتبة على مخطوطة فلكية معروفة «**تذكرة في علم الهيئة**» للطوسي، و«**هدية الشاه**» لتلميذه قطب الدين الشيرازي، وكتاب «**النجوم الثابتة**» للصوفي، **والرسائل الفلكية** لمحمود الجهميني (ق ١٢ ــ ١٣م)، وعلي بن محمد الجرجاني (ق ١٤ ــ ١٥م) بما فيها شرح لأعمال الطوسي.

أما مجموعة المخطوطات الرياضية والفلكية في معهد الاستشراق التابعة لأكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان، فتتكون في معظمها من المخطوطات المنسوخة في (القرون ١٥ ــ ١٧م). وقد حظيت المخطوطات التي تعود إلى (القرون ١٢ ــ ١٦م) بشهرة وانتشار واسعين في آسيا الوسطى، وذلك يتضح من عدد مرات نسخ تلك المؤلفات. وهي رسائل في الحساب والجبر لمحمد بن

= عند العرب. ٥ أجزاء. بيروت. ٢٠١١. والمخطوطات هي: في الأشكال الهلالية ــ في حل شكوك حركة الالتفاف ــ في حركة القمر ــ في اختلاف منظر القمر ــ في استخراج سمت القبلة ــ في مسألة هندسية ــ في مسألة التلاقي ــ في مساحة الكرة ــ في قسمة المقدارين المختلفين المذكورين في الشكل الأول من المقالة العاشرة من كتاب إقليدس ــ في صورة الكسوف ــ في أصول المساحة B2139/2 ــ في استخراج ضلع المكعب ــ في أضواء الكواكب ــ في هيئة حركات كل واحد من الكواكب السبعة ــ في كيفية الأظلال ــ في المعلومات ــ في التحليل والتركيب.

عمر السجوَندي (ق ١٢م)، والمؤلفات الرياضية والفلكية لعلماء مدرسة مراغة العلمية (الطوسي والنيسابوري والقزويني وغيرهم). ومؤلفات علماء مدرسة أولغ بك العلمية في سمرقند من القرن الخامس عشر للميلاد، والرسالة في الحساب لبهاء الدين العاملي (ق ١٦م) وغيرهم. ومن ضمن المخطوطات النادرة توجد نسخة من مخطوطة «**رسالة في الحساب النظري**» لأبي الوفاء البوزجاني (ق ١٠م).

وقد قسمت المخطوطات من الناحية الشكلية إلى ثلاث فئات:

شملت **الفئة الأولى** (٨٣) مخطوطة لمؤلفين من (القرون ١٠ ـ ١٩م) وهي الأكثر شهرة: للبيروني، وابن سينا، وأبي سلط الأندلسي (ق ١١ ـ ١٢م)، وفخر الدين الرازي (ق ١٢ ـ ١٣م)، والشيرازي النيسابوري، وعلي بن عمر القزويني (ق ١٣م)، وأسعد البيهقي (ق ١٣م)، ومحمود بن محمد الجهميني (ق ١٢ ـ ١٣م)، والجرجاني، وأولغ بك، والكاشي، والرومي (١٤ ـ ١٥م)، ومحمد سبط المارديني (ق ١٥م)، وعبد العلي البرجاني (ق ١٥ ـ ١٦م)، ومصلح الدين الأنصاري (ق ١٦م)، وابن باباقلان مفتي (ق ١٧م)، ومحمد باقر اليزدي (ق ١٧م)، ولطف الله اللاهوري (ق ١٨م) وغيرهم.

أما **الفئة الثانية**، فضمت حوالي (٣٠) مخطوطة من مؤلفات علماء لم تعرف فترة حياتهم أو لم تحدد بدقة: ابو العباس بوني، وعلي بن القادر النتني، وخواجة محمد الحسيني، ومحمد بن علي القبادي، ومولان السمناني، وشرف الدين جمال، ومحمد باقي عزيز بن النسوي وغيرها.

وأخيراً تشكل الفئة الثالثة حوالي (٦٠) مخطوطة لمؤلفين مجهولين.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المعلومات ليست نهائية فربما تكون بعض مخطوطات المجموعة قد غابت عن بال الباحثين.

وتوجد أيضاً مخطوطات رياضية وفلكية في المكتبة الرئيسية للإدارة الروحية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان في طشقند (مجموعها حوالي (٢٥٠٠) مخطوطة لمؤلفين من القرون ١٠ ـ ١٢م). ومن خلال البحث الأولي



الذي قام به كل من خ. تلاشيف، وج. عبادوف، في الرصيد المخطوطي للمكتبة المذكورة تم استخلاص (٣٢) مجلد له علاقة بالرياضيات من أصل (٧٢٤) مجلد من المخطوطات.

وبنتيجة ذلك تم العثور على مخطوطة أخرى لرسالة مشهورة من (القرون ١٧ ـ ١٩) للميلاد لعالم الرياضيات والفلك والفقه المعروف بهاء الدين العاملي «**خلاصة الحساب**». أما بقية المخطوطات فتمثل في معظمها كتباً مدرسية لمؤلفين مجهولين في الحساب والهندسة مخصصة للمدرسة الدينية (مدرسة) المنسوخة في القرن التاسع عشر للميلاد. ويجدر الذكر بأن تلك كانت البداية في عملية فهرسة أرصدة المخطوطات لمكتبة الإدارة الروحية.

وضمن المخطوطات العربية في الفلك والرياضيات في المكتبة العلمية لجامعة قازان توجد مؤلفات ابن الهيثم، والطوسي، والجهميني، والشيرازي، والنيسابوري، والسمرقندي، وقاضي زاده الرومي، والبرجندي، والماريني، والعاملي، وغيرهم.

وهناك مخطوطات ذات أهمية كبيرة وهي نادرة وقيمة بالرغم من أنها تعود لمؤلفين غير مشهورين مثل: «**ترشيح التشريح**» لشدمان القبادياني وهي في الفلك، و«**الرسالة في معرفة خسوف القمر**» لخضر البرلاصي القباني، و«**رسالة الهيئة الإسلامية**» لإبراهيم الكرماني الأميدي وهي في الفلك أيضاً وغيرهم.

وأول خطوة في فهرسة المخطوطات الرياضية والفلكية لهذه المكتبة قام بها م.إيدياتولين[١]. فقد نشر ذلك الفهرس عام (١٩٨٧)، ويحتوي على توصيف ما يقارب (١٠٠) مخطوطة [٥٩].

ومع ذلك فإنه حتى الآن لم تفهرس جميع المخطوطات الرياضية والفيزيائية من ضمن أرصدة المكتبات الخمس عشر المذكورة أعلاه، بالرغم من أن معظمها قد درس وتم توصيفه. ونشرت ترجمات بعضها باللغة الروسية.

---

(١) م.إيدياتولين. **المخطوطات العربية في الفلك والرياضيات في خزائن مكتبة لوباتشيفسكي العلمية**. تحت إشراف روزنفلد ب.قازان. منشورات جامعة قازان. ١٩٨٧.

ومنذ فترة قريبة تم توصيف مجموعات المخطوطات الرياضية والفلكية في القسم الشرقي للمكتبة العلمية لجامعة سمرقند ومكتبة منطقة بخارى. ولكن هناك مجموعات لم تدرس بعد في مكتبات بعض المدن مثل: محج قلعة وديربند وسمارا (روسيا)، وخيفا وأورغينج (أوزبكستان)، وخوجند (طاجكستان)، وغيرها من المدن في روسيا والدول المجاورة. ولم ترد معلومات مفصلة عنها لأسباب مختلفة. ومما لا شك فيه فإن كمية هذه المخطوطات كبيرة جداً في مكتبات آسيا الوسطى، ولكن إحصاءها وفهرستها بشكل كامل لن تتم قريباً بسبب وجود هذه المخطوطات ليس فقط في مكتبات الدولة، وإنما بحوزة أشخاص وعائلات يتناقلونها عبر الأجيال ويحفظونها ويتمسكون بها كتراث قومي وديني وعائلي. وتلك المخطوطات للأسف غير مفهرسة وليست منشورة وحتى أن معظمها غير معروف لباحثين.

وقد أدت دراسة بعض تلك المخطوطات التي أمكن الاطلاع عليها، إلى اكتشافات مثيرة وفي غاية الأهمية. ومن ذلك نذكر المخطوطة الوحيدة في العالم وهي «**كتاب المحيط في الحساب**» للرياضي الكبير فخر الدين الكرجي(١)، والتي كانت غير معروفة سابقاً وعثر عليها في مكتبة ابن سينا في بخارى. وللأسف، فإن مؤلف هذا البحث الذي بذل جهوداً مضنية في البحث عن هذه المخطوطة، لم يفلح حتى الآن في الحصول على نسخة منها لأنها ببساطة فقدت من المكتبة.

وهكذا فهناك مجال واسع أمام الباحثين المهتمين بالمخطوطات العلمية العربية والإسلامية (في الرياضيات والفلك والفيزياء وغيرها) في مكتبات روسيا والجمهوريات السوفياتية السابقة.



---

(١) م.ابراروفا. **القسم الجبري من مخطوطة الكرجي «المحيط في الحساب»**. أبحاث في تاريخ الرياضيات. نلاحظ بأن هذه المخطوطة هي الوحيدة في العالم وموجودة في مكتبة ابن سينا في بخارى في أوزبكستان.



الفصل السادس

حول تاريخ العلوم العربية في المغرب العربي والأندلس

أولاً: عن التواصل العلمي بين المشرق العربي والمغرب العربي:

إن النظرة العلمية التاريخية لتطور العلوم في المغرب العربي والأندلس تؤكد [٦٧] أن تجربة الأندلس(١) ذات خصوصيات مهمة، حيث تمازجت وتلاقحت ثقافات مختلفة للعرب والبربر الوافدين مع العنصر الأوربي المحلي، وحدث ذلك في ظل تعايش الديانات السماوية الثلاثة. كل ذلك ساهم في خلق تجربة ثقافية غنية. وقد جاء الاهتمام بالعلوم الرياضية والعقلية نتيجة منطقية لازدهار المجتمع واستقراره. ويمكن القول أن الاهتمام بالعلوم المجردة وخاصة الرياضيات والفلسفة من مقاييس تقدم المجتمع وتطوره.

وهذا ما حدث في المشرق العربي وفي مغربه بما فيها الأندلس. وقد ترجمت العلوم العربية واليونانية إلى اللغتين اللاتينية والعبرية. ويؤكد يوشكيفيتش أن حملة الترجمة الهائلة التي أنجزت في المشرق العربي، من اللغات السريانية واليونانية والفارسية والهندية إلى العربية في القرن (٩م)، تكررت في الغرب الإسلامي من العربية إلى اللاتينية في القرن (١٢م).

---

(١) محمد أبلاغ. **الرياضيات في الأندلس ما بين ق ٣ و٩هـ (١٠ و١٥م)**. ندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات. القسم الثالث ـ الحضارة والعمارة والفنون. مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة. الأعمال المحكمة. الرياض. ص ٢٣ ـ ٥٥. ١٩٩٦.



ومن أهم المراكز التي انتقلت العلوم العربية ـ الإسلامية عبرها إلى أوروبا هي: طليطلة وصقلية[١] وبلاد الشام عند اندلاع الحروب الصليبية، مما لعب دوراً أساسياً في قيام النهضة الأوربية. وتعتبر مدينة طليطلة في الأندلس بالغرب وريثة دمشق ثم بغداد بالشرق.

وقد نشرت دراسات قيمة حول تأثير المشرق العربي ـ الإسلامي على المغرب العربي والأندلس في المجال العلمي والرياضي بشكل خاص، من قبل العديد من الباحثين مثل د. أحمد جبار[٢]، ود. محمد أبلاغ، وأ.يوشكيفيتش وغيرهم.

بدأ التقدم العلمي الكبير في الرياضيات في المشرق العربي منذ القرن التاسع الميلادي، وخاصة بعد إنشاء بيت الحكمة في بغداد في عهد الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م)، الذي قدم كل الدعم والتشجيع الحكومي لحركة الترجمة والتأليف، مما سهل ترجمة أمهات الكتب الرياضية القديمة إلى العربية، ثم بدأت مرحلة الإبداع العربي من خلال الشروحات التي كتبوها على المؤلفات الرياضية، والتي أخذت تسميات مختلفة مثل: الشرح، الإصلاح، التحرير، البرهان، التعليق، والتعقيب، والحواشي وغيرها. وقد عرض العلماء العرب أفكارهم الأصيلة ونظرياتهم الجديدة من خلال تلك الشروحات.

كما أن الأندلسيين كانوا يسافرون إلى المشرق، سواء لأداء فريضة الحج والأخذ من العلماء المشارقة أو للتجارة. وهناك صعوبة في تحديد البدايات الأولى لنشوء التقليد الرياضي الأندلسي لقلة المصادر.

ويشير محمد أبلاغ[٣] بحق إلى أن الفكر الرياضي والعلوم العقلية بصفة

---

(١) غ.ماتفييفسكايا. **تطور نظرية العدد في أوروبا حتى القرن ١٧م**. طشقند. دار «فان»، ١٩٧١.

(2) A. Djebbar."Les mathematiques arabes et liur environnement" actes de l' Universite d'Ete du Maine sur 1 "Histoire des mathematiques" (6-13 Juillet 1984). pp. 36-70.

(٣) محمد أبلاغ. **الرياضيات في الأندلس ما بين ق ٣ و٩ هـ (١٠ و١٥م)**. ندوة =



عامة ما كان لها لتزدهر في الفترة المدروسة في الأندلس لو لم يفتحها العرب وتتصل بالعالم الشرقي القديم بكل مكوناته الحضارية والثقافية. وقد انتقلت الكتب المترجمة من المشرق إلى المغرب لتشكل قاعدة لنهضة علمية في المغرب العربي والأندلس. بينما لا توجد أدلة على ترجمات لكتب رياضية إسبانية. كما أن لغة العلم القديم أي اليونانية لم يكن لها وجود بإسبانيا باستثناء بعض الترجمات النادرة مثل كتاب نيقوماخوس «المدخل العددي» التي أنجزها بويس Boece(ت: حوالي ٥٢٤م)، وقد انتظرت أوروبا القرن (١٢م) لترجمة النصوص العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية، ومن ثم إنجاز نهضة علمية كبيرة.

كل ذلك يؤكد على مقولة أن الأندلس في مجال العلوم هي امتداد للحركة العلمية المشرقية، وأن بدايات الاهتمام بالرياضيات قد تمت في نفس الوقت الذي كانت فيه الترجمة في المشرق في أوجها.

يقول صاعد الأندلسي في كتاب «طبقات الأمم»[(١)]: «إن الأندلس بعد الفتح الإسلامي لها ظلت خلواً من العلم سوى ما تعلق منه بالفقه وعلوم اللغة العربية، إلى أن استطاع الأمويون بسط نفوذهم على كل الأندلس» [٦٨]. أي أن الأمويين في المرحلة الأولى من حكمهم (القرن الثامن الميلادي) انشغلوا بتثبيت أركان حكمهم ولم يهتموا بالعلم، أما في القرن التاسع في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ ـ ٨٥٢م)، أوفد شاعراً ليجلب كتبا قديمةً من المشرق وخاصة من بغداد والقسطنطينية، وقد أحضر كتاباً فلكياً هندياً «السند هند» باللغة العربية. ويقال إن الخليفة اطلع بنفسه على الكتاب، مما يدل على المستوى المعرفي للخليفة وكبار رجال الدولة [٦٧].

= الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات. القسم الثالث ـ الحضارة والعمارة والفنون. مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة. الأعمال المحكمة. الرياض. ص ٢٣ ـ ٥٥. ١٩٩٦.

(١) صاعد الأندلسي. **طبقات الأمم**. تحقيق وتعليق دكتور حسين مؤنس. دار المعارف. القاهرة. ١٩٩٨.



وقد تكونت مكتبة ضخمة في قرطبة تضم آلاف المجلدات، وكانت تعد من أثرى المكتبات في العالم، وذلك في عهد الخلفاء الأمويين في الأندلس. ولم تكن هذه المكتبات حكراً على المسلمين، وإنما استفاد منها العلماء من الديانات الأخرى (الذين كانوا معجبين بالحضارة الإسلامية وباللغة العربية).

ومن انعكاسات هذه العلاقات الوطيدة بين المشرق والمغرب: أن النظام العشري انتشر في المنطقتين في نفس الوقت تقريباً. لكنه احتفظ في المشرق باسمه فسمي بالحساب الهندي والأرقام بالأرقام الهندية. أما الغرب الإسلامي فقد عرف الحروف الغبارية وهي نفسها الأرقام العربية، ويقول يوشكيفيتش أن الأرقام انتقلت إلى الأندلس نتيجة العلاقات التجارية بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه. وعند الحديث عن انتقال العلوم العربية إلى أوروبا نلاحظ أن الأديرة قامت بمهمة الترجمة والنقل إلى اللاتينية، وخير مثال الراهب **غربرت**، الذي سمي فيما بعد البابا **سيلفيستر الثاني** (٩٩٩ ـ ١٠٠٣م)، وقد تعلم الفلك والحساب ووضع رسالة في الإسطرلاب باللاتينية، كما كان أستاذاً قديراً في المنطق والأدب اللاتيني، وهو أول من أدخل الأرقام العربية إلى أوروبا بما فيها الصفر[١].

١ ـ أسباب نشوء الفكر الرياضي في الأندلس:

ويطرح السؤال نفسه لماذا نشأ الفكر الرياضي في الأندلس؟ ومن أهم الأسباب حاجة المجتمع في تطوره الاجتماعي والاقتصادي والتجاري، وهناك عامل ديني، وهو أن الدين الإسلامي يتميز بالتجريد في التعامل مع فكرة الإله، ويحث الإسلام على التأمل في الكون وأسراره. بالإضافة لذلك هناك عوامل علمية بحتة أدت لنشوء الفكر الرياضي الأندلسي. ففي الأندلس احتل

(١) من المعروف أن الارقام العشرية ذات الأصل الهندي التي استخدمها الخوارزمي لاول مرة بالعربية، وكانت دارجة في المغرب العربي سميت بالارقام الغبارية، انتقلت في القرن العاشر للميلاد إلى أوروبا ولم يستخدموها إلا بعد ٢٠٠ سنة.



الطب والتنجيم مكانة خاصة في قصور الخلفاء لأسباب مفهومة مما أدى إلى الاهتمام بالعلوم الطبيعية المرتبطة بالطب، وكذلك ساهم تركيب الأدوية في دراسة نظرية النسبة الرياضية [٦٦ ـ ٦٨]. كما أن علم التنجيم له صلة مباشرة بعلم الفلك.

وهناك أسباب عملية ناتجة عن الدين الإسلامي، وهي تقسيم الورثة، مما أدى للاهتمام بالكسور، وكذلك علم الجبر والمقابلة كما هو عند الخوارزمي (الذي ذكر في مقدمة كتابه الجبر والمقابلة أنه وضع هذا الكتاب لاحتياج الناس لهذا العلم في مواريثهم ووصاياهم...). كما أن رؤية الهلال وتحديد القبلة كان وراء تطوير حساب المثلثات، وأدت علوم اللغة العربية إلى دراسة التحليل التوافيقي (**الفراهيدي** استخدم التوافيق في إنشاء أول معجم للغة العربية).

من المؤسف أن معظم المؤرخين الأندلسيين ركزوا على تأريخ العلوم الدينية من فقه وحديث وغيرها، ولم يعيروا اهتماماً كافياً للعلوم الدنيوية مثل الرياضيات، لذلك لا توجد مراجع لتراجم الرياضيين باستثناء القليل جداً.

٢ ـ الرياضيات في الأندلس والمغرب في القرن ١٠ ـ ١٢م:

وأول رياضي ورد ذكره هو **سليم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي** المعروف بصاحب القبلة، هذا ما ذكره ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، وكذلك ذكره صاعد الأندلسي[١] في طبقات الأمم [٦٨]. ولم يذكر كلا الكتابين أن العالم المذكور زاول الحساب والتنجيم بل ذكروه كعالم فقه وحديث.

ولكن أهم رياضي ينتمي للقرن العاشر الميلادي هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد الفرضي المجريطي[٢] الرياضي والطبيعي والفلكي (ت: ١٠٠٧م) (الذي

---

(١) صاعد الأندلسي. **طبقات الأمم**. تحقيق وتعليق دكتور حسين مؤنس. دار المعارف. القاهرة. ١٩٩٨.

(2) Josep Casulleras, "Majr???: Ab? al?Q?sim Maslama ibn A?mad al???sib al?-Fara?? al?Majr???," in The Biographical Encyclopedia of Astronomers, edited by Thomas Hockey et al. (New York: Springer, 2007).



ترجم كتاب تسطيح الكرة لبطليموس وضاع الأصل وبقيت ترجمة هذا الكتاب اللاتينية). لقد سماه ابن بشكوال (في كتابه الصلة) بالفرضي الحاسب، ويركز على معرفته بالفرائض، وربما لذلك كتب عنه. وكتب كتاباً في المعاملات والتي تتضمن الجوانب التطبيقية للرياضيات.

واشتهر المجريطي بكتاباته الفلكية، ويعرف عنه أنه صاغ كتاب الخوارزمي الفلكي، والذي يحتوي على جداول للظل، ولا يعرف إن كانت تعود إلى الخوارزمي نفسه أم لا. وقد ترجمت إلى اللاتينية وتم الحفاظ على المخطوطة التي فقد أصلها العربي (ترجمها أدلارد الباثي Adelard of Bath" في القرن ١٢م). ويعتقد أبلاغ أن المجريطي هو أول من أدخل كتاب الخوارزمي «الحساب الهندي» للأندلس، وإن كان ذلك أكيداً فسيكون له أهمية كبيرة جداً في تاريخ الرياضيات، لأن كتاب الخوارزمي فقد أصله بينما بقيت ترجمته اللاتينية التي تمت في طليطلة والتي انتقلت إلى أوروبا. وكانت هذه الفترة غير مستقرة من الناحية السياسية في حياة الدويلات الأندلسية، وكانت نهايات الحكم الأموي وسقوط المدن الإسلامية لكنها شهدت تطوراً رياضياً كبيراً، وكذلك اتسمت بأنها مرحلة الترجمة من العربية إلى اللاتينية والعبرية.

ومن علماء الرياضيات في هذه الفترة نذكر **أبا عبد الله بن يوسف الجياني** (ت:١٠٧٩م)، الذي كتب في نظرية النسبة وفي المثلثات التي كرس لها كتاباً عن الأقواس المجهولة في الكرة، وكان من المعاصرين للخيام. كما استخدم التوافيق في الحسابات الفلكية وطبق الرياضيات وخاصة حساب المثلثات في تحديد درجة حرارة الجو لأول مرة. ولم تكتشف الأعمال الرياضية الكبيرة لهذا القرن إلا منذ فترة قريبة.

وفي مثال الرياضي الكبير **عبد الرحمن بن سيد** ما يؤكد الصعوبات التي واجهت الرياضيين في نشر مؤلفاتهم. قال صاعد الأندلسي عنه أن عبد الرحمن بن سيد من الرياضيين الشباب، حيث قال: «وفي زماننا هذا أفراد من الأحداث منتدبون بعلم الهندسة... منهم من أهل بلنسية أبو زيد



عبد الرحمن بن سيد» [٦٨]. وينعته ابن الأبَّار بالانفراد في علم الهندسة، وقد عرف في المشرق وذكره ابن أبي أصيبعة وتحدث عن «هندسة ابن سيد» مما يدل على أن له نظريته الخاصة وآراءه المتميزة في الهندسة. وللأسف فإن أعماله فقدت، لكن تلميذه ابن باجة ـ الفيلسوف المعروف ـ قام بعرض هذه النظرية في كتابه «رسائل فلسفية لأبي بكر بن باجة» [٦٧].

وقد عرض ابن سيد في الجزء الأول من عمله الهندسي نظرية المخروطات لأبولونيوس مع الشرح والتعليق حسب التقاليد المشرقية في التأليف. أما الجزء الثاني فيشكل دراسة المنحنيات الملتوية والمستوية وهي من إبداعه كما يشير ابن باجة. هذا المثال يبين مدى التطور في علم الرياضيات في الأندلس في القرن (١١م) والإطلاع الجيد على الرياضيات العربية المشرقية واليونانية واستيعابها وتجاوزها.

أما ابن منعم العبدري في كتابه «فقه الحساب»، فقد ذكر أن لابن سيد رسالة في الأشكال العددية درس فيها المتتاليات العددية وطرق جمعها، وتؤكد هذه الكتابات مع أعمال المؤتمن على أن الأندلسيين اهتموا بنظرية الأعداد منذ القرن ١٠م. وقد عثر على كتاب نيقوماخوس الأريثماطيقي الذي نقله للعربية ثابت بن قرة (ت: ٩٠١م) في ترجمة عبرية قام بها كلونيموس في القرن (١٠م).

أما العالم الرياضي الثاني من القرن ١١م، فهو **المؤتمن بن هود** ثالث ملوك بني هود، وهي الأسرة التي حكمت سرقسطة وأعمالها من سنة (١٠٣٩م) إلى سنة (١١١٨م)، وقد حكم من (١٠٨١م) حتى وفاته عام (١٠٨٥). أطلق المؤتمن(١) اسم «كتاب الاستكمال»(٢) على مؤلفه هذا. وكان يريد من كتابه أن

---

(١) يوسف قرقور. **كتاب الأصول لإقليدس من خلال تحرير المؤتمن بن هود السرقسطي**. المؤتمر الرابع للجمعية الأردنية لتاريخ العلوم. جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية. ٢٠٠٢.

(٢) محمد الحجيري. **حول بعض مسائل الهندسة الكروية عند ابن هود في كتاب** =



يغني عن كل الكتب السابقة. وقدم ابن عكنين وصفاً شاملاً لهذا الكتاب. يتكون الكتاب من خمسة أنواع:

١ ـ في العدد ذكر فيه ما ذكره إقليدس في مقالاته السابعة والثامنة والتاسعة من «الأصول» وما ذكره ابن قرة في مقالته عن الأعداد المتحابة.

٢ ـ في خواص الخطوط والزوايا والسطوح (المقالات ١، ٢، ٣، ٤ لإقليدس وأضاف عليها مسائل.

٣ ـ في خواص الخطوط والزوايا والسطوح وعلوم كثيرة واعتمد على ما قاله أقليدس في كتابه «المعطيات».

٤ ـ أورد المقالة الحادية عشرة لإقليدس.

٥ ـ ذكر فيه إضافة المجسمات المستقيمة (السطوح) بعضها إلى بعض.

ويتبين من دراسة هذا الكتاب أن المؤتمن لخص عدداً هائلاً من أهم الكتب الهندسية اليونانية والعربية المشرقية مثل: «**الأصول والمعطيات**» لإقليدس، «**الكرة والأسطوانة والتمهيديات**» لأرخميدس، «**الأكر**» لمينلاوس، «**المجسطي**» لبطليموس، «**معرفة الأشكال البسيطة والكُرّية**» للأخوة بني شاكر، «**رسالة ثابت بن قرة عن شكل القطاع**»، ورسالته عن الأعداد المتحابة، وكتابي ابن الهيثم: «**التحليل والتركيب**» و«**البصريات**».

وتدل تلك المعلومات على معرفة الأندلسيين بكل ما كان ينشر في المشرق. فابن الهيثم توفي عام (١٠٤١م) بمصر، وكان قد كتب «البصريات» قبل وفاته بسنوات قليلة، أما «كتاب الاستكمال» للمؤتمن، فكتبه بعد عدة سنوات من هذا التاريخ، علماً أن المؤتمن لم يزر المشرق بل كان هناك تواصل علمي منتظم.

كما تجب الإشارة إلى أن كتاب «البصريات» الشهير لابن الهيثم ترجم في

= **الاستكمال**. المؤتمر الرابع للجمعية الأردنية لتاريخ العلوم. جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية. ٢٠٠٢.

الأندلس إلى اللاتينية في القرن (١٢م)، ولعب دوراً كبيراً في النهضة العلمية الأوربية[١].

٣ ـ الرياضيات في الأندلس والمغرب العربي ما بين القرن (١٢ و١٦م):

إن أهم ما يميز القرن الثاني عشر هو الارتباط الكلي للأندلس بالمغرب العربي [٦٧]. في هذه الفترة كان عدد العلماء قليلاً جداً في الأندلس ونذكر منهم **جابر بن أفلح** الفلكي، الذي عاش في إشبيلية في النصف الأول من القرن (١٢م). والذي اشتهر بنظرياته الجديدة في حساب المثلثات [٤٨].

أما في المغرب العربي، فقد برز أبو بكر الحصار (ق ١٢ ـ ١٣م)، الذي وضع مؤلفات في الحساب والجبر أهمها «**كتاب الحصار في علم الغبار**» (سنتوقف عنده بالتفصيل لاحقاً). وهناك السموأل المغربي (ق ١٢م) صاحب كتاب «**الباهر في الجبر**»، الذي سافر إلى المشرق العربي، وله أعمال عظيمة في الجبر ونظرية الأعداد، وبرهن مفكوك ثنائي الحد من الدرجة ن، وأعطى مفهوم الاستقراء وبعض الأفكار الفلسفية[٢]. وهو أول من اكتشف الكسور العشرية [٦٩] بالرغم من أن أحمد سعيدان في دراسته لمخطوطة **الإقليدسي** (ق ١٠م) «**فصول في الحساب الهندي**» يؤكد أسبقية الإقليدسي في اكتشاف الكسور العشرية.

ويشير أبلاغ إلى أن هذه الفترة مليئة بالأحداث والحروب، التي أدت إلى سقوط المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى، مما أدى لضياع معظم المخطوطات العلمية. وقد حدث ذلك في قرطبة وإشبيلية التي دمرت مكتباتها، أما طليطلة وبلنسية فقد دخلها الإسبان بشكل سلمي، مما حافظ على إرثها العلمي وأدى

---

(١) رشدي راشد. «**الرياضيات التحليلية بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر**»، المجلد ١، ابن الهيثم، لندن، مؤسسة الفرقان البريطانية للتراث الإسلامي، ٢٠٠٠.

(٢) رشدي راشد وريجيس مورلون. **موسوعة تاريخ العلوم العربية**. بيروت.. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ١٩٩٧. ٣ أجزاء. سلسلة تاريخ العلوم عند العرب.



التعايش السلمي فيهما وخاصة في طليطلة إلى تحولهما كمركز للتحاور الحضاري والترجمة إلى اللاتينية والعبرية[١].

ويلاحظ الباحثون أن اهتمام علماء الأندلس في القرن (١٢م) اتجه نحو العلوم الطبية والفلسفية، ونذكر منهم ابن باجة الذي نشر الفلسفة الأرسطية وعرف بها، ونعرف أن أرسطو لم يعط اهتماماً كبيراً للرياضيات في بناء فلسفته، وإنما اهتم بالميتافيزيقا، ومن هنا نفهم كما يؤكد أبلاغ[٢] تشكي ابن طفيل في قصته الفلسفية الشهيرة «**حي بن يقظان**» من اقتصار ذوي العقول النيرة من علماء الأندلس على الاشتغال في الرياضيات، مما جعل الجزيرة فقيرة في المجال الفلسفي. وقد عرف هذا القرن بالفعل تطوراً هائلاً في الفلسفة، ويكفي أن نذكر أكبر الفلاسفة المشائيين على الإطلاق في تاريخ الإسلام وهو أبو الوليد بن رشد (ت ١١٩٨م) فيلسوف قرطبة، الذي أطلق عليه في الجامعات الأوروبية الوسيطة اسم الشارح الأكبر لأرسطو، والذي ظهر له أتباع وتشكلت مدرسة فلسفية كاملة في الغرب هي المدرسة الرشدية، علماً أن الاهتمام به كان، للأسف، أقل بكثير عند العرب والمسلمين.

إن هذه الفترة تميزت بالنزيف البشري الكبير من المدن الأندلسية نتيجة السيطرة المسيحية عليها، وذلك إلى المدن المغربية مثل فاس وسبتة ومراكش. بالإضافة إلى أن مراكش أصبحت عاصمة لكل الغرب الإسلامي في القرن

---

(١) جمعة شيخة. **دور مدرسة الترجمة بطليطلة في نقل العلوم العربية إلى أوروبا**. ندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات. القسم الثالث ـ الحضارة والعمارة والفنون. مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة. الأعمال المحكمة. الرياض. ص ١٢٧ ـ ١٤٣. ١٩٩٦.

(٢) محمد أبلاغ. **الرياضيات في الأندلس ما بين ق ٣ و٩هـ** (١٠ و١٥م). ندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات. القسم الثالث ـ الحضارة والعمارة والفنون. مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة. الأعمال المحكمة. الرياض. ص ٢٣ ـ ٥٥. ١٩٩٦.



(١٢م)، وتميزت بالاستقرار والازدهار مما جذب العلماء للعيش فيها في بلاط الموحدين خصوصاً الخلفاء أبو يوسف يعقوب (١١٦٣ ـ ١١٨٥م)، وابنه أبي يوسف (١١٨٥ ـ ١١٩٠م)، والناصر (١١٩٠ ـ ١٢١٣م).

ومن الذين برزوا في هذه الفترة من علماء الرياضيات نذكر: ابن الياسمين، وهو من فاس وذهب إلى إشبيلية للتدريس، ثم عاد ليستقر في مراكش حتى وفاته عام (١٢٠١م). وقد اشتهر ابن الياسمين بأرجوزاته الرياضية المعروفة، والتي كرست بعضها للحساب وأخرى للجبر والمقابلة. وله كتاب رياضي «**تنقيح الأفكار في العلم برسوم الغبار**» الذي تضمن مسائل حسابية وهندسية. ويؤكد أبلاغ(١) أن ابن الياسمين هو أول من استخدم الرموز الجبرية وليس القلصادي أو ابن البنا (ابن خلدون أشار لذلك) كما هو دارج بين مؤرخي الرياضيات.

والرياضي الآخر الأندلسي هو ابن منعم العبدري (ت: ١٢٢٨م). وهو من مدينة دانية الأندلسية، لكنه نزح عنها إلى مراكش التي ألف فيها كتابه الشهير «**فقه الحساب**» في عهد الخليفة الناصر، وهو الكتاب الذي نجد فيه لأول مرة باباً خاصاً بالتحليل التوافيقي، وهو المجال الذي كان يُظن خطأً أنه من إبداع رياضيين أوروبيين منتمين للقرنين ١٦ ـ ١٧م. وقد أشار المؤلف في بداية كتابه إلى أهمية كتاب «الاستكمال» للمؤتمن ومستواه العلمي العالي.

ومن أكبر علماء الرياضيات في المغرب العربي بعد الحصار نذكر ابن البنا المراكشي (ق ١٣ ـ ١٤م)، الذي ألف حوالي (٨٠) كتاباً في الحساب والجبر والفلك وعلوم الدين سنأتي على ذكرها لاحقاً. ومن أهم أعماله كتاب «**تلخيص أعمال الحساب**» [٤٣، ٤٤، ٤٦]، وهو تجميع دقيق ومكثف للقواعد النظرية الحسابية النافعة في المجالات العلمية كحساب المواريث والمعاملات التجارية،

---

(١) محمد أبلاغ. **الرياضيات في الأندلس ما بين ق ٣ و٩هـ (١٠ و١٥م)**. ندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات. القسم الثالث ـ الحضارة والعمارة والفنون. مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة. الأعمال المحكمة. الرياض. ١٩٩٦.



وقام بشرح كتابه هذا في كتاب سماه «**رفع الحجاب عن وجه أعمال الحساب**». وقد شرح **تلخيص** ابن البنا[(١)] عشرات العلماء اللاحقين في المشرق والمغرب.

وفي القرن (١٥ ـ ١٦م) ظهر علماء كبار مثل القلصادي (ق١٥م)، الذي ولد في مدينة بسطة في الأندلس وعاش فترة في غرناطة ثم غادرها تحت اشتداد الضغط عليها إلى مدينة باجة الأفريقية وتوفي فيها (حسب أبلاغ [٦٧] سنة (١٤٨٦م)، (وكتبت ماتفييفسكايا أنه توفي في تونس [٤٣]). وقد شرح تلخيص ابن البنَّا في كتابه **شرح تلخيص أعمال الحساب**، وشرح أرجوزة ابن الياسمين في كتابه **شرح الأرجوزة الياسمينية**. وهو في أعماله لم يتجاوز ابن البنا المراكشي. وظهر يعيش الأموي الأندلسي (ق ١٥م) مؤلف كتاب «**مراسم الانتساب في معالم علم الحساب**» واشتهر بكتاباته عن المتتاليات العددية المختلفة وطرق جمعها.

وابن غازي الفاسي المكناسي (ق١٥م) الذي شرح **تلخيص** ابن البنا في كتابه الشِّعري **مُنية الحُسّاب**، والذي شرحه في كتابه الشهير «**بغية الطلاب في شرح مُنية الحُسّاب**» .ونلاحظ هنا أن ابن غازي قدم أمثلة رائعة لشرح محتويات كتاب **التلخيص**، وأضاف أشياء جديدة على ما أورده ابن البنا. ونذكر أيضاً من أعلام الرياضيات في المغرب العربي علي بن حمزة المغربي (ق١٦ ـ ١٧م)، الذي عاش في مكة واشتهر باكتشافه للمتواليات العددية التي هيأت لظهور اللوغاريتمات، وله كتاب «تحفة الأعداد لذوي الرشد والسداد».

---

(١) محمود الحمزة. م.روجانسكايا. **حول تاريخ دراسة مخطوطة ابن البنا المراكشي**. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٣. العدد ٨ (٤٣) ص٣٠٣ ـ ٣١٧.
محمود الحمزة. م.روجانسكايا. **ابن البنا المراكشي ومخطوطته: تلخيص أعمال الحساب**. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٥. العدد ٩ (٤٤) ص٣٣٠ ـ ٣٤٧.
محمود الحمزة. م.روجانسكايا. **مخطوطة تلخيص أعمال الحساب لابن البنا المراكشي**. ترجمة إلى الروسية ودراسة تاريخية ورياضية. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٥. العدد ٩ (٤٤). ص٣٤٧ ـ ٣٧٥.



الفصل السابع

مكانة العلم العربي وأسباب تراجعه

أولاً: أهمية التراث العلمي العربي والإسلامي في مجال الرياضيات:

نقصد بالتراث العلمي العربي والإسلامي كل ما أبدعه العرب من مختلف الديانات والمسلمون من مختلف الإثنيات من أفكار ومكتشفات وخبرات في مجالات العلوم المختلفة، والتي وضعت بالعربية في مؤلفات وكتب ومخطوطات جزء منها محفوظ في المكتبات العربية والعالمية. ونعتقد أنه قد ضاع جزء كبير من تلك المخطوطات العربية أثناء الحروب والكوارث. وكذلك نقصد بالتراث كل ما نقله العرب والمسلمون من علوم إلى اللغة العربية من اللغات اليونانية والسريانية والعبرية والفارسية والهندية.

إن التراث العلمي العربي في ظل الحضارة العربية الإسلامية الممتدة من القرن (٨ الميلادي) وحتى القرن (١٦ للميلاد) غني جداً، لدرجة أنه كان يتحتم على الإنسان المثقف الذي يريد الإلمام بكل جوانب علوم عصره أن يتعلم اللغة العربية. وقد قال مؤرخ العلوم جورج سارتون في كتابه **تاريخ العلم** [٧٠]: «إن علماء الإسلام والعرب عباقرة القرون الوسطى، وتراثهم من أعظم مآثر الإنسانية. إن الحضارة العربية الإسلامية كان لا بد من قيامها. وقد قام العرب بدورهم في تقدم الفكر وتطوره بأقصى حماسة وفهم، وهم لم يكونوا مجرد ناقلين كما قال بعض المؤرخين، بل إن في نقلهم روحاً وحياة. فبعد أن اطلع



العرب على ما أنتجته قرائح القدماء في سائر ميادين المعرفة نقحوه وشرحوه وأضافوا إليه إضافات هامة أساسية تدل على الفهم الصحيح وقوة الابتكار».

وعند دراستنا لهذه الحضارة المزدهرة(١) نوضح بعض النقاط [٧١]:

١ ـ إن كلمة «مسلم» تعني كل من أعتنق الإسلام بغض النظر عن قوميته وجنسيته. أي هناك علماء مسلمون ليسوا عرباً، كما أن هناك علماء عرب وغير عرب ليسوا بمسلمين، ساهموا جميعاً في بناء الحضارة الإسلامية.

٢ ـ إن كلمة «عرب» لا تعني العرب بالمعنى الإثني، وإنما تشتمل في هذا الكتاب على كل من نطق أو تثقف العربية. وعندما نقول العلماء العرب والمسلمين نقصد كل العلماء الذين كتبوا باللغة العربية وعاشوا في ظل الدولة العربية الإسلامية. ولو كانت هناك جوازات سفر لحملوا جواز سفر الدولة العربية الإسلامية. لذلك نسميهم علماء عرب لأن ثقافتهم عربية بغض النظر عن جنسيتهم الأصلية. وإذا نظرنا إلى أمريكا نجد فيها علماء من جنسيات مختلفة (عرب ـ ألمان ـ روس وغيرهم) ولكنهم يعتبرون أمريكان لأنهم يحملون جواز السفر الأمريكي، وذلك لا يمثل انتقاصاً من انتمائهم الأصلي لقومية ما بل إن الظروف هي التي أدت إلى ذلك.

إن دراسة تراثنا العلمي كعرب ومسلمين له أهمية خاصة، فهو واجب معنوي للتعرف على الدور الحضاري الريادي والعقلية المتطورة لدى أجدادنا في القرون الماضية، في حين كانت أوروبا تعيش في ظلمة وجهل. وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها **شمس العرب تسطع على الغرب**(٢): «عندما كان في الأندلس المئات من المكتبات التي تضم ملايين

---

(١) محمود الحمزة. **موجز في تاريخ الرياضيات وتطورها الفكري والفلسفي**. دار اليرموك. تعز. اليمن. ٢٠٠٢.

(٢) زيغريد هونكه. **شمس العرب تسطع على الغرب**. دار صادر. بيروت. ١٩٦٤. زيغريد هونكه (١٩١٣ ـ ١٩٩٩) في هامبورغ وكانت مستشرقة ألمانية معروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية ونظرتها المعتدلة للإسلام كما هو واضح من أشهر تراجم =



الكتب والمجلدات، فإن ملك فرنسا كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة. وفي حين كانت شوارع المدن الأندلسية مضاءة بالقناديل، فإن عواصم أوروبا كانت مظلمة في الليل. وهناك أمثلة كثيرة على الرقي والحضارة السائدة في رحاب الدولة العربية الإسلامية، بينما كانت أوروبا تعيش في ظل هيمنة رجال الكنيسة والإقطاعيين، الذين مارسوا الاستبداد وقمع الفكر ومحاربة العلم والعلماء. ومعروفة قصة العالم الإيطالي العظيم جاليليو الذي قتل نتيجة اضطهاده وقمعه من قبل رجال الكنيسة، التي اعتبرت أن الشمس تدور حول الأرض، إلا أن جاليليو كان على حق من الناحية العلمية حين قال بعكس ذلك ولم يتراجع عن موقفه وذاق مرارة الاضطهاد والمرض حتى مات».

وقد كانت دمشق وبغداد والقاهرة ومدن الأندلس هدفاً للكثير من الباحثين الأوروبيين الذين أرادوا النيل من المعارف العلمية الواسعة المتوفرة في المكتبات والمدارس العربية.

إن الاطلاع على تراثنا العلمي وخاصة في الرياضيات يدفعنا للاعتزاز والفخر بتاريخنا وبدور الحضارة العربية الإسلامية العلمي والتقدمي في تطور العلم والمسيرة الإنسانية الطويلة. ويشكل ذلك برأينا دافعاً لأجيالنا الصاعدة لكي تدرس وتواصل البحث والابتكار، وأن يعرف شبابنا بأن شعبنا جدير بحمل رسالة الحضارة والتقدم كما حملها أجدادنا قبل عدة قرون. ويقول المثل الشعبي: «من ليس لـه ماض ليس لـه مستقبل».

ومن الملفت للانتباه أن المستشرقين أبدوا وما زالوا يبدون اهتماماً أكبر بالتاريخ العلمي العربي والإسلامي من أصحاب هذا التراث. ويعود ذلك الاهتمام لأسباب عديدة: منها المعرفية العلمية البحتة لرسم صورة متكاملة عن تطور الحضارة الإنسانية من أقدم العصور وخاصة الحضارة اليونانية (باعتبارها أوروبية) وانتقالاً إلى النهضة الأوروبية، ومنها لأغراض إيديولوجية.

= كتاباتها انتشاراً في العالم العربي وهما «شمس العرب تسطع على الغرب» وكتاب «الله ليس كمثله شيء».



وهنا يمكن الاستشهاد بآراء بعض المستشرقين الأوروبيين حول أهمية العلوم العربية وتأثيرها على الحضارة الأوروبية.

قال بريفو في كتابه «تكوين الإنسانية» عن دور العرب العلمي[١]: «العلم هو أجل خدمة أسدتها الحضارة العربية إلى العلم الحديث. فالإغريق عظموا أو عمموا ووضعوا النظريات، ولكن روح البحث وتجميع المعرفة اليقينية وطرائق العلم الدقيقة والملاحظة الدائبة كانت غريبة عن المزاج الإغريقي، وإنما كان العرب هم أصحاب الفضل في تعريف أوروبا بهذا كله، وبكلمة واحدة أقول إن العلم الأوروبي مدين بوجوده للعرب».

لقد قام العرب والمسلمون بدورهم في خدمة الحضارة والمساهمة في تقدم العلوم، وهناك الكثيرون الذين يجهلون هذه الخدمات. أما موقف المستشرقين (أي العلماء الأجانب المهتمين بحضارة المشرق) إزاء العلوم العربية فينقسم إلى عدة اتجاهات:

١) هناك من تجنى على الحضارة العربية واعتبر أنها لم تقدم شيئاً يذكر للبشرية، وهذا إجحاف وظلم. إن أصحاب هذا الاتجاه مغرضون، فلديهم دوافع معادية للعرب والإسلام ومتأثرين بالدعايات الغربية والصهيونية، وعمدوا للانتقاص من قيمة العلوم العربية والإسلام، ولا نعتقد أنهم حقاً جاهلون بحضارتنا مع ملاحظة التقصير الكبير من قبل العرب في نشر ثقافتهم وتعريف الآخرين بتراثهم العلمي الغني. وتوجد كتب في تاريخ العلوم لمؤلفين أوروبيين لا تذكر أحياناً أو تشير بتواضع شديد إلى العلوم العربية في القرون الوسطى.

٢) الاتجاه الثاني يخدم الحقيقة لأنها حقيقة، ودافع عن الحق لأنه حق، أي ظهر علماء غربيون أنصفوا العرب لأن التاريخ يقضي بذلك، ومن أبرزهم:

---

(1) Robert Briffault. The making of humanity, Unknown Binding-G. Allen & Unwin Ltd. January 1, 1928.

جورج سارتون[١] الذي قال: «إن بعض المؤرخين يجربون أن يستخفوا بتقدمة الشرق للعمران، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً ما. إن هذا الرأي خاطئ. وإنه لعمل عظيم جداً أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون..». ويعتقد سارتون بأن العرب كانوا أعظم معلمين في العالم، وأنهم زادوا على العلوم التي أخذوها، وأنهم لم يكتفوا بذلك بل أوصلوها درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء.

ـ وقال الفيلسوف البريطاني برتراند رسل في كتابه «حكمة الغرب»[٢]: «..لم يكن واضحاً لفرسان المسيحية (الحملة الصليبية) في البداية أنهم إنما كانوا يواجهون في العالم الإسلامي ثقافة أسمى من ثقافتهم بما لا يقاس».

ـ ويقول جون ماكليش[٣] في كتابه «العدد»: «ومع أن العرب كانوا أشداء جداً في الحرب، فإن أسلوب حياتهم في السلم كان متسامحاً ومتحضراً. وقد أضافوا إلى الفنون والعلوم خاصة، عناصر مهمة أنقذت النشاط الفكري من عبث اليونان ومن تعصب الرومان، هذا وإن هذه السمة ما انفكت آثارها مائلة في الدراسة العلمية إلى يومنا هذا».

كما يضيف ماكليش: «أقام العرب في كل مكان من مملكتهم الواسعة مكتباتٍ عامةً ومراصدَ ومراكز للبحث.. وجهد العلميون العرب في تسجيل كل

---

(1) George Sarton. Introduction to The History of Science Volume I: Homer to Omar Khayyam.Hardcover-January 1, 1927.\

جورج سارتون (١٨٨٤ ـ ١٩٥٦) كيميائي ومؤرخ أمريكي بلجيكي المولد. يعتبر مؤسس تخصص كمجال دراسة مستقل. له إسهامات كثيرة في تاريخ العلوم وأكثر أعماله تأثيراً هو كتاب «مقدمة في تاريخ العلوم».

(٢) ب.راسل. **حكمة الغرب**. ج١. سلسلة عالم المعرفة. العدد ٦٢. ١٩٧٠. الكويت.

(٣) جون ماكليش. **العدد من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر**. عالم المعرفة. ٢٥١. ١٩٩٩. ص ١٥٩.



قدر من المعرفة وصلت إليه البشرية، وفي تطويره إلى آفاق أوسع. وقد نفذوا برامج ضخمة لنشر أعمالهم العلمية والرياضياتية ولترجمة أعمال من السريانية والفارسية والصينية واليونانية ولغات أخرى، كما استثمروا، أكثر من أي باحثين آخرين في أي حضارة قبلهم، معيار الممارسة والتجربة في البحث عن الحقيقة العلمية، ربما يكون قد فاتهم التخيل المفرط الذي كان لدى اليونان، لكنهم عوضوا عن ذلك بالشمولية وبالاستشراف العملي».

ـ وهناك بعض مفكري وعلماء وفلاسفة الغرب من يعرض التطور الحضاري، والعلمي منه خاصة، من الفترة اليونانية، ويتكلم عن العبقرية اليونانية أو المعجزة اليونانية كجزء من العبقرية أو المعجزة الأوروبية الغربية كاستمرار للحضارة اليونانية دون ذكر للحضارة العربية، وهذا تجني وتحامل وعدم أمانة للتاريخ وعدم احترام للحقيقة التاريخية.

من الممكن أن يجهل البعض جوانب وصفحات من تاريخ العلم، ولكن مع اكتشافها يجب أن نتوخى الدقة والأمانة العلمية، وهذه مهمة العلماء العرب قبل غيرهم.

ويجب أن ننسب الاكتشافات العلمية، التي تعرف الآن بأسماء علماء غربيين، إلى أصحابها الأصليين العرب والمسلمين الذين عرفوها قبل الأوروبيين بعدة قرون. يقول وايد مان[١] «... إن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة ومختلفة ثم أنشؤوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة، فهم بذلك أسدَوْا إلى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن وفارادي وغيرهم..».

نحن بأمس الحاجة لاستمداد الماضي، واستلهامه عزماً وقوة لا مباهاة وفخراً، لمعرفة الحاضر والانطلاق نحو المستقبل بأمل وثقة.

---

(١) قدري طوقان ـ **تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك** ـ دار الشروق ـ بيروت. ١٩٦٣.



الاهتمام بالعلم في التراث العربي الإسلامي:

شجع الإسلام على طلب العلم وأعطاه قيمته، ودعا إلى ترويجه وطلب التثبت منه للأخذ بأسباب اليقين، والاعتماد على مبدأ السببية لرفع الأهواء والخرافة. وتأثر العرب بالمنطق اليوناني فدخل في أسلوبهم العلمي المبني على أساس صحيح فخلص للحق والحقيقة، وقد امتاز العرب في الجمع بين فروع العلم والأدب. فنجد بين علمائهم من وقف على روائع الأدب وغاص في دقاق العلم وجمع بينهما. فهذا ابن الياسمين يصوغ مسائل الجبر شعراً في أرجوزة ابن الياسمين(١). ومن يطلع على كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة يجد أن المؤلف جمع بين الجبر والأدب وجعلهما متممين أحدهما للآخر، فالمادة الرياضية مفرغة في أسلوب أخاذ لا ركاكة فيه ولا تعقيد ينم عن أدب رفيع وإحاطة بدقائق اللغة. ونظرة في كتب البيروني [٧٣] تبين كيف يتعانق الأدب والرياضيات بما فيها الفلك والفيزياء.

ومنهم من جمع في كتبه بين الأدب والنواحي الأخرى من المعرفة كالفلسفة والعلوم والتاريخ وغيرها كالجاحظ وغيره. وكذلك امتاز أسلوب الفارابي بالإيجاز والعمق، والفارابي مبتكر لا مقلد. وقد أنتج عقله الخصب نظريات جديدة فيها ابتكار وفيها عمق.

---

(١) ابن الهائم المصري. **شرح الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة.** تحقيق مهدي عبد الجواد وتعليق باللغتين العربية والفرنسية. تونس. الجمعية التونسية للعلوم الرياضية. ٢٠٠٣. ص: ٥١ ـ ٥٢. كماحقق الأرجوزة أيضاً ودرسها الدكتور جلال شوقي ونشرها في كتابه: «منظومات ابن الياسمين»، ونجدها أيضاً في شرح سبط المارديني لها (تحقيق ونشر المرحوم الأستاذ محمد سويسي)، وكذلك في أطروحة الماجستير القيمة لتهامي زمول. تعتمد هذه النسخة المنشورة هنا لأرجوزة ابن الياسمين على نص الأرجوزة المصورة المنشورة في الإنترنت وهي نسخة مكتبة الأسكوريال بإسبانيا، رقم ٢/٩٥٤. ويقول ابن الياسمين في مطلع قصيدته: ويقول في مطلع قصيدته: على ثلاثةٍ يدورُ الجبرُ المالُ والأعدادُ ثم الجذرُ. فالمالُ كلُ عددٍ مربعٍ وجذرهُ واحدُ تلك الأضلُعِ.

وقد اعترف مونك: أن العرب انتخبوا أرسطو وفضلوه على غيره، لأن طريقته التجريبية كانت أقرب إلى نزعاتهم العلمية من مذهب أفلاطون الخيالي، ولأن منطقه كان سلاحاً فعالاً. واعتمد ابن سينا الأسلوب المنطقي. والمنطق برأيه «هو الآلة العاصمة للذهن عن الخطأ، فيما نتصوره ونصدق به، والموصلة إلى الاعتقاد الحق بإعطاء أسبابه ونهج سبيله». وقال ابن سينا إن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس. وكان يؤمن بالعقل والعلم، وكان يعتقد أن السعادة القصوى لا تكون إلا عن طريق العلم(١).

أما ابن رشد(٢)، فسار في أسلوبه على أساس التوفيق بين الشريعة والفلسفة، وقد عرف بالنقد، واشتهر في أوروبا ونشأ مذهب الرشدية الذي يمجد العقل، وقد أثر في أوروبا لكونها كانت تعيش في ظلام وسيطرة الخرافات وبعيدة عن العقل والعلم. كما كان ابن رشد مخلصاً للحق إلى أبعد الحدود، ويسعى إلى الحقيقة ويعمل جاداً على الوصول إليها والأخذ بها دون اعتبار القائل. وكان يدعو إلى قبول الآراء الصحيحة سواء من مسلم أو غير مسلم.

وقد اتبع العرب طريقة في البحث العلمي. وكان أشهر من استخدم هذه الطريقة والذي ابتكرها هو العالم ابن الهيثم(٣) في كتابه «المناظر». كما وردت أحكام طريقة البحث العلمي في «رسائل إخوان الصفا» الذين تأثروا كثيراً باليونان. وقد اعْتُمِدت العناصر الإسلامية في طريقة البحث العلمي الحديث وهي: الاستقراء والقياس والاعتماد والمشاهدة أو التجربة والتمثيل..

ومن الآراء المميزة(٤) عن العلماء العرب والمسلمين [٧١]: قول برتيلو عن

---

(١) عباس محمود العقاد. **ابن سينا**. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. ٢٠١٣. ص.٦٠.

(٢) ابن رشد. **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**. تحقيق محمد عمارة. دار المعارف. ١٩٩٩.

(٣) مصطفى نظيف. كتاب «الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية». تقديم الدكتور رشدي راشد ضمن سلسلة تاريخ العلوم عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية. ٢٠٠٨.

(٤) قدري طوقان ـ **تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك** ـ دار الشروق ـ بيروت. ١٩٦٣.

جابر بن حيان (ق ٨ م) بأن له في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق..، و«إن الخوارزمي وضع علم الجبر وعلّمه وعلّم الحساب للناس أجمعين». وقد وصف كاردانو الكندي بأنه من «الاثني عشر عبقرياً الذين هم من الطراز الأول في الذكاء». وهو أول فيلسوف في الإسلام. وللكندي رسالة في أنه لا تنال الفلسفة إلا بالرياضيات، أي أن الفيلسوف الحق هو من يعرف الرياضيات، وأثرت هذه النظرية في أعماله الموسيقية والطبية. وضع تأليفاً في الإيقاع الموسيقي قبل أن تعرف أوروبا الإيقاع بعدة قرون، وطبق الحروف والأعداد على الطب لا سيما في نظرياته المتعلقة بالأدوية المركبة باعتماده على التناسب الهندسي. ومن أقوال الكندي: «العاقل من يظن أن فوق علمه علماً فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة. والجاهل يظن أنه قد تناهى فتمقته النفوس لذلك». وقال بيكون عنه «...ابن رشد فيلسوف متين ومتعمق صحح كثيراً من أغلاط الفكر الإنساني، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة قيمة لا يُستغنى عنها بسواها..» وهو من أكبر فلاسفة الإسلام ـ مؤسس الفكر الحر ـ جريء ومنطقي.

كما كتب أبو الفضل ابن العميد الوزير: «.. إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً..» وكان يستعين بالعقل إلى أبعد الحدود ولا يعتمد على الحواس إلا على أساس معونة العقل. وكتب المستشرقون عن ثابت بن قرة بأنه من الذين مهدوا لإيجاد حساب التفاضل والتكامل، وكان من الذين رغبوا في العلم ودرسوه حباً في العلم وعرفوا حقيقة اللذة العقلية. أما سميث فتحدث عن أن هناك علماء في القرون الوسطى حلو مسائل في إيجاد الحجوم والمساحات بطرق تبين منها تأثير نظرية إفناء الفرق (Theory of Exhaustion) اليونانية. وهذه الطريقة تنم نوعاً ما عن طريقة التكامل المتبعة الآن. ومن هؤلاء يجدر أن نذكر «ثابت بن قرّة» الذي وجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره.. وهو أول شرقي بعد الصينيين بحث في المربعات السحرية وخصائصها. في موسوعة لالاند الفرنسي كتب عن البتاني: «بأنه من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله». ومن المعروف أن



أبا بكر الرازي سموه في أوروبا «جالينوس العرب»، وخصصت جامعة برنستون في أمريكا أضخم زاوية في أجمل أبنيتها لمآثر عَلَم من أعلام الحضارة الخالدين، وهو الرازي...

ومن أقوال الفارابي الفيلسوف والرياضي الموسوعي: إن الحياة علم وعمل. ووصف أبا الوفاَء البوزجاني بأنه من أعظم العلماء الذين لهم فضل في تقدم العلوم الرياضية، ويمتاز على غيره من علماء العرب ومؤلفيهم في وضع مؤلفات للخاصة ولمختلف الطبقات. وكتب المؤرخون عن ابن يونس بأنه سبق جاليليو في اختراع الرقاص.

أما ابن الهيثم، فقد كتبت عنه المجلدات من قبل كبار مؤرخي العلوم العربية ومنهم مصطفى نظيف وعبدالحميد صبرا ورشدي راشد. وقد كتب مصطفى نظيف بأن ابن الهيثم «قلب الأوضاع القديمة وأنشأ علماً جديداً أبطل فيه علم المناظر، وأنشأ علم الضوء الحديث وأن أثره في الضوء لا يقل عن أثر نيوتن في الميكانيكا». ويقول ابن الهيثم: علوم الفلسفة ثلاثة: علوم رياضية وطبيعية وإلهية، وجميع الأمور الدنيوية والدينية هي من نتائج العلوم الفلسفية، فإن ثمرة هذه العلوم هو علم الحق والعمل بالعدل في جميع الأمور الدنيوية، والعدل هو محض الخير الذي بفعله يفوز ابن العالم الأرضي بنعيم الآخرة السماوي... ويعتقد ابن الهيثم أن الوصول للحقيقة لا يتم إلا بالعقل.

وقد قال المستشرق الألماني سخاو عن البيروني: «أنه أعظم عقلية عرفها التاريخ». أما ابن حزم الأندلسي الذي ولد في قرطبة (ق ١١م) فهو «مجموعة من المواهب والعبقريات» وكان يؤمن بأن للعلم زكاةً هي نشره وإذاعته. وقد أعطى نظرية للمعرفة سبق الفيلسوف كانت بسبعة قرون. وعن الشريف الإدريسي (ق١٢م) كتبت دائرة المعارف الفرنسية «إن كتاب الإدريسي في الجغرافيا أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى...» وابن طفيل (ق ١٢م) في قصته الشهيرة عن «حي بن يقظان» التي تصنف في مقدمة الآثار العربية التي تستحق الخلود في تاريخ تقدم الفكر الإنساني. وقد ترجمت إلى عشرات اللغات الأجنبية واقتبسوا منها قصة روبنسون كروزو. وابن رشد أحد تلامذته...

وقال جورج سارتون: إن كتاب ميزان الحكمة للخازن من أجلّ الكتب العلمية وأروع ما أنتجته القريحة في القرون الوسطى...وهذا الكتاب مكرس لميكانيك السوائل والغازات والكثافة والأوزان النوعية في الأوساط المختلفة.

أما نصير الدين الطوسي (ق ١٣م)، فهو حسب قول سارتون «من أعظم علماء الإسلام ومن أكبر رياضيهم». كما أن مؤلفاته ورسائله في الرياضيات والفلك تكوّن مكتبة قيمة زادت في الثروة الإنسانية العلمية ودفعت بها إلى الارتقاء والتقدم. ومن كتبه «شكل القطاع» وهو أول كتاب يفصل المثلثات عن الفلك. كما درس الطوسي مسلمة التوازي لإقليدس.

ونضيف إلى ما سبق أن من واجب المثقفين والعلماء العرب والمسلمين إحياء تراثهم العلمي بروح موضوعية وبأمانة علمية، فلا ننتقص من قيمة تراثنا ولا نبالغ فيه.

ومن يدرس حضارة الأندلس يرى بوضوح ازدهار العلوم والعلماء من مختلف الأديان والقوميات. فقد وفرت الدولة العربية الإسلامية مقومات لا مثيل لها في التاريخ للإبداع العلمي لأتباع الديانات الأخرى من مسيحيين ويهود. وعندما انهارت الدولة الإسلامية في الأندلس وحكم الإسبان المسيحيون مورس اضطهاد فظيع للعلماء والمفكرين من العرب والمسلمين واليهود.

وقد تميز العلماء العرب المسلمون باستخدام العقل، واعتماد مبدأ الشك في البحث عن الحقيقة، وباستخدام الملاحظة الحسية أساساً في التفكير العلمي، واستخدام الآلات لضبط أخطاء الحواس، واستخدام التجربة العلمية للتحقق من صحة المعلومات أو الفرضيات، والموضوعية والنزاهة في البحث.

ويقول ابن الهيثم في مقدمة كتابه «المناظر»: «ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى. ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء.. وليس ينال من الدنيا أجود ولا أشدّ قربة إلى الله من هذين الأمرين». ونضيف إلى ما سبق أن من واجب المثقفين



والعلماء العرب والمسلمين إحياء تراثهم العلمي بروح موضوعية وبأمانة علمية فلا ننتقص من قيمة تراثنا ولا نبالغ فيه.

وقد أنصف المستعرب الروسي ف. بارتولد الحضارة العلمية الإسلامية وتحدث عن أنه مع توسع العرب وازدهار تجارتهم، اخترعوا العديد من النظريات العلمية في الكيمياء والجبر وعلم الملاحة البحرية وغيرها، وأن اجتيازهم البحار والصحارى حملهم على أن يُجيدوا معرفة الجغرافية الفلكية، فاخترعوا المراصد الأولى في العالم، في كلٍّ من سمرقند ودمشق وبغداد والقاهرة[١].

وأشارت ماتفييفسكايا في معرض حديثها عن تأثير العلماء العرب في تطور الرياضيات في أوروبا إلى أن الترجمة من اللغة العربية إلى اللاتينية لعبت دوراً مهماً في تطور العلم في أوروبا وخاصة الرياضيات. فقد ازدهرت المدارس العلمية في الأندلس في القرن العاشر مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة، وأصبحت مراكز ثقافية وعلمية كبيرة بعد فتح المسلمين لها. وتوافد إلى الأندلس علماء من كل أنحاء أوروبا، وبدأ عصر الترجمة إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر للميلاد. وهنا لعبت التجارة دوراً مهماً بين الشرق وأوروبا وخاصة عبر صقلية وبيزنطة. وساهمت الحملات الصليبية دوراً في التواصل الثقافي والعلمي بين العرب والمسلمين وبين أوروبا.

إنه واجب مقدس علينا أن نهتم بتراثنا وبما أورثه أسلافنا إلى الأجيال. أليس من العيب الفاضح ألا يعرف الشباب العربي والمسلم أن الخوارزمي هو من أعظم رياضيي العالم على مر التاريخ، وأنه مَنْ وضع الجبر وسماه بهذا الاسم، وأن مصطلح الخوارزمية (Algoritm) الذي يستخدم في علم الحاسب مشتق من اسمه.

نريد من هذا الحديث عن التراث العلمي العربي وأهميته، أن يعرف الشباب العربي والمسلم وأبناء شعوب منطقتنا العربية أن أجدادهم استطاعوا

---

(١) ف.بارتولد. **تاريخ الحضارة الإسلامية**. دار المعارف. القاهرة. ١٩٥٢.

بالعمل الجدي أن يشيدوا حضارة شرقية مزدهرة من آلاف السنين لا يزال العالم ينعم بمآثرها. كما نريد أن يعتقد الإنسان في بلادنا بقابليته وأن يؤمن بنبوغه وأن في إمكانه أن ينتج ويبدع، وأن النبوغ لا يقتصر على شعب بعينه، بل هو متاح لكل الناس بشرط توفر الشروط التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية واحترام الدول لمفكريها.

۞ ۞ ۞

ثانياً: حول تدهور العلم العربي وإمكانية استعادته:

من المسائل الكبرى في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية موضوع تدهور العلم العربي بعد أن بلغ مستوى عالياً من التقدم والازدهار في الفترة الممتدة من القرن الثامن الميلادي وحتى القرن السادس عشر[١]. وهناك من يتساءل عن أسباب ذلك الانحدار في العلم العربي بعد القرن السادس عشر، وعدم بلوغها مرحلة العلم الحديث في أوروبا [٤٨].

مرت الحضارة العربية الإسلامية بمراحل متدرجة في التقدم بلغت ذروتها في الفترة الممتدة من حوالي (٤٠٠هـ وحتى ٦٥٠هـ)، من ابن الهيثم والبيروني وابن سينا إلى وفاة نصير الدين الطوسي في (١٢٧٤). وتميز عهد الخليفة المأمون (ق ٨م)، حيث تحققت إنجازات علمية عظيمة وخاصة في الطب والجبر والهندسة وحساب المثلثات والميكانيكا والفلك والزراعة والصيدلة بالإضافة إلى العلوم الإنسانية والدينية التي سنتجنب الخوض في تفاصيلها، لكونها تخرج عن نطاق اهتمامنا.

١ ـ حول تقدم العلوم في الحضارة العربية الإسلامية:

في هذا الصدد يقول توبي هف (Toby E. Huff) [٣٢] «العلم الحديث هو نتاج صلات ما بين حضارات تضم التفاعل الذي جرى بين العرب والمسلمين والمسيحيين ولا تنحصر فيهم، ولكنها تضم أيضاً حوارات أخرى بين الأحياء

---

(١) مع نهاية مدرسة محمد تقي الدين بن معروف المتوفى في ١٥٨٥ بإسطنبول.

والأموات» شملت اليونانيين والعرب والأوروبيين. وهذه حقيقة تاريخية مهمة تؤكد على التواصل الحضاري والثقافي والعلمي بين الشعوب، وأن المسألة ليست من قبيل وجود عبقرية يونانية أو عبقرية أوروبية، مقابل تخلف أو عجز عربي أو إسلامي أو شرقي في إنتاج الحضارة.

ويؤكد مؤرخو علم الرياضيات على أن العرب وضعوا حساب المثلثات كعلم مستقل، ما لعب دوراً كبيراً في تطوير علم الفلك، بينما الصينيون، بالرغم من عبقريتهم الحضارية لم يعرفوا هذه العلوم، وإنما استعانوا بعلماء فلك عرب في دراساتهم الفلكية منذ القرن الثالث عشر(١).

ومن الإنجازات العظيمة في علم الفلك تلك النتائج التي توصل إليها علماء مرصد مراغة غربي إيران ومنهم المؤقت الدمشقي المعروف بابن الشاطر (ت ١٣٧٥)، حيث استطاعوا تحسين نظام بطلميوس الفلكي بحيث أصبح رياضياً قريباً من نظام كوبرنيكوس. ويؤكد المؤرخون بأن النماذج الفلكية التي ظهرت بعد زمن ابن الشاطر بمائة وخمسين سنة لم تتقدم على نماذج ابن الشاطر.

وقد بنيت الرياضيات العربية ـ كنموذج للعلم العربي ـ بدءاً من القرن الثامن الميلادي على أساس ترجمة أعمال الرياضيات اليونانية، وتميزت حسب مؤرخ العلوم العربية رشدي راشد بسمتين لافتتين:

الأولى: أن من قام بالترجمة هم أبرز علماء الرياضيات والدافع لهم هو الحصول على أحدث المعارف العلمية الموجودة في ذلك العصر.

والثانية: أن دوافع البحث لم تكن نظرية فقط، وإنما شملت أيضاً أحتياجات المجتمع الجديد في علوم الفلك والبصريات والحساب وكذلك آلات القياس المستحدثة...إلخ. [٣٣](٢).

---

(١) أ.يوشكيفيتش. **تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى**. دار المؤلفات الفيزيائية والرياضية. موسكو. ١٩٦١.

(٢) ر.راشد، **العلم في الإسلام والحداثة الكلاسيكية**. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢.



بلغ تقليد العلوم العربية بين القرنين الثامن والقرن الرابع عشر مكانة رفيعة جعلت منه أرقى تقليد علمي في عصره». وقد تمكن العرب من بلوغ هذا المستوى الراقي من التقدم العلمي نتيجة اطلاعهم الكبير واستفادتهم من التراث العلمي اليوناني، بينما كان مجهولاً لدى الغرب طيلة الفترة الفاصلة بين انهيار الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس وحركة الترجمة الكبرى إلى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كما يجب إعطاء استعارة العرب لنظام العد العشري الهندي درجة عالية من التقدير لأنه أحدث ثورة في الرياضيات، حيث تخلص العلماء من استخدام الأرقام الرومانية المعقدة ومن نظام الجمل اليوناني أيضاً. ويشير المؤرخون إلى أن أوروربا بقيت (٢٠٠) سنة، بعد أن عرفت نظام العد الهندي، حتى شرعت في استخدامه. ولا ننسى هنا أن الغرب عرف علماء اليونان مثل إقليدس وارسطو وجالينوس وبطليميوس عن طريق العرب من خلال الترجمات العربية، بينما الصين لم يقدر لها أن تتعرف على هؤلاء العلماء اليونانيين.

٢ ـ **أهم المكتشفات الرياضية للعلماء العرب**[١]:

ـ اكتشاف **علم الجبر من قبل الخوارزمي** (ق ٩م). وهو أول من استخدم الأرقام الهندية العشرية ثم انتقلت إلى أوروبا عبر الأندلس من خلال ترجمة كتابه **الجبر والمقابلة** إلى اللاتينية، حيث عرفت الأرقام الغبارية التي انتقلت إلى أوروبا بالأرقام العربية[٢]، لأن الأوربيين عرفوها عن طريق العرب (علما أنها ذات أصول هندية كما يشير أغلب المؤرخين). وبالمناسبة لم يعرف

(١) محمود الحمزة «**إسهامات العلماء العرب والمسلمين في تقدم الحضارة الإنسانية**»، الأسبوع الثقافي العربي في الجامعة الروسية للصداقة بين الشعوب ـ موسكو ـ مارس ٢٠١٠.

(٢) انتقلت الارقام العشرية إلى أوروبا، حسب قول يوشكيفيتش في كتابه **تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى** (انظر المراجع) قبل القرن العاشر الميلادي ولكنهم لم يبدؤوا باستخدامها إلا بعد مرور مائتي عام.

الروس الأرقام العشرية إلا في القرن السابع عشر. كما انتشر مصطلح الجبر مصطلح ألغوريتم (Algorithm الخوارزمية) إلى كافة لغات العالم. والخوارزمي أول من استخدم المجهول (الجذر ـ الشيء)، والمال (المربع)، والمفرد هو العدد الثابت، وأول من صنف المعادلات الجبرية إلى ستة أنواع من الدرجة الثانية وأعطى حلولها بطرق مختلفة منها جبرية ومنها هندسية، وانتبه للحلول التخيلية للمعادلة وقال إن المسألة مستحيلة. كتب جورج سارتون في «مقدمة تاريخ العلم»: «الخوارزمي كان أعظم رياضي في ذلك العصر.. وإذا أخذنا جميع الحالات بعين الاعتبار، فإن الخوارزمي أحد أعظم الرياضيين في كل العصور». واعتبر سارتون النصف الأول من القرن التاسع عصر الخوارزمي وأكد وايدمان أن أعمال الخوارزمي تتميز بالأصالة والأهمية العظمى فيما تظهر عبقريته. وقال سمث وكاربينسكي في كتابهما «الأعداد الهندية والعربية»: «بأن الخوارزمي هو الأستاذ الكبير في عصر بغداد الذهبي، إذ إنه أحد الكتاب المسلمين الأوائل الذين جمعوا الرياضيات الكلاسيكية من الشرق والغرب، محتفظين بها حتى استفادت منها أوروبا المتيقظة آنذاك. إن لهذا الرجل معرفة كبيرة ويدين له العلم بمعرفتنا الحالية لعلمي الجبر والحساب»[١].

ـ انتقل مصطلح الصفر[٢] من اللغة العربية إلى لغات العالم في القرون الوسطى وترجم إلى ciffre في عام (١١٤٣). كما استخدم ليوناردو البيزي في بداية القرن (١٣م) كلمة cephirum للدلالة على الصفر. وفي روسيا استخدموا كلمة tsifra للدلالة على الصفر حتى القرن (١٤)، حيث اصبحت

(1) G. Sarton. Introduction to the History of Science. Volume I. From Homer to Omar Khayyam. Washington: Carnegie Institution of Washington; Baltimore: Williams and Wilkins. 1927.

(٢) أ.يوشكيفيتش. **تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى**. دار المؤلفات الفيزيائية والرياضية. موسكو. ١٩٦١.



tsifra الروسية تعني الرقم. وفي الفرنسية والإيطالية استخدموا ترجموا مصطلح الصفر فأصبح zero.

ـ **حساب المثلثات** أصبح علماً مستقلاً بفضل العلماء العرب مثل البتاني (ق٩ ـ ١٠م)، وأبو الوفاء البوزجاني (ق١٠م)، ونصير الدين الطوسي (ق١٢م)[(١)] وغيرهم. فقد اكتشف العرب دالة الظل وظل التمام وبرهنوا على نظريات الجيوب وجيوب التمام وغيرها. **والبتاني** من أعظم علماء الفلك على مر التاريخ وهو من حران شمال سورية. كما سحرت بحوث البوزجاني بعض الغربيين فراحوا يدّعون محتويات كتبه لأنفسهم. فقد ادعى ريجيومونتانوس (Regiomontanus، توفي ١٤٧٦م) لنفسه بعض نظريات أبي الوفا البوذجاني في حساب المثلثات وأدخلها في كتابه **المثلثات**. ودرس العلماء العرب **المثلثات الكروية** وبرهنوا نظريات جديدة (أبو نصر بن عراق وابن قره والطوسي وغيرهم).

ـ وعن **الطوسي** كتبت مئات الكتب وله مئات المؤلفات في الفلك والرياضيات والفلسفة. ويقال: إن الطوسي نظم قصيدةً مدح فيها المعتصم، وأن أحد الوزراء رأى فيها ما ينافي مصلحته الخاصة فأرسل إلى حاكم قوهستان «يخبره بضرورة ترصده، وهكذا كان، فإنه لم يمض زمن إلا والطوسي في قلعة آلموت، حيث بقي فيها إلى مجيء هولاكو في منتصف القرن السابع للهجرة (ق ١٣م). وفي هذه القلعة أنجز أكثر تآليفه في العلوم الرياضية التي خلدته وجعلته علماً بين العلماء. وكان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند»هولاكو«وكان يطيعه فيما يشير به عليه ويضع الأموال في تصرفه..» وقد عهد إليه هولاكو في مراقبة أوقاف جميع الممالك التي استولى عليها. عرف الطوسي كيف يستغل الفرص، فقد أنفق معظم الأموال التي كانت تحت تصرفه في شراء الكتب النادرة وبناء مرصد «مراغة»[(٢)].

(١) انظر يوشكيفيتش في المرجع السابق.
(٢) يقع مرصد مراغة الفلكي الأثري في مدينة مراغة بمحافظة آذربيجان الشرقية. وكان ذلك أكبر مراصد العالم الفلكية في الفترة التاريخية التي سبقت اختراع =



ـ قدم العرب إسهامات كبيرة في **دراسة المسلّمة الخامسة لإقليدس** وحاولوا برهانها، وأعطوا أفكاراً جوهرية مهدت لاكتشاف النظريات اللاإقليدية (نظرية لوباتشيفسكي الزائدية ونظرية ريمان الناقصية وغيرها)[١]. ومن أهمهم: الجوهري، وثابت بن قرة، والطوسي.

وقد ترجمت أعمال الطوسي إلى الروسية واطلع عليها لوباتشيفسكي (ترجمة كاظم بك). وقد كان **الطوسي** أول من اقترح الشكل الرباعي الذي استخدمه العلماء الأوروبيون في أبحاثهم وسموه رباعي ساكيرا (الإيطالي). كما أن المستعربين الروسيين يوشكيفيتش وروزنفلد ألفا كتاباً مهماً حول مساهمات

= المنظار. بني هذا المرصد الفلكي في عام ٦٥٧هـ. (النصف الثاني من القرن ١٣م) بأمر من القائد المغولي هولاكو حفيد جنكيزخان وتحت إشراف العالم الفلكي الكبير نصير الدين الطوسي. وشارك في انشاء مرصد مراغة الفلكي علماء من أمثال العلامة قطب الدين فخر الدين المراغي ومحيي الدين المغربي ومؤيد الدين العرضي (كان يعمل في دمشق وهو خبير في صنع الآلات الفلكية ونقله هولاكو إلى مراغة) وعلي بن محمود نجم الدين الأسطرلابي وآخرون. هذا وأمر هولاكو بجمع الكتب والمؤلفات والآلات الفلكية والعلمية التي غنمها جراء فتح بغداد، في هذا المرصد. تم تزويد هذا المرصد بمكتبة تضم ٤٠٠ ألف عنوان كتاب وأدوات فلكية بما فيها آلة ذات الربع الجداري كان يبلغ شعاعها ٤٣٠ سنتيمتراً والكرات ذات الحلق وحلقتا الاعتدال والانقلاب وحلقة سموت. وقد تشكلت «مدرسة» حقيقية حول مراغة كان لها أثر هام على كل التطور اللاحق في علم الفلك في الشرق. ويعد الزيج الإيلخاني (جداول فلكية) من أهم إنجازات مرصد مراغة. كما أن مزدوجة الطوسي ورياضيات العرضي من أهم إبداعات الفلكيين العاملين في المرصد، الذين عدلوا الإشكالات في نموذج بطلميوس الفلكي الواردة في كتابه الشهير «المجسطي». وننقل عن جورج صليبا مطابقته بين هيئتي ابن الشاطر وكوبرنيكوس. علما أن ما قدمه ابن الشاطر الدمشقي يشبه فرضيات قدمها علماء في مرصد مراغة مثل مؤيد العرضي وغيره.

(١) خليل جاويش، **نظرية المتوازيات في الهندسة الإسلامية**. قرطاج: المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة، ١٩٨٨.



العلماء العرب في محاولة برهان مسلّمة المتوازيات لإقليدس[١]. وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية في جامعة حلب (س. شلهوب)[٢].

أما **ثابت بن قرة** فقد ولد في حران بالقرب من مدينة الرقة شمال سورية. ويدهش نتاجه العلمي الضخم العلماء. فقد وجد في دراسة العلم متاعاً للعقل، وسعى إلى الكشف عن الحقيقة وكان مخلصاً لها. كان «ثابت بن قرّة» من العلماء العرب الموسوعيين فقد تعددت نواحي عبقريته، فنبغ في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة، وترك فيها مؤلفات علمية قيمة، وكان من أفضل من ترجم العلوم إلى اللغة العربية (حسب سارتون) وهو الذي مهد لظهور التكامل ـ من أهم فروع الرياضيات الحديثة. وله مبرهنات في نظرية الأعداد، مثل مبرهنة الأعداد المتحابة. التقى به في حرّان محمد بن موسى بن شاكر وأعجب بذكائه الخارق، فاصطحبه معه إلى بغداد وأكمل تكوينه في العلوم[٣].

وتحكى قصة عن الخليفة المعتضد وحبه واحترامه للعلماء أنه كان يتمشى مع «ثابت بن قرّة» (كان الخليفة يلقبه بأبي الحسن) في بستان القصر وقد أتكأ على يد «ثابت»، إذ نتر الخليفة يده من يد «ثابت» بشده ففزع «ثابت»، فإن الخليفة كان مهيباً جداً، فلما نتر يده من يد «ثابت» قال له «يا أبا الحسن» سَهَوْت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يَعلُون ولا يُعلَوْن.... ويعتبر ثابت من ألمع علماء عصره ومن الذين تركوا مآثر جمة في بعض العلوم، وكان يتقن لغات عديدة منها السريانية واليونانية والعبرية.

ـ وضع الفيلسوف والشاعر والرياضي والفلكي **عمر الخيام** في القرن (١٢م) أسس **نظرية الهندسة الجبرية وذلك في حل المعادلات التكعيبية**

---

(١) ب.روزنفيلد، أ.يوشكيفيتش، **نظرية المتوازيات في المشرق في العصر الوسيط، من القرن ٩ إلى القرن الـ ١٤ م**.موسكو: ناوكا، ١٩٨٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ثابت بن قره https://link.springer.com/refernceworkentry/10.1007/978-0-387-30400-7_1369



باستخدام القطوع المخروطية (اكتشفها أبولونيوس في ق ٢ ق.م). وقد جاء التطوير اللاحق لهذا الفرع على يدي العالم الفرنسي رينيه ديكارت في القرن ١٧م. وقد أجرى الخيام لأول مرة تمييزاً واضحاً في تعريف الجبر، على أنه استخدم المعادلات لإيجاد المجاهيل عن طريق كثيرات الحدود. وقد أورد (٢٥) نمطاً من المعادلات مقابل الأنواع الستة عند الخوارزمي. وقد أبدع في الفلك والأرصاد وكان عمله دقيقاً. وقد قال العالم الإنجليزي جيبون: «إن تقويم الخيام كان أدق من غيره من التقاويم، وتقرب دقته من دقة التقويم «الجريجوري» الذي يؤدي إلى الخطأ الذي ينجم عن تقويم «الخيام» وهو يوم في كل ٥٠٠٠ سنة»[(١)(٢)].

ـ لقد أبطل **ابن الهيثم** (ق ١٠ ـ ١١م) علم المناظر الذي وضعه اليونان وأنشأ **علم الضوء الحديث**[(٣)]، وذلك في كتابه «المناظر»، وبرهن جميع النظريات في البصريات بشكل رياضي. وأعطى ابن الهيثم **أسس طريقة البحث العلمي** والتي تنسب للأسف لبيكون الذي جاء بعده بعدة قرون. وعناصرها الأساسية هي: الاستقراء والقياس والاعتماد على المشاهدة أو التجربة أو التمثيل. ودعا إلى البحث عن الحق والحقيقة وأن العلم يجب أن يخدم العدل. والحقيقة أن ابن الهيثم باعتراف المستعربين الأجانب يوضع على مصاف أنشتاين لأنه صاحب الثورة العلمية في التفكير والبحث. وله اكتشافات عظيمة في البصريات والرياضيات والفلك والفلسفة وغيرها.

---

(١) رشدي راشد، بيجان وهاب زاده، **رياضيات عمر الخيام**، ترجمة نقولا فارس. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.

(٢) انظر أيضاً ما كتبه يوشكيفيتش بشكل مفصل في كتابه **تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى** حول دور العلماء العرب في تطوير النظرية الهندسية لحل المعادلات التكعيبية وخاصة عند عمر الخيام.

(٣) رشدي راشد. **الرياضيات التحليلية بين القرن الثالث والقرن الخامس للهجرة.** الأجزاء ٢ ـ ٥. الحسن بن الهيثم. مركز دراسات الوحدة العربية ومدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. سلسلة تاريخ العلوم عند العرب. بيروت. ٢٠١١.

قال عنه سارتون: «إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الفيزياء بل أعظم علماء الطبيعة (الفيزياء) في القرون الوسطى، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله». ويعود الفضل إلى ابن الهيثم في بعث النهضة الأوروبية بالنواحي العلمية.

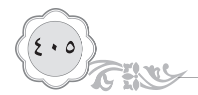
وكتب الأستاذ مصطفى نظيف[١] في مقدمة كتابه البصريات ما يلي: «والذي جعلني أبدأ بعلم الضوء دون فروع الفيزياء الأخرى أن علماً أزدهر في عصر التمدن الإسلامي وكان من أعظم مؤسسيه شأناً ورفعة وأثراً الحسن بن الهيثم، الذي كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر للميلاد»[٢]. فقد بقيت كتبه منهلاً عاماً ينهل منه أكثر علماء القرون الوسطى مثل: «روجر بيكون» و«كبلر» و«ليوناردو دافينتشي» وغيرهم. وكتبه هذه وما تحتويه من بحوث مبتكرة في الضوء هي التي جعلت ماكس مايرهوف يقول بصراحة: «... إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلى في البصريات».

ويعد كتاب **المناظر** من حيث المحتوى والشكل من أرقى الكتب العلمية، والذي لا يقل عن الكتب الجامعية الحديثة. ففيه دراسة مستفيضة لانكسار الضوء، وتشريح العين، وكيفية تكوين الصور على شبكية العين لدرسها. وهذا الكتاب من أروع وأبدع ما أخرجته قريحة خصبة في القرون الوسطى. فلقد أحدث انقلاباً في البصريات وجعل منه علماً مستقلاً له أصوله وأسسه وقوانينه، كان يسير فيه على نظام علمي يقوم على المشاهدة والتجربة والاستنباط. وقد اعتُمد كتاب ابن الهيثم «المناظر» مرجعاً علمياً في الجامعات الأوروبية لا يعلو عليه كتاب، واستفاد منه جميع العلماء الأوروبيين ولم يزيدوا عليه شيئاً حتى القرنين (١٩ و٢٠)، عندما تطور علم الضوء

---

(١) مصطفى نظيف. **كتاب «الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية»**. تقديم الدكتور رشدي راشد ضمن سلسلة تاريخ العلوم عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية. ٢٠٠٨.

(٢) مصطفى نظيف، **الحسن بن الهيثم: بحوثه وكشوفه البصرية**. القاهرة ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣، أعيد طبعه بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨.



كثيراً وبشكل نوعي. ويرى ابن الهيثم «إن ثمرة هذه العلوم (ويقصد العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية) هو علم الحق والعمل بالعدل في جميع الأمور الدنيوية، والعدل هو محض الخير، الذي بفعله يفوز ابن العالم الأرضي بنعيم الآخرة السماوي»[١].

ـ اكتشف العرب الكسور العشرية في القرن ١٢م[٢] (السموأل وقد يكون الإقليدسي قبله)، وليس الكاشي من القرن (١٥)، أو ليس لمؤلفين غربيين مثل ستيفن (١٥٨٥) أو بونفيس (١٣٥٢).

ـ مهد العرب لظهور عملية التكامل وذلك من قبل ابن الهيثم وثابت بن قره وغيرهم، حيث حسبوا مساحات وأحجام دورانية بطرق تقريبية تشبه تماماً تعريف التكامل المعاصر[٣].

ـ استخدم شرف الدين الطوسي (ق ١٢م) فكرة المشتق[٤] في دراسة

---

(١) في كتاب المناظر، كان ابن الهيثم أول عالم يقول بأن الرؤية تحدث في الدماغ بدلاً من العينين. وأشار إلى أن التجارب الشخصية لها تأثير على ما يراه الناس وكيف يرونه، وأن الرؤية والتخيل أمور نسبية. إضافة إلى كتاب المناظر، كتب ابن الهيثم العديد من الأطروحات الأخرى في علم البصريات. أطروحته **رسالة في الضوء** كان بمثابة استكمال لكتابه المناظر، احتوت تلك الأطروحة على تحقيقات حول خصائص الإنارة والإشعاعية المشتتة خلال مختلف الوسائط الشفافة. قام ابن الهيثم أيضاً بالعديد من الفحوص التشريحية على عين الإنسان ودراسة الزيغ البصري، كما صنع أول كاميرا مظلمة والكاميرا ذات الثقب، وأيضاً درس خصائص قوس قزح وكثافة الغلاف الجوي، وبحث في الظواهر السماوية المختلفة (بما في ذلك كسوف الشمس والشفق وضوء القمر). درس ابن الهيثم أيضاً الانكسار والمرايا المقعرة والكروية.

(٢) رشدي راشد في كتابه **تاريخ الرياضيات العربية بين الحساب والجبر**. مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت. ١٩٨٩.

(٣) محمود الحمزة. **موجز في تاريخ الرياضيات وتطورها الفكري والفلسفي**. دار اليرموك. تعز. اليمن. ٢٠٠٢.

(٤) رشدي راشد. **تاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب**. مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت. ١٩٨٩.



جذور كثيرات الحدود ولكنه لم يسميه باسمه. ويشير د. رشدي راشد في كتابه **تاريخ الرياضيات العربية بين الحساب والجبر** [٣٤]: بالفعل فإن دراسة أعمال الرياضيين من مدرسة الكرجي مكنتنا من أن نبين: إن ابتكارات عديدة منسوبة حتى الآن إلى جبريي القرنين الخامس عشر والسادس عشر هي في الواقع من عمل هذا التقليد. ومن بين ما توصل إليه الرياضيون من مدرسة الكرجي نجد نظريات كاملة كجبر كثيرات الحدود وقضايا جوهرية ـ صيغة ذات الحدين وجدول المعاملات وخوارزميات مثبتة ـ كتلك الخاصة بقابلية قسمة كثيرات الحدود وطرق البرهنة كالاستقراء التام.

ـ أما **الكسور**، فإن طرق العرب فيها لا تختلف عن الطرق المعروفة الآن. والعرب أول من استخدم خط الكسر (في المغرب العربي).

ـ وقد بحث العرب في استخراج المجهولات وبرعوا في الطرق التي اتبعوها لذلك، فقالوا باستخراج المجهولات بالأربعة المتناسبة، وبحساب الخطأين، وبطريقة التحليل والتعاكس، وبطريقة الجبر والمقابلة.

ـ ظهرت في أعمال العلماء العرب مثل ابن الياسمين (ق ١٢م)، والقلصادي (ق ١٥م)، وابن حمزة المغربي (ق١٦م) الرموز الجبرية لكتابة المعادلات الجبرية مثل رمز (ش أو س حالياً) للشيء (المجهول)، ورمز (م) للمال (مربع العدد)، ورمز (ل) للمساواة، ورمز (ك) للمكعب، ورمز (جـ) للجذر وغيرها.

ـ قام العلماء العرب بحسبنة الجبر، بينما كان العلماء اليونان يستخدمون الجبر الهندسي ويتعاملون مع الأعداد على أنها مقادير هندسية. ولذلك وقع الفيثاغوريون في إشكال كبير عند اكتشاف الأعداد الصم مثل جذر العدد ٢ وهو طول الوتر في مثلث قائم متساوي الضلعين وكل منهما يساوي الواحد. ومن أشهر العلماء العرب أبو كامل والكرجي والخيام وغيرهم الكثير ممن ساهموا في تحرير الجبر من الهندسة[١].

---

(١) المرجع االسابق.



ـ ساهم العلماء العرب بتطوير مفهوم العدد من الطبيعي الصحيح إلى الكسور العادية (نسبة) إلى الكسور العشرية، والنسب بشكل عام التي فتحت الطريق لوضع أسس مفهوم العدد الحقيقي الموجب[١]. فقد تعامل العلماء العرب مع الأعداد غير النسبية (التي سماها العرب غير المُنْطَقَة أو الأعداد الصم أو الأعداد الجذرية) كأعداد وليس كمقادير هندسية كما هو الحال عند إقليدس، وبذلك ساهموا بتطوير الجبر والحساب والعمليات الجبرية. وهنا نذكر البيروني والخيام والكرجي وابن البغدادي وغيرهم[٢].

ـ كان للعلماء العرب دور في تطوير المربعات السحرية، وكذلك طريقة حساب الخطأين التي سميت في المغرب العربي قاعدة كفات الميزان، وذلك يدل على فهم عميق للعلاقة بين الفيزياء والرياضيات. فقاعدة الكفات مرتبطة بمسألة التوزين المعروفة وهذه المسائل جميعها مرتبطة بالمعادلات والجبر[٣].

ـ أول من استخدم التحليل التوافيقي في وضع المعاجم اللغوية هم العلماء العرب. فقد قام الخليل بن أحمد الفراهيدي باستخدام الطرق التوافقية في وضع معجمه «العين» في القرن العاشر الميلادي. وكان ذلك أحد بدايات تأسيس علم اللغة الرياضي المعاصر (Mathematical Linguistics)[٤].

ـ وتوصل العلماء العرب والمسلمين إلى **مفهوم الحل العددي التقريبي للمعادلات الجبرية**. فمثلاً قام البيروني بحل المعادلة التكعيبية: $x^3 = 1 + 3x$ في النظام الستيني والتي نتجت عن مسألة إنشاء مضلع منتظم ذي عشرة

---

(١) غالينا ماتفييفسكايا. **دراسات حول العدد في الشرق القروسطي**. دار فان. طشقند. ١٩٦٧.

(٢) محمود الحمزة. رسالة ابن البغدادي **«المقادير المشتركة والمتباينة»**. مؤتمر المخطوطات الشارحة. مكتبة الإسكندرية. ٧ ـ ٩ مارس ٢٠٠٦.

(٣) محمود الحمزة. **طريقة حساب الخطأين في رياضيات المغرب والاندلس**. الندوة الدولية لتاريخ العلوم عند العرب. ٢٣ ـ ٢٤ أبريل ٢٠٠٨. حلب. سوريا.

(٤) رشدي راشد. **تاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب**. مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت. ١٩٨٩.



أضلاع. كما أعطى الكاشي طريقة عبقرية تعتمد على الاستكمال الخطي لحل المعادلة التكعيبية: $x^3 + q = px$ وهي طريقة متطورة لا تقل دقة عن الطرق التي ظهرت في أوروبا بعد فييت الفرنسي(١). وكذلك أعطى الكاشي في عام ١٤٢٤ قيمة تقريبية دقيقة للعدد π (نسبة محيط الدائرة إلى قطرها، وهو معروف منذ القدم)، حيث قام بحساب ١٦ رقم بعد الفاصلة أي تقريباً $\pi 2 = 6.2831853071795865$ (قيمة العدد π يمكن حسابها بتقسيم العدد ٢٢ على ٧).

٣ ـ حول انتقال العلوم العربية وتأثيرها في النهضة الأوروبية:

هذا الموضوع يحتاج إلى وقفة طويلة، لأن حملة الترجمة الواسعة من العربية إلى اللاتينية بدءاً من القرن (١٢م) تعتبر ثاني أكبر حملة ترجمة في التاريخ بعد الترجمات الواسعة التي قام بها العلماء العرب والمسلمين من اليونانية والسريانية والسنسكريتية والفارسية إلى العربية. فالحضارة والنهضة العلمية تبدأ مع الترجمة ونقل التراث العلمي السابق. ومن المترجمين المعروفين آدلار الباثي، وبيار ألفونس، ويوحنا الإشبيلي، وجيرار الكريموني. وكلهم درسوا في الجامعات العربية في الأندلس.

وقد كتب يوشكيفيتش عن تأثير العلوم العربية في النهضة الأوروبية في كتابه **تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى**، مشيراً إلى أن علماء المغرب العربي والأندلس أو كما يسميها دول المور(٢) في شبه جزيرة الإيبيرية (ويعتبر دورهم أقل من علماء المشرق العربي والإسلامي)، كانوا صلة الوصل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الأوروبية المسيحية. ويضيف أن العلوم

---

(١) محمود الحمزة. **موجز في تاريخ الرياضيات وتطورها الفكري والفلسفي**. دار اليرموك. تعز. اليمن. ٢٠٠٢.

(٢) «المور» والجمع «الموريون» مصطلح في اللغات الإسبانية والإنجليزية والفرنسية ذو استخدام شعبي وعامي يطلق على سكان شمال أفريقيا بما فيها المغرب العربي والأندلس.



وصلت هناك إلى ذروة تطورها في القرن الثاني عشر للميلاد، ويقول إن ليوناردو بيزانسكي (فيبوناتشي) اعتمد في كتبه في الحساب والجبر والهندسة على أعمال أبو كامل، وكذلك استخدم ريغيومونتانو أعمال البتاني ونصير الدين الطوسي في حساب المثلثات. ولقد أغنت الرياضيات العربية وأثرت بشكل مثمر على تطور العلوم في أوروبا. ومكنت علماء أوروبا في القرون الوسطى من متابعة الاكتشافات والترجمات التي حققها العرب دون الابتداء من الصفر. ولكنه يقول، للأسف فإن بعض إنجازات علماء كبار مثل الخيام والكاشي لم تعرف في أوروبا إلا بعد أن اكتشفت في أوروبا.

وبعد دراسة معمقة أجرتها الباحثة الروسية غالينا ماتفييفسكايا وخاصة في كتابها «**دراسات حول العدد في الشرق القروسطي**»، تحدثت عن دور العلوم العربية المنقولة إلى أوروبا في قيام ونهضة العلوم الأوروبية. وقد بدأت تلك النهضة بالاعتماد على الترجمات اللاتينية للمؤلفات العلمية العربية واليونانية. وتضيف بأن التجارة بين البلدان الأوروبية والمشرقية عبر بيزنطة وصقلية لعبت أيضاً دوراً مهماً في نقل المخطوطات العلمية إلى أوروبا. وتؤكد ماتفييفسكايا على أن العلماء الأوروبيين اعتمدوا على التقاليد العلمية العربية وتابعوا على أساسها في الحساب والجبر والهندسة والمثلثات.

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها الشهير «شمس العرب تسطع على الغرب» إن حضارة الغرب ولدت في صقلية الإسلامية وكان الأطباء المشرفون عليها هم العرب. وفي إمبراطورية فريدريك الثاني (الذي تخرج من جامعة بالرمو الإسلامية في صقلية) التقى الفكر العربي بالفكر الغربي... ونتج عن ذلك الاحتكاك بين الشرق والغرب نظرة جديدة للعلوم الطبيعية أساسها التجربة والخبرة.

يصعب الآن تصور التقدم الهائل في العلوم النظرية والتطبيقية الذي بلغته الحضارة العربية الإسلامية بدءاً من بغداد وانتهاء بقرطبة وغرناطة. لقد نقل الأوروبيون معظم العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية وأصبحت المؤلفات العربية العلمية



منها والفلسفية والطبية جزءاً لا يتجزأ من مكتبات كبار علماء أوروبا. ودُرّست أعمال ابن سينا وابن رشد والرازي والخوارزمي وابن الهيثم والغزالي مئات السنين في الجامعات الأوروبية، التي نشأت أصلاً بتأثير الجامعات العربية في الأندلس.

ففي القرن العاشر الميلادي كانت جامعة قرطبة الوحيدة في أوروبا. ولولا اللغة العربية وجهود الدولة العربية الإسلامية التي رعت العلم والعلماء وشجعت على ترجمة العلوم القديمة وخاصة اليونانية إلى اللغة العربية، لما عرفت أوروبا قبل نهضتها أفكار أفلاطون وأرسطو وفيثاغورث وإقليدس وأبولونيوس وغيرهم، ولما عرف الأوروبيون الأرقام العشرية ولا الجبر ولا العديد من الطرق والنظريات العلمية الرياضية والفلكية والطبية والهندسية.

يقول المؤرخ الفرنسي سيديو (Louis - Pierre - Eugene Sedillot) (١٨٠٨ ـ ١٨٧٥م) في كتابه «**تاريخ العرب**»: وانتشر نور العلوم والتمدن بالمشرق والمغرب وأهل أوروبا إذ ذاك في ظلمة جهل القرون المتوسطة. ويضيف بأن العرب بذلوا همتهم في الاشتغال بجميع ما ابتكرته العقول البشرية من المعلومات والفنون وشهروا في غالب البلاد ـ خصوصاً البلاد النصرانية من أوروبا ـ ابتكارات تدل على أنهم أئمتنا في المعارف. ويتحدث عن إنجازات الأمة العربية (الإسلامية) قائلاً: نستلفت أبناء أوروبا على مر الزمان إلى تلك الآثار الجليلة التي خلفتها هذه الأمة.

ولكن الأهم من ذلك أيضاً ترجمة مؤلفات كبار العلماء العرب مثل الخوارزمي وآخرين إلى اللاتينية، ما ترك أثراً هائلاً في تطور العلم الغربي، حيث أصبح الحساب الهندي أول إسهام عربي في تكوين العلم الرياضي في أوروبا. فقد عرف الأوروبيون الأرقام العشرية عن طريق العرب وسموها الأرقام العربية. وكذلك تعرّف كبار العلماء من أمثال كبلر وكوبرنيكوس على أعمال ابن الهيثم وابن الشاطر وغيرهم من علماء الرياضيات والفلك. ويذكر بعض الباحثين أن مكتبات كوبرنيكوس ونيوتن وبيكون وغيرهم من كبار علماء الغرب، كانت تحتوي على مخطوطات عربية مترجمة إلى اللاتينية.



وللأسف رافقت عمليات الترجمة ظواهر سيئة مثل سرقة البحوث ونسبها لعلماء أوروبيين مثل ريجيو مونتانوس، الذي نسب لنفسه أبحاث في المثلثات وغيرها تعود إلى علماء عرب مثل أبي كامل والكرجي وغيرهم. والأمثلة على ذلك كثيرة. ومعظمها جرى تصحيحها وإعادة الحق لأصحابها.

وهناك مسميات دارجة في علم الرياضيات بشكل خاص تنسب لعلماء أوروبيين، ولكنها اكتشفت من قبل علماء عرب ومسلمين قبلهم بقرون عديدة. ونجد الكثير من المؤرخين الأوروبيين يعترفون بذلك التزوير ومنهم سيديو، الذي يقول في كتابه: «تاريخ العرب» وما زلنا إلى الآن نستكشف أموراً مهمة من الكتب العربية القديمة، وإن عزي ابتكارها زوراً إلى بعض المتأخرين من الفرنج. ومن الأمثلة نذكر: مثلث باسكال الذي يستخدم في حساب معاملات مفكوك ثنائي حد نيوتن. فقد كان معروفاً منذ القرن ١١م لدى علماء المشرق الإسلامي ومغربه (عند الكرجي والسموأل وابن منعم وغيرهم).

وفي كتاباته عن المعادلات تأثر فيبوناتشي (L. Fibonacci) بأعمال الخوارزمي وأبي كامل والكرجي وابن الهيثم. علماً أنه نسب لنفسه كيفية استخراج جذر تكعيبي بطريقة تقريبية كانت معروفة عند الطوسي وكوشيار بن لبان (ق ٩م) وتلميذه النسوي (ق ١١م). ويقال ان فيبوناتشي اعترف بنفسه أنه زار مصر وسورية وبيزنطة وصقلية والبروفانس وإيطاليا.

٤ ـ عوامل تدهور العلم العربي وعدم تحوله إلى العلم الحديث[1]:

يعرف الباحثون بأن انقطاعاً في التطور العام للعلوم العربية قد حصل مع نهاية القرن الخامس عشر عدا استثناءات حصلت هنا وهناك في مجالات رياضية وفلكية متميزة.

---

(١) انظر م.الحمزة. تعليق على موضوع «العلم في الإسلام» من كتاب توبي هوف «**فجر العلم الحديث: الإسلام والصين والغرب**». المؤتمر العلمي السنوي لمعهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. ٢٠١١. موسكو. وم. الحمزة «أسباب تدهور العلم العربي».

مثلاً الباحث الأمريكي توبي هف(١) ينطلق من فكرة مفادها أن «الفتح الجديد الذي أوجد حرية البحث العلمي هو من أخطر الثورات الفكرية والاجتماعية في تاريخ البشرية» [٣٢]. ويتضح من هذا القول بأن حرية البحث العلمي كانت نتيجة لحرية فكرية ترقى إلى مستوى الثورة. فهل هذه الثورة الفكرية كانت حاضرة في بيئتنا العربية في عصور ما بعد المأمون. ويتذكر الباحثون والمختصون بتاريخ القرون الوسطى في الخلافة الإسلامية بأن الخليفة المأمون كان نموذجاً نادراً في تاريخ الحكام العرب والمسلمين، من حيث اهتمامه بالعلم والفلسفة وتشجيعه لهما، وتقديم كافة التسهيلات للعلماء والمترجمين الذين نقلوا العلوم اليونانية والسريانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية. وحتى أنه أعطى فسحة كبيرة من الحرية للبحث والتفكير الحر والعقلاني في مجالات حساسة، تجسدت من خلال تعاطفه مع جماعة المعتزلة التي دار حولها جدل واسع.

ويرد الباحث جورج صليبا على توبي هوف ويفند رأيه حول سبب تدهور العلم في العالم الإسلامي وعدم تطوره إلى مستوى «العلم المعاصر» أو «الكلاسيكي».

وقد كرس الباحث جورج صليبا مقالتين(٢) لدحض أفكار توبي هوف حول نشوء العلم «المعاصر» في أوروبا الغربية وغيابه في العالم الإسلامي. وعرض أفكاره في مقالتين:

المقالة الأولى هي تحكيم جورج صليبا لكتاب توبي هوف.

والثانية هي رد جورج صليبا على تعليقات توبي هوف على صليبا.

---

(1) T. E. Huff, The Rise of Early Modern Science. Islam, China and the West, Cambridge UP [1993] 1999, 409 p.

(2) G. Saliba. Seeking the origins of Modern Science?". Bulletin of the Royal Institute for Inter-Faith Studies. 1, 2 (1999), pp. 139-152. G. Saliba. Flying Goats and Other Obsessions: A Response to Toby Huff's 'Reply'". Bulletin of the Royal Institute for Inter-Faith Studies. 4, 2 (2002), pp. 129-141.



وينتقد صليبا مؤرخي العلوم، الذين يعتبرون العلم «المعاصر» نتاج الثقافة «الغربية»، على أنه طريقة منهجية سطحية وغير سليمة تاريخياً، وتخدم أغراضاً سياسية في بعض الأحيان.

ويضع صليبا كمهة أولى في مقالاته رفض فكرة المساواة بين العلم المعاصر والثقافة الغربية. وهو يفعل ذلك من خلال الإشارة مراراً وتكراراً إلى الإنجازات العلمية لعلماء المجتمعات الإسلامية واستخدامها من قبل العلماء الغربيين لتأسيس العلم «المعاصر».

والمهمة الثانية التي يتصدى لها صليبا، هي تأصيل قناعاته بأن تسلق بعض المؤهلين ثقافياً للعلم لا ينتج أفكاراً تحليلية مفيدة.

وفي المقالة الثانية يتناول صليبا المجالات الأربعة التي وصفها هوف بأنها إشكالية فيما يتعلق بالعلم في العالم الإسلامي:

١) مم يتكون العلم المعاصر؟

٢) دور العوامل الاقتصادية.

٣) توقيت تراجع العلم في العالم الإسلامي.

٤) دور المؤسسات ذات الصفات القانونية والأبحاث «الحرة».

ويعتبر صليبا عملية غزو العالم الجديد (أمريكا) عاملاً أساسياً وبسيطاً في ظهور العلم «المعاصر» في أوروبا الغربية. ويشير إلى النتائج المفيدة التي حققته الرعاية النشطة من قبل المحاكم والحكام في العالم الإسلامي للحصول على نتائج علمية جديدة، ويدحض اعتقاد هوف بأن الهيكل القانوني المحدد للجامعات الغربية خلق أبحاثاً «حرة»، وأن البحث «الحر» شرط ضروري لظهور العلم «المعاصر».

أما الدكتور رشدي راشد[1] (وكأنه يرد بشكل غير مباشر على أفكار توبي

---

(١) ر.راشد، **تاريخ العلم والعطاء العلمي في الوطن العربي**، **المستقبل العربي**، المجلد ٨١ (١٩٨٥).

هوف)، فإنه يرى بأن اختلاف الآراء في تحديد المقصود من تاريخ العلوم ومنهجه، فإنها تتفق فيما بينها على مصادرة غربية العلم منشأً وتطوراً. ولا ينقص من هذا الاتفاق تعدد المذاهب الفلسفية والاجتماعية للمؤرخين. وقد سبق لراشد ان تناول هذا الموضوع في مقال آخر له «حول العلم كظاهرة غربية والعرب» واعتبر هذا الاتفاق هو وليد إيديولوجية القرن التاسع عشر، وتشمل عدداً من النقاط أهمها: ـ اعتبار العلم غربي المنشأ، وـ أن الثورة العلمية الأولى تمت في عصر النهضة.. وظهرت مع كوبرنيكوس في الفلك ومع غاليلو في الميكانيكا، ومع فيت ثم ديكارت في الرياضيات ومع وليم هارفي في علم الحياة. وأن المنهج التجريبي ظهر حصراً في تلك الفترة، وبالتالي فالعلم العربي إن كان له قيمة ـ وفق تلك الأفكار الغربية ـ فهي تتركز أساسا في نقله للنصوص اليونانية التي فقدت أصول بعضها، وبقيت ترجمتها العربية... وإنِ ابتكر بعض العلماء العرب شيئاً فليس هذا الابتكار إلا امتداد للعلم اليوناني نظريةً ومنهجاً. وللأسف فقد انخدع الكثير من «جمهرة المثقفين العرب» بتلك الآراء الغربية. ولكن أبحاث مصطفى مشرفة وأتابعه بعد دراسة مصطفى نظيف عن ابن الهيثم التي زعزعت تلك المقولات الغربية، بالرغم من أن باحثين عرب مثل زكي نجيب محمود يرى بعد (٢٠) سنة من أبحاث نظيف بأن مفتاح النهضة الأوروبية هو اعتماد منهج جديد من قبل الفيلسوف الفرنسي ديكارت والفيلسوف الإنجليزي بيكون.

كما أن المستشرقين اعتبروا تاريخ العلم العربي جزءاً من الاستشراق وليس علماً قائماً بذاته. ويعتبر راشد أن الخلفية الإيديولوجية السائدة حينئذ... أدت إلى انحراف منهج البحث نفسه. وأصبح هم المؤرخين الغربيين ملء الفراغ بين الفترة الهيلنستية وعصر النهضة.

ويشير راشد إلى أن المؤرخين الغربيين وقعوا في إشكالية الربط بين الرياضيات اليونانية مع الرياضيات الأوربية متجاهلين دور العلماء العرب. فمثلاً كيف يمكن فهم أبحاث ديكارت في البناء الهندسي لجذور المعادلات الجبرية بالقفز من ابولونيوس وكتبه في القطوع المخروطية إلى ديكارت دون ذكر دور

الخيام وبعده نصير الدين الطوسي في تطبيق الهندسة على الجبر وبداية بناء جذور المعادلات الجبرية.

كما طرح راشد وجهة نظر عميقة في مناقشة تاريخ العلوم العربية وعلاقتها بالعلم الكلاسيكي الغربي، حيث يقول: إن المزيد من المعرفة بالعلم العربي تسهم في تحسين قدرتنا على فهم العلم الكلاسيكي من الناحيتين الإبستمولوجية والتاريخية. ويورد راشد أهم ميزيتين للعلم الكلاسيكي وهما:

(١) عقلانية رياضية جديدة.

(٢) التجريب كنمط من أنماط البرهان [٣٨ ـ ٤١].

واعتبر أن ابتكار علم الجبر لأول مرة في التاريخ في القرن التاسع الميلادي على يد العالم المسلم محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٨٥٠م) (الذي عمل في بيت الحكمة التي أنشاها الخليفة المأمون) وإعطاءه طريقة متسلسلة أو خوارزمية لحل المسائل العلمية والتي دخلت كل العلوم الحديثة في العالم[١]، قدّم إمكانيات جديدة كانت منشأ استراتيجية جديدة وعقلانية

---

(١) مصطلح الجبر مشتق من جبر وتجبير العضو المكسور. ورأى الخوارزمي أن المعادلة البسيطة التي فيها حد سالب يمكن إزالته بجبرها أو تجبيرها، أي جمع العبارات السالبة في طرف والموجبة في طرف آخر، بما يعني تبسيط المعادلة بإزالة الطرح عبر إضافة حدود في طرفيها؛ ويكون ذلك بنقل الحدود من شطر إلى آخر من المعادلة. وتلي هذه الخطوة مبادرة ثانية هي المقابلة، وهي طرح كمية من نفس النوع (درهم، جذر، مربع) بحيث لا يبقى شيء منها في الجانبين من المعادلة في نفس الوقت. وتدل عملية المقابلة على توحيد الحدود المتماثلة. ومصطلح الجبر الذي دخل كل لغات العالم مشتق من تلك الكلمة الذي استخدمها الخوارزمي بعبقرية لأول مرة في التاريخ. ويقال إنها من أصل آرامي. أما الخوارزمية فهي ترجمة لكلمة (algorithm) المشتقة من اسم الخوارزمي أثناء ترجمة كتابه الشهير «فن الجبر والمقابلة» إلى اللغة اللاتينية، حيث ترجموا اسم الخوارزمي إلى الغوريثمي (Algorithmi) انظر هذا المدخل الموسوعي عن الخوارزمي في **معجم السير العلمية**: =

جديدة[١]. ويتابع بأن هذه الاستراتيجية نتاج طبيعي لتطور الجبر بعد الخوارزمي ولعلاقة الجبر بغيره من فروع الرياضيات. وتمثلت هذه الاستراتيجية في الكشف الدائم عن مزيد من البنيات والعمليات في الجبر، والشروع في جدلية التطبيق... وعلاقته بالفروع الأخرى...

وأما العقلانية الجديدة، فيعتبر راشد أنها تقوم على الطبيعة الجديدة لمواضيع الرياضيات التي جعلت بالإمكان ما لم يكن ممكناً من قبل. ويمكن القول عن هذه العقلانية اختصاراً بأنها جبرية وتجريبية تميز الحداثة الكلاسيكية، وقد أسست في الفترة بين القرنين التاسع والقرن الثاني عشر على يد علماء عاشوا في بقاع متباعدة من إسبانيا المسلمة وحتى الصين وكتبوا جميعاً باللغة العربية، وقد استحوذ العلماء على تلك العقلانية الجديدة منذ القرن الثاني عشر، ثم ظهرت نسخة محسنة منها في القرن السادس عشر.

ونختلفُ مع الباحث الأمريكي هوف الذي يقول بأن التراثين التجريبي والرياضي لم يندمجا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، الوقت المزعوم لنشوء العلم الحديث (أو المعاصر ـ الكلاسيكي)، وإنما في منتصف القرن التاسع عشر وحتى في بداية القرن العشرين في بعض العلوم. بينما نرى الجبر العربي وتطبيقاته الحسابية والهندسية ودراسات ابن الهيثم في البصريات واستخدامه للنظريات الرياضية المجردة في إثبات القضايا الهندسية والفيزيائية، بالإضافة إلى استخدامه لمفهوم النموذج، مثله مثل كمال الدين الفارسي، يعبر عن استخدام وثيق ودمج كبير بين النظري والعملي في بحوث العلماء العرب في القرون الوسطى أي قبل القرن التاسع عشر بعدة قرون.

---

https://www.encyclopedia.com/science/dictionaries-thesauruses-pictures-and-press-releases/al-khwarizm.

(١) ر.راشد، **العلم في الحضارة الإسلامية والحداثة الكلاسيكية، دراسات في تاريخ العلوم العربية وفلسفتها**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١.



ويعترف هوف في مكان آخر من كتابه الشهير فجر العلم الحديث [٧٥] بأن شيئاً آخر غير التجريبية كان هو القوة الدافعة وراء العلم الحديث، وأن هذا الشيء، مهما كان، قد بدأ قبل غاليلو. لذا فإن أصول التراث الكلاسيكي الذي بلغ ذروته في أعمال كوبرنيكوس وكبلر وغاليلو ونيوتن يعود إلى أصول أعمق وأقدم من القرن السابع عشر. ويعتقد هوف أن مشكلة العلم العربي في جانبين:

أولهما: عجزه عن إنجاب العلم الحديث.

وثانيهما: يتصل باضمحلال الفكر والممارسة العلميين في الحضارة العربية الإسلامية وتراجعها بعد القرن الثالث عشر [٧٥].

وعند البحث عن أسباب تدهور العلم العربي لا يكفي أن نناقش موضوعات العلم بحد ذاتها، وإنما نتناول الظروف التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي شكلت البيئة والتربة الخصبة لتطور العلوم. وفي هذا الصدد يرى راشد [٤٠] بأن الوقائع العلمية والعلوم(١) هي نتاج البشر والمجتمعات. لذلك عند دراسة أسباب انحطاط العلوم لا بد من تعاون المختصين والمؤرخين في الكشف عن تلك الأسباب في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعسكرية والتاريخية. وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أننا مازلنا نجهل المستوى الحقيقي الذي بلغته العلوم في ظل الحضارة العربية الإسلامية، لأن آلاف المخطوطات إما أنها غير مكتشفة بعد، أو أنها فُقدت نتيجة الحروب والظروف السياسية، أو أنها لم تدرس بعد ولا نعرف بالضبط حتى الآن حجم تلك المساهمات العلمية العربية. لذلك نجد أنفسنا أمام عقبة حقيقية في تقييم ظاهرة انحطاط العلم العربي، ومع ذلك يمكننا الاجتهاد في تشخيص أهم الأسباب التي أدت إلى انحسار العلم بعد قرون من التقدم والازدهار. وهناك دراسات مفيدة في هذا المجال قام بها باحثون عرب وأجانب سنتعرض لبعضها.

---

(١) رشدي راشد. **في تاريخ العلوم. دراسات فلسفية**. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة». تونس. ٢٠٠٥.



وهناك مفكرون غربيون مجحفون يرون بأن النظر في أسباب تدهور العلم العربي غير ضروري لعدم وجود علم عربي أصلاً، ويزعمون بأن الحديث يجري عن عدة قرون من الولع العربي والإسلامي بالتراث العلمي اليوناني. ويؤكدون بأن معارضة القوى الدينية المحافظة لتجذر هذه الاهتمامات العلمية أدى إلى التراجع وإلى انتقال العلم اليوناني إلى أوروبا التي نشأ فيها العلم الحديث.

أما العالم الألماني ي. غولدزيهر (I. Goldziher)، فيؤكد على أن انحطاط العلم العربي هو نتيجة العلاقة السلبية من قبل المحافظين الإسلاميين حيال العلوم القديمة وفي مقدمتها اليونانية. ولكن رأي غولدزيهر على الاغلب ناجم عن موقف إيديولوجي مرتبط بفترة الاحتلال الأوروبي للبلاد العربية والإسلامية، ولم ينتج عن دراسة تاريخية موضوعية.

وللبرهان على خطأ رأي العالم الألماني، نذكر إنجازات مدرسة مرصد مراغة في الفلك، ابن الشاطر الدمشقي في الفلك (ق ١٤م)، والكاشي (ق. ١٥م) في الجبر، والفارسي (ق. ١٦م) في البصريات، واليزدي (ق. ١٧م) وغيرهم، ما يؤكد أن العلم العربي استمر حتى القرن السابع عشر وقدم إسهامات جديدة وخاصة في الفلك. وتشير الباحثة الروسية إي. لوتر(١) إلى أن المدرسة الناظمية في بغداد التي عمل فيها كبار العلماء مثل الرياضي والفقيه كمال الدين ابن يونس (ق. ١٢ ـ ١٣م) كانت تدرس الرياضيات والفلك إلى جانب العلوم الدينية.

أما العالم الأمريكي ليندبيرغ (D. Lindberg)، يقترح ثلاثة أسباب لتدهور العلوم العربية وهي:

١) تأثير الرؤية الإسلامية المحافظة. ويورد مثالاً على ذلك حرق الكتب العلمية والفلسفية القديمة في قرطبة في نهاية القرن العاشر للميلاد.

---

(١) إيرينا لوتر. **بعض جوانب مشكلة تدهور العلم الإسلامي**. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٥.



٢) الحروب المتعددة والمدمرة وركود الاقتصاد وفقدان الحماية. ففي المغرب العربي والأندلس (إسبانيا) بدأت الحروب عام (١٠٦٥)، واستمرت حتى استعادة الإسبان المسيحيين لشبه جزيرة البيرينيه عام (١٢٣٦) وإشبيلية عام (١٢٤٨)، التي أدت إلى حرق الكتب وإتلاف معظم التراث العلمي الغني للحضارة الإسلامية في الأندلس. أما في المشرق العربي فنذكر الغزوات المغولية منذ بداية القرن الثالث عشر[١] واحتلال بغداد عام (١٢٥٨) الذي جسد نهاية الخلافة العباسية، علماً أن الغزو المغولي لم يقض على العلوم، لكنه شكل ضربة قوية للتطور السائد. وفي هذه الفترة انتشرت الأعمال الموسوعية والتلخيصات والتصنيفات والشروحات التي حفظت محتويات الكثير من المخطوطات المفقودة بنتيجة الحروب. وترافقت تلك الأعمال بتراجع البحوث العلمية الأصيلة. أما في ظل الإمبراطورية العثمانية التي تميزت بنمط اقتصادي معين وتقديم أولويات الحرب لم يحصل العلم على الاهتمام المناسب. نضيف إلى ذلك أن الاكتشافات الجغرافية وانتهاء الهيمنة الإسلامية في التجارة الدولية أدت إلى ضعف النشاط الاقتصادي في الدولة الإسلامية. وأخيراً فإن ظهور دول قوية مثل إسبانيا والبرتغال وهجماتهما المتكررة على

---

(١) نلاحظ بأن هجمات المغول (ق ١٣م) الذين كانوا من أنصار التشدد الديني ترافقت مع حملة دينية معادية للفلسفة والعلوم الأساسية، كفرت الفلاسفة والعلماء، حيث وجه أبو حامد الغزالي (رائد علم الكلام) في كتابه «تهافت الفلاسفة» نقداً حاداً لفلسفة ابن رشد ولدعوته استخدام العقل في الوصول إلى الحقيقة. وفي وقت حوربت أفكار ابن رشد في العالم الإسلامي، انتشرت الرشدية (نسبة لابن رشد) في الغرب وأصبحت تدرس في الجامعات الأوروبية لقرون عدة. وقد لعبت أفكار ابن رشد والرشدية دوراً كبيراً في تقدم الفكر الأوروبي والنهضة الأوروبية، بالرغم من أنها للأسف لم تعطَ حقها في العالم العربي والإسلامي. لمزيد من الفائدة العلمية انظر كتاب «دقيق الكلام ــ الرؤية الإسلامية لفلسفة الطبيعة» للدكتور محمد باسل الطائي ــ أربد ــ الأردن ٢٠١٠.



حدود الدولة العثمانية، أدت إلى زيادة اهتمام الإمبراطورية العثمانية بتوسيع هيمنة الإقطاعيين وتركيز القوة العسكرية، الذي ترافق بعدم المبالاة حيال تطوير العلوم.

٣) لم تكتسب «العلوم القديمة» المتقدمة وضعية مؤسساتية ثابتة في ظل الإسلام، وبقيت تلك العلوم موضع شك وريبة في الأوساط الدينية المحافظة، لدرجة أن بعضها اعتبر خطراً على الدولة الإسلامية.

وعند الحديث عن الرياضيات والبصريات والميكانيكا والفلك والصيدلة، تشير الأبحاث إلى أن تلك العلوم بلغت ذروة تطورها المنطقي ولم يعد بالإمكان تطويرها بدون ثورة علمية. ومثال ذلك الهندسة الجبرية عند عمر الخيام (ق ١١ ـ ١٢م)، ودراسة المشتقات عند شرف الدين الطوسي (ق ١٢ ـ ١٣م)، يمكن مقارنته بالمستوى العلمي لأبحاث رياضيي القرن السابع عشر مثل ديكارت وفيرما، لم تكن قابلة للتطور إلا باختراع رموز رياضية جديدة (كالرموز الجبرية). علماً أن بعض العلماء العرب مثل ابن الياسمين وغيره استخدموا الرموز الجبرية منذ القرن الثاني عشر، لكن أحداً من العلماء لم يتابع تطويرها.

وأما المثال الآخر المهم فهو من حقل نظرية الأعداد. ففي عام ١٦٣٠ توصل اليزدي إلى نفس النتائج التي اكتشفها ديكارت وفيرما، ولكنه للمضي إلى الأمام في تطوير نظرياته كان بحاجة إلى مبدأ «الانحدار السريع» الذي اكتشفه فيرما. وهذا التاريخ يجسد تراجع العلم العربي من جهة، ونهوض ملحوظ في العلم الغربي الحديث.

يقول المستشرق الألماني ـ التركي **فؤاد سيزغين** (F. Sezgin) في كتابه «محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية» [٣٦] حول قضية أسباب ركود الثقافة الإسلامية ما يلي: «...أنطلقُ من المبدأ القائل بأن التعليل الصحيح لا يتيسر إلا بعد تصور شامل صحيح لتاريخ العلوم العربية والإسلامية، لنستطيع أن نعرف بكل وضوح العناصر البناءة والمكونة لها، التي ربما بدأت

تضعف أو تزول في وقت معين، والعناصر الهدامة والمتخلفة التي ساهمت بمرور الزمن في بطء التطور في المجتمع الإسلامي والانتهاء به إلى الركود».

ونذكر بأن هذا الموضوع كرست له ندوات منذ الخمسينيات في فرانكفورت بألمانيا (١٩٥٦)، وفي بوردو في فرنسا في نفس العام، وتعرض الباحثون في هاتين الندوتين إلى جوانب مختلفة للحضارة العربية الإسلامية ومكانة العلوم فيها. ومنهم من ربط الأمر بالتفكير الديني والفقه الإسلامي، وتعرضوا للفنون الإسلامية والتصوف والفلسفة والعقيدة والأدب العربي والعلوم الطبيعية. ويعلق سيزغين على تلك النتائج قائلاً: «على القارئ المسلم أن يقرأها ويستفيد منها دون أن يكون مضطراً لقبولها كلها أو بعضها، ودون أن ينتظر أن تكون الآراء المسرودة كلها مصيبة أو تتفق تماماً مع شعور المنتمين إلى الحضارة الإسلامية».

ويشير سيزغين إلى أن البعض يخلط بين الأسباب والنتائج في مناقشة موضوع الركود العلمي العربي، بالإضافة إلى أن مكانة العلوم العربية والإسلامية لم تُعَرَف أو توضح في التاريخ العام للعلوم بعد.

ومن العوامل التي لا بد من ذكرها برأينا والتي تركت أثراً ملحوظاً في إعاقة التطور العلمي العربي والإسلامي هي منع الاجتهاد في الإسلام، الذي كان يقصد منه الاجتهاد في مواضيع دينية، ولكنه انسحب حتى على العلوم الطبيعية والفلسفية. وكان ذلك كارثة حقيقية أدت إلى تدهور العلم، لأن من أهم شروط البحث العلمي ابتكار أفكار جديدة وتقديم آراء متميزة قد تتناقض مع ما هو سائد من المسلمات التقليدية. أما الشريعة الإسلامية فلا يرِد فيها مثل هذا الاعتبار. وفيها يمكن للفقيه أن يصدر فتوى يعلن فيها أن مفكراً ما قد خالف الشرع ولذا «يباح دمه» كما حصل مع الكاتب سلمان رشدي عندما أعلن آية الله خميني أن رشدي وكل من شارك في نشر الكتاب «قد حكم عليهم بالموت».

ويعتبر توبي هف أن العوامل الداخلية في العلم العربي ليست سبباً مقنعاً لتدهور العلم وعدم تطوره اللاحق. ويشهد التاريخ إنجازات هائلة للعلم العربي



في الفلك (مرصد مراغة) وفي البصريات (ابن الهيثم والفارسي) التي أثبتت عدم دقة الاتهام للعلم العربي بضعف جانبه التجريبي. وفي الطب نذكر الرازي (ت ٩٢٥) الذي لم يأخذ بأي علاج ما لم يثبت بالتجربة. وكتاب القانون في الطب لابن سينا الذي ظل لقرون عديدة يدرس في الجامعات الأوروبية، إلى جانب أعمال الرازي وعلماء يونانيين. ويعتقد هف أن المشكلة الأساسية في توقف الإبداع العلمي العربي مرتبطة بجانب ثقافي سوسيولوجي وببناء المؤسسات. وقد فند جورج صليبا هذه الآراء (انظر أعلاه).

ويرى سيزغين [٧٦] أن «تاريخ العلوم لا يخلي عندنا الشك أن ظاهرة الركود بدأت تحس تدريجياً في العالم الإسلامي في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد). إن قضية تسجيل أسباب الركود صعب جداً، ولكن ظاهرة الركود واقع تاريخي قد تجلت وازدادت بمرور الزمن. ربما يكون منهجاً سليماً ـ كما يبدو ـ أن نقارن مرحلتي التطور والركود بعضهما ببعض ونحاول أن نعرف العناصر البناءة، وما دخل من العناصر الهدامة التي ساعدت على إبطاء سرعة التطور حتى توقف». وتجدر الإشارة هنا إلى أن العلوم العربية بدأت تنتقل إلى أوروبا منذ أواسط القرن العاشر الميلادي، وبدأت هناك بالتشكل ظروف وبيئة مناسبة لنموها اللاحق في وقت كان تطور العلوم العربية في منحن تصاعدي. وبذلك فقد انتقلت عملياً نتائج العلوم العربية إلى بيئة أخرى وبدأت بالتجذر والنمو، بينما كانت العلوم العربية تسير في منحن تناقصي نتيجة عوامل كثيرة خارجية وداخلية سياسية واقتصادية ودينية وعسكرية.

«ولا يخفى ـ حسب سيزغين ـ ما للاختلافات المذهبية والاضطرابات الشديدة الموجهة من جهة المغول في شرق العالم الإسلامي ومن البرابرة في غربه، وصولات الصليبيين المستمرة الطويلة من تأثير سلبي على استمرار التطور العلمي المعتاد، إلى جانب غياب حماية العلم والعلماء وإتلاف الكتب



وانقطاع الصلة المستمرة بين العلماء والجامعات، وعدم انتقال الاكتشافات الهامة من جانب إلى جوانب أخرى في العالم الإسلامي».

ونأخذ مثالاً من الفلك، حيث كان العلماء العرب والمسلمون قد توصلوا إلى نتائج مذهلة في قرون متأخرة (الخامس عشر وبعده) أصبحت مرجعاً لعلماء الفلك الأوروبيين مثل كوبرنيكوس وكبلر، وهناك إثباتات على أن كوبرنيكوس استخدم حرفياً الرسومات والخرائط الفلكية من العلماء العرب (ابن الشاطر الدمشقي).

ولكن للأسف بقيت تلك النتائج عديمة الجدوى في البيئة العربية الإسلامية، بينما وجدت لها مناخاً خصباً للنمو في أوروبا وإن كان أولاً بطريقة التقليد أو الانتحال (مارس الانتحال العلماء اللاتين مثل ليوناردو دافينشي وريجيو مونتانوس لفترة طويلة) حتى تنضج ثمرتها هناك فيما بعد.

إن دراسة موضوع أسباب الركود أو التدهور للعلم العربي والإسلامي تحتاج للجرأة والصراحة وعدم الخوف من أي مؤسسة سياسية أو دينية أو علمية، وتلك مهمة صعبة من مهمات المثقفين والعلماء العرب الذي سيقودون نهضة علمية حقيقية للعالم العربي والإسلامي في العصر الحديث.

ويزعم توبي هف [٧٥] بأن «العوامل التي قيل إنها مسؤولة عن إخفاق العلم العربي في إنجاب العلم الحديث ما بين العوامل العرقية، وسيطرة الاتجاه الديني التقليدي، والطغيان السياسي، وأمور تتعلق بالوضع النفسي العام، وبين عوامل اقتصادية، وإخفاق الفلاسفة الطبيعيين العرب في تطوير المنهج التجريبي واستعماله. ومن الصيغ المألوفة للتأثير السلبي الذي مارسته القوى الدينية في التقدم العلمي أن القرنين الثاني عشر والثالث عشر شهدا نشوء الصوفية باعتبارها حركة اجتماعية، وهذا أدى بدوره إلى التعصب الديني تجاه العلوم الطبيعية بشكل خاص، وإلى حلول العلوم الغيبية محل دراسة العلوم اليونانية والعقلية».

ويتساءل هف حول عدم تطور العلم العربي إلى العلم الكلاسيكي محاولاً إقحام تفسيرات تشبه الإيديولوجية، ويربط ذلك بعوامل دينية واجتماعية وثقافية، علماً أن الفكر الفلكي توصل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى

تصور لنظام الأجرام السماوية كان معادلاً من الناحية الرياضية لنظام كوبرنيكوس. ويعني ذلك:

(١) أن كوبرنيكوس استعمل مزدوجة الطوسي كما استعملها فلكيو مراغة.

(٢) أن نماذجه الفلكية لخطوط الطول في كتابه «الشرح المختصر» مستمدة من نماذج ابن الشاطر.

(٣) أما نماذجه الخاصة بالكواكب العليا والموجودة في كتابه «في دوران الأجرام السماوية» فتستخدم نماذج مراغة.

(٤) أن النماذج القمرية عند كل من كوبرنيكوس ومدرسة مراغة كانت متطابقة. وذلك دفع نويل سويردلو لأن يسأل عما إذا كان كوبرنيكوس قد تعلم نظرية مراغة بل «متى وكيف».

ومن المفيد أن نلقي نظرة على مشكلة نشوء العلم الحديث في الغرب [٧٥] لنجد أنها مجموعة من الصراعات العلمية والفكرية حول هذه المسألة بالذات. فقد اضطر علماء مثل غاليليو، كما يذكرنا تاريخ الثقافة الغربية لأن يخوضوا معركة ضد السلطات الكنسية القائمة لدعم دعواهم الخاصة بصحة المعرفة العلمية التي توصلوا إليها وبقدرتهم الإنسانية على التوصل إليها.

ورأى بعض مؤرخي العلوم مثل عبد الحميد صبرة[١] أن من عوامل توقف العلم العربي[٢]، هو عملية تجنيس العلوم اليونانية الذي أدى إلى تدهورها. وتجسد ذلك في ارتباط أهداف العلم بخدمة الدين وشعائره، مثل: تحديد مواعيد الصلاة، وسمت القبلة، وإقامة المراصد لرصد الأهلة، ومسح الأراضي لأغراض الخراج والعشور، والحساب لمعرفة نظام المواريث، ومعرفة الموازين

---

(١) خالد قطب: فلسفة تاريخ العلم العربي: عبد الحميد صبره رائداً (دراسة).

(2) Sabra, A. I. 1987. "The Appropriation and Subsequent Naturalization of Greek Science in Medieval Islam: A Preliminary Statement." History of Science vol. 25: pp. 223-243.



والمكاييل والقياس اللازمة لعمل المحتسب، فلما تحققت الأهداف ضعف النشاط العلمي.

وهناك أسباب سياسية وعسكرية: الغزو المغولي المدمر لعاصمة الخلافة بغداد ١٢٨٥، انهيار الإمبراطورية العثمانية، اكتشاف العالم الجديد، انحسار سيادة العرب على الطرق التجارية بعد اكتشاف طريق الرجاء الصالح، شيوع الصراع المذهبي والطائفي.

٥ ـ النظرة إلى العلم العربي:

تحدثنا أعلاه عن التطور الكبير للعلوم العربية في القرون الوسطى، والتي اعتمدت عليها أوروبا في نهضتها العلمية والحضارية. وكذلك النظرة العلمية الموضوعية والمنصفة للعلماء السوفيات والروس إلى العلم العربي. وأشرنا إلى أسباب تراجع العلم العربي وتدهوره، وأنه لم يتمكن من الانتقال إلى مستوى العلم الكلاسيكي (الذي ظهر في أوروبا لاحقاً).

ولكن بعض الباحثين ينظرون بطريقة غير منصفة إلى موضوع العلوم العربية ودورها في الحضارات، مثل المستشرق هلموت ريتر[(١)] (H. Ritter) الذي أشار إلى أن العالم المسلم كان أميناً ووفياً في نقل ما علّمه أساتذته إياه إلى الجيل التالي على أكمل وجه، بينما مهمتنا ـ والكلام لريتر ـ في العلم هي ليس ذلك وحسب، وإنما الإتيان بشيء جديد. ويتابع «إن مفهوم الحقيقة للعصر الحديث تصاعدي مبدئياً» و«أما المفهوم في الأرثوذكسية الإسلامية (يقصد: المذهب السني) فشيء ثابت نهائي ومستقر... إن عدم تبدل العقلية

---

(١) هلموت ريتر (توفي عام ١٩٧١) هو مستشرق ألماني اشتهر بتحقيقاته لمخطوطات عربية وفارسية وخاصة **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين** لعلي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري. وقد تتلمذ ريتر على نيلدكه وبروكلمان. ومن تلامذته مؤرخ التراث الإسلامي فؤاد سيزكن، وهو من أصل تركي، وكان المدير الفخري لمعهد دراسات التاريخ والعلوم الإسلامية والعربية في جامعة غوته في فرانكفورت والذي كان أحد مؤسسيه. وقام بنشر عشرات المجلدات عن التراث العربي والإسلامي.

الشرقية يبدو في أعيننا جموداً. ولكن الأرثوذكسية الإسلامية ترى المستحدثات بدعة مشكوكاً فيها ومثيرة للريب». وفي ذلك يتجنى على العلم والعلماء المسلمين الذين تمتعوا في فترات مختلفة بحرية علمية كبيرة قدموا خلالها إسهامات علمية متميزة. ولكن ريتر نفسه بعد نقاش وعتاب وُجِّه إليه قال «أستغفر الله لما جاء في ذهني فأعجبت بجماله وصحته، وما كان هذا إلا من النفس الأمارة».

وقد أصبح العلم العربي يفرض نفسه، وبدأ اهتمام دولي واسع به. وأهم صفة تميز العلم العربي هي صفة العالمية[١] وهي صفة جديدة لم تتوفر في أي علم آخر قبله.

فالعلم العربي عالمي بمنابعه ومصادره، وهو عالمي بتمدداته وتطوراته. ومصادره هي الهلنستية والسنسكريتية والسريانية والفارسية، وكان لهذا التنوع تأثير حاسم في صياغة ملامح العلم العربي، والتي تمثلت بشكل خاص في انصهار تلك العلوم تحت قبة الحضارة الإسلامية. وقد كان الهدف من ترجمة العلوم القديمة إلى العربية هو متابعة البحث بنشاط وحماس، علاوة على تلقيه الدعم الكبير من قبل السلطة السياسية آنذاك. وتكونت مدارس علمية كاملة مثل مدرسة حنين بن إسحاق وابنه وأهله، ومدرسة بني موسى وتلاميذهم، مثل ثابت بن قرة، ومدرسة قسطا بن لوقا، والمراصد الفلكية الكبرى التي تأسست وتبلورت حولها مكتبات علمية ضخمة لغتها الأساسية هي العربية ـ لغة العلم العالمية لعدة قرون[٢]. ومثال تلك المراكز مرصد مراغة، الذي أشرف على تأسيسه نصير الدين الطوسي (ق ١٣) في عهد هولاكو. فقد كان الطوسي يستخدم الأموال التي يغدقها عليه الحاكم المغولي بسخاء، في شراء الكتب

---

(١) ر.راشد. **العلم في الإسلام والحداثة الكلاسيكية**. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي. لندن. ٢٠٠٢.

(٢) ر.راشد. **الاتجاهات العلمية في الإسلام**. مجلة التسامح. العدد ٢٠. ٢٠٠٧.



العلمية وصناعة الأجهزة وغير ذلك بما يخدم العلم والبحث العلمي. ويقال إن عدد الكتب في مكتبة المرصد وصل إلى (٤٠٠,٠٠٠) كتاب.

لقد تفاعلت التقاليد العلمية المختلفة لتنتج علوماً ومناهج جديدة مثل الجبر والإسقاطات الهندسية وعلم المناظر وحساب المثلثات وغيره. وكان للمجتمع والمدينة الإسلامية دوراً مهماً في انبثاق تلك الظاهرة التاريخية الجديدة وهي العلم العربي.

وحول أخلاقية العلماء ونزاهتهم قال العالم العربي الكبير الحسن بن الهيثم (ق. ١٠ ـ ١١م) في مقدمة كتابه «الشكوك على بطليميوس»[(١)]: «الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة في الشبهات، وحسن الظن بالعلماء في طباع جميع الناس، فالناظر في كتب العلماء إذا استرسل مع طبعه، وجعل غرضه فهم ما ذكروه وغاية ما أرادوه حصلت الحقائق عنده هي المعاني التي قصدوا لها، والغايات التي أشاروا إليها. وما عصم الله العلماء من الزلل ولا حمى علمهم من التقصير والخلل. ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم، ولا تفرقت آراؤهم في شيء من الأمور، والوجوب بخلاف ذلك. فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين، المسترسل مع طبعه في حسن الظن بهم، بل طالب الحق هو المتهم لظنه فيهم، المتوقف فيما يفهمه عنهم، المتبع الحجة والبرهان لا قول القائل الذي هو إنسان، المخصوص في جبلته بضروب الخلل والنقصان. والواجب على الناظر في كتب العلوم، إذا كان غرضه معرفة الحقائق أن يجعل نفسه خصماً لكل ما ينظر فيه، ويجيل فكره في متنه وفي جميع حواشيه ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه، ويتهم أيضاً نفسه عند خصامه، فلا يتحامل عليه ولا يتسامح

(١) الحسن بن الهيثم. **الشكوك على بطلميوس**. تحقيق عبد الحميد صبرة ونبيل الشهابي. مطبعة دار الكتب. القاهرة. ١٩٧١



فيه. فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق وظهر ما عساه وقع في كلام من تقدمه من التقصير والشبه».

أما أبو الريحان البيروني، فقد كتب في مقدمة مؤلفه الشهير «القانون المسعودي»[1]: «وإنما فعلت ما هو واجب على كل إنسان أن يعمله في صناعته في تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة، وتصحيح خلل إذا عثر عليه بلا حشمة... وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده».

كما تحدث عن ذلك الخوارزمي في مقدمته حيث قال بأنه درس أعمال الأسبقين واستفاد منها.

واعتمد العلماء العرب على استخدام مبدأ الشك في أبحاثهم وخاصة ابن الهيثم، الذي وضع طريقة متكاملة للبحث العلمي وللتفكير العلمي. ومبدأ الشك من أهم مبادئ البحث العلمي، الذي أبرزه الرياضي والفيلسوف الفرنسي ديكارت عندما قال: إن الطريق إلى الحقيقة يمر عبر الشك بكل شيء، واستخدام العقل في البحث لدرجة أنه أعلن مبدأه الفلسفي «أنا أفكر إذاً أنا موجود».

وكان جابر بن حيان (ق. ٨ ـ ٩م) يقول: إن الإنسان لا حد له لزيادة علمه واكتشافاته، وأن عليه أن يجتهد في اكتشاف أسرار الخليقة كلها وقد أعطيت له المقدرة على كشف كل ما وراء العالم من الأسرار، مع أن أرسطو كان ينكر مثل هذه المقدرة للبشر. وكان ابن حيان يؤمن بأن عالمنا الفيزيائي والروحي مبني على قانون رياضي شامل. وكان يدعو إلى استخدام الرياضيات والقياس ومفهوم العدد في الكيمياء لكي تصبح علماً حقيقياً.

ومن المعروف أن الحضارة العربية الإسلامية أنتجت فلاسفة كبار تميز جهدهم الفكري بتقبله لمشكلات الفلسفة اليونانية ومنهجها. مثل الكندي (ت ٨٧٠)، والفارابي (ت ٩٥٠)، والرازي (ت ٩٢٥)، وابن سينا (ت١٠٣٧)،

---

(١) أبو الريحان البيروني. **القانون المسعودي**. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند. ١٩٥٤.



والبغدادي (ت ١١٥٢)، والبيروني (ت ١٠٤٨)، وابن رشد (ت ١١٩٨)، ومع أن كلاً منهم أسهم إسهاماً بارزاً في الفلسفة، فإن أغلبهم كسبوا رزقهم من خلال اشتغالهم بالطب أو عملهم في وظائف الدولة: في القضاء مثلاً، كما في حالة ابن رشد.

وبالمقابل كان المتكلمون (أصحاب علم الكلام) الذين استخدموا مناهج المحاججة العقلية اليونانية للتعبير عن المبادئ الأولى للإسلام وللدفاع عنه [٣٢]. ومن المفارقة أن بعض الفقهاء (ابن قدامة) حاربوا المتكلمين واتهموهم بالفساد، وهناك من اقترح معاقبتهم (ابن تيمية).

وقد تعرضت العلوم العقلية ومنها الفلسفة وكذلك العلماء والفلاسفة لموجة من التهم والمحاربة. وتذكر كتب التاريخ كيف أن علماء وفلاسفة مشهورين حظوا باحترام ورعاية الحكام كأطباء، علماً أنهم كانوا فلاسفة بارزين ولم تقدَّر فلسفتهم. وهناك شخصيات علمية كبيرة استطاعت أن تعمل بشكل مثمر في مجالات علمها لأنها حصلت على الرعاية والدعم المالي من قبل الحكام المحليين، بينما عالم مثل عمر الخيام الذي تلقى دعماً ورعاية من صديقه الوزير نظام الملك، تعرض لضغوطات هائلة بعد وفاة الوزير، وتعرض لهجوم واتهامات بأنه ملحد، فكانت أيامه الأخيرة قاسية وغير مستقرة. وكذلك ابن رشد فيلسوف قرطبة العظيم عمل بصفة قاضي قضاة قرطبة، وعاش من هذه الوظيفة، وفي أيامه الأخيرة اضطر للانتقال إلى مراكش حيث قضى بقية عمره.

٦ ـ وضع التعليم العالي وحرية البحث:

هناك بُعْدٌ آخر أثّر على التطور اللاحق للعلم العربي والإسلامي، وهو وضع التعليم العالي والبحث العلمي. ونذكر العمل المهم للأستاذ جورج مقدسي[١] «نشأة الكليات» [٧٧]، الذي أشار فيه إلى أن منهج الجدل المدرسي وأسماء المناصب الأكاديمية في الغرب الأوروبي أخذت من النظام التربوي الإسلامي

(١) جورج مقدسي. **نشأة الكليات**. جامعة الملك عبد العزيز. جدة. ١٩٩٤.

واللغة العربية. والحقيقة هي أن النخبة الثقافية في الحضارة العربية الإسلامية وقفت نفسها بإصرار لكل أشكال المعرفة. وتجلى ذلك في كتابة الأبحاث وفي فن إنتاج المخطوطات والكتب التي احتاجت لكميات كبيرة من ورق البردي.

أما صناعة الورق، فقد تعلمها العرب من الصينيين منذ القرن الثامن للميلاد في سمرقند. وما أن حل منتصف ذلك القرن حتى كان للدولة في بغداد مصنع للورق. أما في أوروبا فيبدو أن إنتاج الورق قد تم حوالي (سنة ١١٥٠ على يد العرب في إسبانيا. وقد انتشرت المكتبات العامة والخاصة في كل ارجاء الدولة الإسلامية وكانت تضم مئات الألوف من الكتب والمخطوطات في مختلف مجالات المعرفة. بينما كانت مكتبة جامعة السوربون(١) في القرن الرابع عشر لا تحتوي على أكثر من ألفي مخطوطة. وبعض تلك المكتبات كان يتبع للمساجد والجوامع وكانت مفتوحة للعامة. وكان الشكل الدارج للمؤسسة التعليمية العالية في البلاد الإسلامية في العصور الوسطى هو المدرسة ـ الصيغة الأصلية للكلية في أوروبا، وليس الجامعة (بينما المدارس قبل العليا فهي مدارس المساجد والمدارس الابتدائية). ولعبت المدارس دوراً كبيراً في الحياة الفكرية وكان لها جانبان مهمان:

الأول: أن المدارس كانت مؤسسات خيرية أي وقفاً دينياً تنفذ فيه رغبات المؤسسين، سواء أكانت هذه الرغبات دينية أم غير ذلك. وقد كان بإمكان الواقف أن يحتفظ بحقوق الملكية لنفسه أو اقربائه إلى الأبد. وكذلك أن يعيّن نفسه أو (ورثته) مديراً أو أستاذاً في الشريعة تعييناً دائماً.

والثاني: كانت المدارس مدارس فقه فقط ولم تدرس العلوم الطبيعية كالرياضيات والفلك والكيمياء والفلسفة والطب. وبذا تركز التعليم كله حول العلوم الدينية أو الإسلامية على حساب الفلسفة والعلوم الطبيعية وحتى علم

---

(١) أولى الجامعات الأوروبية تأسست في القرن الحادي عشر للميلاد بالاستفادة من خبرات المدارس العلمية العربية في الأندلس، ومن الكم الهائل من المخطوطات العلمية العربية، والتي كان كثير منها قد ترجم أصلاً من اللغة اليونانية.



الكلام. وكانت الإجازة لتعليم العلوم (الشهادة الجامعية بلغة العصر) تمنح من قبل المدرس الفقيه، ما يسمح للخريج أن يدرِّس تلك العلوم لغيره. ومن سلبيات هذا التعليم أنه كان يعتمد على الناحية الشخصية، لأن الإجازة كانت تمنح من مدرس وليس من قبل هيئة أو جماعة ولا من قبل هيئة تصديق مستقلة، أي باختصار لم يكن للمدارس صفة المؤسسة القانونية المستقلة القائمة بذاتها كمؤسسة اعتبارية. ولم يكن للدولة أو الخليفة أو السلطان أي دور في الاعتراف بالكفاءة العلمية. ومن المفيد الإشارة إلى أن منح الشهادات في العالم الإسلامي كان على النقيض تماماً منه في الصين. ففي العالم الإسلامي كان العالم وحده هو الذي يشهد بكفاءة التلميذ، أما في الصين فإن الدولة وحدها هي التي تمنح الشهادة للتلميذ وليس هيئة العلماء. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن التعليم في حقل العلوم الطبيعية كان يتم بشكل فردي خارج المدارس، وكان التخصص العلمي يحتاج إلى قطع المسافات الطويلة من مدينة إلى أخرى للبحث عن العلماء والمختصين للتتلمذ على أيديهم.

ولقد لاحظ الدارسون لتاريخ العلم العربي التأثير السلبي لهذه الاتجاهات الفردية في تطور العلم الحديث والمؤسسات الحديثة. وكان الطب استثناءً لأن التلميذ كان بإمكانه الدراسة في عائلته إن توفرت الظروف لذلك. وكان هذا النمط من هيمنة العائلة وعلاقات العائلة بمفهومها الواسع عاملاً رئيساً في عدم نشوء مؤسسات بلدية عامة في الإسلام في العصر الوسيط. وأخطر ميزة لتلك الجماعات هي أنها لم يكن لها صفة قانونية أو مؤسسية، ولم تكن لها بنية منظمة أو قيادة. بينما نلاحظ أن الصفة القانونية المؤسسية للجامعات بالذات هي التي أعطتها قوتها الدافعة في الغرب وميّزتها عن مدارس العالم الإسلامي.

ويرى توبي هف[١] أن مشكلة الاستقلال الذاتي والشمولية [٧٥] تتعلق في جانب كبير منها بمفهوم الولاية القانونية، التي كانت في العالم الإسلامي غير

---

(١) توبي هف. **فجر العلم الحديث**. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. ٢٠٠٠.



موجودة أصلاً، لأن المسلمين كلهم أعضاء في «الأمة» ولا يجوز فصل المسلمين إلى جماعات يتميز بعضها عن بعض شرعاً. وفي أوروبا الحديثة كان فصل السلطة الكنسية عن السلطة الدنيوية للأباطرة والملوك شرطاً أساسياً لتطور مفهوم استقلال المؤسسات وخاصة منها التعليمية. وهناك ناحية أخرى تخص الحياة الفكرية العلمية الإسلامية وهي عدم ظهور دوريات علمية وهيئات علمية، وكذلك كانت هناك فجوة كبيرة بين العلماء والمتعلمين. فكثير من العلماء والفلاسفة كانوا يحتفظون بعلمهم بشكل سري لأسباب عديدة، حيث كان يقال في بعض الحالات «إن المؤمن سيعرف أن مناقشة تلك المسائل الفلسفية حرام» (ابن رشد «تهافت التهافت»). وهذه الأوضاع التي فرضت على العلماء المسلمين نتيجة الخوف من التهم والمحاربة تتنافى مع ميزات العلم الحديث، وهي الإيجاز والوضوح في العبارة والتوصل إلى معايير للشمولية والجماعية، وليس التكتم والتلميح في الأفكار كما فعل ابن رشد على سبيل المثال لا الحصر. وقد كان لظهور الطباعة دور كبير في القضاء على النزعة النخبوية والشخصانية في نشر المعارف العلمية، ولكنها حُرِّمت في البلاد الإسلامية لقرون عدة بعد ظهورها في الغرب.

لقد وجدت العلوم الطبيعية نفسها مقيدة ضمن مبادئ دينية، كأن هناك علوماً نافعة وأخرى غير نافعة. وأما النافعة، فهي كل علم يحتاج إليه المسلم مثل الحساب بتوزيع المواريث، والهندسة لتقسيم الأراضي، والفلك لتحديد القبلة والجهات الأربعة ومنازل القمر، والطب لأنه يخدم الصحة. وأدى كل ذلك إلى إعاقة الابتكار الفكري الحر وإلى تقييد الإبداع العلمي النظري والمجرد.

إن وجود مساحات واسعة من الحرية يعمل فيها الباحثون ويبدعون أبحاثهم دون قيود سياسية ودينية هو أمر حاسم. لا بد في العلم من اعتبار الأفراد بشراً يتمتعون بنعمة العقل، ومن اعتبار العالم كلاً متناسقاً عقلانياً، ولا بد من أن تتاح للناس مستويات مختلفة من التمثيل والمشاركة والخطاب. وبرأي الباحث هف لكي تسود النظرة العلمية للعالم، فلا بد من أن تتخذ



عناصر الشمولية والجماعية والشك المنظم وانعدام الهوى الشخصي صيغاً نموذجية في البنى الموجِّهة السائدة في المجتمع. ومن المؤشرات المهمة التي قد تفسر فشل العلم العربي في إنجاب العلم الحديث، أن هذه المعايير لم تندمج مؤسسياً في البنى الموجِّهة في الحضارة الإسلامية. فالشريعة الإسلامية في روحها وعند تطبيقها اتبعت منهجاً شديد الخصوصية والشخصانية في كل المواقف الإنسانية. ولذا كان من المستحيل إقامة منطقة محايدة من البحث العلمي تطبق فيها مجموعة معينة من المعايير الشاملة بحرية دون الخوف من تدخل القوانين الشرعية. ولكننا لا نتفق مع هف عندما يقول إنه لم تنشأ هيئات مستقلة قانونية في الحضارة العربية الإسلامية (قبل استعارة الأنظمة القانونية الغربية في القرن التاسع عشر) بسبب الطبيعة الفريدة للشريعة الإسلامية. وإلا كيف نقيِّم دار الحكمة في بغداد، التي جمعت خيرة العقول العربية والإسلامية من كل أصقاع الارض وكانت بمثابة أكاديمية للعلوم يعمل فيها علماء في الرياضيات والفلك والصيدلة والطب وغيرها، وقد قدموا أبحاثاً عميقة وتوصلوا إلى نتائج علمية مهمة، ويكفي أن نذكر بينهم الخوارزمي الذي تحدث عن الجبر لأول مرة. كما أن فصل الأمور الدنيوية عن الأمور الدينية (التي حصلت في أوروبا في العصور الوسطى) لم تكن دارجة في العالم الإسلامي، علماً أنه من أهم التحولات المطلوبة لتطوير علم للقانون ولنشوء العلم الحديث نفسه.

وتجدر الإشارة إلى أن بدايات عصر النهضة العلمية في أوروبا، التي انطلقت من إعادة الاعتبار على مستوى المؤسسات للعقل والتفكير العلمي الحر الموضوعي ضمن مؤسسات علمية ذات صفة قانونية، اصطدمت باللاهوت المسيحي. ولا يخفى على الباحثين أن أفكار أفلاطون وأرسطو وابن رشد كانت أساساً لتلك النهضة الفكرية الفلسفية العلمية في أوروبا.

ومن المسائل الكبرى، التي تواجه الدول النامية: مسألة ما إذا كانت النخبة الحاكمة ستمنح الاستقلال للعلماء الطامحين لمتابعة أفكارهم في عالم



المعرفة. وليست هي ما إذا كانت هذه الأقطار ستقبل نتائج العلم الطبيعي. فإن حصل ذلك فإن المسألة التالية هي ما إذا كانت الأقطار النامية ستسمح للعلماء ـ الاجتماعيين منهم والطبيعيين على حد سواء ـ بأن يصفوا العالم الاجتماعي وصفاً موضوعياً، وأن يعلنوا نتائجهم على الملأ، ولا سيما عندما تكشف هذه الأبحاث عن عيوب السلطة السياسية. فلقد كان هذا التحدي للسلطة من صميم المساعي العلمية على الدوام. وليس خلق الظروف الثقافية والمؤسسية التي تتيح المجال لمتابعة الحياة الفكرية بالأمر العابر لمن لا ينعمون بها. وما لم تتحقق هذه الظروف في أماكن أخرى فإن انتقال المواهب العلمية للغرب، ولا سيما الولايات المتحدة وأوروبا سيستمر دون انقطاع. وتعرض بعض العلماء العرب في القرون الوسطى لضغوطات منعتهم من دراسة الفلسفة ـ ملكة العلوم ـ كما يقال.

٧ ـ حول علاقة العلم بالدين:

علاقة العلم بالدين لم تكن في التراث الديني ولا في التراث العلمي أمراً عارضاً، بل إن علماء الحضارة العربية الإسلامية اتجهوا نحو العلوم الدقيقة مثل الحساب والجبر وغيرها لحل مسائل في الفقه الشرعي وتوزيع الورثة والزكاة وتحديد وجهة القبلة، مما أدى إلى ظهور علوم جديدة مثل الجبر عند الخوارزمي الذي كتب في مقدمة كتابه «**الجبر والمقابلة**» عن أن هذا الكتاب ألفه لمساعدة الناس في حل مسائل توزيع الورثة، والتي كانت تحتاج لطرق جديدة مثل عملية الجبر والمقابلة. وكذلك تحديد وجهة القبلة دفعت العلماء لتطوير علم الفلك، وظهرت تسميات مثل علم الفرائض وحساب المعاملات. وقد تحدث بعض العلماء مثل ابن هيدور الفاسي[١] في المغرب العربي واعلم

(١) انظر كتب ابن هيدور: **التمحيص في شرح التلخيص** ـ شرح تلخيص أعمال الحساب لابن البناء. بلدية الإسكندريّة رقم ١٦٢٦/ب ورقة ١٤٤ كتب في القرن ١٠هـ؛ الخزانة العامة بالرباط حلاوي رقم ٨٦٢.



أن الحساب ركن من أركان الدين به تؤخذ القبلة وأوقات الصلاة وبه حساب الأعوام والشهور والأيام وجري الشمس في البروج وحركات الكواكب وحلول القمر في المنازل ومعرفة الساعات النهارية والليلية... فأكثر المسائل الفقهية يدخلها العدد، وكفى بالحساب جلالةً وشرفاً أنه صفة من صفات الكمال، إذ اتصف به الجليل جل جلاله بقوله ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

وقد بحث العلماء العرب والمسلمين في الظواهر المختلفة في المجتمع والطبيعة، ولم يمنعهم الدين من ذلك، بل اعتبر الإسلام أن «طلب العلم نوع من العبادة» و«العلماء ورثة الأنبياء» و«عالم خير من ألف عابد» وغير ذلك من الشواهد.

وقد اتصف العلم العربي بشكل عام بميزات عظيمة منها الشمولية والتنوع والتجريد والانفتاح على العلوم الأخرى والاعتراف بما قدمه السابقون أي الأمانة العلمية. ويقول الرازي: «كدح السابقون فبنينا على ما حققوه، وارتفعنا على أكتافهم وكدحنا، وسيبني الآتون على ما حققناه وسيرتفعون على أكتافنا».

وللمقارنة نذكّر بقول إسحاق نيوتن: «إن كنت رأيت البعيد فلأني قد وقفت على أكتاف عمالقة». ومثال الأخلاق العلمية للعلماء المسلمين نذكر قول أبي الريحان البيروني من كتابه «**الآثار الباقية**»[(١)]: «يجب تنزيه النفس عن العوارض المردئة لأكثر الخلق والأسباب المعيقة لصاحبها عن الحق وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتضافر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك». ويحذر من العصبية في العلم فيقول: «إن العصبية تعمي الأعين البواصر وتصمّ الآذان، وتدعو إلى ارتكاب ما لا تسامح باعتقاده العقول».

وقد امتلك العلماء العرب منهجية علمية في بحوثهم. ويكفي أن نذكر ابن الهيثم البصري عالم الفلك والرياضي والفيزيائي والفيلسوف، الذي ربط الحيرة التي وقع فيها العلماء المتقدمون عليه بطبيعة الواقع العلمي المدروس وهو موضوع علم المناظر فيقول: «وما أوسع العذر مع جميع ذلك في التباس الحق،

---

(١) أبو الريحان البيروني. **آثار الأجيال الباقية**. المجلد ١. طشقند. ١٩٥٧.



وأوضح الحجة في تعذر اليقين: فالحقائق غامضة، والغايات خفية، والشبهات كثيرة، والأفهام كدرة، والمقاييس مختلفة، والمقدمات ملتقطة من الحواس، والحواس التي هي العدد غير مأمونة الغلط. فطريق النظر معفى الأثر، والباحث المجتهد غير معصوم من الزلل. فلذلك تكثر الحيرة عند المباحث اللطيفة، وتتشتت الآراء، وتفترق الظنون، وتختلف النتائج، ويتعذر اليقين».

وباختصار كان للعلم الرياضي مركزٌ متميز في العقلانية الشرعية الإسلامية، حيث دعى بعض فقهاء الإسلام إلى تعلم الحساب ووصفوه بالعلم الجليل والشريف، وكتبوا مؤلفات سموها «فقه الحساب»، واعتبروا الحساب يساعد المسلم ليس على حل مشاكله الحياتية والدينية، وإنما يدرب العقل على إدراك الحقائق بطريق البرهان فتزداد معرفتهم لربهم.

يقول الدكتور رشدي راشد بأن هناك حاجات حضارية شكلت دوافع حقيقية نحو تأسيس تقليد علمي إسلامي، وكان إنجاز ذلك غير ممكن إلا مع تأسيس عقل جبري تحليلي عملي. ولذلك ينطلق الباحث المغربي إدريس نغش الجابري[١] من هذه المقولة لراشد ويؤكد بأن الترجمة ليست سبباً في نشوء علوم الرياضيات والطبيعيات بل هي وسيلة، وأن الدافع الاعتقادي برأيه دفعت العلماء المسلمين والعرب إلى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية (اي العلوم غير الدينية)، حيث استخدم العلماء المسلمون طرق المنطق والبرهنة ليصلوا إلى الشكوك بتعاليم أعظم علماء اليونان، وكذلك الاختلاف ونقض نظريات تنسب للمعلم الأول أرسطو ولبطلميوس وغيرهم. ويشير الباحث إدريس الجابري وهو بلا شك يؤكد على بعض أفكار راشد بأن تأسيس العقل الجبري والحسابي المرتبط بالبحث العلمي التجريبي هو تقليد مغاير للتقليد العلمي اليوناني، وبالتالي تم ربط النظري بالممارسة العملية. ويتحدث عن هذه المسألة المفكر

---

(١) إدريس. الجابري. **دراسات في فلسفة العلوم الإسلامية وتاريخها**. مطبعة انفو ـ برينت. فاس. المغرب. ٢٠٠٩.



والفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري في كتابه **تطور الفكر الرياضي**[(١)] بأن الرياضيات عند اليونان أخذت طابعاً نظرياً تجريدياً، واعتمدت على التحليل والتركيب والتعميم، بينما عند العرب نجد تصنيف للعلوم: علم نظري والآخر عملي. وكان تفكير العرب فيه جانب عقلاني ويهتم بالناحية العملية والفائدة.

ويشير إدريس الجابري إلى ظاهرة تصنيف العلوم عند العديد من العلماء العرب كمثال على تعمقهم في فهم العلوم وطبيعتها والهدف منها كتاب **إحصاء العلوم** للفارابي، وكتاب **مفتاح العلوم** لمحمد ابن أحمد الخوارزمي، **ورسالة في أقسام العلوم العقلية** لابن سينا، **ومقدمة ابن خلدون**. ويقدم الجابري رؤيته لتأسيس العلاقة بين العلوم الطبيعية والدينية بطرح فكرة التكامل في العقلانية الإسلامية، والذي يستخدم في مجالات علمية مختلفة مثل العلوم النفسية والتربوية، وهو يعتمد على التعامل مع المعرفة ككل تكاملي واحد وليس بشكل مجزأ. وبالفعل إذا ما رجعنا إلى تاريخ العلماء المسلمين نجد أن أغلبهم جمعوا بين العلوم المختلفة وكانوا موسوعيين، وكتبوا في الفقه والنحو والرياضيات والطب والفلسفة وأبدعو فيها جميعاً. فلو كان الدين يمنع البحث العلمي لما استطاعوا كتابة أعظم المؤلفات العلمية في الرياضيات والفلك والفلسفة وغيرها. كما أن الاعتماد على علوم القدماء والدور المعروف للمترجمين والعلماء غير المسلمين أو غير العرب دليل على عالمية العلوم والبحث العلمي الذي كان يجري في ظل الحضارة العربية الإسلامية، ولكن الحكام على ما يبدو هم من تعاملوا بطرق مختلفة مع علاقة العلم بالدين من منطلق مصالحهم وأفكارهم ورؤيتهم للأمور. فهناك من شجع العلماء والفلاسفة بشكل واضح وكبير مثل الخليفة المأمون، وهناك من حارب الفلاسفة والعلماء كما هو الحال مع ابن رشد والخيام وغيرهم.

---

(١) محمد عابد الجابري. **تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة**. ج١. دار الطليعة. بيروت. ١٩٨٢.

ومن يدرس حضارة الأندلس يرى بوضوح ازدهار العلوم والعلماء من مختلف الأديان والقوميات. فقد وفرت الدولة العربية الإسلامية مقومات لا مثيل لها في التاريخ للإبداع العلمي لأتباع الديانات الأخرى من مسيحيين ويهود. وعندما انهارت الدولة الإسلامية في الأندلس وحكم الإسبان المسيحيون مورس اضطهاد فظيع على العلماء والمفكرين من عرب ومسلمين ويهود.

لذلك يمكن القول إن التفكير العلمي مر بمراحل صعود وهبوط تبعاً للحكّام وتوجهاتهم، بالرغم من أنهم جميعاً كانوا يحكمون باسم الإسلام. ويجب التنويه إلى أن الإسلام شجع بالفعل على طلب العلم، والحضارة الإسلامية وخاصة الحكم الأموي في الأندلس خير مثال على ازدهار العلوم في مجتمع يسوده التآخي والتعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود. وقد تحدث عن ذلك اليهود قبل المسلمين، وأشاروا إلى أنهم لأول مرة تمكنوا، متأثرين بالشعر العربي، من وضع تصنيف للشعر العبري. كما كان للمترجمين السريان دور هائل في نقل العلوم اليونانية إلى اللغة العربية، مثل حنين بن إسحاق وقسطا بن لوقا الذين كانوا في نفس الوقت من أعظم علماء عصرهم.

٨ ـ التفكير الرياضي ـ نموذج للمعرفة العلمية:

علم الرياضيات والفكر الرياضي لهما تأثير كبير في تطور المعرفة الإنسانية. فالرياضيات نموذج متميز للتفكير والمعرفة الإنسانية. ويتوقف البحث عند تطور الفكر الرياضي واستخدام الرياضيات في تطوير المعارف الإنسانية وتقدمها منذ القدم وحتى العصر الحديث مروراً بمرحلة الحضارة العربية والإسلامية التي قدمت للبشرية خدمات علمية كبيرة.

يمكن تلخيص أهم ميزات الرياضيات التي تجعل منها أداة فعالة في تطوير العلوم الأخرى وفي اكتشاف قوانين الطبيعة والفكر والمجتمع:

ـ التجريد وهي صفة قد تبدو أنها منعزلة عن الواقع، لكنها في الحقيقة تعطي قوة للرياضيات بأن تصبح صالحة لكل العلوم ويمكن تطبيقها في

مجالات معرفية غير متوقعة، مثل تطبيق طرق التحليل الدالي في الاقتصاد، وكذلك نظرية الزمر (من الجبر الحديث) في علم التربية وهكذا.

١) قدرة الرياضيات على دراسة الظواهر غير المرئية مثل الفضاء الكوني ونواة الذرة.

٢) التعميم وهو الانتقال من الحالات الخاصة بمسألة معينة إلى طريقة تشمل حالات كثيرة.

٣) طريقة الاستقراء والاستنباط التي تسمح بحل مسائل مختلفة وخاصة في الإحصاء.

٤) الدقة في الحلول والنتائج ويجب فهم الدقة على أنها نسبية وتقريبية.

٥) الرمزية واستخدام الأرقام والحروف في التعبير عن القضايا الرياضية، وبالتالي فإن لغة الرياضيات هي لغة فعالة لا تقل عن اللغات الأخرى التي يتحدث بها الناس.

٦) الرياضيات قابلة للاستخدام في برمجيات الحاسوب، وبالتالي فهي تتيح الفرصة لحل أعقد المسائل بالطرق العددية والبرمجية.

٧) محدودية علم الرياضيات ونظرياتها حسب فرضية العالم النمساوي جودل حول عدم اكتمال الرياضيات كمنظومة معرفية مثلها مثل العقل البشري. وبالتالي فالرياضيات نظام غير مكتمل بالرغم من دقته الكبيرة.

٩ ـ الرياضيات العربية والشعر في القرون الوسطى:

الرياضيات علم دقيق ومجرد. وكما قالت عالمة الرياضيات الروسية صوفيا كوفاليفسكايا القرن (١٩م) يعتقد البعض خطأً بأن الرياضيات علم جاف. ولكنهم يخلطون بين الرياضيات والحساب. فالحساب علم الأرقام ويهتم بالعمليات الحسابية البسيطة كالجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور وغيرها من العمليات الصعبة والمملة. ولكن ـ كما قالت كوفاليفسكايا ـ لكي تكون عالماً حقيقياً في الرياضيات يجب أن تكون شاعراً في أعماق نفسك وتمتلك المخيلة والحدس والاختراع.



أما العلماء العرب والمسلمون، فقد كانوا علماء موسوعيين، وأبدعوا ليس فقط في تخصصاتهم الأساسية كالطب أو الرياضيات أو الهندسة، بل كانوا فقهاء وأدباء وشعراء، ألفوا كتبهم وعرضوا مكتشفاتهم العلمية في صور أدبية بديعة.

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر علماء كبار مثل عالم الطب علي بن سينا (ق. ١٠ ـ ١١م)، وعالم الرياضيات والشاعر والفيلسوف عمر الخيام (ق١١,م)، وعالم الرياضيات والتاريخ والفلك والهندسة أبي الريحان البيروني (ق١٢,م)، وعلماء الرياضيات ابن الياسمين (ق. ١٢م) وابن الهائم (ق. ١٥م) وابن غازي (ق. ١٥م) وغيرهم. فقد كانوا من أعظم علماء عصرهم وترجمت مؤلفاتهم إلى اللغة اللاتينية، ونهل منها الأوروبيون لعدة قرون.

ويهمنا هنا التوقف عند الجانب الأدبي واللغوي والشعري في مؤلفاتهم[١].

فأولاً: جميع العلماء العرب بدؤوا مؤلفاتهم بمقدمة التي تنطلق من مبادئ دينية مثل السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والصلاة والسلام على رسول الله، والحمد لله الذي أنعم علينا بالعقل، وطلب الرحمة والتوفيق من الله لأنه خير العارفين. وأن البحث عن المعرفة تقتضيها تعاليم الإسلام. وأن طلب العلم والمعرفة فريضة على المسلم، لأن العلم أيضاً فيه صدقة وهي نشره للآخرين. فهذا عمل صالح يجلب السعادة للباحث وللقارئ يوم القيامة.

وكتب هؤلاء العلماء بلغة أدبية جميلة وراقية، وكأنهم يسطِّرون عملاً أدبياً رائعاً وليس عملاً علمياً دقيقاً بمضامينه ومصطلحاته. ولا نستغرب ذلك فجميع العلماء بدؤوا حياتهم بدراسة القرآن الذي يعتبر مصدر اللغة العربية وأجمل ما سُطِّر بها. وقد كان ذلك شبه إلزامي، فبعض الحكام المتشددين اتخذوا موقفاً سلبياً من الفلسفة. وتم حرق كتب الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (ق ١٤م)، ولكن بقيت بعض المؤلفات الفلسفية والرياضية محفوظة بفضل ترجمتها إلى اللغة اللاتينية كمؤلفات ابن رشد.

---

(١) قدري طوقان ـ **تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك** ـ دار الشروق ـ بيروت. ١٩٦٣.



وثانياً: من المعروف أن اللغة العربية لغة أدبية غنية بعباراتها، وهي لغة بلاغية تمتاز بإمكانية التعبير عن المشاعر والتأملات والأفكار التي تحلق بالخيال. من هنا انتشر نظم الشعر عند العرب. ولكنها أيضاً كانت لغة العلم لقرون عدة، كما اعترف بذلك مؤرخ العلم جورج سارتون، حيث قال: كانت اللغة العربية هي لغة العصر لعدة قرون. ويمكن تشبيهها باللغة الإنجليزية في الوقت الراهن. واشتهرت في العالم الأساطير والقصص الرائعة كقصة «ألف ليلة وليلة» وشعر الشعراء العرب منذ الجاهلية وحتى العصور المتأخرة. ويعرف العالم كم هي غنية قصائد الغزل والحب في الشعر العربي.

ونذكر هنا واقعة رمزية، وهي أن عالم اللغة سيبويه درس على يد خليل بن أحمد الفراهيدي (ق. ٨م). بينما الفراهيدي استخدم طرق التوافيق الرياضية في إنشاء قواعد ومعايير لكتابة معجم لغوي سماه «كتاب العين» وكانت تلك المحاولة الأولى في التاريخ للربط بين اللغة والرياضيات، أي كانت نوعاً من مبادئ أولية في علم اللغة الرياضي، بينما يرى الكثير من العلماء بأن هذا العلم تبلور فقط في القرن العشرين. ولكن لكل طريق بداية.

فهذا عمر الخيام عالم الرياضيات والفلك والفيلسوف العظيم عرف فترة طويلة في أوروبا كعالم فقط، واعتقدوا أن هناك شخصاً آخر بنفس الاسم لكنه شاعر. واكتشف الباحثون فيما بعد أن عمر الخيام هو شخص واحد عالم وفيلسوف وشاعر.

وقد ترجمت أشعار الخيام ورباعياته، وتم تلحينها إلى أغاني، وخلدت بأصوات رائعة كصوت كوكبة الشرق أم كلثوم. وقد كانت أشعاره وما تزال محطّ اهتمام الناس في الشرق والغرب، لأنها فلسفية وفيها حكم وصراحة وتتحدث عن الأخلاق وسلوك الإنسان.

ولكننا نود هنا الحديث عن فئة من العلماء الذين صاغوا مؤلفاتهم الرياضية شعراً. وهنا المفارقة، فنحن أمام شعر رياضي أو رياضيات شعرية. فهناك علماء كتبوا المسائل الرياضية في الحساب والجبر والهندسة وطريقة

حلها بصيغة شعرية. ومن أبرز هؤلاء الشعراء: ابن الياسمين وابن الهائم وابن غازي.

فابن الياسمين: هو أبو محمد عبد الله بن حجاج بن الياسمين الإشبيلي (ت. ١٢٠٤م). وتعود أصوله إلى قبائل بربرية من منطقة فاس في المغرب، عمل في إشبيلية وفاس، وتوفي مخنوقاً في المغرب.

واشتهر ابن الياسمين بـ «الأرجوزة الياسمينية»، وهي عبارة عن مخطوطة شعرية في الجبر، عنوانها «أرجوزة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة»، سيراً على تقليد الخوارزمي الذي وضع أول كتاب في الجبر في القرن الثامن للميلاد سماه «فن الجبر والمقابلة».

تتألف الأرجوزة من (٥٤) بيتاً شعرياً، عرض فيها ابن الياسمين ستة أصناف من المعادلات الجبرية (حسب تصنيف الخوارزمي) وطرق حلها، وضرب وقسمة القوى وقواعد ضرب الإشارات (السالبة والموجبة). ونورد هناك أبياتاً من أرجوزة ابن الياسمين:

على ثلاثة يدور الجبر ... المال والأعداد ثم الجذر
فالمال كل عدد مربع ... وجذره واحد تلك الأضلع
والعدد المطلق ما لا ينسب ... للجذر أو للمال فافهم تصبِ
والشيء والجذر بمعنى واحد ... كالقول في لفظ الأب والابن

وهذه بعض الأبيات من رباعيات الخيام:

تناثرت أيام هذا العمر ... تناثر الأوراق حول الشجر
فانعم من الدنيا بلذّاتها ... من قبل أن تسقيك كفّ القدر
أطْفِئ لظى القلب ببرد الشراب ... فإنما الأيام مثل السحاب

من أبياته أيضاً:

يا عالم الأسرار علم اليقين يا ... كاشف الضرّ عن البائسين
يا قابل الأعذار فئنا إلى ... ظلّك فاقبل توبة التائبين



ويتميز الشعر العربي الكلاسيكي (نظام القصيدة) بالقافية في نهاية الأبيات، وهذا يزيد صعوبة نظم الشعر بمضمون يتحدث عن مسائل دقيقة في الجبر والحساب. باختصار لكي تكتب عن الرياضيات بلغة شعرية فيجب أن تكون عالم رياضيات حقيقي وشاعر متمكن. وابن الياسمين تحلى بهذه الصفات والأكثر من ذلك، فقد نسب لابن الياسمين أنه أول من تحدث عن قواعد الإشارات في تاريخ الرياضيات، علماً أن عدداً من المؤرخين ينسب ذلك للقلصادي الذي عاش في القرن (١٥م).

ونورد مثالاً آخر: عالم الرياضيات المغربي ابن غازي الفاسي المكناسي (من القرن ١٥ ـ ١٦م)، المولود في مكناس في المغرب. واشتهر أيضاً ليس كعالم رياضيات فقط، وإنما كمؤرخ وفقيه ولغوي

وله مخطوطة جبرية على شكل قصيدة من (٣٣٣) بيتاً تسمى «مُنية الحسّاب»، وهي شرح لمخطوطة ابن البنا المراكشي (ق. ١٣ ـ ١٤م)، التي تسمى «تلخيص أعمال الحساب». وبالرغم من أن مخطوطة ابن غازي منشورة ومحققة لكنها لم تدرس علمياً.

ونورد مقاطع شعرية من مخطوطة ابن غازي:

الحمد لله الذي قد نوَّرا ... قلوبنا بما بها تفجَّرا

من كل علم فائق ورائق ... تسرح منه النفس في حدائق

وآله وصحبه ومن تلا ... مرتقياً في فعله إلى العلا

وبعد فالقصد بذا الكتاب ... نظم المهمات من الحساب

ضمّنته مسائل التلخيص ... وربما أزيد في التمحيص

ويتابع عن كتاب «التلخيص»:

فجاء صغير الحجم ... قد احتوى على كثير العلم

يقرب الأبواب والمعاني ... ويضبط الأصول والمباني

ويقول:

القول في مراتب الأعداد   وفي ضروبها لدى الإيجاد
إن قيل ما العدد قل كميه   تكثرت من نظم وحدانيه

ويضيف:

للزوج والفرد صحيحه انقسم   والزوج عن ثلاثة قد ابتسم

ولابن غازي مخطوطة أخرى كبيرة من (٣٠٠) صفحة لشرح المخطوطة الشعرية وعنوانها «بغية الطلاب في شرح مُنية الحسّاب» [٧٨].

وتتضمن هذه المخطوطة على جميع أقسام الحساب والطرق الجبرية الأساسية بما فيها «قاعدة كفات الميزان» مع طرق جديدة لحلها. وهناك ميزة مهمة لشرح ابن غازي: فهو يورد شعراً ويدعمه بقواعد الشعر، وأخيراً يشرح المضمون الرياضي، ويورد عدداً كبيراً من الأمثلة المتنوعة.





الخَاتِمَةُ

بدأت العمل على إعداد هذا الكتاب منذ سنوات قبل أن أعود إلى موسكو عام (٢٠٠٢)، واستمريت خلال عملي في أكاديمية العلوم الروسية بصفة كبير باحثين علميين في قسم تاريخ الرياضيات بمعهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا، الذي يُعد من أبرز المراكز البحثية في تاريخ العلوم في العالم(١). وقد حالفني

---

(١) **معهد فافيلوف لتاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية في موسكو:**
تأسست أكاديمية العلوم الروسية على يد الإمبراطور بطرس الأول عام ١٧٢٥ في مدينة سان بطرسبورغ. وخلال (٣٠٠) سنة تبلورت في روسيا مدارس ومؤسسات علمية عريقة تهتم بتاريخ العلوم واكتسبت شكلاً رسمياً في اجتماع أكاديمية العلوم السوفيتية في (٢٨ فبراير عام ١٩٣٢)، حيث تأسس في الاتحاد السوفياتي معهد متخصص بتاريخ العلوم اسمه معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. وفي عام ١٩٩١ نسب المعهد إلى العالم السوفيتي سيرغي فافيلوف. واليوم يتبع المعهد إلى وزارة العلوم والتعليم الروسية. وللمعهد تاريخ حافل، حيث كان هناك علماء سوفيات كبار لعبوا دوراً في بلورة الأبحاث حول تاريخ العلوم والتكنولوجيا. ومنهم أعضاء أكاديمية العلوم: إي. فيرنادسكي، ن. بوخارين، س. فافيلوف أ.ساماربن الذي كان مديراً للمعهد في ١٩٥٣، وف. أريول من ١٩٩٣ وحتى ٢٠٠٤، وأ. بوستنيكوف من ٢٠٠٤ وحتى ٢٠٠٩، ورائد الفضاء الروسي يوري باتورين من ٢٠١٠ حتى ٢٠١٥، ومن ٢٠١٥ ترأس المعهد د.شيربينين.
يضم المعهد حوالي (١٧) قسماً متخصصاً في تاريخ العلوم والتكنولوجيا: مثل تاريخ الرياضيات والفيزياء وعلوم الارض والفضاء والجغرافيا والعلوم الاجتماعية وغيرها. يعمل في المعهد حوالي (٢٠٠) باحث علمي، بينهم أكثر من (١٤٠) دكتور في العلوم وتاريخها، والمقر الرئيسي للمعهد في موسكو، وله فرع في مدينة سان بطرسبورغ. وعمل في المعهد علماء ذوو سمعة عالمية أهمهم أ.يوشكيفيتش ـ مؤرخ الرياضيات وب. روزنفيلد وغيرهم.

=



الحظ بالعمل مع الباحثة والمستعربة المعروفة مريم روجانسكايا وأجرينا أبحاثاً مشتركة في تاريخ الرياضيات في المغرب العربي والأندلس، وترجمنا عدداً من المخطوطات العربية الرياضية إلى اللغة الروسية، ونشرناها في مجلة المعهد «أبحاث في تاريخ الرياضيات»، وكانت تلك فترة مهمة جداً، لاطلاعي الواسع على ما قام به المستعربون الروس في دراسة المخطوطات العربية والعلمية منها بشكل خاص (الرياضيات ـ الفلك ـ الميكانيكا وغيرها).

وقد ذهلت بحجم الأعمال والأبحاث العلمية التي قدمها الباحثون الروس من ترجمات لمخطوطات علمية ودراسات تاريخية وكذلك تعليقات علمية عليها، ويصل عددها إلى عدة مئات. إضافة إلى التاريخ الغني لمدرسة الاستشراق الروسية، الذي يمتد إلى ثلاثة قرون (منذ عهد الإمبراطور بطرس الأول القرن ١٨م).

وتولدت لدي رغبة كبيرة في الكتابة عن «جنود العلم والمعرفة المجهولين» في روسيا، عرفاناً بالجميل لهم لقاء جهودهم العلمية الصادقة وإنصافهم للتراث العلمي العربي والإسلامي وإبراز أثره على الأدب الروسي الكلاسيكي وعلى

= وللأسف الشديد بدأت عام ٢٠١٦ تغيرات سلبية في المعهد قام بها مدير المعهد شيربينين، حيث تم اجبار مؤلف هذا الكتاب على الاستقالة (ومن المؤكد أن ذلك جرى بخلفية سياسية كون مؤلف الكتاب معارض لنظام الأسد) وكذلك تم فصل عدد من الباحثين بحجة عدم الحاجة لهم، واستقال عدد أيضاً احتجاجاً على تصرفات الإدارة، لدرجة أن عالماً كبيراً في تاريخ العلوم وهو حالياً رئيس الاكاديمية الدولية لتاريخ العلوم في العالم البروفيسور في جامعة موسكو الحكومية وعميد قسم تاريخ العلوم الرياضية والفيزيائية سيرغي ديميدوف تم فصله من المعهد. واليوم اختفى نهائياً قسم تاريخ الرياضيات بشكل عام وتاريخ الرياضيات العربية بشكل خاص بعد خروجي من المعهد. ولتفسير قرارات مدير المعهد في تقزيم المعهد فهي إما سياسة رسمية في التعامل مع مؤسسات أكاديمية العلوم الروسية التي تعتبرها السلطات الروسية الحالية غير ضرورية، بعد أن كانت منارة للعلم الأساسية في الاتحاد السوفياتي والعالم. وموضوع التعامل مع العلماء والعلم في روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي يحتاج لوقفة خاصة، لأن العلم بدأ يقاس بما يحققه من ربح مادي بالدرجة الأولى.



الحضارة الأوروبية، حيث كرسوا عقوداً من عمرهم لدراسة المخطوطات العربية، وتعريف القارئ الروسي بمساهمات عشرات العلماء العرب والمسلمين، ودورهم في ترجمة التراث اليوناني، والحفاظ عليه من الضياع، وتمكينه من الانتقال إلى أوروبا من خلال حملة ترجمة هائلة إلى اللغة اللاتينية بدأت في القرن (١٢م).

وسعيتُ من أجل تضمين الكتاب خبرات ونتائج أبحاث العديد من المؤلفين الروس والعرب، بالإضافة إلى بعض أبحاثي العلمية في مجال تاريخ الرياضيات، والتي اخترت بعضها بدون رموز رياضية لتسهيل مهمة القارئ غير المتخصص بالرياضيات.

وحاولت في هذا الكتاب تعريف القارئ العربي بتاريخ نشوء الاهتمام الروسي بالمشرق العربي والإسلامي، وبدء الدراسات الاستعرابية التي تؤكد التواصل الحضاري والثقافي والاقتصادي بين روسيا والمنطقة العربية والإسلامية منذ أكثر من ألف عام. ولهذا بدأت الكتاب بمادة تاريخية أراها ضرورية للدخول في موضوع الاستشراق الروسي، حيث تناولت فيها العلاقات القديمة بين روسيا والعرب منذ دخول الإسلام إلى حوض الفولغا من مدينة ديربند (باب الأبواب) في داغستان في القرن السابع ميلادي، وتأثير الثقافة الإسلامية والمؤلفات الأدبية العربية في أعمال كبار الكتاب والشعراء الروس مثل تولستوي وبوشكين وبونين وغيرهم.

كما استعرضت صفحات من العلاقات الروحية بين روسيا من جهة وسورية المسيحية البيزنطية من جهة أخرى. وأوردت قصة اعتناق روسيا للمسيحية في القرن العاشر ميلادي على يد قساوسة سوريين، وأن الأبجدية الكيريلية (السلافية الروسية) تمت على أيدي اثنين من القسيسين البيزنطيين السوريين. وحتى أنّ تطور الكنيسة الروسية وارتقاءها إلى بطريركية تمَّ أيضاً تحت إشراف بطاركة سوريين.

والقسم الأهم في الكتاب هو عرض بعض الدراسات والأبحاث المتعلقة بتاريخ الاستعراب العلمي في روسيا والتعريف بالمدرسة السوفياتية في تاريخ الرياضيات العربية في القرون الوسطى بشكل خاص.

وأود التأكيد على عدة نقاط:

ـ اتسم موقف المستعربين الروس من العلوم والثقافة والتاريخ العربي



بالموضوعية والإيجابية ولم تبرز فيه إلا ما ندر اتجاهات عدائية كما هو الحال عند بعض المستشرقين الأوروبيين.

ـ قدمت مدرسة الاستعراب الروسي وخاصة العلمية منها نتائج مذهلة، شارك فيها عدد كبير من الباحثين من مختلف جمهوريات الاتحاد السوفياتي في سان بطرسبورغ وقازان وموسكو وطشقند وباكو، الذين قاموا بترجمة عشرات المخطوطات العلمية العربية إلى الروسية ودرسوها من الناحية التاريخية وحللوا محتوياتها العلمية وقيَّموها واكتشفوا العديد من الإسهامات النوعية التي أبدعها العلماء العرب والمسلمين في الرياضيات والفلك والميكانيكا. وهناك عشرات العلماء العرب والمسلمين الذين تم تناول أعمالهم مثل الخوارزمي والبيروني والخيام وثابت بن قرة والبوزجاني وعبد الرحمن الخازن وابن سينا وابن الهيثم والكاشي ونصير الدين الطوسي وكوشيار والكرخي والفارابي والصوفي وابن البغدادي والماهاني وغيرهم.

ـ أعد المستعربون الروس موسوعات في تاريخ الرياضيات والفلك خلال الفترة من القرن الثامن وحتى الخامس عشر مثل موسوعة ماتفييفسكايا وروزنفيلد عن العلماء المسلمين خلال (٨) قرون، التي شملت معلومات عن حوالي ألف عالم عربي، وموسوعة ماتفييفسكايا عن تطور مفهوم العدد، وكذلك قدموا دراسات ذات طابع تعميمي (كتاب يوشكيفيتش عن تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى) أبرزت إسهامات العرب في تطوير الجبر والحساب والهندسة وعلم المثلثات. ودراسات لكتاب ميزان الحكمة للخازني وأعمال البيروني والفارابي وابن سينا.

ـ طرح بعض المستعربين نظرة متكاملة وتعميماً للنتائج التي قدمها العلماء العرب والمسلمين:

ـ تمت دراسة نظرية النسبة المركبة عند ثابت بن قرة وتطور مفهوم العدد الحقيقي الموجب أثناء دراسة مخطوطات الخيام، وعرضت الدراسات المتراكمة حول العدد، ونشرت ذلك ماتفييفسكايا بشكل شامل في كتابها تطور مفهوم العدد الحقيقي، وتحدثوا عن صفحات مجهولة في تاريخ العلوم العربية،



مثلاً: عن مرصد سمرقند الفلكي باشراف أوليغ بيك (حفيد تيمور لنك) وبمشاركة كبار علماء ذلك العصر مثل الكاشي في القرن الخامس عشر.

ـ أما دراسة «مخطوطة الرباعي التام» للطوسي والمؤلف المجهول الذي يسبقه زمنياً رسالة في تعريف الوتر في الدائرة وفصول من «القانون المسعودي» حول حساب المثلثات للبيروني، و«المجسطي» للفارابي، والمخطوطات المثلثية للكاشي والرومي، فقد سمحت بتفسير بعض مسائل الجمع وتاريخ حساب المثلثات (وخاصة مبرهنة الجيوب وجيوب التمام وطرق تعريف الدوال المثلثية) وكذلك طرق حساب المقادير المثلثية وتشكيل الجداول في المشرق القروسطي (يوشكيفيتش، روزنفلد، روجانسكايا وغيرهم) وتقترن بالأعمال المنجزة في تاريخ حساب المثلثات وسلسلة من البحوث المتعلقة بظهور مفهوم الارتباط الدالي وخواصه العامة، وكذلك طرق دراستها (روزنفلد، روجانسكايا وغيرهم).

ـ وأولى العلماء السوفييت اهتماماً خاصاً لمسائل تاريخ المثلثات المستوية والكروية، والتي كانت ضرورية لعرض الأزياج.

ـ وقام العلماء السوفيات بإعداد أبحاث معمقة وشاملة عن تطور نظرية المتوازيات (المسلمة الخامسة لاقليدس)، والتي تجلت في محاولات إثبات مسلمة إقليدس أو استبدالها بإقتراح (بفرضية) أكثر وضوحاً، وذلك في مخطوطات ثابت بن قرة وابن الهيثم وعمر الخيام والطوسي وغيرهم (يوشكيفيتش وروزنفلد، مامدبلي وغيرهم) كما اكتشفت مناقشات هامة للخطوط المتوازية مرتبطة بالمصادرة الخامسة، في كتاب «القانون المسعودي» للبيروني (ب. بولغاكوف. أ.أحمدوف).وقد أثبتت هذه الأبحاث بأن علماء الرياضيات العرب سبقوا علماء القرن ١٨م في بعض الأفكار والطرق الأساسية.

ـ وفي دراسة النظرية الهندسية للمعادلات الجبرية بأنواعها بما فيها التكعيبية التي اقترح لها الخيام حلولاً هندسية (يوشكيفيتش وماتفيفسكايا وروزنفيلد). وكذلك الإنشاءات الهندسية لأبي الوفاء والفارابي.

ـ درس الباحثون الروس موضوع ظهور مبرهنة ثنائي الحد في الأدبيات



العربية عند الطوسي، والكاشي، وغيرهم وطرق استخراج الجذور بأسس صحيحة موجبة (يوشكيفنتش، روزنفلد، أحمدوف).

ـ كما حظيت باهتمام خاص دراسة أفكار وطرق اللامتناهيات في الصغر في الرياضيات العربية. فدرست مخطوطات ثابت بن قرة وابن سنان حول تربيع القطع المكافئ وتكعيب المجسم المكافئ، كما درست مخطوطات ابن الهيثم حول قياس حجم الكرة والأشكال المنتظمة، وأفكار الطوسي في اللامتناهيات في الصغر، التي طورت أسلوب أرخميدس في طرق اللامتناهيات في الصغر (روزنفلد، قبيسوف،جمال الدباغ وغيرهم) بالإضافة لذلك فقد لوحظت في الرياضيات العربية اتجاهات أخرى لتطوير طرق اللامتناهيات في الصغر المرتبطة بدراسة خواص الإرتباطات الدالية (ابن قرة، البيروني) والتي استخدمت بنجاح في دراسة مسائل الميكانيك السماوي في ذلك الوقت.

ـ وأولت ماتفيفسكايا في بحوثها اهتماماً خاصاً لدراسة حسبنة نظرية إقليدس للجذور التربيعية في أعمال العلماء العرب القرن (٩ ـ ١٣م). وخاصة في أعمال البغدادي (ق ١٠ ـ ١١م) الذي كان سابقاً لديكارت. ودرس الباحثون الروس موضوع ظهور مبرهنة ثنائي الحد في الأدبيات العربية عند الطوسي، والكاشي، وغيرهم وطرق استخراج الجذور بأسس صحيحة موجبة (يوشيكيفيتش، روزنفلد، أحمدوف).

ما كتبته عن المستعربين الروس لا يشكل إلا جزءاً صغيراً من ذلك الكم الهائل من المعلومات والأبحاث، التي شملت كماً هائلاً من المخطوطات العربية القروسطية. وأرى من واجبنا كعرب ومسلمين أن ننشر مؤلفات هؤلاء المستعربين الروس باللغة العربية لكي يطلع عليها الباحثون والمهتمون بتاريخ العلوم العربية.

لقد أرحت ضميري بكتابة هذا الكتاب، لأنني حققت أحد أحلامي العلمية، وهو تسليط الضوء على مساهمات العلماء الروس في دراسة العلوم العربية في القرون الوسطى، والتي كانت دراسة علمية موضوعية متميزة ومشهود لها عالمياً.



مَرَاجِعُ الكِتَابِ

١ ـ أبلاغ محمد. الرياضيات في الأندلس ما بين ق ٣ و٩هـ (١٠ و١٥م). ندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات. القسم الثالث ـ الحضارة والعمارة والفنون. مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة. الأعمال المحكمة. الرياض. ص ٢٣ ـ ٥٥. ١٩٩٦.

٢ ـ ابن غازي الفاسي المكناسي. بُغية الطلاب في شرح منية الحسّاب. تحقيق ومراجعة د. محمد السويسي. جامعة حلب. معهد التراث العلمي العربي. ١٩٨٣.

٣ ـ أدولف يوشكيفيتش. تاريخ الرياضيات. تحت إشراف س. ديميدوف. قسم تاريخ الرياضيات. دار يانوس. موسكو. ١٩٩٦.

٤ ـ إستنبولي إبراهيم. قصائد للشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=88346

٥ ـ الأندلسي صاعد. طبقات الأمم. تحقيق وتعليق دكتور حسين مؤنس. دار المعارف. القاهرة. ١٩٩٨.

٦ ـ إيدياتولين م. المخطوطات العربية في الفلك والرياضيات في خزائن مكتبة لوباتشيفسكي العلمية. تحت إشراف روزنفلد ب. قازان. منشورات جامعة قازان ١٩٨٧.

٧ ـ ب. دانتسنغ ـ من كتاب «خواطر حول تاريخ الاستشراق الروسي». دار نشر العلم، موسكو ١٩٥٣.

٨ ـ بارتولد ف. تاريخ دراسة الشرق في روسيا وأوروبا. المؤلفات، المجلّد التاسع. موسكو. ١٩٧٧.

٩ ـ بازيلي قسطنطين ـ سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني. دار التقدم ـ موسكو ـ ١٩٨٩.

١٠ ـ بيليايف ف. المخطوطات العربية في مجموعة المتحف الآسيوي في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية. منشورات معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية. الإصدار ٢. لينينغراد ١٩٣٢.

١١ ـ بيليايف ف. المخطوطات العربية في مجموعة معهد الاستشراق. أوراق علمية لمعهد الاستشراق. موسكو ـ لينينغراد. المجلد ٦. ص ٥٤ ـ ١٠٣. ١٩٥٣.

١٢ ـ بيليايف ف.، بولغاكوف ب.. المخطوطات العربية في جامعة لينينغراد الحكومية. ذكرى الأكاديمي كراتشكوفسكي. لينينغراد. ص٢١ ـ ٣٥. ١٩٥٨.

١٣ ـ البيروني أبو الريحان. آثار الأجيال الباقية. المجلد ١. طشقند. ١٩٥٧.

١٤ ـ تقرير عن المتحف الآسيوي في ١٩١٦. أخبار أكاديمية العلوم الروسية. بتروغراد. العدد ٦. المجلد ١١. ١٩١٧.

١٥ ـ الجابري محمد عابد. تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة ـ جزء ١. دار الطليعة ـ بيروت. ١٩٨٢.

١٦ ـ الحلبي بولص. رحلة البطريرك الأنطاكي مكاريوس إلى روسيا ١٧٦٥. ترجمت للروسية من قبل جرجس مرقص عام ١٨٩٨. دار نشر سويكين. موسكو.

١٧ ـ الحمزة محمود. من تاريخ دراسة العلوم العربية في روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقاً. بحث ألقي في مؤتمر تاريخ العلوم السادس والعشرين لمعهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب. ١٠ ـ ١٤ أبريل ٢٠٠٥.

١٨ ـ الحمزة محمود. دور الترجمة والاستعراب في التواصل الحضاري بين العرب والروس. المؤتمر السنوي الرابع لمركز المخطوطات. المخطوطات المترجمة. مكتبة الإسكندرية ٢٩ ـ ٣١ مايو ٢٠٠٧. مصر.

١٩ ـ الحمزة محمود، روجانسكايا مريم. ابن البنا المراكشي ومخطوطته: تلخيص أعمال الحساب. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٥. العدد ٩ (٤٤) ص٣٣٠ ـ ٣٤٧.

٢٠ ـ الحمزة محمود، روجانسكايا مريم. حول مخطوطة الحصّار في الحساب. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٦. العدد ١١ (٤٦). ص١٩٦ ـ ٢١٦.

٢١ ـ الحمزة محمود. روجانسكايا مريم. مخطوطة تلخيص أعمال الحساب

لابن البنا المراكشي. ترجمة إلى الروسية ودراسة تاريخية ورياضية. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٥. العدد ٩ (٤٤). ص٣٤٧ ــ ٣٧٥.

٢٢ ــ الحمزة محمود. موجز في تاريخ الرياضيات وتطورها الفكري والفلسفي. دار اليرموك. تعز. اليمن. ٢٠٠٢.

٢٣ ــ الحمزة محمود. التفكير الرياضي نموذج للمعرفة العلمية. الندوة السنوية العلمية الدولية التي تقيمها الرابطة المحمدية للعلماء حول موضوع: «نظرية المعرفة والسياق الكوني المعاصر: التكييفات المرجعية والمستلزمات العملية». ٩ يونيو ٢٠١٥. الرباط.

٢٤ ــ الحمزة محمود، روجانسكايا مريم. حول تاريخ دراسة مخطوطة ابن البنا المراكشي. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. موسكو. ٢٠٠٣. العدد ٨ (٤٣) ص٣٠٣ ــ ٣١٧.

٢٥ ــ الحمزة محمود. مخطوطة ابن غازي الفاسي المكناسي ــ «بغية الطلاب في شرح منية الحساب». بحث قدم في المؤتمر العلمي السنوي لمعهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا (معهد فافيلوف) التابع لأكاديمية العلوم الروسية في موسكو. ٢٢ ــ ٢٤ أبريل ــ نيسان ٢٠٠٥.

٢٦ ــ الحموي ياقوت ــ معجم البلدان، بيروت دار الكتب العلمية ١٩٩٠م ج١.

٢٧ ــ خالدوف أنس. المخطوطات العربية في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية. موسكو (فهرس مختصر). الجزء ١ ــ ٢. موسكو. ١٩٨٦,٦٦.

٢٨ ــ دانتسيغ ب. ــ الشرق الأوسط في العلم والآداب الروسية. موسكو ١٩٧٣.

٢٩ ــ ديميدوف سيرغي، توكاريفا تاتيانا. أدولف بافلوفيتش يوشكيفيتش والمدرسة السوفييتية في تاريخ الرياضيات. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. السلسلة الثانية. العدد ١١ (٤٦)، ٢٠٠٦.

٣٠ ــ راشد رشدي. العلم في الإسلام والحداثة الكلاسيكية. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي. لندن. ٢٠٠٢.

٣١ ـ راشد رشدي. تاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب. مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت. ١٩٨٩.

٣٢ ـ راشد رشدي. في تاريخ العلوم. دراسات فلسفية. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة». تونس. ٢٠٠٥.

٣٣ ـ راشد رشدي. الاتجاهات العلمية في الإسلام. مجلة التسامح. العدد ٢٠. ٢٠٠٧.

٣٤ ـ راشد رشدي ووهاب زادة بيجان. رياضيات عمر الخيام. سلسلة تاريخ العلوم عند العرب (٧). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ٢٠٠٥.

٣٥ ـ رسالة ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد) في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ ـ ٩٢١م). حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور محمد سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. ١٩٥٩.

٣٦ ـ روجانسكايا مريم، عن أعمال يوشكيفيتش في تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا (معهد فافيلوف) التابع لأكاديمية العلوم الروسية. موسكو. الإصدار ١(٣٦)، العدد ٢، ١٩٩٦.

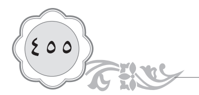
٣٧ ـ روجانسكايا مريم. الميكانيكا في القرون الوسطى. موسوعة تاريخ العلوم العربية. بإشراف رشدي راشد. المجلد ٢. بيروت. ١٩٩٧.

٣٨ ـ روجانسكايا مريم. حول مصادر بعض المسائل في القرون الوسطى. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا في موسكو. العدد ٦(٤١). ٢٠٠١. ص٣٦٥ ـ ٣٧٧.

٣٩ ـ روزنفلد بوريس. المخطوطات العربية والفارسية في العلوم الفيزيائية والرياضية في مكتبات الاتحاد السوفياتي. الجزء ١. موسكو. ص٢٥٦ ـ ٢٨٩. ١٩٦٦.

٤٠ ـ روزنفلد بوريس، يوشكيفيتش أدولف. نظرية الخطوط المتوازية في المصادر العربية. ترجمة سامي شلهوب وكمال عبد الرحمن. معهد التراث العلمي العربي. جامعة حلب. ١٩٨٩.

٤١ ـ ريبنيكوف ك.، عن فيكتور بوبينين. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. معهد



تاريخ العلوم والتكنولوجيا (معهد فافيلوف) التابع لأكاديمية العلوم الروسية. موسكو. الإصدار ٣.

٤٢ ـ سارتون جورج. تاريخ العلم (١٩٩١) ـ الأجزاء ١ ـ ٤. دار المعارف ـ القاهرة G.Sarton (A History of Science).

٤٣ ـ الساموك سعدون ـ الاستشراق الروسي: دراسة تاريخية شاملة ـ عمّان ـ دار المناهج ـ

٤٤ ـ سعيدان أحمد. الفصول في الحساب الهندي للإقليدسي. تحقيق ودراسة. جامعة حلب. معهد التراث العلمي العربي. حلب. ١٩٨٥.

٤٥ ـ سيرغي ديميدوف، تاتيانا توكاريفا. أدولف بافلوفيتش يوشكيفيتش والمدرسة السوفييتية في تاريخ الرياضيات. مجلة أبحاث في تاريخ الرياضيات. السلسلة الثانية. العدد ١١(٤٦)،٢٠٠٦. ٢٠٠٣

٤٦ ـ سيزغين فؤاد. محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية. معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. فرانكفورت. ١٩٨٤.

٤٧ ـ الشافعي حسين. من تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي ـ أول معلم للعربية في البلاد الروسية. دار «انباء روسيا» في القاهرة. ٢٠١٣.

٤٨ ـ شعار عمر، الروس وأصولهم على ضوء عمل المسعودي. مجلة «التسامح» عُمان. العدد ١١. ١٩٥٠.٢٠٠٥

٤٩ ـ عبد الفتاح فاطمة. إضاءات على الاستشراق الروسي ـ دراسة ـ من منشورات اتحاد الكتّاب العرب ٢٠٠٠.

٥٠ ـ عظيم جانوف س. وفورونوفسكي د. مجموعة المخطوطات الشرقية لأكاديمية العلوم الأوزبيكية السوفياتية. خزائن المخطوطات الشرقية في مكتبات الاتحاد السوفيات ي. موسكو. ص١١٠ ـ ١٢٦. ١٩٦٣.

٥١ ـ الغمري مكارم ـ مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ ١٩٩١ ـ الكويت.

٥٢ ـ غالينا ماتفييفسكايا وبوريس روزنفلد. علماء الرياضيات والفلك في االعالم الإسلامي في القرون الوسطى وأعمالهم (ق. ٨ ـ ١٧)، موسكو، ٣ مجلدات. ١٩٨٣.

٥٣ ـ فرح سهيل ـ الاستشراق الروسي نشأته ومراحله التاريخية ـ مجلة الفكر العربي ـ العدد ٣١ ـ ١٩٨٣. بيروت.

٥٤ ـ فرح سهيل ـ صورة العرب والمسلمين في الإستشراق الروسي: مقاربة بيو بيبليوغرافية تاريخية. مارس ١٠، ٢٠١٧. موقع روسيا والعالم الإسلامي ـ مجموعة استراتيجية ـ موسكو.

٥٥ ـ فرولوفا أولغا، وديرياغينا ت.، المخطوطات العربية في القسم الشرقي في المكتبة العلمية لجامعة سان بطرسبورغ (١٩٩٦). فهرس مختصر. سان بطرسبورغ.

٥٦ ـ صقور مالك. بوشكين والقرآن: دراسة في الأدب المقارن. دار الحارث. دمشق. ٢٠٠٠.

٥٧ ـ طوقان قدري ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ـ دار الشروق ـ بيروت. ١٩٦٣.

٥٨ ـ كراتشكوفسكي إغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، من جزئين القاهرة، ١٩٥٧.

٥٩ ـ كراتشكوفسكي إغناطيوس: «شيخ طنطاوي البروفسور في جامعة بطرسبورغ»، المجلد الخامس.

٦٠ ـ كراتشكوفسكي إغناطيوس. مسيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي في كتابه «مع المخطوطات العربية». صفحة ١٦٧ بعنوان: من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو في بطرسبورغ (١٩٣٠ ـ ١٩٦١).

٦١ ـ كراتشكوفسكي إغناطيوس. كتاب حياة الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي. ١٩٢٩. ترجمة كلثوم عودة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بمصر ١٩٦٤.

٦٢ ـ كراتشكوفسكي إغناطيوس ـ نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي. موسكو ـ لينينغراد. ١٩٥٠.

٦٣ ـ كراتشكوفسكي إغناطيوس. مع المخطوطات العربية. صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر. تعريب الدكتور محمد منير مرسي ـ الناشر دار النهضة العربية. ١٩٦٩.



٦٤ ـ كراتشكوفسكي إغناطيوس. المخطوطات العربية الواردة إلى المتحف الآسيوي من الجبهة القوقازية. أخبار أكاديمية العلوم الروسية. بتروغراد. العدد ٦. المجلد ١١. ص٩١٣ ـ ٩٤٩. ١٩١٧.

٦٥ ـ كراتشكوفسكي إغناطيوس. مؤلفات مختارة (١٩٥٥ ـ ١٩٦٠). المجلدات ١ ـ ٦. موسكو ـ لينينغراد.

٦٦ ـ كريمولين أ. الخزائن الشرقية في مكتبة جامعة أوليانوف (لينين) الحكومية في قازان. خزائن المخطوطات الشرقية في مكتبات الاتحاد السوفياتي. موسكو. ص٢٢٨ ـ ٢٣٦. ١٩٦٣.

٦٧ ـ ماتفييفسكايا غالينا. من تاريخ العلوم الدقيقة في الشرقين الأدنى والأوسط في القرون الوسطى. دار فان. طشقند. ١٩٧٢.

٦٨ ـ ماتفييفسكايا غالينا. الرياضيات في الشرق القروسطي. دار فان. طشقند. ١٩٧٨. (بالروسية).

٦٩ ـ ماتفييفسكايا غالينا. دراسات حول العدد في الشرق القروسطي. دار فان. طشقند. ١٩٦٧.

٧٠ ـ ماتفييفسكايا غالينا. مخطوطات الرياضيات والفلك في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الأوزبيكية السوفياتية. تحت إشراف سراج الدينوف س.ح. ـ من تاريخ العلوم الدقيقة في الشرق الأوسط والأدنى القروسطي. طشقند. ص١٦٩ ـ ١٩٩. ١٩٧٢.

٧١ ـ المسعودي أبي الحسن. مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٨٧.

٧٢ ـ مقدسي جورج. نشأة الكليات. جامعة الملك عبد العزيز. جدة. ١٩٩٤.

٧٣ ـ موسوعة تاريخ العلوم العربية. بيروت. إشراف رشدي راشد وريجيس مورلون. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ١٩٩٧. ٣ أجزاء. سلسلة تاريخ العلوم عند العرب.

٧٤ ـ هف توبي. فجر العلم الحديث. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. ٢٠٠٠.

٧٥ ـ يوشكيفيتش أدولف وفوغل ك. تاريخ الرياضيات بلا حدود. تحت إشراف

م.روجانسكايا. معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. أكاديمية العلوم الروسية. موسكو. ١٩٩٧.

٧٦ ـ يوشكيفيتش أدولف. تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى. دار المؤلفات الفيزيائية والرياضية. موسكو ١٩٦١.

٧٧ ـ يوشكيفيتش أدولف. تاريخ الرياضيات. تحت إشراف س. ديميدوف. قسم تاريخ الرياضيات. دار يانوس. موسكو. ١٩٩٦.

٧٨ ـ يوشكيفيتش أدولف. تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى. موسكو. ١٩٦٣.

٧٩ ـ يوشيكيفيتش أدولف وك. فوغل. تاريخ الرياضيات بلا حدود. تحت إشراف م.روجانسكايا. معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا. أكاديمية العلوم الروسية. موسكو. ١٩٩٧.

٨٠ ـ يوشيكيفيتش أدولف. تاريخ الرياضيات في القرون الوسطى. دار المؤلفات الفيزيائية والرياضية. موسكو ١٩٦١.

المصادر الأجنبية:

(81) Rozenfeld B.A., Ihsanoglu E., Mathematicians, Astronomers & other Scholars of Islamic Civilization and their works (7th - 19th c.), IRCICA, Istanbul., (2003).

(82) Dorn B..Das Asiatische museum der Kaiserlichen der Wissenschaften zu St. Petersburg. St. Petersburg.1846.





فهرس الموضوعات

الفصل الأول
العلاقات الثقافية والروحية بين روسيا والعرب في (١٠٠٠) سنة

الفصل الثاني
تاريخ الروس في الأبحاث والمؤلفات العربية

الفصل الثالث
تاريخ الدراسات الاستعرابية في روسيا



الفصل الرابع
تاريخ الاستعراب العلمي في روسيا



الفصل الخامس

خزائن المخطوطات العربية في روسيا والجمهوريات السوفياتية السابقة

الفصل السادس

حول تاريخ العلوم العربية في المغرب العربي والأندلس

الفصل السابع

مكانة العلم العربي وأسباب تراجعه



